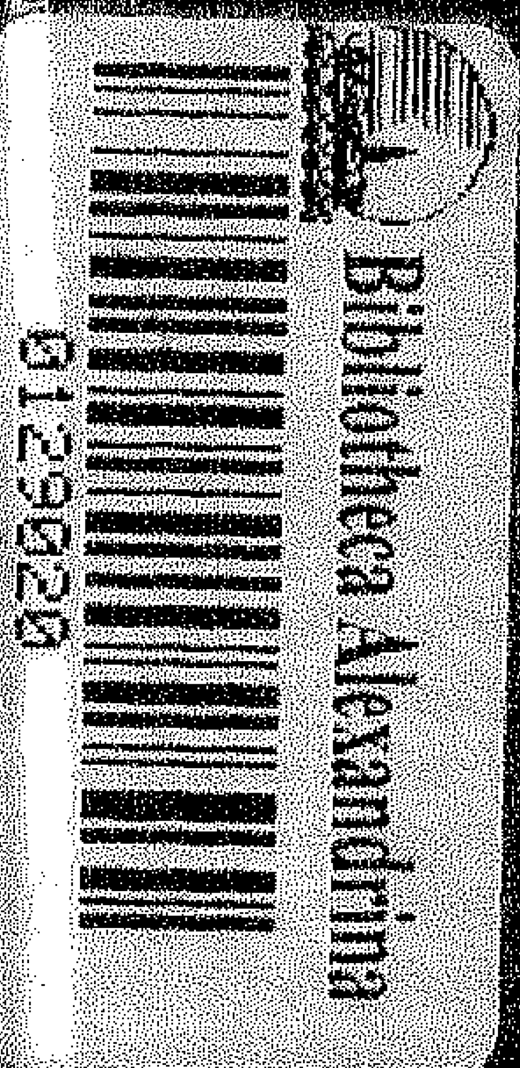
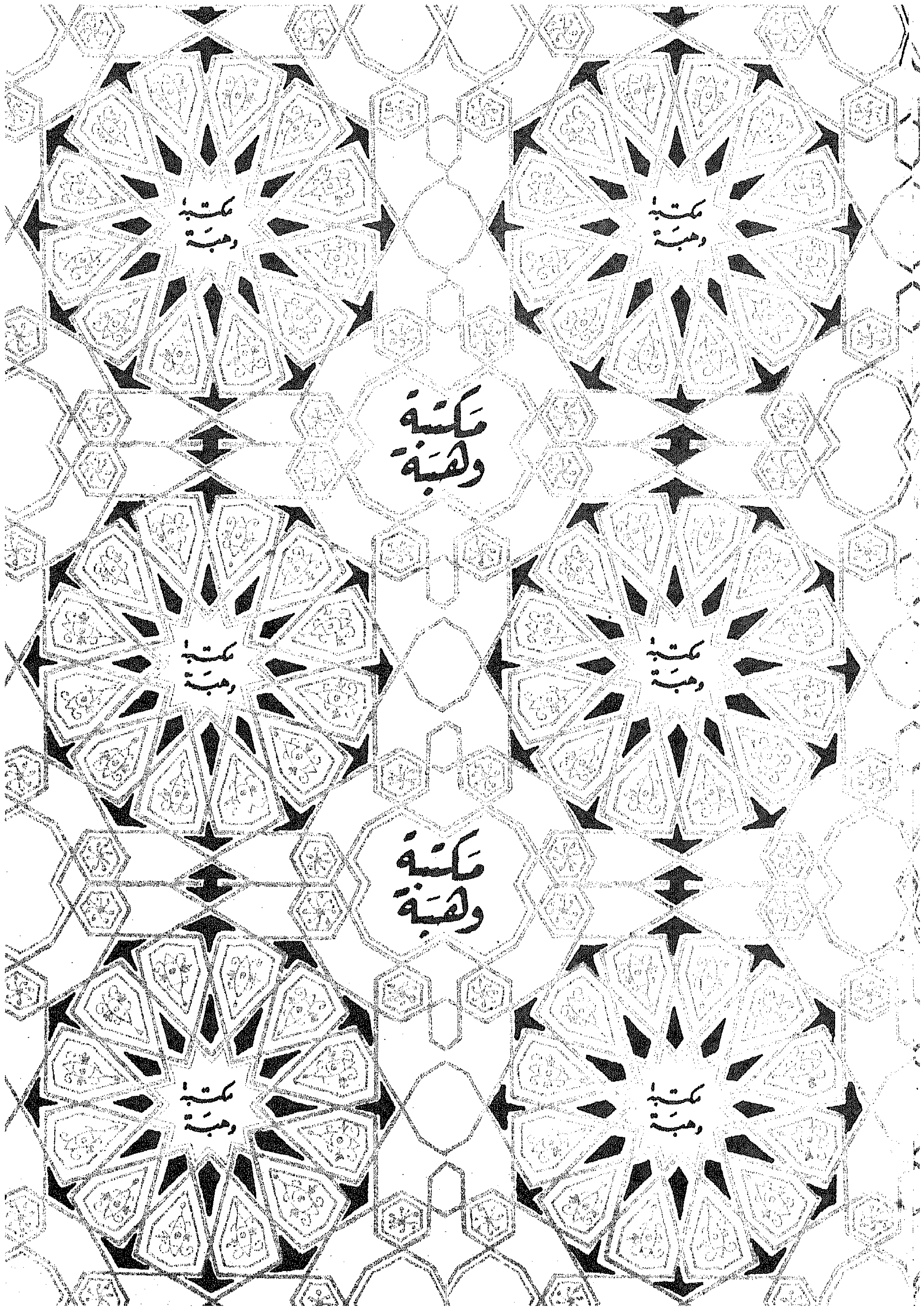
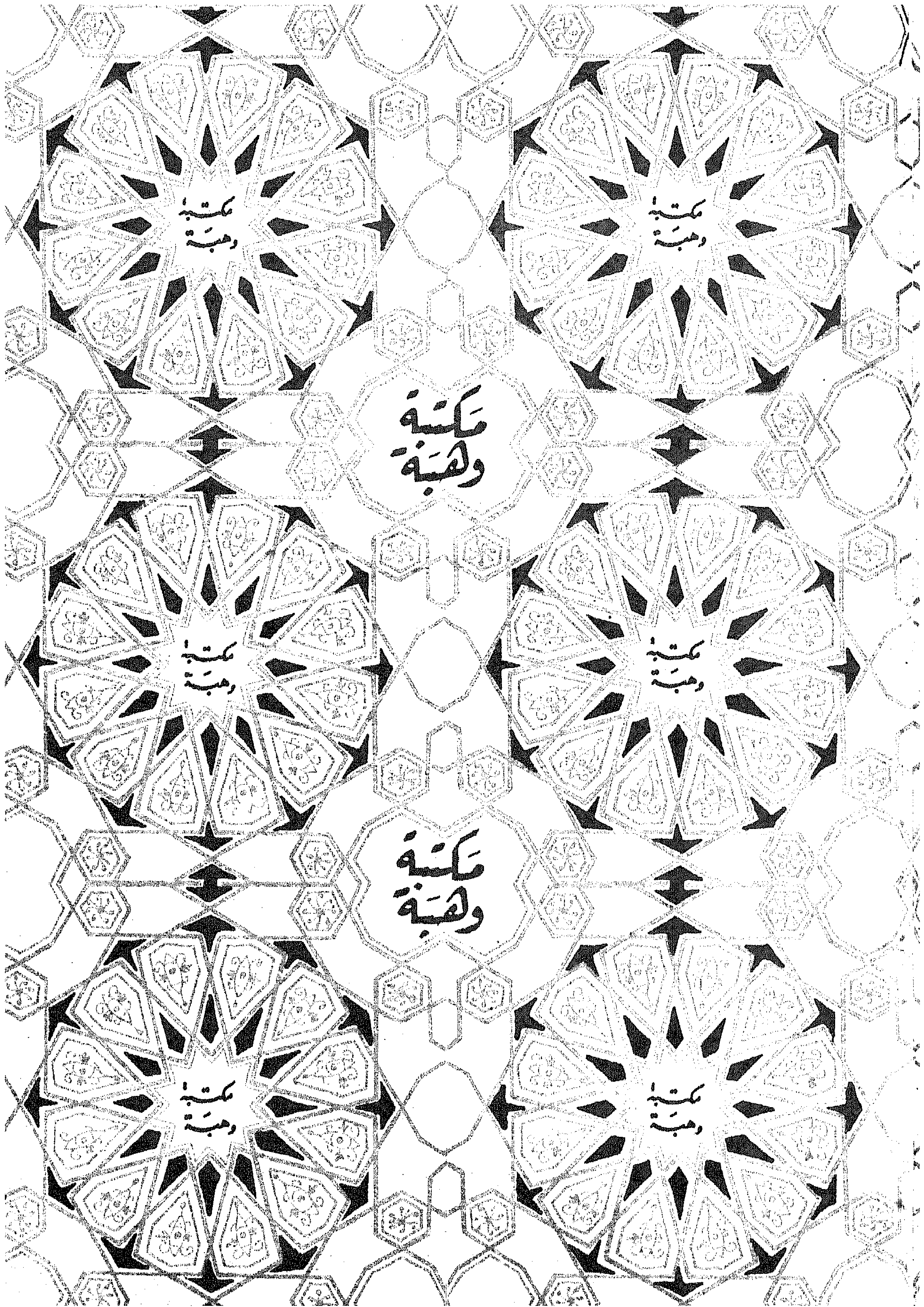
الدكتور محمد البهي

الإسلام في حياة المسلم

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠




مكتبة
وهبة
مكتبة
وهبة
مكتبة
وهبة
مكتبة
وهبة
مكتبة
وهبة
مكتبة
وهبة
مكتبة
وهبة
مكتبة
وهبة



مكتبة
وهبة
مكتبة
وهبة

الإسلام

في حياة المسلم

الدكتور محمد البهي

الإسلام في حياة المسلم

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الثالثة

١٤١٦هـ - ١٩٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

اليوم أكملت لكم دينكم
وأتممت عليكم نعمتي
ورضيت لكم الاسلام دينا .

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

ان هـذه الطبعة الثانية لكتاب : ((الاسـلام فى حياة المسلم)) .. تتوفر على العناية بضبط آيات القرآن الكريم الواردة فيـه ومراجعـة الحديث النبوى الشريف ، مراجعة تبعد عنه اللبس .. وتصحيح ما وقع فى كلمـاته من تحـريف . بالاضـافة الى ما استهدفته من اعادة تنظيم الموضوعات التى تناولها ، قصدا الى زيادة التيسير على القارىء المسلم .

فالهدف الأصلى الذى توخاه الكتاب هو البعد عن الأسلوب الجامعى وتعقيد منطقه فى تصوير مبادىء الاسلام ، وتقديم منهجه للحياةالشخصية وفى اطار وحـدة الجماعة الاسلامية . وقد كان لمـا توخاه : أثر حميـد فى الاقبـال على قراءته والانتفاع به من عديدين ، عندما ظهـرت طبعته الأولى . ولم يزل يحتفظ بهذا الطابع للغاية نفسها . ولذا كل ما تناولته هذه الطبعة التى نقدم لها الآن من : ضبط .. وتعديل فى التبويب : يخدم هـذه الغاية ، ويعمل على تحقيقها فى اوسع دائرة ممكنة بين أصـحاب الرغبة الخالصة فى الحصول على الثقافة الاسلامية من كتاب الله ، وسنة رسوله ، عليه الصلاة والسلام .

والله اسال العون ، والتوفيق .

محمد البهى

مصر الجديدة فى أول رجب سنة ١٣٩٣
٣١ يوليه سنة ١٩٧٣

مقدمة الطبعة الأولى

— كان القصد من تأليف هذا الكتاب : « الإسلام فى حياة المسلم » هو وضع الإسلام فى مبادئه أمام المسلم فى حياته اليومية كمنهج عملى للسلوك الفردى وللعلاقات بين الأفراد فى المجتمع الإسلامى ، بعيداً عن تعقيد الجدل ، وقريباً إلى الأسلوب المبسّط فى شرح هذه المبادىء .

— أريد للمسلم — عن طريق هذا الكتاب — أن يأخذ بمبادىء الإسلام فى توجيه ذاته ، وتكوين الضمير لديه ، القائم على الخشية من الله ، والإيمان به وحده ، وفى صلاته فى أسرته ، وفى أمته .

— أريد له أن يقف على وظيفة « العبادات » فى تهذيب الأنانية ، وفى تنمية روح الجماعة فى النفس ، وفى التعاطف والتماسك مع الغير فى المجتمع .

— أريد للمسلم أن يقف على « الضمير » وأثره — إن تكوّن — فى عدم الحاجة إلى الرقابة الخارجة عن الذات فى السلوك والمعاملة : فى الابتعاد عن الجرائم الاجتماعية ، والانحرافات الأخلاقية الفردية ، وفى التقرب — فى الوقت نفسه — إلى الله جل شأنه عن طريق محاكاة صفاته فيما له من علم واسع ودقيق ، وقدرة على الخلق والإبداع لا تحد بحدود ، وغنى لا ينفد فى عدم الحاجة إلى الغير ، وعزة وسيادة فوق المنال مما عداه ، ورحمة وسعت كل شىء ، وشدة تصيب الطغاة والعتاة ..

— أريد له أن يعرف أن منهج الإسلام هو منهج الحياة المستقيمة فى المسجد وفى خارجه ، وفى المكتب وميدان العمل ، وفى توجيه الفرد وزيادة الأسرة وسياسة الحكم .

— أريد له أن يعرف أن الإسلام لا يعرف الطائفية ، ولا يعرف الإنسان

إلا أنه إنسان . لا يعرفه فى مستوى الإله ، ولا فى مستوى أدنى من الإنسان إلى الحيوان : لا يعرفه معصوماً — إلا رسوله الكريم فى دائرة ما أمر بتبليغه للناس — ولا فوق التكاليف ، ولا فوق الطبيعة البشرية فى العزلة عن متع الحياة الدنيا ، ولا أقل منها منغمساً فى الشهوات والمتع .

— أريد له أن يعرف أن الإسلام دين الإنسان : هو منهج وخطة وعمل يتلاءم والطبيعة البشرية فى خصائصها وإمكانياتها ، سواء أكانت هذه الطبيعة فى ذات مفردة ، أو فى أسرة متعددة الذوات ، أو فى أمة ينطوى تحتها الأفراد والأسر .

ومن أجل هذه المقاصد توخى الكتاب الاستيعاب للمبادىء ، والتفصيل فى الشرح لها ، والبساطة فى أسلوب التعبير عنها . ولذا هو كتاب « الكافة » وليس كتاب « الخاصة » . ليس كتاب فلسفة ولا كتاباً أكاديمياً يتوقف فهمه على منطق معين ولغة معينة .

إنه كتاب لمن يريد أن يفهم الإسلام ويطبق مبادئه ، دون الحاجة إلى شيخٍ مُلَقِّن .

ونرجو أن يوفق الكتاب فى أداء رسالته ، ويسد حاجة الناس فيما يسعون إلى معرفته من دين الله .

والله الموفق

محمد البهى

مصر الجديدة فى : ٢٩ من ذى القعدة سنة ١٣٨٩
٥ من فبراير (شباط) سنة ١٩٧٠

الباب الأول

شعائر العبادة وآداب الأخلاق

- شعائر العبادة .
- الأخلاق فى ادب القرآن .
- تصحيح مفاهيم .
- اخطاء مشهورة وتصحيحها

الفصل الأول

- رمضان شهر الروح والايمان
- الصوم وحدة للقلوب والمشاعر
- مبادىء انسانية من الصوم
- الصوم كفاح وصبر
- المجتمع الصائم ذو انسجام وارادة
- اثر الصوم فى حياة الصائم
- شبهات حول الصيام
- ماذا بعد رمضان
- شهر الحج
- الحج وحدة فى المشاعر والآمال

رمضان شهر الروح والإيمـــان

يقول الله تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ القُرآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى والفُرْقَانِ ، فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهرَ فَلْيَصُمْهُ »[1] فأخبر جل شأنه عن رمضان بأنه الوقت الذى أنزل فيه القرآن لهداية الناس، وذكر أنه يجب على المؤمن صوم هذا الشهر إن شهد رؤيته ، أى حضر قدومه والتقى به فى حياته . ورمضان ـ بذلك ـ شهر ارتبط به أمران فى حياة المسلمين : ارتبطت به ذكرى نزول الوحى بالقرآن ، وارتبطت به أيضاً فريضة صومه .

وذكرى نزول الوحى بالقرآن يجب ألا تمر مروراً عابراً فى حياة المسلمين ، يقفون عندها طويلا أو قصيراً ، ويتلون فيها قصة الوحى وما كان من شأن نزول الآيات القرآنية : على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشأن لقاء جبريل عليه السلام به . وإنما هى ذكرى يجب أن تعيد إلى قلوب المسلمين الصورة القوية الواضحة للإيمان بالله ، تلك الصورة التى تمثلت فى حياة المسلمين الأول . إذ عن طريق هذا الإيمان القوى بالله تعود النفس إلى طمأنينتها وتعود الروح إلى صفائها .

وفريضة صوم الشهر — التى ارتبطت برمضان على نحو ما تحدثت الآية القرآنية الكريمة — هى أيضاً ليست رسماً من رسوم العبادة ، يؤدى دون أن يترك أثره فى النفس، أو يكون تعبيراً عما تمتلىء به نفس الصائم من إيمان بالله الذى فرض وحده الصوم ، ويراقب وحده الصائم . لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

رمضان — كما يحدثنا المولى سبحانه هنا — هو شهر الروح والإيمان . شهر الروح ، لأن القرآن الذى ارتبط نزوله بوقته مصدر تزكية النفوس وصفائها . « قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وذَكَرَ اسمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ... [1]» وتزكية النفوس

---

(1) سورة البقرة ١٨٥

(٢) الأعلى ١٤ ، ١٥ .

لا تكون بتلاوة القرآن دون الهداية العملية بما فيه من وصايا وأوامر ونواه . ولهذا اقترن فى هذه الآية — « وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » — ذكر الله بأداء عبادة الصلاة ، كدليل على أن القرآن كتاب تلاوة وهداية عملية معاً .

وهو شهر الإيمان ، لأن أداء فريضة الصوم فيه آية على أن الصائم الذى أمسك فمه عن الأكل والشرب ولغو الحديث ، وأمسك لسانه ، عن الوشاية وإطلاق الشائعات والأراجيف ، وأمسك يده عن الإيذاء والعبث ، وأمسك قدميه عن السعى فى سبيل الإفساد ، وأمسك قلبه عن الحقد وسوء النية ، وعن التردد فى عون المهموم والمكروب — هو ذلك المؤمن الذى لم يضعف إيمانه بالله ولم تضعف علاقته بتعاليم الإسلام .

رمضان شهر الإيمان . لأن الصائم لا تُرى عبادة صومه لغير الله ، وليس له من رقيب سوى نفسه وسوى الله . هو إذن مؤمن ، أخلص فى إيمانه وفى عبادته . ولذا يروى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » .

إذا أقبل علينا رمضان وشهدنا شهره ، وجب علينا صومه ، وعندما تحل ذكراه فلنتذكره بما وقع فيه . فهل نريدها ذكرى تمر فى حياتنا دون أن تمس قلوبنا ونفوسنا ؟ هل نريدها ذكرى تمر فى حياتنا دون أن نعبر فيها عن إيماننا القوى ؟ أى حياة إنسانية تلك التى تنقضى دون أن يكون هدفها صفاء النفس ؟ وأى حياة إنسان تلك التى تمضى دون أن يكون فيها إيمان بالله ؟

إن النفس ستشقى إذا قلقت ، مهما كان لها من جاه ومهما ملكت من مال وسلطان ، ومهما اعتزت بالبنين والبنات . وإن النفس ستشعر بالفراغ إن هى لم تركن إلى الإيمان بالله ، مهما كثر عملها ونشط سعيها ، إذ أى شىء قاتل للنفس وراء القلق ؟ وأى شىء ممل للنفس بعد شعور الفراغ فى حياتها ؟

يروى أبو أمامة رضى الله عنه : « قلت يارسول الله مرنى بأمر ينفعنى الله

به ! قال : عليك بالصيام فإنه لا مثيل له » . أى لا نظير له فى صحة الجسم ، وكسر النفس . وعظيم الأجر ، وصفاء القلب ، والقرب من الله . ومحل الصيام المفروض ووقته : هو رمضان .

سوف تتعلل النفس فى رمضان — والنفس أمارة بالسوء — بتعللات كثيرة كى تنفك من صومه : مرة بها حس المرض ، وأخرى بتوهم أن الصوم مضعف للجسم أو مقلل لإنتاجه وعمله ، وثالثة بأنه يحد من حرية الإنسان فيما يفعل ويتصرف ، ورابعة بأن ذلك تقليد قد مضى زمنه ولم يصلح لحياتنا الحديثة ... وغير ذلك من التعللات والمبررات .

ولكن الإنسان هو الإنسان يشتد ميله إلى ما يضره عادة ، وتكثر حيله وأعذاره فيما يورده مورد الهلاك . إن الله الذى فرض العبادة وحدد رمضان لفريضة الصوم ونزول القرآن الكريم ، لم يفرض ما فرض ويحدد ماحدد إلا لنفع الإنسان ومصلحته . ومصلحة الإنسان هى دائماً فى أن يكون قوياً ويبقى قوياً : ليس قوياً فى عضلاته ، وإنما يكون قوياً فى عزمه ، قوياً فى روحه ، قوياً فى إيمانه ، قوياً يتغلب على الأحداث دون أن تنال منه . قوياً على الأزمات دون أن تيئسه من الحياة . أو تجعل حياته سلسلة من القلق والهموم .

وصوم رمضان كل عام ، والعمل دائماً بهداية الله التى نزل بها الوحى فيه — كفيل بأن يخلق ذلك الإنسان القوى الذى يسيطر على الأحداث والأزمات .

إن وضع الإنسان فى الحياة عادة هو وضع المتردد بين الضعف والقوة . وأخطر صور الضعف ذل الإنسان لشهوته ووهمه . وأبلغ صور القوة قوة الإيمان بالله . والتعس فى الحياة هو القلق فيها بسبب ضعفه . والسعيد فى الحياة هو المطمئن بسبب صفاء روحه وقوة إيمانه . ورمضان هو شهر صفاء الروح وتجديد قوة الإيمان .

الصوم وحدة للقلوب والمشاعر

١ — يقول الله تعالى : « شَهْرُ رَمَضَانَ الذى أُنزِلَ فيهِ القُرْآن هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى وَالفُرْقَانِ (١) » .

ويعلن بذلك جل شأنه : أن هذا الشهر هو ذلك الوقت الذى أنزل فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الدعوة إلى الإيمان بالله ، وكتاب الهدى للناس كافة ، وكتاب الصراط المستقيم لسلوك الإنسان فى حياته وفى علاقته بإنسان آخر معه فى الوجود .

وقد قامت أمة المسلمين على أساس هذا الكتاب ، وعلى دعوته ، وعلى هدايته ، وارتبط كل فرد فيها بما فى ذلك الكتاب من إيمان وهداية . وانتقل هذا الارتباط إلى خلفاء المسلمين الأول جيلا بعد جيل ، إلى يومنا هذا .. وبعد يومنا هذا ، إن شاء الله .

فإذا قدم شهر رمضان من كل عام ، قدم ومعه الذكرى بنزول هذا القرآن ، وما كان من شأنه فى أن قامت على أساسه أمة ، وارتبط بما فيه من إيمان وهداية : أفراد هذه الأمة .

٢ — وإذا يقول الله سبحانه بعد ذلك : « فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ » وفرض بهذه الآية صوم رمضان — فإن رمضان عندئذ إذا ما أقبل يحصل معه وجوب صومه ، كما حصل معه من قبل : ذكرى نزول القرآن الذى تكونت على أساسه أمة المسلمين .

وكلما أقبل هذا الشهر مرة ، وأدى المسلمون فيه فريضة صومه ، أعلنوا

---

(١) البقرة ١٨٥ .

بأداء هذا الصوم : أن قلوبهم تنطوى على إيمان واحد ، هو الإيمان بالله وحده وبكتابه الذى أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبهداية هذا الكتاب الذى وضح معالم الحق بحيث لا يشتبه به باطل ، ثم فى الوقت نفسه عبروا عن مشاركة فى مشاعرهم ، وعواطفهم وأحاسيسهم . وبذلك تلتقى قلوبهم مع مشاعرهم بصوم هذا الشهر المبارك .

الصوم تدريب وتهذيب :

وصوم رمضان إذن لا ينطوى فحسب على مشاركة المسلمين بعضهم بعضاً فى أداء عبادة فرضها الله عليهم ، ولا على إحياء ذكريات فى نفوسهم تتصل بالقرآن الكريم وأثره فى قيام أمتهم ومجتمعهم ، وأثره كذلك فى تميز هذه الأمة وهذا المجتمع عن بقية الأمم والمجتمعات . وإنما ينطوى مع هذا وذاك على أنهم لا يتخلفون عن تلبية النداء ، الذى يوجهه إليهم إيمانهم بالله ورسالته التى سماها الإسلام .

ينطوى صوم رمضان على أن المسلمين إذا ما قاموا بأدائه يلتقى بعضهم مع بعض ، فى الشعور بتلك الآثار التى يخلفها الصوم فى نفوسهم . وهى آثار من شأنها أن تعد هذه النفوس للقاء ما تفرضه الحياة عليهم أحياناً من حرمان ، أو تحدثه فى وقت من الأوقات من أزمات . كما من شأن هذه الآثار أيضاً أن تهيء هذه النفوس الصائمة لإقبال الغنى منهم على المحروم فيهم ، وإقبال صاحب الصحة منهم على المريض بينهم . وبذلك يكون التعاطف والتواد .

والأمة — كأمة — فى حاجة إلى أن يلتقى أفرادها بعضهم ببعض فى النفوس والقلوب ، وأداء الواجبات .

إن هذا ما يجب أن تحدثه فريضة الصوم إذا أديت . فإن لها أكثر من

معنى وأكثر من هدف ، ولذا ينبغي أن لا تخرج عن وظيفتها . ينبغي أن لا يكون أداؤها سبباً فى نفرة الأفراد بعضهم من بعض . ينبغي أن لا يكون الصوم سبباً فى الاحتكاك ، أو سبباً فى إهمال العمل الذى يجب أن يؤدى أو يؤجر عليه ، أو سبباً فى التراخى فيه فى صورة ما . يجب أن لا يكون الصوم شعاراً يستتر وراءه من يسىء المعاملة لغيره ، أو يتستر وراءه العامل والأجير ويتخذ منه مبرراً يدفع به تهمة الإهمال أو التراخى فيما يوكل إليه من عمل .

يجب أن يحتفظ الصائم بأهداف فريضة الصوم . ومن بين هذه الأهداف وحدة القلوب ووحدة المشاعر . واتخاذ الصوم مبرراً للنزاع أو الاحتكاك ، أو مبرراً للإهمال أو التراخى ، من شأنه أن يبعد القلوب عن أن تتلاقى ، و يبعد المشاعر والعواطف عن أن تتجاوب .

ومن يؤدى فريضة يجب أن يؤديها لصالح نفسه ، ولصالح أمته وجماعته . أما لصالح نفسه ، فليس فقط لأنه سوف يمر بامتحان قد تفرضه عليه ظروف الحياة يوماً ، دون أن تنال من نفسه ومن معنويته هذه الظروف . وهو امتحان الحرمان ومجاهدة النفس فى التغلب عليه . ولكن بجانب ذلك سيرجع إلى نفسه فيذكر أنه عضو فى جماعة وأمة لها إمامة ، ولها رسالة فى الحياة يمارس شعائر عبادتها ، ويسعى إلى أن يتبادل خلجات القلب وعواطف النفس مع كل فرد فيها . وأما إنه لصالح الجماعة : فالجماعة التى يتجاوب أفرادها قلوباً ونفوساً ، وإيماناً وعواطف هى الجماعة القوية المتماسكة .

واجبنا فى شهر رمضان أن يتذكر كل واحد من أفراد هذه الأمة المسلمة أنه عضو فيها ، وليتذكر أن شعار الإسلام هو أن يكون مؤدياً لفرائض دينه . وفى مقدمة هذه الفرائض : الصوم . وليراجع كل واحد منا فى يومه هذا ما يتردد فى نفسه من عوامل الإقدام على الصوم وعوامل الإحجام عنه . وسيعلم بعد هذه

المراجعة : أن عوامل الإحجام عن الصوم ترجع إلى ضعف العزيمة ، وسيطرة إغراء الشهوة على النفس . وليس بإنسان ناجح فى الحياة — ذكراً أو أنثى — من تهن عزيمته أمام الإمساك عما يشتهى فترة من الوقت . وليست هذه بأمة تقف فى وجه الشدائد والأزمات ، تلك التى يضعف أفرادها أمام ما يغرى النفس من مأكل أو مشرب ، بياض نهار .

نريد أن يكون كل فرد فى هذه الأمة سيداً على نفسه وشهوته ، وأن تكون الأمة كلها ذات سيادة على الشدائد والأزمات . والصوم هو الوسيلة الأولى لتلك السيادة المنشودة .

مبادىء إنسانية من الصوم

يروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال: « **كل عمل ابن آدم يضاعف : الحسنة بعشر امثالها الى سبعمائة ضعف ، قال الله عز وجل الا الصوم ، فانه لى وانا اجزى به ؛ يدع شهوته وطعامه من اجلى** »

فالصائم يترك شهوته ، وبالأخص طعامه ، فى فترة محددة من اليوم ، وفى أيام معدودات متتالية ، ويترك ذلك فى سبيل الله ومن أجل الله . يترك مطلوباً لجسمه، فى سبيل تزكية نفسه وقلبه . لأن سبيل الله ومايريده الله هو ما يوصل إلى طهارة النفس ، وصفاء القلب : طهارة النفس مما يؤذيها من بواعث الشر والفتنة ، وصفاء القلب : مما يكدره من سوء الاعتقاد وضعف الإيمان .

الصيام انتصار على شهوات النفس

والصائم مكافح : يكافح هوى وشهوة لينصر إيمان النفس بالله . يكافح الإلف والعادة فى حياته اليومية لينصر إرادة ، وليوقظ ضميراً . وإن الصائم إذ يكافح الهوى والشهوة فى وقت معين ، وعلى نحو خاص يكافح قوة لها أثرها العنيف على الإنسان نفسه .. يكافح رغبات جسمه ومطالب بدنه .. يكافح استسلاماً لهذه الرغبات والمطالب كى ينجح فى أن يكون صاحب الأمر عليها ، بدلا من أن يكون مستسلماً ذليلا لها .

إن وضع الصائم وضع شاق : تدعوه شهوته ، ويدعوه الله عز وجل شأنه . تدعوه شهوته لأن يلبى نداءها ، ويدعوه الله إلى أن يكف عن ندائها ليحقق لنفسه مثل الإنسان المؤمن المريد . فإذا أطاع الله وكف عن نداء شهوة الجسم ،

وترك شهوته وطعامه من أجل الله : كان عندئذ خليقاً باحتضان الله إياه فى مثوبته وفى جزائه ، وفى تقدير ما يجازى به على هذا العمل الشاق الذى انتصر فيه إلى جانب الله سبحانه وتعالى .

وفى عدم تحديد جزاء الصائم فى هذا الحديث الشريف من جانب الله تعالى ، على نحو ما ذكر قبل من مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف : يدل على أن منزلة الصوم بين الأعمال الطيبة التى يقوم بها الإنسان تعظم عن التحديد والتقدير عند الله جل شأنه . وإنما تعظيم منزلته بهذه الصورة لأنه يكاد يكون العبادة الوحيدة التى يبرز فيها الصراع والكفاح من الإسان لشىء يتعلق بذات الإنسان ، دون عرض من أعراضها التى تتصل بها .

فالصلاة تقوم على تخلية الإنسان نفسه من الدنيا حين التوجه إلى الله ، وحين الإعلان عن هذا التوجه يقول المصلى : « الله أكبر » .

والزكاة تنازل عن جزء من المال الذى ملكه أو اقتناه ، وهو تنازل عن عرض لحق ذاته ، ولم يكن من صميم الذات نفسها .

والحج . ما فيه من مشقة لايتجاوز مشقة السفر ، وما فيه من إنفاق لايتجاوز عرض المال التابع .

أما الصوم فإنه كفاح موجه من الذات ضد الذات .. كفاح موجه من نفس الإنسان ضد رغبات جسمه وبدنه . ومن هنا نفهم ما يروى عن الرسول من قوله:

« قال الله عز وجل الا الصوم ؛ فانه لى وانا اجزى به يدع شهوته وطعامه من اجلى » :

الصوم يعلم الصبر ويخلق الامل :

والصوم إذن كفاح وجهاد شاق ، لأنه من الإنسان لذات الإنسان . ولكن أيحتاج الإنسان إلى هذا الكفاح فى حياته مرة كل عام ؟. يقول ابن ماجه

إن « لكل شيء زكاة ، وزكاة الجسد الصوم ، والصيام نصف الصبر » . ولكن أيضاً فيم حاجة الإنسان إلى الصبر ؟. إن الإنسان لايعيش وحده فى مجال هذه الحياة . إنه يعيش مع آخرين . إنه ينافس آخرين . إن له آمالا . إن عليه واجب رد الاعتداء عليه من غيره . إن عليه أن يكظم غيظه فى وقت تطلب الحكمة منه أن يكظم هذا الغيظ . إن عليه أن يسعى فى سبيل عيشه وعيش أهله ، وقد يخفق فى سعيه مرة أو مرات . هذا هو طابع الحياة التى يعيش فيها الإنسان . لذا كان لابد له من أن يتعلم الصبر ، حتى يحقق مايؤمل ، أو يدفع مايوجه إليه من اعتداء . لابد له من أن يتعلم الصبر حتى يثابر فى سعيه فى سبيل عيشه ، حتى لاييأس عندما يخيب مسعاه أو يخفق فى أمله .

وليس هناك وسيلة مجدية لتعلم الصبر إلا امتحان الإنسان لنفسه ، ورقابته على ما يمتحن به نفسه ، دون سواه . والصوم هو مجال هذا الامتحان ، وهذه الرقابة الذاتية . ليس هناك فى الصوم من ممتحن إلا الإنسان نفسه ، وليس هناك من رقيب إلا ذات الإنسان على الإنسان .

* * *

والصوم مطلوب للإنسان كإنسان ، ومطلوب للبشرية كلها . وإنه كفاح فى سبيل إعداد الإنسان للحياة الإنسانية . إنه السبيل لسيطرة الإنسان على نفسه .. السبيل إلى إيقاظ الضمير فى الإنسان ليراقب أعمال الإنسان .. السبيل إلى الصبر .. السبيل إلى التمسك بالأمل .. السبيل إلى تجنب اليأس عند الخيبة والإخفاق .

يروى أبو هريرة رضى الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« اذا جاء رمضان فتحت ابواب الجنة ؛ وغلقت ابواب النار ؛ وصفدت الشياطين »
فربط عليه الصلاة والسلام فتح أبواب الجنة ، وغلق أبواب النار ، وتقييد الشياطين عن العمل ، بمجيء رمضان ، شهر الصوم — إيماء بأن صوم رمضان

على الوجه المطلوب فى الصوم ، والغاية المرجوة من صيامه ، من شأنه أن لا يترك ثغرة فى حياة الصائم تتسرب منها الهزيمة لنفس الإنسان ، وإيمانه ، وقلبه . لأن الصائم على الحقيقة قد ملك ناصية الأمر على النفس الأمارة بالسوء . وهى ما يتصل بمطالب بدنه . وعندئذ لا مكان لإثم فى عمل يدعو إلى البر ويمنع صاحبه من النار ، فأبوابها إذن مغلقة ، ولا مكان لعمل الشيطان لأن عمله إنما يكون عندما تسود النفس الأمارة بالسوء وهى الآن مسودة لا سائدة . فالشيطان إذن مقيد عن العمل ، وإذن لم يبق إلا أن تكون أبواب الجنة مفتحة لأن عمل الصائم عندئذ يصدر عن قلب وعن إيمان ، لا عن شهوة واستسلام للهوى .

الصوم عبادة إصلاح للروح والبدن ، وعبادة تعد الإنسان لحياة الخير ، لخير الإنسان نفسه وخير جماعته .

الصوم : كفاح وصبر

أود أن لا أتجاوز واقع الأمر المحسوس ، وأريد أن نقف جميعاً أمام أمثلة واضحة فى حياتنا اليومية : كل منا له أسرة ، أو شاهد لأحوال أسرة . وكل منا رأى الولد المدلل فيها ، ووقف على خطوات سيره فى حياته ، وعلى موقف الوالدين من هذا الولد المدلل :

أما خطوات سيره فى الحياة فهى رغبات متزايدة ، لا تلبى رغبة منها إلا تلحق بها أخرى ، مع إصرار فى تحقيقها وإلحاح فى الإسراع بإنجازها . وكثير من هذه الرغبات ينطوى تحقيقه على ضرر بين يصيب هذا الولد المدلل : سواء بالنسبة لصحته ، أو بالنسبة لتوجيهه .

وأما موقف الوالدين من ولدهم المدلل فهو طاعة لما يشاء ، وعمل على إنجاز ما يرغب ، أو اعتذار عند العجز ووعد مؤكد لتحقيق مشيئته فى غد أو بعد غد .

وأما نتيجة دلال الولد واندفاع الوالدين فى تحقيق رغباته المتلاحقة فهى : عدم نجاح الولد فى حياته ، وحسرة الوالدين على خيبة أملهم فيه : لا ينجح المدلل فى الحياة لأنه لم يعرف من الحياة إلا ما حلا له ، وهو ما رغب فى تحقيقه وسعى لدى والديه فى إنجازه . وحلو الحياة فى واقع أمرها أقل بكثير مما هو مر المذاق فيها . لا ينجح المدلل أيضاً فى الحياة لأنه لم يتدرب على ارتكاب الصعب فيها ، واجتياز مشاقها . وصعابها ومشاقها لا تعد ولا تحصى .

وإذا لم ينجح الولد المدلل فى الحياة ففجيعة الوالدين فيه نتيجة طبيعية لخيبته وعدم استطاعته ملاحقة السير لزملائه وإخوانه فى الحياة .

ولذا تسوء عاقبة أمره ، وأسرته تنكب فى أعز موجود لديها . تلك نهاية قصة الولد المدلل ، واندفاع أهله فى تدليله .

الولد المدلل ، هو ذلك الإنسان الذى رغب عن الصوم لما فيه من المشقة ومجاهدة النفس حول نوازعها ورغباتها . والأسرة التى نكبت فى ولدها المدلل هى جماعة ذلك الإنسان الذى ألف الاسترسال فى رغباته ومتابعة شهواته ، ولم يحاول بالصوم أن يعود نفسه على مر الحياة ، كما تعود حلوها ، وأن يتحمل ألم الحرمان كما تمتع بالحصول على ما طلبه فى سرعة وفى يسر .

الصوم تربية وتوجيه :

والصوم لم يفرضه الله سبحانه وتعالى إلا ليخرج الإنسان من دائرة الطفولة إلى دائرة الرشد الإنسانى . الصوم وسيلة لا غنى عنها فى إعداد الإنسان لحمل رسالة الحياة ، والظفر فى النهاية بتأديتها أداء كاملا تستريح إليه النفس وتسعد به .

فهو ضرب من ضروب التوجيه الإنسانى : فيه قسوة ، ولكنه منطو على نفع محقق لمن يأتى به . لا أقول : إن الحياة كلها تعب كما ينظر إليها بعض المتشائمين . ولكنى أقول : فيها كثير مما يشق على النفس تحصيله ، أو فيها كثير من الصعاب والمخاطر تضطر النفس إلى مقاومتها والتغلب عليها ، وهى إذ تضطر إلى ذلك تضطر بدافع من الوجود الخاص بها ، أو بدافع من الظروف التى تحيط بجماعتها وأمتها .

إن الأزمات التى تصادف الإنسان هى من واقع الحياة ، وليست صوراً متخيلة . ولذا من ضرورة حياة الإنسان أن يلقى أزمات . فإذا لم يدرب نفسه على تحمل الصعاب لا يستطيع أن يتغلب على ما يصادفه من أزمات . وهو لا يتعود على تحمل الصعاب إلا إذا مرنت نفسه على ألم الحرمان . وأوضح صور الحرمان تلك التى يحول فيها الإنسان بنفسه بين نفسه وبين ما تشتهى : فهو يملك أن يلبى رغبته ، ويستطيع أن يجيب نفسه إلى ما تطلب ، ولكنه لا يفعل . هذه الصورة من الحرمان هى الصوم الذى فرضه الله سبحانه وتعالى على الإنسان .

وإذن لم يفرض الله تعالى الصوم على الإنسان عقوبة له ، بل كلف به القادر عليه من عباده ، توجيها له فى حياته ، وتبصيراً له بواقع الأمر فيها ، حتى تكون خطواته فى طوافها خطوات المتثبت العارف بدروبها وغاياتها .

إن الذى لا يتوقع الأزمات فى حياته إما طفل يعيش فى عالم الرغبات ، أو إنسان يشبه الطفل فى إدراكه وتصوره . وكلاهما يصير حتماً إلى نهاية واحدة إذا لم يتعلم من تجارب الواقع : هذه النهاية هى الخيبة والفشل ، أو الضعف والاستكانة . وما عاش إنسان مستكين ضعيف .

والحديث عن الجماعة والأمة هو الحديث بعينه عن الأسرة : فالجماعة التى قام أفرادها بفريضة الصوم جماعة التزمت التوجيه السليم فى الحياة ، وتوسلت بوسيلة النجاح فى التغلب على صعابها ومشاقها . والجماعة التى استخف أفرادها بهذه الفريضة ، عاقبة أمرها الفشل والضعف .

أى صوم هذا الذى نؤديه فى هذا الشهر المبارك ولا نستطيع أن نتحمل فقدان سلعة من السلع فى حياتنا اليومية ؟

وأى صوم هذا الذى نتقرب به إلى الله جلت قدرته فى هذا الشهر الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، ولا نستطيع أن نكف عن لغو القول فى تافة الأمور ، مما يقع ويحدث فى حياتنا العادية ؟

وأى صوم هذا الذى يباهى به الممسك عن الطعام والشراب ، وهو لا يستطيع أن يعطى غيره بعض ما أمسك عنه ، أو يقنع ببعض ما يستطيع الحصول عليه لشهوة بطنه ؟

ولا أعدو الصواب إذا ذكرت : أن الصوم هو الأساس النفسى لإخراج الزكاة عن رضا وطواعية ، وإنه الأساس كذلك للجهاد فى سبيل الله ، والقيام به عن محبة ورغبة .

المجتمع الصائم

مجتمع يمتثل : ولا يستسلم

١ — يروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم — أنه يقول : قال الله تعالى « **كل عمل ابن ادم له ، الا الصوم فانه لى وانا اجزى به** » وذلك بنسبته وحده من بين العبادات إلى الله تعالى . والحديث هنا يضع الصوم موضع العبادة الخالصة لله ، ويزيد فى قيمته عند الله ، كى يدفع المؤمنين على تقبل أدائه فى رضا نفس ، واطمئنان بال . ، فالصوم عبادة مفروضة كبقية العبادات ، وشأنه شأن الصلاة والزكاة والحج . وهى كلها عبادات قصد من مباشرتها : تزكية النفس واستقامتها فى السلوك وتآخيها مع الغير . وتزكية النفس واستقامتها ،وحسن صلاتها بالغير : فوائد تعود أولاً وبالذات على النفس التى تزكت وتطهرت واستقامت وحسنت صلاتها بالغير .

والإسلام ، بهذا الحديث إذن، حرص على أن يؤدى المؤمن المكلف فريضة الصيام فى غير تبرم ولا قلق نفسى ، لأنها عبادة خالصة لله .

ثم فى التعبير هنا فى هذا الحديث عن الصيام بأنه لله — ما يفيد أيضاً : أنه على المؤمن المكلف أن يقوم بفريضة الصوم ، دون أن يسأل نفسه عن أسباب فريضته ، وعن غايات ما يرجى منه . عليه أن يؤديه لأنه واجب عليه أن يؤديه . عليه أن يعبد به الله . هو عبادة تؤدى دون أن تناقش ، وتطاع دون أن يخالج النفس فى شأنها أمر آخر سوى الطاعة والامتثال المطلق لله تعالى .

وأثر الصوم فى صحته ، أو فى إرادته ، أو فى صلاته بغيره من العطف على المحروم وصاحب الحاجة ، أو فى تزكية النفس وصفائها — كل ذلك يتلمسه الإنسان فى الصوم وراء ما فيه من معنى العبادة والامتثال المطلق . والدفع الذى يدفع

الإنسان لأداء الصوم يجب أن يكون هو معنى كونه عبادة لا غير ذلك مما يتلمسه الإنسان من فوائد فيه .

والمجتمع الصائم هو مجتمع يمتثل لله ، ويمتثل لرسالته وهدايته . ويمتثل لإشاعة السلام ، والعدل ، والأخوة والتعاون . هو مجتمع يمتثل فيدع نفسه تنقاد إلى مستوى أرفع فى الإنسانية . وهو المستوى المهذب المصقول . هو مجتمع يمتثل لصفاء النفس وسيادة الصفاء والطهر فيها على الحقد والإيذاء .

٢ — ومع أن المجتمع الصائم مجتمع يمتثل لله ولرسالته فى الأرض : هو مجتمع لا يستسلم للبغى والعدوان . إذ الإنسان الصائم فى هذا المجتمع لا يستسلم لبغى النفس على نفسها ، ولا لبغى الغير عليها . فى حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « **الصوم جنة ؛ والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار** » فالصائم — كما يشير هذا الحديث — يدفع بصومه عوامل الاعتداء والقهر ، وهى العوامل التى تجعله فى تصرفه أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان . وإذا مال الإنسان إلى مظهر الحيوانية فى التصرف فقد استسلم إلى قوة البغى عليه كإنسان . والصائم إذن إنسان صلب يؤثر انسانيته على ما فيه من حيوانية . وبذلك يدفع بصومه قوة اعتداء نفسه على نفسه .

هو لا يستسلم أيضاً لبغى الغير واعتدائه على نفسه . لأنه إذا لم يقبل اعتداء نفسه على نفسه فهو لا يقبل اعتداء غيره عليه ، لا يقبل أن يعتدى الغير إذن على إنسانيته وعلى وجوده كإنسان . هو إنسان مكرم فى أصل طبعه ، ومطلوب منه عن طريق الرسالة الإلهية أن يبقى مكرماً ويصون كرامة نفسه . والله تعالى إذ يقول: « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمْ » — كرمه بإعداد طبيعته على نحو يسود بها غيره من الكائنات . ومن جوانب هذه السيادة التى أعدها فيه أن جعل فيه الشعور لمقاومة الاعتداء عليه كإنسان ، أيا كان مصدر هذا الاعتداء : نفسه أو غيره .

نعم الحيوان يقاوم ولكنه يقاوم من أجل حيوانيته . أما مقاومة الإنسان للاعتداء عليه فليست من أجل الحيوانية فيه ، وإنما لحساب كرامة الإنسانية عنده.

والمجتمع الصائم — وهو الذى يؤدى أفراده عبادة الصوم — مجتمع من غاياته إذن : عدم الاستسلام .. من غاياته مقاومة الاعتداء .. من غاياته أنه يدفع الهزيمة لعوامل الشر والإيذاء .

والقرآن عندما يخاطب المؤمنين بقوله : « يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(١) » يوضح للمجتمع الإسلامى الوضع الصحيح لهدفه ، وهو : عمل من أجل السلام ، واتقاء لسبيل الشر والإيذاء . وعبادات الإسلام ، وفى مقدمتها الصوم ، هى الطريق لتحقيق السلام واتقاء سبيل الشر والإيذاء . وإذ يقول أيضاً فى آية أخرى مخاطباً المؤمنين : «وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الذِينَ يُقَاتِلُونَكُم وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِين » يوضح للمجتمع الإسلامى ذات الوضع الصحيح السابق لهدفه ، وهو العمل من أجل السلام واتقاء سبيل الشر والإيذاء . وكذلك العبادات الإسلامية وفى مقدمتها الصوم ، طريق هذا الهدف. لأن القتال فى سبيل الله إقرار للسلام ، واتقاء الاعتداء . ودفع العدوان إن وقع ، اتقاء لسبيل الشر والإيذاء .

والصوم . كما شرحنا — عبادة تهيىء لعدم الاستسلام للشر أيا كان مصدره . ولأنه يمتثل لله ، فهو لا يستسلم لما عدا الله من عوامل الطغيان والاعتداء ، ويمتثل لعوامل الخير والسلام .

---

(١) البقرة : ٢٠٨

المجتمع الصائم

ذو انسجام وارادة . . .

خاطب الله المؤمنين برسالة محمد عليه الصلاة والسلام بقوله :

« يَا أَيُّها الذينَ آمَنوا كُتِبَ عَليكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ على الذينَ مِن قَبلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون » فأوجب عليهم الصيام كعبادة من العبادات ، ثم حدد مدته فى قوله تعالى : « شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القُرآنُ هُدًى للنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الهُدَى والفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ .. » . وإذن على المؤمنين برسالة الإسلام أن يصوموا شهر رمضان من كل عام . وأوضح الله سبحانه وتعالى سبب هذه الفريضة بقوله : « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » . والمؤمنون إذا أدوا فريضة الصوم أداء خالصاً كان مجتمعهم عندئذ مجتمعاً ذا بعد عن الانحراف ، وذا بعد عن الضعف والوهن .

المجتمع الصائم مجتمع ذو ارادة :

فالمجتمع الصائم مجتمع تبرز فيه الإرادة ، ويبرز فيه التصميم . هو مجتمع له هدف ، وخطة لتحقيق هذا الهدف . أما هدفه فإنه يتحكم فى رغبات النفس عندما تدعو الحاجة إلى التحكم فى الرغبات ، وعندما يفرض الأمر الواقع عليه أن يحد مما تدفع إليه الميول والشهوات . وأما خطته لتحقيق هذا الهدف فإرادته وعزمه وتصميمه .

إن أى مجتمع إنسانى له كيان مستقل قد تمتحنه الأزمات ، وقد تتوالى عليه الأحداث التى قد تضطره إلى أن ينكمش فى أسلوب عيشته . فإن لم تكن له إرادة تدفعه إلى أن يجتاز هذه الأزمات ويخرج من هذه الأحداث ، سيسقط حتماً تحتها . وقد يتلاشى وينصهر فى مجتمع آخر ، بسبب ضيق الأزمات أو قوة الأحداث .

إن أى مجتمع إنسانى لا يعيش دائماً فى حال سلم، ولايعيش دائماً فى مستوى واحد من الرخاء ، ولا يحيا دائماً حياة رتيبة . إن المجتمع كالإنسان الفردى ، عرضة للتقلب فى مستوى عيشته . فإن لم يكن له من قوة العزيمة والإيمان بوجوده وبخالقه ما ييسر عليه أمر الحياة إذا تأزم أو ضاق به السبيل — وإلا فلا رجاء له فى حياة مديدة ، ولا رجاء له فى نقلته من حال العسر والشدة إلى حال اليسر والسعة .

والمجتمع الذى يؤدى أفرده واجب الصوم ، هو مجتمع قد تدرب على الإمساك والحرمان ، تدرب على احتمال المشقة فى الحياة فهو مجتمع يجتاز الأحداث والأزمات ، يقوى على اجتيازها بما له من دربة فى التحمل والاحتمال .

والمجتمع القوى إذن هو مجتمع ذو بعد عن الانحراف والوهن . وما انحراف المجتمع إلا فى تخاذله ، وما ضعفه إلا فى عدم مواجهته لتقلبات الأحداث .

المجتمع الصائم ذو انسجام :

على أن المجتمع الصائم ، من زاوية أخرى — مجتمع غلب عليه الانسجام : انسجام الطابع العام الذى يميزه عن أى مجتمع آخر ، ليست له ذات العقيدة ولا نفس الإيمان . والانسجام فى الطابع العام للمجتمع هو مظهر من مظاهر القوة له كذلك ، لأنه ينبىء عن الوحدة فى الشعور والروابط والاتجاه . ووحدة الشعور والروابط والاتجاه هى وحدة النفوس . ومجتمع توحدت نفوس أفراده فى إحساسها وعلاقتها واتجاهها : مجتمع غير منحرف ولا ضعيف .

المجتمع الصائم ذو ضمير :

والمجتمع الصائم ليس مجتمعاً ذا إرادة وذا انسجام فحسب ، بل هو مجتمع له ضمير أيضاً من الخالق يمكنه أن يباشر استقامة الصائم فى صومه من الناس ، يمكنه أن يشرف على إتمام الصائم لصومه حسبما ينبغى ويطلب منه .

ليس هناك مخلوق يستطيع مباشرة استقامة الصائم . إنه ضمير الصائم وحده ، ومن ورائه بعد ذلك : رقابة الله الذى يعلم السر وما يخفى . إن الإنسان فى صومه فى صراع مع نفسه وقد يكون صراعه عنيفاً . ولكن ضميره الذى كونته خشيته من الله العلى القدير هو الذى ينجحه فى هذا الصراع ، وهو الذى يجعل منه رقيباً على نفسه . وهو الذى يدفعه إلى إتمام ما أراده وما بيّت عليه النية قبل ذلك ، وهو أن يصوم فى غده .

والمجتمع صاحب الضمير ليس فى حاجة إلى أن يراقب بعض أفراده بعضه الآخر فى أداء الواجب . وليس فى حاجة إلى المخاصمة والشحناء ثم إلى التقاضى لأنه يفعل بوحى الضمير . وما يوحى به ضميره عندئذ هو ما يخشى فيه الله ، وما يخشى فيه الإنسان الله هو ما يطلبه الله منه : « وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ »[1].

إن المجتمع الصائم يتقبل الحرمان إن اضطر إليه . وإن فعل فمن إرادة داخلية ورضاء نفسى . المجتمع الصائم مجتمع قوى فى نفسه بمشيئته وبإيمانه وبضميره . وهو مجتمع لا يساق ، كما لا يزعجه التهديد بفراغ المعدة ، لأنه مجتمع يؤثر أن يعمر قلبه بالإيمان عن أن تمتلىء بطنه مع فراغ نفسه من المشيئة والإيمان والضمير .

(١) الأنعام ١٥٣ .

أثر الصوم فى حياة الصائم

جاء الإسلام بعبادتين بدنيتين وهما الصلاة والصوم ، وبعبادة مادية تتصل بالمال ، وهى الزكاة ، وبعبادة أخرى فيها مشقة البدن وبذل المال ، وهى الحج . والإسلام إذ يقرر هذه العبادات البدنية والمادية لا يرغب فى تحميل الإنسان المشقة البدنية والمادية لذات المشقة فى مظهرها الجسمى أو المادى . لا يرغب فى أن يقطع على الإنسان فى بعض حياته راحة البدن ، ومتعة المادة . إنما يقصد بهذا التكليف البدنى أو المادى تصفية الروح وتهذيب النفس : يقصد أن يصل بالصلاة إلى الانتهاء عن الفحشاء والمنكر ، وأن يصل بالصوم إلى تجنب اللغو فى القول والباطل من العمل ، وأن يصل بالزكاة إلى تقوية الشعور بالإخوة وتقوية القربى والجوار والوطن ، وأن يصل بالحج إلى تذاكر المؤمنين بأول بقعة نشأت فيها دعوة الإسلام وبآخر مكان جاء فيه نصر الله والفتح ، حتى يجددوا فى قلوبهم ونفوسهم العهد بالإخوة الصادقة فى سبيل رسالة كريمة لأنفسهم وللإنسانية .

ورمضان عندما يعود بعد قرون من قيام الإسلام ، وتعود معه تكاليف الإسلام الخاصة به : تعود معه فريضة الصوم ، ويعود معه الحث على ما يرجى من صيامه ، وما ينتظره رسول الدعوة الإسلامية ﷺ من الصائم .

يقول ﷺ ، فيما يرويه عنه أبو هريرة رضوان الله عليه : **« من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى ان يدع طعامه وشرابه »** .

ويقصد صلوات الله عليه : أن الصيام ليس إمساكاً عن الأكل والشرب لغاية هى هذا الإمساك فى الفترة المعروفة . بل يجب أن يكون وسيلة قوية لهدف رتبه الله على الصوم ، وهو ضبط الإنسان نفسه عن أن يقول الزور والبهتان ، وعن أن يقول الكذب إن تحدث أو وصف ، أو يقوله إن توسط بين فرد وآخر

فى رسالة بينهما ، أو بقوله إن حكى عن غيره أو أدلى بشهادة قصد بها صالح صديق أو من له به علاقة . يجب أن يوصل الصوم وهو تلك الدربة والرياضة على حرمان النفس من شهوتها حرماناً لا خيار فيه — إلى تعويد هذه النفس التى أمسكت عن الأكل والشرب : عادة الإمساك عما يفسد من قول أو عمل ، وعما يضرها ويضر غيرها . فقول الزور لا يدعو فحسب إلى وضع قائله وضعاً أدبياً غير مقبول فى جماعته التى يعيش فيها ، بل يتعدى ذلك إلى أن تفقد هذه الجماعة الثقة فيه ، وإلى أن تأخذ حذرها منه ، بعد أن تنظر إليه نظرة استخفاف ومهانة . وعمل الباطل أشد ضرراً بمن يأتيه ، سواء على منزلته الأدبية أو علاقته المتبادلة بينه وبين غيره .

والرسول الكريم إذ يشير إلى أن من لم يترك الكذب ، ويترك العمل المفسد نتيجة لصومه فليست هناك حاجة لله فى أن يترك هذا الصائم الطعام والشراب — يقصد صلوات الله وسلامه عليه إلى أن يوضح : أن صوم الصائم عندئذ لم يكن ذا أثر إيجابى فى حياة الصائم ، ولم تترتب عليه آثاره المرجوة ، وأن القيام به بهذا الوضع يتساوى مع عدم القيام به فى النتيجة ، وأن الصائم لهذا كأنه لم يقم بما كلف به من صوم .

الاسلام لا يعنى بالشكل

والإسلام لا يعنى بالشكل فيما يكلف به أتباعه ، ولا يرمى إلى أداء عبادة فى شكل رسوم أو فى صورة عادة فقط . الإسلام يريد توجيهاً للروح . . يريد استقامة للنفس . . يريد صلاحاً وتهذيباً للفرد . . يريد جماعة غير مفسدة ولا عابثة . ولا يتفق أداء صلاة يتوجه فيها الإنسان إلى ربه مع اتيان للفواحش وقيامه بالمنكر والمفسد . وكذلك لا ينسجم أداء صوم مع عبث فى القول وباطل فى العمل .

عبادة الإسلام طريق لحياة إنسانية كريمة . وليست مجالا لمظهر خارجى .

إنه تناقض أن يصوم الإنسان عن الأكل والشرب ، ثم لا يمسك لسانه ،

ولا يمسك خواطره ، ولا يمسك دخيلة نفسه عن الإيذاء بالسعى والفرقة بين الناس بالكذب ، والإضرار بهم فيما يأتى به من فعل كريه مبغوض .

ولم يقصد الرسول عليه الصلاة والسلام هنا إلى الإيحاء بطلب صون اللسان وصون النفس التى تصوم عن الإيذاء والإضرار طول فترة الصوم فقط ، وفى شهر رمضان على الخصوص . لا . إن الرسول الكريم يرمى إلى تحصيل هذه الصفة ، وهى صون اللسان وصون النفس عن الإيذاء والاتصاف بهما كشىء لا يفارق المسلم . ولكن ربطها هنا بالصوم ، وبالصوم فى رمضان — لأن الصوم وسيلة رئيسية فى تحصيلها واكتسابها ، ولأن صوم رمضان — لطول مدته وتتابع فتراته : يجب أن يكون كفيلا بالمساعدة على تحصيل هذه الحال المرجوة فى صفة الحالة الدائمة ، لا فى صفة الأمر المؤقت .

وفضلا عن ذلك : زمان رمضان ، لأنه أنزل فيه القرآن ، يجب أن يتضاعف أثره فى نفس المسلم التابع لهذا الكتاب ، والذى ميز نفسه بين البشر جميعاً بهذه التبعية .

فالتكاليف وسائل لتهذيب النفس الإنسانية . فمن لم يتهذب بهذه التكاليف فأداها شكلا ، دون أن تحمل نفسه منها استقامة وصفاء ، فشأنه شأن من لم يقم بها فى عدم الانتفاع بتلك الهداية القدسية الإلهية .

شبهات حول الصيام

بعض الناس ، أو كثير من الناس يرى أن رمضان وما يصحبه من فرض صومه على المسلمين إن هو إلا صورة الرجعية التى لا تلائم عصر التطور الذى نعيش فيه .

ألأن صومه يدفع النفس على احتمال بعض الصعاب والمشاق ، وهى تلك الصعاب والمشاق التى تلازم التخلف عن اتباع العادة فى وجبات الأكل ومرات الشرب ، والإمساك عما يؤكل ويشرب بياض نهار فى اليوم كله ؟ أتمرين الإنسان على ما فى الحياة من ألوان ، هو عرضة ، لأن تمر عليه فى أنواعها المتناقضة ، يكون رجعية ؟ إذا تعود الإنسان على الحد من رغباته والسيطرة على أنانيته يكون رجعياً وليس تقدمياً ؟ .

ثم متى يكون الإنسان عضواً صالحاً فى مجتمع صالح ؟ أليس لأنه يستطيع أن يحد من رغباته ليفسح مكاناً لحياة غيره معه ؟

وبم نسمى الانطلاق فى الاستجابة لرغبات النفس ؟ أنسميه تقدماً وهو طابع الحيوان والطفل والإنسان البدائى ؟ إذا اتخذ كل فرد فى المجتمع الانطلاق إلى مايريد ويشتهى : قاعدة لسلوكه ، أيكون هناك عندئذ مجتمع قائم بالمعنى الواقعى للمجتمع ؟ وليس وجود المجتمع بمعناه الواقعى إلا قبول أفراده للحدود التى يفرضها دستوره وقانونه ، وهى تلك الحدود التى تتمثل فى الحقوق والواجبات .

وبعض الناس أو كثير من الناس يرى أن صوم رمضان عائق عن الإنتاج فى كمه ونوعه ، ولذلك لا يتفق مع ما تطلبه الحضارة المعاصرة ، لأن قوامها الإنتاج ! أليس من وراء صوم رمضان الخشية من الله ؟ أو ليست الخشية من الله

مصدر تكوين الضمير لدى الفرد ؟ وأليس دفع الضمير للفرد أقوى وأبقى من دفع القانون الوضعى إياه والسلطة التى تشرف على تنفيذه ؟

إن صوم رمضان إذا عاق — افتراضاً — عن الإنتاج فى كمه ونوعه فى شهره ، ألم يكن الضمير الذى تكوّن عند الفرد بسببه كفيلا بالتعويض فى الإنتاج سواء فى الكم أو النوع على طول العام كله ؟

وأليس الضمير لدى الفرد هو مصدر الحضارة الإنسانية ؟ فليست هذه الحضارة إلا الاعتراف بالقيم الإنسانية والمحافظة عليها فى السلوك الشخصى وفى العلاقات بين الأفراد ؟

إن كم الإنتاج المادى هو مظهر الحضارة المادية الصناعية . وليس هذا النوع من الحضارة هو الذى يسعد الأفراد ويقر السلام فى علاقات بعضهم بعضاً ، بل ربما كان مصدر تخريب هذه العلاقات ، ومصدر الخصومات ، وقد يكون مصدر إفناء البشرية كلها ، إذا لم تكن بجانبه حضارة إنسانية ، وهى التى تتمثل فى القيم العليا من العدل والتعاون والمحبة والأخوة .

ولم تكن الحضارة المادية الصناعية يوماً ما هى مصدر الضمير ، ومصدر السلوك الأخلاقى . ولم تكن بالتالى هى المعبرة عن خصائص الإنسان التى تصور مستواه الرفيع فى الإنسانية .

وبعض الناس أو كثير من الناس يرى أن وجوب صيام رمضان يقسم المجتمع إلى طائفتين : إحداهما تقوم بأداء فريضة صومه ، والأخرى تستخف بأداء هذا الواجب وتعلن هذا الاستخفاف فى غير صورة ، وفى كثير من الأحيان فى صورة من التحدى لهذه الفريضة . وليس من صالح أى مجتمع أن ينقسم على نفسه ، فضلا عن أن تتحدى طائفة منه طائفة أخرى تعيش معها .

ولكن من الذى لايرى أن أداء الواجب أى واجب فى المجتمع لا يختلف موقف الأفراد منه بين راغب فى أدائه وبين مؤد له فى ثقل أو فى خوف ؟. ولولا السلطة القائمة على تنفيذ القانون فى المجتمع لبدا التحدى سافراً لكثير مما يوجب القانون فعله على جميع الأفراد الذين يعيشون فى المجتمع .

ثم من الذى يرى إلغاء الواجبات التى يفرضها المجتمع على نفسه بحكم دينه ومعتقده ، أو بحكم القانون القائم فيه ، حتى لايقع انقسام فى الرغبات بين الأفراد ؟

طالما كانت الفرائض والواجبات تستهدف صالح الأفراد فى تكوينهم وفى سيرهم نحو هدفهم فى المجتمع ، فإنهما فرائض وواجبات لاتقبل الاعتراض فى التنفيذ ، ولا تقف فى طريق أدائها رغبة تسيطر على المدللين والكارهين لقبول بعض القيود على تصرفهم وسلوكهم .

إن القديم والجديد لايلعب دوراً فى القيمة الذاتية التى يحملها الواجب المفروض . وإن الرجعية والتقدمية لا يدخلها فى الحكم على مايجب أن يعمل أو مايجب أن يترك ، إلا ذلك الذى يريد أن يبرر موقفه فى تصرف من التصرفات يخالف عرف المجتمع الذى يعيش فيه ، ولا يستطيع بحكم تحكم رغبة خاصة فى نفسه أن يتفادى هذا التصرف .

إن القديم أو الجديد إذا استسيغ فى حمل المرأة على أن تجاوز مايفرض عليها من زى معين فى وقت معين مسايرة لطبيعتها فى لفت نظر الرجل إليها ، فإنه إذا أطلقت خلة القديم أو الجديد على المبادىء العامة التى تقوم عليها إنسانية الإنسان فإنها لاتغير من واقع هذه المبادىء ولا من قيمتها .

والصوم عبادة من العبادات أو صورة من صور الواجب الذى لا يتخلف عن هدفه بمضى الأفراد أو باختلاف الجيل .

ولكنها الرغبات والأهواء هي التي تكوّن هذه المبادىء بما يحمل الناس على الاستخفاف بها أو الإقبال عليها .

والإنسان بهواه قد يغير مجرى التوجيه في المجتمع ، ولكنه لايستطيع بحال أن ينال من المبادىء والقيم التي تميز الإنسان ، والتي تجعل لمجتمعه طابع المجتمع الإنساني صاحب المستوى الفاضل .

إن مايحبه الإنسان أو يكرهه شيء آخر وراء مايجب عليه أن يفعله . والخلط بين ما يحب أو يكره من جانب ، وبين ما يجب فعله من جانب آخر : سنة الإنسان الذى لايفصل بين القيم الذاتية ، والذى هو في دور الانتقال من مرحلة البدائية إلى مرحلة الرشد في الإنسانية .

وما يجب أن يفعل أمر يقر به الرشيد ، ويلزم نفسه بأدائه ، وله متعة في أدائه ، لأنه استطاع عندئذ أن يكون ذا سيادة على تصرفات نفسه .

ماذا بعد رمضان؟

اطمئنان الصائم وخداع المفطر :

عندما يقترب رمضان شيئاً فشيئاً من نهايته ، فالمسلمون فيه واحد من اثنين: واحد قام بما كلف به من فريضة الصوم فيه فهو فرح باقتراب هذه النهاية . وواقع الأمر هو فرح باقتراب إعلان نصره ، وبنفاذ مشيئته ، وبنجاحه فى اختيار إيمانه وإرادته . وآخر تقاعد عن أداء هذه الفريضة ، ولكنه مع ذلك يعلن عن نفسه ، كأنه صاحب مشيئة وإيمان ، فيظهر عدم الاكتراث بالصوم والصائمين . وحقيقة الأمر أنه فى ذلك لا يعبر عن مشيئة وإرادة له ، وإنما يحاول إخفاء إحساسه الداخلى بالضعف والهزيمة . وهكذا كل إنسان به ضعف أو نقص يأتى بعكس مظهر الضعف والنقص ، ويبالغ فى ذلك محاولا أن يغطى ضعفه ونقصه فى الحياة . وهذه المبالغة نفسها هى التى تكشف عن ضعفه الحقيقى ونقصه الحقيقى .

إن الذى يفطر جهاراً فى رمضان ، والذى يستخف فى حديثه بغيره لأنه يصوم ، والذى يتندر بفريضة الصوم ، وبتشريع الصيام ، والذى يصفه مرة بالرجعية ، وأخرى بعدم ملاءمته لعصر الحضارة والذرة — هذا الذى يفعل ذلك — يأتى به ، لا تعبيراً عن عقيدة أو رأى صحيح ، ولكن تعبيراً عن خجل ، وتغطية لفشله فى أن يحزم أمره ، ويملك زمام نفسه ، شأن الإنسان المكتمل فى انسانيته . وكلما أمعن فى الاستخفاف بفريضة الصوم ، كلما كان شعوره النفسى الداخلى أقرب إلى شعور القلق الذى ارتكب أمراً منافياً لآداب الجماعة ، ولخصائص الإنسانية ، وهو يحرص مع ذلك على أن يبقى من أفراد الجماعة وعلى أن تكون له خصائص الإنسانية ، وهى خصائص من له إيمان ومشيئة . هذا إنسان لم يعرف قيمة نفسه ، وإنه الخزى ، أو عدم الاستحياء ، هو الذى يدفعه إلى هذا الموقف الكريه .

اثر الصوم فى حياة المسلم :

ولـكن : ليس كل من صـام قد أدى واجب الصوم . إن الذى يؤدى فريضـــة الصيام حقيقـة هو الذى تهيأت نفسه لاستقبال حياة ما بعد رمضان ، بنفس الروح التى عاش بها أثناء صوم هذا الشهر المبارك . هو الذى يستقبل حياة ما بعد رمضان ، وما يقع فيها من أحداث بروح صاحب العزم ، وصاحب الأمل فى أن يتغلب على أحداثها وصعابهـا ، بروح ذلك الذى لا ييأس من توالى العقبات فى حيـاته وحياة أمته . يروى أبو هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه يقول : « **رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع ، ورب قائم ليس له من قيامه الا السهر** » . وإذن ليس له أثر الصوم وفائدته ، وإذن لم يتجاوز صومه فمه وبطنه إلى إعداد نفسه وقلبه . والصائم الذى ليس له من صيامه إلا الجوع هو ذلك الذى فهم الصوم : أنه إمساك عن الأكل والشرب فقط . ولذلك سيستقبل حياة ما بعد رمضان على أنهـا حياة الأكل والشرب فحسب . فإن واجهته شدة ، أو أصيب بمكروه ، أظلمت الدنيا فى عينيه ، وعلى وجهه أمارات السخط والتبرم ، وربما أمارات اليأس والتسليم . لأنه لم يشعر فى رمضان بإعداد الصوم له لمواجهة مثل هذا المـكروه بروح القوى فى مشيئته ، والمثابر الصابر فى تغلبه على صعاب حياته . ويومئذ يكون شأنه شأن من سهر الليل وتهجد فيـه ، وأطال يقظته يتعبد الله ، دون أن يلحق نفسه أثر عبادته فيه ، من : الصفاء ، والاطمئنان ، والبعد عن الدنيا والمحرمات ، والقوة فى سلوك طريق الله ، وهو طريق الحق ، طريق الأمة والجماعة .

إن سلوك الإنسان فى حياة ما بعد رمضان ، لدليل على قيمة صومه فيه ، إن كان للأكل والشرب ، أو للإعداد والتهيئة لظروف الحيـاة المختلفة . والصوم الصحيح هو صوم الإعداد والتهيئة . ولذلك تنصح السنة بصوم ثلاثة أيام من كل

شهر ، حتى يكون الإنسان دائماً على أهبة عملية لاستقبال أحداث الحيـاة فى كل وقت ، بنفس المطمئن المؤمل ، غير اليائس المستسلم عند مفاجأة الأحداث له .

عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه يقول : **« صوم ثلاثة من كل شهر ورمضان الى رمضان ، صوم الدهر كله »** . أى إذا صام الإنسان رمضـان من كل عام ، وأضاف إلى صومه ثلاثة أيام من كل شهر كان فى انتفاعه بالصوم فى حيـاته بمنزلة من يصوم الدهر كله ، أى لازمته روح الصائم فى الحياة ، وهى روح القوى بإيمانه ، الذى يواجه الأحداث فى شجاعة ، والذى مرن على أن يعطى من نفسه ، وأن يحكم نفسه فيحرمها مما تهوى ، ليتغلب على ما يذله ويستعبده .

إن حياة الإنسان حلقات متواصلة . فما يؤدى اليوم من خير يجب أن يكون مقدمة تستتبع خيراً آخر . وما يقع من تجربة نافعـة يجب أن يستمر أثرها إلى ما بعدها . وحياة ما بعد رمضان يجب أن تـكون متصلة بآثار هذا الشهر المبارك .

شهر الحج

عندما يأتى شهر ذى الحجة — يحمل معه ذكريات : بعضها يتعلق بتاريخ البشرية فى صلتها بهداية الله إياها . فهو يذكر بأول بيت وضع للناس مباركاً وهدى للعالمين : «إنَّ أوَّلَ بيتٍ وُضِعَ للناس لَلذى بِبَكَّةَ، مُبارَكاً وَهُدًى لِلعالمينَ. فيهِ آياتٌ بيِّناتٌ مقامُ إبراهيمَ ، ومَن دَخَلَهُ كانَ آمناً[1]»..يذكر بموطن الرسالة الأولى للبشرية من قبل الله جل شأنه . وهى رسالة الهدى وتوضيح السبيل للحق . تلك الرسالة التى جاء بها سيدنا إبراهيم عليه السلام تعرض الدعوة إلى التوحيد فى عبادة الله وعدم الشرك به ، وحملها من بعده جميع رسل الله فى الأرض ثم أكدتها رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم : « وَمَا أرْسَلْنَا مِن قبْلِكَ مِن رَسُولٍ إلا نُوحِى إليه أنَّه لاَ إلهَ إلاَّ أنَا فَاعْبُدُون[2] » . . « إنَّ إبراهيمَ كانَ أمَّةً قانتاً لله حَنيفاً ولَم يَكُ مِنَ المُشْرِكينَ . شَاكِراً لأنْعُمه اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إلى صراطٍ مستقيم . وآتيْناهُ فى الدُّنيَا حَسَنَةً وإنَّه فى الآخرَةِ لِمنَ الصَّالحينَ . ثُمَّ أوحَيْنَا إليْكَ أن اتَّبِع مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفاً ومَا كانَ مِنَ المشْرِكينَ[3] » .

وبعض هذه الذكريات يتصل بالحج والنداء إليه كعبادة فرضها الله على القادر عليه . وهو الحج إلى هذا البيت المبارك : « ولله عَلَى النَّاسِ حجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إليه سَبِيلاً[4] » .. « وَأذِّن فى النَّاسِ بِالحَجِّ يأتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ[5] » .. أى يأتوك من قريب ومن بعيد .

وفرضه الله إحياء لذكرى هذا البيت وتمجيداً لشأنه فى الرسالة الإلهية . فمن هذا البيت ظهرت أول دعوة قدسية إلى التوحيد ، ومن هذا البيت انتهت آخر

---

(١) آل عمران ٩٦ ، ٩٧ . (٢) الأنبياء ٢٥ .
(٣) النحل ١٢٠ — ١٢٣ . (٤) آل عمران ٩٧ (٥) الحج ٢٧ .

رسالة سماوية تدعو إلى التوحيد وتؤكده . ولذا كانت شعائر الحج فى الإسلام صورة صادقة لهذه الذكرى التى تحكى ما وقع فى عهد ابراهيم وابنه إسماعيل من بعده عليهما السلام: « ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ . لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ [1] » .

الحج تعبير عن وحدة المجتمع :

ودعوة التوحيد التى حملتها الرسالات السماوية المتتابعة من عهد ابراهيم إلى عهد محمد عليهما الصلاة والسلام إن اتجهت مباشرة إلى عدم إشراك غير الله مع الله فى عبادته — فهى تتجه اتجاهاً غير مباشر إلى تقريب النفوس البشرية بعضها من بعض وتوكيد أواصر الأخوة بينها ، ودفع أسباب الفرقة والخصومة فى علاقتها، حتى يبدو مجتمع الإنسانية مجتمعاً واحداً ، وحتى تبدو النفوس البشرية كأنها نفس واحدة فى تعاونها وترابطها .

ومن هنا كانت فريضة الحج فى الإسلام هى تلك الفريضة التى يعبر مظهرها الخارجى تعبيراً قوياً عن هذا الاتجاه . إذ لا أدل على قوة هذا التعبير من اجتماع حجاج بيت الله الحرام فى صعيد واحد هو صعيد البيت الحرام ، وفى وقت واحد هو وقت الوقوف بعرفات ، وعلى نداء واحد هو: «لبيك اللهم لبيك».. أى استجابة لك وطواعية لندائك قدمنا إلى هذا المكان ، ووقفنا فى هذا الوقت لنتجه إليك بقلوب واعية يلتقى بعضها مع بعض ، كما تلتقى أجسامنا ويلتصق بعضها ببعض ، ولنعاهدك على أن نحرص على هذا الوضع بيننا ماحيينا .

لا أدل على قوة هذا التعبير من طواف الحجاج حول الكعبة فى صورة تنمحى فيها فوارق الأبعاد والاتجاهات : ليس فيها شرق وغرب ولا شمال وجنوب

---

(١) الحج ٣٢ ، ٣٣ .

كما تنمحي في لقاء بعضهم ببعض هنـاك : فوارق الجنس والقبيلة .. فوارق اللون والشكل ، وفوارق الوطن والإقامة .

شهر الحج بما فيه من الذكريات الخالدة التي تعود على البشرية بالخير، ويتحقق لها أهم غاياتها من التعاون والترابط — كان الشهر الذي يحتفل فيه بعيد الأضحى. وهو العيد الذي يقع عقب الانتهاء من أداء شعائر الحج ومناسكه . والاحتفال بهذا العيد هو في واقع الأمر احتفال بهذا اللقـاء الذي ابتعدت عنه مظاهر المفارقات المختلفة واقتربت فيه القلوب بعضها من بعض . هو احتفال بالوحدة والتوحيد معاً .

إن شهر الحج من كل عام هو شهر البعث لعقيدة هي عقيـدة التوحيد ، وشهر إيقاظ الوعي لقوة الروح والإيمان ، وشهر الاحتفال بعهد هو عهد الإخاء والفداء .

شهر الحج أكثر من زمن ووقت محـدد كجزء من أجزاء السنة . هو شهر يربط إنسان الأرض بالسماء ، ويدفعه إلى السعي نحو المكان الذي اتصلت فيـه القوة الإلهية بالبشرية لأول مرة : ليجدد الصلة بينه وبين الله حتى يقوي ما بينه وبين أخيه الإنسان .

ولذا كان هذا المكان مباركاً وهدى للعالمين جميعاً ، وسيظل مباركاً وهدى للعالمين ، وفي كل وقت وكل جيل : « إنَّ أوَّلَ بيتٍ وُضِعَ للناسِ الذي ببكة مُبارَكاً وهُدًى للعالمين[1] » .

---

(١) آل عمران ٩٦ .

الحج وحدة فى المشاعر والآمال

وحدة المشاعر والآمال فى الحج : هدف من أهداف هـذه الفريضة التى نظمها الإسلام وجعلها عبادة مقررة فى حياة المسلمين .

إن مشاعر الحج هى مواضع مناسكه ومظاهر عبادته ، وأخصها البيت الحرام بمكة ، وجبل عرفات بالقرب منهـا . ومن البيت الحرام إلى عرفات ذهاباً وإياباً تؤدى مناسك الحج ، وهى الطواف حول الـكعبة ، والسعى بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفة إلى غروب شمس اليوم التاسع من ذى الحجة ، والنزول منه إلى المشعر الحرام — هو جبل المزدلفة بين عرفة ومنى — ورمى الجمار . وبهذا الرمى يبدأ الحاج فى التحلل من الإحرام الذى دخل بنيته فى هـذه العبادة الرئيسية بين عبادات الإسلام . والأمكنة التى يرتادها الحاج فى أداء فريضة الحج واحدة ، ومظاهر العبادة التى تؤدى فى هذه الأمكنة واحدة ، والشعار الذى يميز الحجـاج عن غيرهم من بقية المسلمين ، وهو شعار الإحرام واحد ، والنداء الذى ينادى به الحاج ربه أثنـاء أدائه فريضة الحج واحد ، وهو : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك » . وغاية هذا النداء هو الإقرار بالوحدة فى العبودية .

الحج يؤكد التآخى بين المسلمين :

والحج بهذا عبادة قصد بها الإسلام تأكيد الأخوة بين المسلمين : فى وحدة القلوب ، ووحدة الدعاء ، ووحدة المظهر . والحج بهذا عبادة تنصهر فيها الفوارق بين أجناس المسلمين وقبائلهم ، ومواطنهم ، ولغاتهم ، وألوانهم ، وثقافتهم ، ومنازلهم الاجتماعية ، لايتميز أحدهم عن الآخر بأنه انحدر من الجنوب ، والآخر انحدر من

الشمال ، أو هذا أتى من الشرق ، وذاك من الغرب . والطواف حول الكعبة — وهو ركن من أركان الحج — رمز هذا الانصهار . والوقوف بعرفة بعده فى وقت واحد يتساند فيه الكتف مع الكتف ، ويشترك فيه الفم مع الفم فى النطق بالطواعية والامتثال إلى الله : لبيك اللهم لبيك — مظهر آخر من مظاهر انصهار الفوارق الشخصية بين المسلمين .

إن مشاعر الحج تعرف المسلم بأخيه المسلم ، وتشرك المسلم مع المسلم فى التجاوب لدعوة الله ، وهى دعوة الإخاء والتعاون ، ودعوة المسلم لمن يسالم المسلمين ، ودعوة رد الاعتداء لمن يعتدى على المسلمين .

إن مشاعر الحج مواضع لقيا وتقريب : لقيا على نداء الحق ، وتقريب لما بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

والإسلام إذ يحرص بتلك المشاعر التى حددها لمباشرة الحاج عبادة الحج وأداء فريضته ، على أن يوقظ بها وعى الوحدة والالتقاء بين المسلمين : يحرص أيضاً على أن لا يكون أثرها وعياً مؤقتاً بشعور إخاء والتقاء مؤقت . ولذلك طلب منهم أن يستصحبوا أثر هذه المشاعر والمناسك أثناء الحج فى نفوسهم ، بعد الانتهاء منها ويبقوا عليها ويرعوها حق رعايتها أيضاً بعد الفراغ من هذه العبادة كلية . ويقول القرآن الكريم مخاطباً حجاج بيت الله : « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا(١) » . . أى لا تشغلوا نفوسكم بما كنتم تشغلونها به من قبل حسب عادتكم . وقد كان العرب قبل الإسلام إذا فرغوا من مظاهر الحج على نحو ما ألفوا فيه أيام الجاهلية عادوا فى الحديث عن مناقبهم ومفاخرهم ، وكانت كل قبيلة تذكر ما لها من أمجاد وتكثر من عرضها والإلحاح فى هذا العرض . وكان ذلك من أسباب بقاء عنصر القبيلة متحكماً فى الفرقة بين العرب ، وفى النزاع والخصومة

---

(١) البقرة ٢٠٠ .

فيهم . فلما جاء الإسلام طلب من المسلمين أن يكون حديثهم بعد قضاء مناسك الحج هو الحديث عن الله ، وأن يكون حدبهم على ذكره أشد من حدبهم على ذكر آبائهم في الفاخرة على نحو ما كان يفعل العرب في الجاهلية ، ووضع بذلك : الله في حياة المسلمين..مكان الآباء والأنساب في حياة الجاهلين . وقصد بذلك أن تبقى كلمة المسلمين موحدة ، وهي ذكر الله ، وأن تكون قلوبهم مجتمعة دوماً على الإيمان بواحد وهو الله ، وأن يكون هدفهم في الحياة شيئاً واحداً وهو نصرة الله .

وإذن : آمال المسلمين ليست موزعة وإنما هي واحدة ، كما أن مشاعر الحج ليست مختلفة متباينة .

والحج بذلك عبادة وحدت المشاعر والآمال . وهدف الحاج أثناء أدائه فريضة الحج ، هو هدفه لم يتغير بعد أن يؤديها ، هو : تذكر المثل الأعلى في الحياة والعمل على التقرب من هذا المثل . هو ذكر الله والعمل على أداء ما فرضه عليه . وما فرضه من عمل واجب ، وترك محرم ، فرضه لإيجاد الإخاء ، وتحقيق التعاون وصيانة السلم ودفع الاعتداء .

الحج عبادة . وكل مظهر فيها يبعث على الوحدة والتجانس . ثم أداؤها دافع قوي على بقاء الوحدة والتجانس بين المسلمين الذين تميزوا بعبادة المعبود الواحد .

هذا شأن المسلمين ، وهذه منزلة فريضة الحج في حياتهم . وهل لنا — نحن مسلمي اليوم — أن نتوحد فنذكر الله في حياتنا ، بدل أن نذكر آباءنا وما فرقنا به الأجنبي الدخيل علينا ؟ وهل لنا أن نفيد من مبادئ الإسلام في جماعتنا ونتميز به وحده من غيرنا جميعاً ، قبل أن يتميز بعضنا عن بعض بما طالبنا الإسلام بالقضاء عليه وهو التبعية لوحي العصبية والفرقة الشخصية ؟ .

إن الله في حياتنا هو المبدأ وليس الشخص ، هو رسالة القيم وليس اتباع الهوى .

الفصل الثاني

- اخلاق الفرد نحو نفسه .
- أخلاق الفــرد نحو مجتمعه .
- صــلة الزوجية .
- الأسرة : صلة الأولاد بالوالدين .
- الأسرة : صلة الأقارب .
- الجماعة وتنظيم علاقة الفرد فيها .
- مبادىء انسانية من حياة الرسول .
- التضافر والتعاون .
- التــواد .
- رعاية الجار .
- المــــروءة .
- انكار الذات .
- العزة والكرامة .
- فضيلة الصبر .
- الصبر عند الشدة .
- الصراحة والصــدق .

أخلاق الفرد نحو نفسه

أود أن أعرض فى هذه الصحائف للأخلاق القرآنية فى اتصالها بالفرد ، والأسرة ، والأمة ، والعالم الإنسانى كله ، بأن أوضح النظرة التى قامت عليها أخلاق القرآن إلى هذه الوحدات ، وكذا الغاية التى سعت إلى تحقيقها فى دائرة كل وحدة منها .

وأخذاً بالمنهج الذى أجملته الآن فى عرض أخلاق القرآن الكريم نتحدث هنا عن نظرة القرآن إلى الإنسان كفرد ، ثم عن الغاية التى قصد إلى تحقيقها فى جانبه من وصاياه الأخلاقية :

١ — يقول جل شأنه فى وصف الإنسان ، وفى تحديد نظرته إلى طبيعته الإنسانية : « واللهُ أخرَجكم من بُطون أمَّهاتِكُم لا تعلَمونَ شيئاً ، وجَعَلَ لكُمُ السمعَ والأبصارَ ، والأفئِدَةَ ، لعلَّكُم تشكُرُونَ(١) » . ويقول فى آية أخرى : « اقرأ باسْمِ ربِّكَ الذى خَلَق . خَلَقَ الإنسَانَ مِن عَلَقٍ . اقرَأْ ورَبُّكَ الأكرَمُ . الذى علَّمَ بالقَلَمِ . عَلَّمَ الإنسَانَ ما لم يعْلَم . كلا إنَّ الإنسانَ ليَطغَى . أن رآهُ استَغْنى(٢) » . فذكر الله سبحانه فى الآيتين الكريمتين معاً ثلاث حقائق : الحقيقة الأولى :

أن الإنسان يخلق من غير سابق توجيه معين يسير به فى هذه الحياة .

الحقيقة الثانية : أنه زود بمصدرين المعرفة : المصدر الأول ما فى طبيعته من حواس فى مقدمتها السمع والبصر، وما فى نفسه من فؤاد وبصيرة وحكمة ، وهو المصدر الذى أشارت إليه الآية الأولى . والمصدر الثانى هداية الله وتوجيهه فى كتابه المنزل ، وهو ما أشارت إليه الآية الثانية وصرحت به أيضاً أمثال هذه

---

(١) النحل : ٧٨ (٢) العلق : ١ — ٧

الآية : «يأيها النَّاسُ قد جَاءتكم مَوعظةٌ من ربكم، وشفاءٌ لما في الصدُورِ، وهُدًى ورحمةٌ للمؤمنين(١)» .

الحقيقة الثالثة — أنه مع وجود هذين المصدرين لتزويد الإنسان بالمعرفة والتوجيه السليم فى الحياة — الإشارة إلى أن الإنسان قد يميل عن اتباعهما وبذا يقل شعوره بوجودهما فى دائرة حياته ، ويبعدهما لذلك عن مجال النعم التى يجب أن يشكر عليها الله . ويشير إلى هذا التعقيب فى الآية الأولى ، قول المولى سبحانه «لعلكم تشكرون» . . وفى الآية الثانية : « كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى » . فقلة شكر الإنسان المولى جل وعز أو طغيان الإنسان ، ونسيانه فضل المنعم عليه كلية لا يكون إلا من مَيْلٍ ، أو انحراف عن اتباع الهدى والرشد فى التوجيه المنبعث من عقل الإنسان وحواسه وكتاب الله المنزل .

والسبب فى ميل الإنسان أو انحرافه عن هذين المصدرين فى التوجيه أن الحياة يدور فيها أمران متقابلان : زخارف الدنيا ومفاتنها ، أو القيم الأساسية الخالدة فى الحياة فيها . والاستمتاع بزخارف الدنيا ومفاتنها استمتاع عاجل ، ولكنه مؤقت ، والاستمتاع بالقيم الحقيقية استمتاع مؤجل ، ولكنه دائم . فبعض الناس يجذبه الأمر العاجل ، وهو بطبيعته سهل الانقياد . والبعض الآخر منهم يؤثر الآجل من الأمرين ويتحمل مشقته . وهو الذى يسلك فى عداد المكافحين الصابرين فى كفاحهم . ويصور أمر الفريقين قول الله تعالى : «فَخَرَجَ عَلى قَومِه فى زينتِه . قال الذين يُريدُونَ الحياةَ الدنيَا : ياليْت لنَا مثلَ ما أُوتى قارُون ، إنهُ لذو حظٍ عظيم . وقالَ الذين أُوتُوا العِلم : ويلكُم ، ثوابُ اللهِ خيرٌ لمن آمَن ، وعَمِل صَالحاً ولا يلقَّاها إلا الصَّابرُون(٢)» .

ولكن مع وجود هذا المغرى الفاتن فى الحياة الذى يجذب إليه فريقاً من

---

(١) يونس : ٥٧ (٢) القصص : ٧٩ ، ٨٠

الناس طواعية وفى يسر — فإن الله قد كفل الوقاية من فتنته ، وجعل سبيل ذلك تذكره سبحانه والانتجاء إلى هدايته . يقول جل شأنه : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ ، وَنَعلمُ مَا تُوَسوسُ بهِ نَفسه ، وَنحنُ أقرَبُ إليهِ مِنْ حَبلِ الوَرِيد» . ومعنى ذلك أن الله ليس بعيداً عن الإنسان إذا ما التجأ إليه وطلب نصرته عند خشيته التأثر بزخرف الحياة ، وعندما تتردد النفس فى الإقدام على الافتتان بها .

* * *

خلق الله الإنسان إذن غير حامل معه توجيهاً سابقاً ومعرفة خاصة مصاحبة له ، ولكنه زوده بمصدرين للمعرفة يستطيع أن يسير فى ضوئهما فى حياته الخاصة والعامة ، على هدى وبصيرة : مصدر ركب فى طبيعته وهو عقله أو فؤاده وحواسه ، ومصدر آخر أوحى به رب الخلق أجمع لهداية الإنسان فى كونه ، وهو كتابه .

وهداية الله للإنسان فى كونه بالنسبة للفرد يجب أن تكون لصالحه . لأن الله غنى عن العالمين . وصالح الإنسان لا يتحقق فى ازلافه فى الحياة ليستمتع بها ما وسعه الاستمتاع ، ولا بأنه يراه وسيلة من وسائل تحقيق المتعة . لأن تلك غاية حيوانية ، لا تجعل الإنسان يعيش كإنسان ، وأن تكون لحياته طابع الإنسانية .

وفى آداب القرآن ، وفيما رسمه للفرد كطريق لتصرفه الفردى كى يحقق به صالحه الخاص ، نجد أن هذه الآداب تتركز فى أربع جوانب وهى كل ما يتصور فى دائرة الإنسان كفرد .

الجانب الأول : فيما يتصل بكلام الإنسان وتعبيره ومنطقه . ففى قوله تعالى : « وَقُل لِعبادِى يقُولوا التى هى أحسَنُ إنَّ الشَّيطان ينزغُ بينَهُمْ ، إن الشيطان كانَ للإنسانِ عدُوًّا مبيناً[1] » يحثه على التعبير بالحسن . ورتب عليه لو أخذ

---

(١) الاسراء : ٥٣

الإنسان به نفسه تفادى النزاع والخصومة . وفى قوله : « وإذا قُلتم فاعدِلُوا ولو كانَ ذَا قُربَى[1] » .. أوجب عليه الاتزان فى القول ، والعدل فى المنطق بما بين الناس عند تحديد أمورهم . وأوجبه مهما كانت الدوافع التى من شأنها أن تميل بالإنسان وتنحرف به عن العدل والاتزان : « ولو كان ذا قربى » .

الجانب الثانى : يتعلق بسلوك الإنسان ، وقد رغب اليه أن يكون سلوكه مهذباً وهو السلوك الذى يبعد صاحبه عن إيذاء غيره ، وإيذاء نفسه . يقول الله جل شأنه « ولا تُصَعر خَدكَ للناسِ ، ولا تمشِ فى الأرضِ مرحاً[2] » .

ويقول : « واقْصدْ فى مَشْيِكَ ، واغضُضْ مِن صَوْتِكَ ، إنَّ أنكَرَ الأصْواتِ لصَوتُ الحَمِيرِ[3] » ..

ويقول : « يأيُّها الذينَ آمنُوا ، إذَا قِيلَ لكُم تفَسَّحُوا فى المجالِسِ فافسَحُوا[4] » ..

ويقول : « فإن أَمِنَ بعضُكُم بَعْضاً فليُؤَدِّ الذى اؤتُمِنَ أمانَتَهُ[5] » ..

ويقول : « ولا تَنسَوا الفَضلَ بَينَكُم[6] » ..

ويقول : « ولمن صبر وغَفَرَ ، إن ذَلِكَ لمِنْ عَزْمِ الأمورِ[7] » .

والجانب الثالث : ما يرتبط باطمئنان نفس الإنسان ، واستقراره فى الحياة وذلك بأن يتذكر الله ، على أنه وحده الذى يركن إليه ، وأنه وحده الذى يستطيع دفع الملمات ، وأنه وحده الذى لا يخلف وعده فيما وعد به المؤمنين الصابرين . يقول جل شأنه : « الذينَ آمَنُوا وتَطمئِنُّ قُلوبُهم بذِكرِ اللهِ ، ألا بذِكرِ اللهِ تطمئنُّ القلوبُ[8] » .

(١) الأنعام : ١٥٢
(٢) لقمان : ١٨
(٣) لقمان : ١٩
(٤) المجادلة : ١١
(٥) البقرة : ٢٨٣
(٦) البقرة : ٢٣٧
(٧) الشورى : ٤٣
(٨) الرعد : ٢٨

الجانب الرابع : فيما يتصل بموقف الإنسان الفرد من أحداث الحياة فى جماعته التى يتوقف عليها تحديد مصيرها . فلم يرض عن أن يكون موقف الإنسان منها موقف المستغل ، والمتردد ، وموقف النفعى الأنانى ، يخذل جماعته وأمته فى سبيل نفعه وأنانيته ، ولا يحقق فى الحياة بعمله كفرد إلا ما يعود عليه وحده . يقول الله سبحانه وتعالى : «وإنَّ منكُم لَمَنْ ليُبَطِّئَنَّ : فإنْ أصابَتْكُم مُصِيبةٌ ، قال : قد أنعَمَ اللهُ عَلَىَّ ، إذْ لَمْ أكُن معَهُمْ شَهِيداً . ولئِن أصابَكُم فَضْلٌ مِن اللهِ ليَقُولَنَّ : — كأن لَمْ تَكُن بينَكُمْ وبينَهُ مَوَدَّةٌ — يا ليْتَنى كنتُ معَهُمْ فأفُوزَ فوْزاً عظِيما»(١) .

وصاحب هذا الموقف فى القرآن ليس ممن يلبون النداء لأحداث الجماعة التى يتوقف عليها مصيرها ، نصراً أو هزيمة .. سعادة أو شقاء .. ليس ممن أطاعوا الله والرسول على نحو ما يقول الله تعالى : « ومَن يُطعِ اللهَ والرسُولَ فأولئكَ مَعَ الذينَ أنعَمَ اللهُ عليهم مِن النَّبيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهدَاء ، والصَّالِحينَ ، وحسُنَ أولئكَ رفيقاً(٢) » .

* * *

والقرآن الكريم فى وصاياه الأخلاقية للفرد نحو نفسه يبغى أن يكون إنساناً مهذباً فى قوله .. مطمئن النفس والبال فى حياته .. إيجابياً فى الحياة بعمله ، ولكن بحيث لا يقصر إيجابيته على منفعته وحده . والمؤمن بالإسلام هو ذلك الإنسان .

---

(١) النساء : ٧٣ (٢) النساء : ٦٩

أخلاق الفرد نحو مجتمعه

الإنسان كائن من كائنات هذه الحياة الدنيا ، ويعيش فى هذه الحياة نفسها ، ويسعى فيها ، ويرتبط بما فيها مما من شأنه أن يكون له تأثير عليه ، وبحيث لا يستطيع هو أن ينفك عنه انفكاكا تاماً .

وكائن حاله هذه الحال ليس من المستطاع أن يكلف تكليفاً يجازى عليه باعتزال هذه الحياة ، فيثاب باعتزالها تماماً ، ويعاقب على تعلقه بها أدنى تعلق . والمستطاع إذن أن يباح له تحصيل ما فيها ، حتى يتنفس فى جو غير مصطنع ، ويعيش فى أسلوب ينسجم مع طبيعته . والمنطق إذن أن يستمتع بالحياة الدنيا وزينتها ومفاخرها من مال وولد ، وجاه .

ولكنه كإنسان أيضاً له كذلك من طبيعته لون آخر من الحياة يميزه عن حياة الحيوان والكائنات الأخرى التى تشاركه فى النمو والحركة ، ويتميزهو عنها بالمنطق والإدراك . هذا اللون من الحياة هو حياة الجماعة ، أو الشعور النفسى بالمشاركة وتبادل الإحساس بالوجود المشترك مع غيره من نظرائه فى الطبيعة والتكوين ، وهم بنو الإنسان .

أمران طبيعيان للإنسان ، تدفع إليهما طبيعته ووجوده الخاص وهما : أولا — أن يعيش فى الحياة ليحفظ لنفسه البقاء . وثانياً — أن يشارك غيره من نظرائه فيما يوجد فيها من مقومات العيش ، وفيما يتخذ من وسائل لتحصيله .

وارتباطه بهذه الحياة إلى هذا الحد يدفعه إلى تحصيل أسباب العيش فيها . وشعوره الطبيعى بمشاركة غيره له يدفعه إلى محاولة الملاءمة بين هذين الجانبين الطبيعيين فيه : بين أن يعيش ليحفظ ذاته .. وبين اضطراره لأن يشاركه غيره فى مقومات العيش

وحدها،وعن طريقها يخضع الضعيف للقوى . وعندئذ يمد الضعيف سلامة ومتعة من متع الحياة للقوى .

وكثيراً ما تكون القوة المادية : قوة الأجسام أو قوة العصبيات ، أو وسائل العدوان — هى وسيلة الملاءمة بين رغبة الإنسان فى الحياة ، واضطراره لأن يشاركه غيره فى الوجود .

* * *

والقرآن الكريم فيما خطه من منهج أخلاقى للفرد نحو مجتمعه اعتبر الإنسان يسيطر عليه هذان الجانبان ، ويقومان طبيعته الإنسانية . وأن فى الإنسان ما يدفعه إلى أن يعيش ويحافظ على كيانه وبقائه ، وأن فيه أيضاً ما يدفعه إلى الاتصال بغيره من نظرائه ، إما اتصال احتكاك ونفرة ، أو اتصال تعاون ، وسعى منتظم مشترك .

وما يوجد فى أدب القرآن بالنسبة لأخلاق الفرد نحو مجتمعه — قام على هذا الاعتبار . وهدف إلى الملاءمة بين الجانبين فى الإنسان ، دون أن يكون هناك تمجيد للقوة المادية كوسيلة للملاءمة ودون أن تكون الصورة النهائية للملاءمة هى الاحتكاك والنفرة بين فرد وآخر أو بين أفراد وآخرين .

وبهذا الطريق الذى رسمه القرآن للملاءمة الكريمة ، وهى الملاءمة المؤدية إلى التعاون والمشاركة ، المنبعثة عن رضا واقتناع — نرى أن الإسلام وجدها ضرورة واضحة لصالح الأفراد أنفسهم ، وفى صلاتهم بعضهم ببعض ، التى ينشأ عنها مجتمعهم وجماعتهم . يقول الله تعالى :

« وابتغ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ،
ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيا ،
وأَحسِن كما أَحْسَنَ اللهُ إليْكَ ،
ولا تَبْغِ الفَسادَ فى الأرضِ ، إنّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفسِدِين[1] » . .

---

(١) القصص : ٧٧

فنصح جل شأنه أن يقصد الإنسان إلى الدار الآخرة فيما يصيبه من نعم فى هذه الحياة . وشرح ذلك بأن يكون تصرفه إزاء هذه النعم تصرفاً مزدوجاً :

أولا :—

(أ) أن لا ينسى حق نفسه فيها ، فقال : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » ..

وثانياً :—

(ب) أن لا ينسى حق غيره فى جماعته ، وذلك بأن يحسن إليه من هذه النعم، ثم مع ذلك بأن يحول دون أن تطغى عليه فيفسد فى الأرض ويثير بسببها الشرور والآلام الإنسانية : « وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ».

وبتقرير القرآن حق الإنسان فى الانتفاع بالدنيا ونعمها.. ثم بطلب أن يحسن إلى غيره فى جماعته ، وبأن لا يتخذ من النعم التى حصلها وسيلة للإفساد فى المجتمع فى أية صورة من صور الإفساد — يكون قد لاءم بين ذات الإنسان كفرد ، وبين غيره كمجتمع .. وفى الوقت نفسه بنى هذه الملاءمة على نظرة واقعية إلى الطبيعة الإنسانية وما تنطوى عليه من قوتين تدفعان الإنسان إلى سعيه ، دفعاً قوياً ، وإن كان هذا الدفع غير متكافىء فى الحياة : قوة المحافظة على الذات والنفس ، وقوة الميل إلى مشاركة الغير .

وصورة الملاءمة التى ينصح بها الإسلام بين هاتين القوتين فى الإنسان تدل على حرص الإسلام على التعادل بين هاتين القوتين ، أو بالأحرى تدل على رغبته الأكيدة فى عدم سيطرة جانب الذات على جانب المجتمع فى طبيعه الإنسان .

وآيات كثيرة أخرى فى القرآن الكريم تدل على أن حق الإنسان فى الاستمتاع بهذه الحياة حق مشروع ، لا مفر من تقريره ، موحى من خصائص ذاته . على أن هذا الحق المشروع يجب أن لا يؤدى إلى إهمال حق مشروع آخر بحسب طبيعة الإنسان نفسه أيضاً ، وهو حق المجتمع أو حق الآخرين معه .

فمن ذلك قول الله جل شأنه : « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى ، للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون[1] » وقوله : « المالُ والبنُون زِينةُ الحياةِ الدّنيا ، والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عندَ ربِّكَ ثواباً وخيرٌ أملا[2] » .

فقد تضمن كل من الآيتين الكريمتين حق الأفراد فى الاستمتاع بمتع هـذه الحياة والسعى إلى تحصيلها . وذلك ما يشير إليه صدر كل آية منهما وهو : « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا » فى الآية الأولى .. « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » فى الآية الثانية . كما تضمنتا حق الجماعة فى المشاركة فى هذه النعم . وهـذا ما يشير إليه الباقى فيهما . وهو : « وما عند الله خير وأبقى » فى الآية الأولى .. « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » فى الآية الثانية . إذ الثواب الأخروى عند الله مرتبط أيما ارتباط بأداء الفرد حق غيره ، وحق مجتمعه . لأن أداء مثل هذا الحق هو الذى يشق على النفس أداؤه . لذلك طلب تهذيب النفس عن طريق القيادة : يهدف إلى تمكينها من أن تؤدى حق الغير أو حق المجتمع فى سهولة ويسر ، وفى رضاً واطمئنان . يقول جل شأنه :

« والذينَ صَبروا ابْتغاءَ وَجْهِ رَبهم ، وأقامُوا الصلاةَ ، وأنفقوا مما رزقناهم سِراً وعلانيةً ، ويَدْرأون بالحسنةِ السيئةَ ، أولئك لهم عُقْبى الدار[3] » .

والقرآن الكريم فى تعبيره عن أداء حق الغير أو حق الجماعة : تارة يعبر عنه

---

(١) الشورى : ٣٦ (٢) الكهف : ٤٦
(٣) الرعد : ٢٢

بطلب الإحسان كما فى قوله تعالى : « وأحسن كما أحسن اللهُ إليك[1] » وتارة أخرى يعبر عنه فى صورة أمر آخر كقوله : « وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسئولا[2] » .. وقوله « وأوفوا الكيلَ إذا كِلتم وزنوا بالقِسطاسِ المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا[3] » .

وقد يعبر عن ذلك فى صورة نهى ، كقوله تعالى : « ولا تأكلُوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدلُوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون[4] » .

فهنا طلب من أفراد المؤمنين أن يفسحوا الطريق لتحقيق العدل . وذلك بأن يتجنبوا السعى للاستيلاء على حق الآخرين بطريق الغش والتدليس .

وإذا عبر القرآن فيما يتصل بأداء حقوق الغير فى صورة الأمر والإيجاب كان مؤدى التعبير : أن الإتيان بالمطلوب فيه مصلحة وإحسان للمجتمع ، وإذا عبر عنه فى صورة النهى كان مؤدى التعبير : أن فى إتيان المطلوب فساداً وفناء للمجتمع .

وأخلاق الفرد نحو مجتمعه فى آداب القرآن الكريم ترسم الأفراد : كيف يلبون مطالبهم ورغباتهم فى الحياة ، ثم مع ذلك يستطيعون أن يكوّنوا علاقات مع غيرهم فى المجتمع ، لا اعوجاج فيها ، ولا زيف ، ولا خداع ، ولا اغتصاب . وإنما هى علاقات قائمة على الرضا والاطمئنان ، وفيها متعة تفوق المتع المستهلكة فى الحياة تحقيقاً للرغبات الخاصة .

---

(١) القصص : ٧٧ (٢) الاسراء : ٣٤
(٣) الاسراء : ٣٥ (٤) البقرة : ١٨٨

صلة الزوجيـــة

تحدثنا عما رسمه القرآن الـكريم لأخلاق الفرد نحو نفســه ، ونحو مجتمعه .
وذكرنا أن ما رسمه القرآن فى هذا الشأن تحديد للطريق الذى إذا سلكه الفرد
كان إنساناً مهذباً : لاتتحكم فيه طبيعته الفجة ، ولا تسيطر عليه روح الانفرادية .
كما هو تحديد لطريق التعادل بين القوتين اللتين تدفعان الإنسان فى تصرفه بنسبة
غير متكافئة ، وهما قوتا شهوته وعقله فى حال سلوكه نحو نفســه .. وقوتا محافظته
على بقاء نفسه ومشاركته فى مجتمعه .

والفرد الذى يطلب منه القرآن الـكريم أن يكون ذلك الإنسان المهذب فى
السلوك الفردى أوالاجتماعى يستوى فيه الذكر والأنثى . يقول الله تعالى : « وَمَن
يَعْمل من الصالحات مِن ذَكرٍ أَوْ أنثَى وَهو مُؤْمِن فأولَـئك يَدخلُون الجنةَ
ولا يُظلمونَ نَقيراً [1] » . فالآية تنص على أن جزاء العمل الصـالح هو دخول
الجنة ، وأن الذكر والأنثى فى ذلك سواء .

وإذا تحدثنا الآن عن الأخلاق فى أدب القرآن التى حدد بها علاقة الزوجين
بعضهما ببعض فإنا فى واقع الأمر نضيف إلى أخلاق القرآن بالنسبة للفرد نحو نفسه
ونحو مجتمعه : ما يوصى به الله جل شأنه فى كتابه العزيز بالنسبة للفرد كزوج
وكزوجة . وإذن أخلاق الزوجية فى أدب القرآن الـكريم هى :

١ — أخلاق الفرد نحو نفسه ،

٢ — وأخلاق الفرد نحو مجتمعه ،

---

(١) النساء : ١٢٤

٣ — وأخلاق الفرد كزوج .. أو كزوجة بالنسبة لطرفه ، الآخر .

فإذا طلب من كل من الزوجين كفرد أن يكون مهذباً فى سلوكه نحو نفسه ونحو الآخر ، وأن لا يرجح شهواته على عقله ، ولا حفظ بقاء ذاته على مجتمعه : فإنه يطلب منهما بصفة الزوجية خاصة أن تصير معاملة كل منهما للآخر .. إلى « الانسجام » حتى ليبدو أن تصرفهما معاً تصرف ناشىء عن فرد واحد ، ولغاية واحدة ، وفى طريق واحد .

وهذه درجة فى السلوك والمعاملة فوق درجة سلوك الفرد نحو مجتمعه على العموم . يقول الله تعالى : « ومِنْ آياته أنْ خَلَقَ لكُم مِن أنفُسِكم أزواجاً لتسكُنوا إليها ، وجَعَلَ بينَكُم مَودَّةً ورَحمةً ، إنَّ فى ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يتفكرُون [(١)] » . ويقول : « هو الذى خَلَقكم من نفْسٍ واحدةٍ وجَعَلَ منها زوجَها ليسكُنَ إليها [(٢)] » فجعلت فى هاتين الآيتين غاية الزواج : أن يسكن كل من الزوجين الآخر ويطمئن إليه ، ويستريح لوجوده . ولا تكون حالة السكنى هذه وحالة الاطمئنان والراحة فى اجتماع فرد بآخر إلا إذا كان هنالك انسجام بينهما ، واقترب كل منهما نحو الآخر بسلوكه وطريقه فى الحياة .

والطريق أولا إلى هذا الانسجام : القصد فى اختيار الزوج والزوجة إلى صفات المؤمن ، لا إلى صفات أخرى بعد ذلك . والمؤمن هو صاحب الخلق الكريم . قال الله تعالى : « إنَّ أكْرَمَكُم عِنْد الله أتقاكُم [(٣)] » . والعامل فى استمرار هذا الانسجام أمران :

الأمر الأول : أن يحفظ الرجل على المرأة حياءها وخفرها ، وبالتالى يحفظ

---

(١) الروم : ٢٣ (٢) الأعراف : ١٨٩
(٣) الحجرات : ١٣

عليها كرامتها كأنثى . ويتجلى ذلك فى أن يعبر لها عن تقديره إياها بمنحة يتقدم بها إليها حين الرغبة فى إتمام الزواج بها . وذلك هو ما يؤخذ من قوله تعالى : « وآتوا النِّساءَ صَدُقاتِهن نِحلةً ، فإن طِبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هَنيئاً مَريئاً(١) » .

وتوكيداً لهذه المنحة وأن لها أثرها فى معنوية المرأة ثم فى منزلتها بعد ذلك لدى الزوج : جعل القرآن الكريم هذه النحلة — أى المنحة — حقاً للمرأة لا يسترد الرجل بعضها إلا عن طيب نفس ورضاء خالص منها .

هذه المنحة — وهى التى تعرف بالمهر — مهما قلت قيمتها — تشعر الزوجة فى حياتها مع الزوج ، بأن الزوج هو الذى سعى إليها . ولذلك فهى موفورة الكرامة وليس لأنوثتها عندئذ دخل فى الغض من قيمتها كإنسان ، كما كان الحال قبل الإسلام . وهى تعيش الآن بعد ذلك مع الرجل فى وضع إنسانى متساو .

وإذا استقر شعور المساواة فى الإنسانية بين الزوجين سارت حياتهما إلى الانسجام ، وأثمرت المحبة وعدم الفرقة ، ونتج عنهما خلف صالح ترعاه محبة الاثنين ، ويعيش فى ظل وئامهما ووفاقهما .

الأمر الثانى : فى الاحتفاظ بالانسجام بين الزوجين وإدامته : أن الحقوق والواجبات الزوجية متكافئة ومتعادلة بحسب طبيعة كل منهما . للزوج حقوق وواجبات .. وللزوجة حقوق وواجبات ، وكل واحد من النوعين من هذه الحقوق والواجبات متكافىء ومتعادل مع الآخر . ومعنى التكافؤ والتعادل هنا : أن الحياة الزوجية — كى تصل إلى غايتها وهى السكن والاطمئنان والانسجام — لابد من إسهام الرجل والمرأة فيها سواء ، ولابد من إفادة كل منهما معاً بهذه العلاقة :

---

(١) النساء : ٤

لا يضار الرجل بالعلاقة الزوجية فيؤدى ما عليه دون مساهمة من المرأة فيها ، ولا تضار المرأة فتؤدى ما عليها دون مساهمة من الرجل فيها .

وهذا التكافؤ فى الحقوق والواجبات هو الذى تشير إليه الآيتان الكريمتان: « الرِّجالُ قوّامُونَ على النساءِ بما فَضلَ اللهُ بَعضَهمْ على بَعضٍ وبما أنْفَقُوا من أموالهمْ (١) » .. « ولهنَّ مِثلُ الذِي عَليهنَّ بالمعرُوفِ ، وللرِّجالِ عَليهنَّ درَجةٌ (٢) » .

والمراد بالتماثل فى الحقوق والواجبات هو التكافؤ والتعادل بينهما . وليس أن تكون كل حقوق الرجل وواجباته هى ذات حقوق المرأة وواجباتها . فالرجل عليه الإنفاق مثلا ، ودور المرأة فى ولدها ورعايته فى تنشئته وفى حمله.. وهكذا . أما درجة الرجال على النساء فى الآية الثانية ، وهى القوامة والقيادة فى الآية الأولى : فنسبتها إلى الرجل لا تخرج دوره فى الحياة الزوجية عن أن يكون فيها مسهماً لتعادل هذه الحياة وانسجامها . وهى لذلك ضرورة إنسانية لصالح الزوجة ، وليست مظهراً على حسابها وفى سبيل تقويضها .

ولم يقصد القرآن مطلقاً فيما أوصى به فى علاقة الزوجين بعضهما ببعض: إلى هدم السكنى والاطمئنان التى جعلها غاية الزواج . وإلا كان غير منطقى مع مبادئه ، وكان غير مستقيم بعد ذلك: أن يحث على عدم الإضرار، وعلى الصبر والتؤدة إذا ما تعرضت الحياة الزوجية لأزمة طارئة، على نحو ما يوصى به فى قوله : « وعاشروهنّ بالمعرُوف ، فإن كرهتموهنّ فعسى أن تكرهُوا شيئاً ، ويجعَل اللهُ فيه خيراً كثيراً (٣) » .. فمطالبته الرجال بعدم الإضرار فى العشرة ، وبالصبر عند الضيق بالزوجات: ينبىء عن حرصه على الرغبة فى بقاء السكنى والاطمئنان . وما أوصى

(١) النساء : ٣٤ (٢) البقرة : ٢٢٨
(٣) النساء : ١٩

به القرآن فى سبيل الزواج وفى سبيل الحياة الزوجية: يقصد إلى حياة مثمرة ناجحة فيها اطمئنان وهدوء ، خالية من النفرة والنفور .. خالية من الكدر ، فضلا عن خلوها من الإضرار فى المعاشرة .

والقرآن الكريم فيما يتصل بالزواج - وإن هدف إلى انسجام - لم يقصد إلى الغاء أحد الطرفين فى صلة الزوجية . بل أبقى على فردية الاثنين ، ونظم الحياة بينهما ، بحيث تكون حياة مثمرة لصالحهما ولصالح الإنسانية . ومن أجل أنه أبقى على فردية الاثنين لا يسلب من أحدهما كفرد: حقوقه الشخصية بعد الزواج . ولهذا كان للفرد حقوق شخصية وحقوق زوجية فى الزواج .. وعليه واجبات متنوعة كذلك . فالزوجة مع يسارها : نفقتها فى مال زوجها . ومع ارتباطها بزوجها فى عقب الزوجية : فلها وحدها حق استثمار مالها بالطريقة التى تراها ، ولها كذلك حق احتفاظها فى العقيدة بدينها الكتابى ، ولها حريتها فى الرأى السياسى ، والتعبير عنه . ولكن كفالة هذه الحرية لها أو لزوجها فى حدود عدم الإضرار بأحد الطرفين فى الزوجية .

وأخلاق القرآن الكريم فى العلاقات الزوجية : هى الدعوة إلى الانسجام بين الزوجين . وسبيل هذا الانسجام بينهما التكافؤ فى الحقوق والواجبات فى نوعها ، لا فى شخصها وعينها .

أما الإضرار فى المعاشرة فالنهى عنه ليس وقفاً على العلاقة الزوجية ، وإن كان هنا أشد وألزم ، لأنه يتنافى تماماً مع الزواج وهدفه .

ورسالة القرآن فى علاقة الزوجين بعضهما ببعض: هى إقامة التوازن والتعادل، على نحو رسالته فى سلوك الفرد مع نفسه ونحو مجتمعه .

الأسرة ـــ صلة الأولاد بالوالدين

ونعرض للموضوع الثانى من موضوعات الأسرة ،وهو صلة الأولاد بالوالدين فى ضوء وصايا القرآن الكريم ، وما حدده من منهج أخلاق يقى هذه الصلة : الهزات والانحراف ، ويكفل لها فوق ذلك أن تسير إلى غايتها المرجوة ، وهى رضاء الوالدين وتمتعهما بأولادهما من جانب ، وحسن توجيه الأولاد نحو والديهم من جانب آخر .

والقرآن الكريم نظر إلى هذه الصلة فى صورتها الواقعية .. نظر إليها على أنها صلة مرجوحة من جانب ، وراجحة من جانب آخر : نظر إليها على أن الطرفين فى علاقة أحدهما بالآخر ليسا فى درجة متساوية ولا فى وضع واحد . فعلاقة الوالدين بأولادهما أشد وأقوى من علاقة الأولاد بوالديهم . فالوالدان ، حسب الفطرة السليمة ، يتفوقان فى ميلهما ومحبتهما لأولادهما على هؤلاء فى ميلهم ومحبتهم لوالديهم .

والصلة بين الأولاد والوالدين فى دائرة الميل والحب إذن صلة غير متكافئة وتعلق أحد الجانبين بالآخر تعلق غير متعادل .

يشير إلى هذا : أن القرآن فى مخاطبته الآباء لم يذكر أولادهم — فى آية من الآيات التى ذكرهم فيها — إلا على أنهم زينة ومتعة فى حياة والديهم. ومن أجل أنهم زينة أى متعة جعلهم بالنسبة لوالديهم: فتنة وموضع إغراء . ثم فيما ذكرهم لم يذكرهم إلا مقترنين بالمال ، على أنه أيضاً زينة ومتعة ، وموضع فتنة وإغراء . بل أنه فى بعض الآيات كاد يقصر الدنيا على الأولاد،والمال . يقول الله تعالى فى سورة الكهف : « المالُ والبنون زينةُ الحيَاةِ الدنيا » .. ويقول فى سورة التغابن :

« إنما أموالكم وأولادكم فتنة » .. ويقول فى سورة الحديد : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ، ولهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد » .

ومؤدى التعبير عن الأولاد بأنهم زينة الحياة ، أو فتنة الحياة ، أو موضع التفاخر فيها — أن تعلق الوالدين بأولادهم تعلق شديد بحيث يجعلهما لايريان فى الحياة الدنيا سواء فى مظهرها أو فى مخبرها ، إلا الأولاد ، فى جانب المال أو بعده .

بينما القرآن ذاته فى ذكره للوالدين يعبر عنهما بأنهما فى حياة الأولاد زينة أو موضع فتنة وتفاخر لهم . بل ذكره لها : يذكرهما على أنهما يجب أن يكونا موضع الرعاية من أولادهم . فقال فى سورة النساء : « وبالوالدين إحسانا ... » وفى سورة البقرة : « يسألونك ماذا ينفقون ، قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ... » .. وفى سورة لقمان : « ووصينا الإنسان بوالديه » .. وفى سورة العنكبوت : « ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ... » .. وفى سورة الأحقاف : « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا » .

وهذا الفرق فى تعبير القرآن الكريم عن الأولاد والوالدين : يدل على أن الصلة فى سيرها العادى بين الطرفين ليست متماثلة ، وأنها فى جانب الوالدين : أقوى منها فى جانب الأولاد .

ورسالة القرآن الأخلاقية فى هذه الصلة إذن يجب أن تبلغ الطرفين .. إلى التكافؤ والتعادل فى سلوك كل واحد منهما نحو الآخر .. يجب أن تغير مجرى سيرها العادى إلى خطوات متساوية بينهما حتى تكون نقطة الالتقاء وسطاً بين الإثنين ، فلا يمل أحدهما الآخر ولا يزهد فى لقائه . وبما أن الدافع إلى هذا الالتقاء الوسط متوفر لدى الوالدين بحكم الطبيعة أو الإلف والعادة ، أكثر من توفره عند الأولاد : كانت وصايا القرآن فى الصلة بين الطرفين تكاد تكون موجهة إلى الأولاد .

وحدهم ، وفى صورة تجعل طلب ذلك من الأمور التى لا يغتفر التخلف فيها بحال. ومظهر ذلك فى تعبير القرآن الكريم:أنه يقرن طلب الإحسان من الأولاد إلى الوالدين . . بطلب عدم الشرك فى العبادة .

يقول الله تعالى فى سورة البقرة : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً . . . ».. ويقول فى سورة الإسراء : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً. . . » . . ويقول فى سورة الأنعام: «قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ، أن لا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحسانا . . . » .

وقد يضيف القرآن الكريم إلى هذا الاقتران : الأسباب والدوافع التى من شأنها أن تدفع الأولاد أصحاب الفطر السليمة إلى البر بالوالدين والإحسان إليهما . لأن هذه الأسباب منتزعة من تطور الأولاد أنفسهم: يقول الله تعالى: « وَوَصَّيْنا الإنْسَانَ بِوالِدَيْهِ إحْسَاناً ، حَمَلَتْهُ أُمُّه كرهاً ووَضَعته كُرْهاً[1] » . . ويقول « وَقُل رَبِّ ارحَمْهُما كما رَبَّيَانِى صَغِيراً[2] » .

ثم إن القرآن بينما لم يحدد تفصيل السلوك الذى يسلكه الوالدان نحو أولادهم اعتماداً على الدافع الطبيعى القوى عندهم — يعنى بتحديد المطلوب من الأولاد نحو والديهم . يقول الله تعالى : فى تكملة آية الإسراء السابقة ، وفى آية أخرى بعدها : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرْهما ، وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً » .

وهو إذ يطلب من الأولاد هذه المعاملة الدقيقة المهذبة فى صلاتهم بوالديهم فالرعاية الأخرى كالإنفاق والسكنى عند عجزهما أوجب وأشد ضرورة .

* * *

---

(١) الأحقاف : ١٥ (٢) الاسراء : ٢٤

ولم يطلب القرآن من الوالدين فى صلاتهما بأولادهما إلا عدم الافتتان بهم . والافتتان بالأولاد من شأنه أن يلهى الوالدين عن ذكر الله ، ووصاياه وتعاليمه فى حياة الإنسان . يقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ، ولا أولادكم عن ذكر الله[1] » . . وعندئذ يسيئان تقدير الحياة . وعاقبة ذلك : انحرافهما فى توجيه الأولاد وبالتالى انحرافهما فى الاستمتاع بهم . فتكون حياة الطرفين حياة خالية من الاستقرار النفسى ، مليئة بالأحداث المفاجئة المزعجة .

* * *

هذا ما يطلبه القرآن فى صلة الوالدين بالأولاد ، سواء من جهة الوالدين أم من جهة الأولاد أنفسهم . وما يطلبه هنا وهناك قائم على اعتبار الفطرة الإنسانية التى لم يعترضها شذوذ وتخلف فى نموها وتطورها . وتلك هى حال الإنسان السائدة . وهذه الحال هى الأساس فى فهم توجيه القرآن لصلة الوالدين بالاولاد ، والاولاد بالوالدين .

أما نهى القرآن الآباء عن قتل أولادهم خشية الفقر ، كما فى قوله تعالى . « ...ولا تقتلوا أولادكم من إملاق . نحن نرزقكم وإياهم[2] » . . وقوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطأ كبيراً[3] » . . وأما حديث القرآن عن عداوة بعض الأولاد لوالديهم — أما هذا وذاك : فإنه لايقوم على الطبيعة الإنسانية ولايحدد منهجاً لطريقها العادى . إنما هو علاج لحالة طارئة . . علاج لانحراف غير شائع فى طبيعة الأولاد ، تخلقه البيئة المنحرفة إذا طال انحرافها فيسيئان تقدير الحياة من أجلهم .

ومنهج الأخلاق فى أدب القرآن هو أن يحسن الأولاد إلى الوالدين . وليس إحسانهم هو إنفاقهم . إنما هو قبل ذلك التعبير عن شعور الاحترام نحوهما :

---

(١) المنافقون : ٩ (٢) الأنعام : ١٥١
(٣) الاسراء : ٣١

«فلا تَقل لهما أفٍّ ولا تنهرْهُما وقُل لهما قولاً كريماً ، واخفضْ لهما جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحمة [1]..» .. وأيضاً أن لايفتتن الوالدان بأولادهم، وأن يكونا معتدلين فى ميلهما إليهم وفى محبتهما إياهم .

والإحسان من جانب ، وعدم الافتتان من جانب آخر :هو الطريق الأمثل إلى التكافؤ والتعادل فى صلة الأولاد بالوالدين والوالدين بالأولاد . وتلك سنة القرآن فى كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية .

---

(١) الاسراء : ٢٣ ، ٢٤

الأسرة .. صلة الأقارب

حديثنا هذا عن صلة الأقارب بعضهم ببعض حسبما توصى أخلاق القرآن الكريم . هو الموضوع الثالث من موضوعات الأسرة ، بعد موضوع صلة الزوجين ، وصلة الأبناء بالآباء .

وما هدف إليه القرآن هناك فى صلة الزوجية ، وصلة الأبناء بالآباء من دعم الروابط ، وتقوية أواصر الصلة عن طريق التكافؤ والتعادل بين الطرفين — هو ذات الهدف هنا أيضاً فى صلة الأقارب بعضهم ببعض .

أقارب الإنسان مصدر قوته إن هم أخلصوا فى صلتهم به ، والتفوا حوله . لأنهم عندئذ بالنسبة له أكثر من الإنسان العادى ، وأكثر من الجار ، وأكثر من المواطن . هم نظراؤه فى الدم ، وفى الطبائع الموروثة والعادات المألوفة والميول المسيطرة ، والاتجاهات اللازمة . هم عصبته ، وعدته ، وقومه بالمعنى الخاص . ولكن هم أنفسهم قد يكونون مصدر ضعف له ، إذا حقدوا عليه ، وتمكنت من أنفسهم شهوة الغيرة منه . وليسوا عندئذ سبباً عادياً فى أضعافه ، وخصومته ، أو على الأقل فى إزعاجه وعدم طمأنينته . ذاك لأن السبب الذى به كانوا قوة له عند إخلاصهم فى علاقتهم به هو السبب نفسه فى شدة تأثيرهم عليه ، وعلى نفسيته فى الحياة إن اضطربت صلاتهم به ، وانحرفت عن الوضع السليم .

تلك هى سنة الإنسان مع أقربائه : إما أن يقوى بهم الإنسان أو يضعف بسببهم . والقرآن الكريم أفصح عن هذين الجانبين فى صلة الإنسان بأقاربه فى الدم والنسب . يقول الله تعالى فى الإفصاح عن الجانب الأول على لسان موسى عليه السلام مناجياً ربه : «وأخى هارون هو أفصح منى لساناً ، فأرسله معى ردءاً

يُصَدِّقنى إنى أخاف أن يُكذّبون . قال : سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخيك ، ونجعلُ لكما سُلطاناً فلا يَصِلون إليكما بآياتنا ، أنتما ومَن اتَّبعكما الغالبون »(١) .

أما الجانب الآخر فتمثله قصة يوسف عليه السلام مع إخوته . انحرفت علاقة القرابة بينهم وبينه ، فحقدوا عليه وحاولوا أن يكيدوا له فى أبشع صور الكيد ، وهى العمل على قتله والتخلص منه لتخلو لهم الحياة مع أبيهم وينفردوا بصحبته . يقول الله تعالى : « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ، إذْ قالوا : ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا ونحن عُصبة ، إنَّ أبانا لفى ضلالٍ مُبين . اقتلوا يوسف أو اطرحُوه أرضاً يخلُ لكم وجهُ أبيكم ، وتكونوا من بعده قوماً صالحين(٢) » . نعم هم قد ندموا بعد ذلك على ما عقدوا عليه العزم ، وحاولوا تنفيذه كما يدل عليه قوله تعالى : « قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنّا لخاطئين(٣) » . « وقالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنّا خاطئين(٤) » . ولكن موقفهم كأخوة من أخ لهم أول الأمر : يعطى أن الأقارب قد يدفعهم الحقد والانحراف فى علاقة بعضهم ببعض ، إلى أن يكونوا مصدر ضعف وإزعاج وقلق ، بدلا من أن يكونوا مصدر قوة ، وعون ، وجاه .

توجيه القرآن فى صلة الانسان باقربائه

وإذا كانت هذه سنة الإنسان فى علاقته مع أقاربه ، وكانت قوته بهم أو ضعفه عن طريقهم أمرا غير عادى — كان من السلامة فى توجيه الإنسان نحو أقربائه أن تزداد عنايته بهم ، على نمو صلتهم به ، وأن يكون هناك تكافؤ وتعادل بين هذه الصلة ورعاية شأنها . وهذا التوجيه هو مانلمسه فى أخلاق القرآن فى صلة الإنسان بأقربائه وأولى رحمه .

وتوجيه القرآن فى هذا الشأن يتناول العناية بهذه الصلة من الجهة النفسية والروحية ، ثم من الجهة المادية .

---

(١) القصص : ٣٤ ، ٣٥ (٢) يوسف : ٧ — ٩
(٣) يوسف : ٩١ (٤) يوسف ٩٧

يقول الله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله .. إن الله بكل شيء عليم[1] » ، ويقول : « ذلك الذى يبشر الله عباده ، الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى[2] » . فى هاتين الآيتين الكريمتين أبرز القرآن مدى حرصه على أن يعنى الأقارب بعضهم ببعض فى صلاتهم .

فعبر فى الآية الأولى بأن كون الأرحام والأقارب بعضهم أولى ببعض فى رعاية العلاقات والترابط أمر مسطور فى كتاب الله ، ولم تخل عنه رسالة من رسالات السماء . ودلالة هذا التسجيل زيادة الحرص من قبل الله تعالى على أن يعنى الناس بعلاقة القربى عناية شاملة ، لا تقل فيها العناية بترضية النفوس والابقاء على صفائها: عن العناية بمساعدة المعوزين من الأقرباء مساعدة مادية تقيهم شر الحقد على الأغنياء فيهم ، وشر الذل للحاجة نفسها .

وفى الآية الثانية نص بالذات على المودة فى القربى كعمل من الأعمال الصالحة التى يثاب ويؤجر صاحبها عند الله على القيام بها .

ثم بجانب هاتين الآيتين اللتين تدلان على طلب الرعاية فى صورها المتنوعة لعلاقة القرابة — نجد آيات أخرى تطلب من المؤمنين أن يعنوا بأقربائهم ويسهموا فى سد حاجاتهم ، لا بعنوان أنهم فقراء أو مساكين ، بل بعنوان أنهم أقرباء . يقول الله تعالى : « فآت ذا القربى حقه ، والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون[3] » ، ويقول : « يسألونك ماذا ينفقون؟ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين ، والأقربين ، واليتامى ، والمساكين وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم[4] » . ويقول : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ،

(١) آخر سورة الأنفال (٢) الشورى : ٢٣
(٣) الروم : ٣٨ (٤) البقرة : ٢١٥

والملائكة، والكتاب ، والنبيين ، وآتى المالَ على حُبِّه: ذوى القُربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السّبيل ، والسّائلين وفى الرّقاب ... »[٣] .

وزيادة اهتمام القرآن بطلب العناية بعلاقة الأقرباء بعضهم ببعض حتى تتكافأ منزلة هذه العلاقة فى أصل وضعها وفى آثارها الطيبة إذا استقام أمرها — يدل عليها تقديمه دائماً فى استحقاق الحصول على أموال البذل والعطاء : الأقرباء الذين ليس لهم يسار ، وبهم حاجة — على غيرهم خارج الأسرة : « فآت ذا القُربى حقه ، والمسكين» .. « وآتى المال على حُبِّه ذوى القُربى واليتامى .. » .. «قل ما أنفقتم من خير فللوالدين ، والأقربين واليتامى » .

وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن صدقة الرجل على قريبه فقال : « **له اجران: اجر القرابة ، واجر الصدقة** » . ولفظ الحديث فى رواية النسائى والترمذى : « **الصدقة على المسكين صدقة ، وهى على ذى الرحم ثنتان : صدقة ، وصلة** » .

* * *

تعانى الأسرة كثيراً من مظاهر الضعف والفرقة . وبدلاً من أن تكون الزوجية ، والبنوة ، والقرابة عوامل قوة أضحت من أسباب الخصومة ، والانقسام ، والقلق . إن أزمة الأسرة فى هذه العلاقات أزمة سوء فهم وتطبيق ، وأزمة أنانية وانفرادية .

وأراد القرآن فيما أوحى به فى منهج السلوك والمعاملة بين أفراد الأسرة بعضهم مع بعض : أن يجنبهم الانحراف والقلق ، والنزاع . أراد أن يوثق وأن يلائم بينهم فى اتجاههم فى الحياة وفى نفعهم بالحياة . أراد أن تكون الاسرة قوية صاحبة عزة وسيادة ، على نفسها وعلى غيرها .

وطريق الضعف واضح ، وهو طريق الخصومة والأنانية . وطريق القوة واضح وهو طريق الانسجام والمشاركة والمعاونة . ومنهج القرآن للأسرة هو طريق القوة ، وطريق النجاح والأمل فى الحياة .

---

(١) البقرة : ١٧٧

الجماعة وتنظيم علاقة الأفراد فيها

تحدثنا عن أخلاق القرآن بالنسبة للأسرة . ورأينا أن الغاية التي تقصد إليها وصايا القرآن الكريم في الجانبين: هي حفظ التوازن ، وصيانة الأمر عن التطرف.

والآن نعرض لأخلاق القرآن فيما يتصل بالجماعة ، وما فصلته آياته في تحديد علاقة الأفراد بعضهم ببعض في ظل هذه الوحدة الكبيرة التي تتناول أسراً مختلفة وقبائل عديدة ، وأجناساً بشرية متغايرة ، وهي وحدة الجماعة .

* * *

يوجد الأفراد بحكم التوالد والتناسل ، وذلك أمر طبيعي في الانسان . وتوجد الأسرة — وهي الوحدة الصغيرة — بحكم علاقة الدم والقرابة ، وهي علاقة طبيعية في دائرة الكائن الحي . أما الوحدة الكبيرة وهي الجماعة فوجودها يتوقف لحسب على الأسباب التي تكتنف أفرادها بحكم البيئة أو الموطن أو إمكانيات العيش . بل لابد في وجود أية جماعة وجوداً قوياً ظاهراً من وحدة **الغاية والهدف** . لأن وحدة الغاية والهدف هي المركز الذي يتجمع الأفراد حوله ، ويتكتلون من أجله ، وتشتد الأواصر بينهم بسببه ، وتصير الى **اخوة في النفس والروح** ، بعد التقاء على المبدأ والفكره .

غاية الجماعة الاسلامية :

والقرآن الكريم فيما أوصى به من أخلاق للجماعة ، لم يوص إلا بعد أن حدد الغاية للجماعة التي يريدها ، والتي عمل على تكوينها . ووصاياه هنا بعد ذلك هي وصايا لحفظ توازن هـذه الجماعة ، وبالتالي لحفظ علاقات الافراد فيها من التفكك أو التلاشي .

والغاية التي حددها القرآن لجماعته هي عبـــادة الله وحده . يقول تعالى :

«واعبُدُوا الله ولا تشركوا شيئاً[١] . . » .. « قل إنى أُمِرْتُ أن أعبد الله مخلصاً له الدين »[٢] .. « ذلكم الله ربُّكم ، لا إله إلا هو ، خالقُ كلِّ شىء ، فاعبدُوه ، وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير[٣] » .. « إن هذه أمتكم أُمَّةً واحدة وأنا ربكم فاعبدون[٤] » .

وهو إذ يحدد غاية الجماعة بعبادة الله وحده ، يدفع أفرادها إلى الشعور بالكرامة ، والسير فى الحياة دون عائق من أوهام الوثنية فى أية صورة من صورها . والشعور بالكرامة ، والانطلاق فى الحياة من قيود الخرافة والشعوذة ، واقتحام الصعاب فيها دون إنتظار لوضع نجم أو كوكب ، ودون إذن وصى أو سيد — غايات تستهدف من عبادة الله وحده . وأصحاب هذا الشعور أولئكم الذين انطلقت نفوسهم من قيود الخرافة والشعوذة والوثنية يضيفون إلى قوتهم كأصحاب سعى وحركة ، قوة توجيه سليم ويقظة مستمرة . وهم لهذا وذاك لابد أن ينجحوا إذا كافحوا ، ولابد أن ينتصروا إذا خاصموا .

وصايا القرآن لحفظ الجماعة

ولكى لايدخل عامل ضعف فى علاقات الأفراد فى هذه الجماعة فتتجه نظرتهم إلى هذه العلاقات بعد أن ارتفعت إلى الله سبحانه ، ويتجه كفاحهم فى صلات بعضهم ببعض بعد أن تركزت فيما وراء فرديتهم وذواتهم — أوحى القرآن الكريم بما يحفظ هذه العلاقات ويديم نظرتهم إلى الله ، وكفاحهم لصالحهم كجماعة يرون فى سيادتها سيادة لأنفسهم ، وفى عزتها إعزازاً لهم جيلا بعد جيل .

١ — أوصى القرآن باحتفاظ الجماعة بسيادتها لنفسها على نفسها ، وذلك بأن

---

(١) النساء : ٣٦ (٢) الزمر : ١١
(٣) الأنعام : ١٠٢ ، ١٠٣ (٤) الأنبياء : ٩٢

لا يكون لأفرادها ولاء لغير بعضهم بعضاً ، أى لا تكون للدخيل بينهم طاعة عليهم ، ولا يرقى هـذا الدخيل فى نفوسهم لدرجة أن تكون له وصاية ، أو يعد مرجعاً فى إبرام شئونهم . يقول الله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم(١) » يوصى القرآن بذلك لأنه إن قبلت الجماعة ولاية الأجنبى ووصايته ابتعدت عن الهدف والغاية التى اجتمعت حولها قبـل ، وأضحت أفراداً فقط مختلفى النزعة والقصد .

٢ — أوصى القرآن كذلك بالعدل فى الحكم بين الناس . يقول الله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل(٢) » . فيوصى القرآن بالعدل فى الحكومة والفصل بين الناس لأنه أساس الاطمئنان بين الافراد على أنهم سواء فى ظل الجماعة ، وأن الجماعة لذلك ليست حزباً ، بل رعاية عامة . وهذا الاطمئنان يوصى بدوره إلى التمسك بالجماعة والكفاح فى سبيل بقائها ومؤازرتها .

٣ — أوصى القرآن بالتؤدة فى قبول الأخبار المغرضة ، وفحص شائعات السوء . يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين(٣) » . أوصى بذلك لأن سرعة التصديق بمثل هذه الأخبار والشائعات لا يقف عندحد تمزق وحدة الجماعة ، بل من شأنه أن يثير فتنة وينتهى بخصومة عنيفة بين أبناء الجماعة الواحدة ، وبذلك تتحول إلى طوائف متباينة القصد والسعى .

---

(١) التوبة : ٧١ (٢) النساء : ٥٨

(٣) الحجرات : ٦

٤ — أوصى القرآن بعدم استغلال الضعيف : أوصى بعدم استغلال اليتيم ، ومن على شاكلته كالأجير ، أو الأسير . يقول تعالى : « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً[١] » . وذلك لأن استغلال القوى للضعيف لا يدل على ترابط فى وحدة واحدة بينهما ، ولا على تعلقهما بهدف واحد وغاية واحدة . وإنما يدل على أن الجماعة جمعتها وسيلة لتحقيق الأغراض الخاصة ، ولم تجمعها رعاية الحقوق لكل فرد فيها .

٥ — أوصى القرآن بتقريب الفروق بين الأفراد ، حتى لا يشعر الفقير بحرمانه ، ولا المريض بعجزه ، ولا الجاهل بحمقه وسوء تصرفه ، ولا الصغير بحداثة عهده ، ولا الشيخ بوهن شيخوخته : أوصى صاحب الثروة بالإنفاق ، وصاحب الصحة بالمعاونة ، وصاحب المعرفة والفقه بالتوجيه ، والكبير برحمة الصغير ، والصغير بتوقير الكبير . أوصى بذلك وبمثله ، ولكنه شدد كثيراً فى طلب بذل المال والإنفاق من ذوى اليسار . وذلك لأن من شأن المال أن يغرى صاحبه على عدم الإنفاق ، كما أنه من شأن الحرمان أن يثير القلق والحسد والبغضاء فى نفوس المحرومين ضد غيرهم من الموسرين . يقول تعالى : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدرأون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار[٢] » . ويقول : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ، ومما رزقناهم ينفقون[٣] » .. وآيات أخرى كثيرة تحض على الإنفاق والبذل ، وتنهى عن الشح والبخل .

هدف القرآن فى هذه الوصايا :

وإذا أوصى القرآن بذلك وبغيره مما يتصل بشأن الجماعة : فهدفه أن يبقى على

---

(١) النساء : ٢ (٢) الرعد : ٢٢

(٣) القصص : ٥٤

التكتل والتجمع ، وأن يحول العوامل الممزقة ، التي ترجع جميعها إلى اختلال التعادل والتوازن في الجماعة . فاعتبار الأجنبي والولاء له ، والتحيز في الحكومة والقضاء بين الناس ، والمسارعة في قبول الأنباء المغرضة ، واستغلال القوى للضعيف ، وعدم تقرب الغنى من صاحب الحاجة ، صاحب المال من الفقير ، وصاحب المعرفة من الجاهل ، والصحيح من المريض ..... إلى غير ذلك — كل هذه أمور تؤدى لا محالة إلى الاختلال في توازن الجماعة .

والقرآن الكريم يريد لأفراد المجتمع أن يكونوا متوازنين بين رغباتهم الشخصية ومصلحة الآخرين ، ولأسره أن تكون متوازنة في حقوقها وواجباتها ، ولجماعته أن تكون متوازنة كذلك في رعاية أفرادها وفي علاقات بعضهم ببعض .

إذ رسالة القرآن الكريم في أخلاقه هي رسالة التعادل والتوازن ، وهي لذلك رسالة الاطمئنان ، والاطمئنان هو السعادة .

مبادىء إنسانية من حياة الرسول

إن المبادىء الإنسانية هى التى ترسم السلوك المثالى فى حياة الإنسان . إنها المعانى التى إذا وصل إليها الإنسان كان مهذباً فى عشرته ومعاملته ، وكان له خلق الإنسان الحر الذى استطاع أن يتخلص من شهوته وأنانيته ، ومن تحكمها فيما يفعل أو يأتى به من عمل ، وكان له خلق الإنسان الكريم الذى أدرك قيمة نفسه فحافظ على وضعها البشرى ، ولم ينزل بها إلى درك أدنى ومنزلة أقل . حافظ على أن تبقى له القيادة فى الحياة ، كما أراد له الله ، حيث سخر له ما فى السموات وما فى الأرض فقال: وسخَّرَ لكُمْ ما فى السَّمَوات وما فى الأرْض جَميعًا منْه (١)» .

وبغير ترسم الإنسان لطريق المبادىء الإنسانية لا يستطيع أن يقود نفسه ، ولا أن يسود غيره مما فى الأرض والسماء ، ولا يكون عندئذ غيره مما فى الأرض والسماء أيضاً : مسخراً له .

والقرآن الكريم عندما وصف الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : « وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم (٢)» — عبر عما كانت علية حياته من السمو الإنسانى ، وعما اشتملت عليه من المبادىء والمستوى الرفيع فى التهذيب والسلوك.

ومن أجل ذلك تعتبر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم — بجانب القرآن الكريم — مصدراً عملياً من مصادر التوجيه للإنسان المسلم ، كما تعتبر نموذجاً بشرياً للإنسان الفاضل الكريم .

حياة الرسول تطبيق عملى لوصايا القرآن :

وأخص ما كانت تتميز به حياة الرسول صلى الله علية وسلم : أن خلقه كان

---

(١) الجاثية : ١٣ (٢) القلم : ٤

يحكى ما فى القرآن من تعاليم ووصايا . ولذا قالت عائشة رضى الله عنها : « كان خلقه القرآن » .. عندما سئلت عن خلقه الذى يتخلق به .

وإذن هنالك صلة وثيقة بين القرآن وتعاليمه من جانب ، وبين حياة الرسول صلى الله عليه وسلم التى عاشها ، والتى دعا الناس أن يتأسوا بها من جانب آخر . وكان ذلك أمراً ضرورياً ، يحتمه أولا اختيار الله سبحانه وتعالى إياه لرسالته ، ويحتمه ثانياً كونه هو عليه الصلاة والسلام مبلغاً لهذه الرسالة وداعياً لها . فالله لم يختره لهذه الرسالة إلا حيث علم مكان نفسه من الطهر والصفاء ، وعلم تمكن المعانى والمبادىء الإنسانية فى نفسه . وهو نفسه صلى الله عليه وسلم لم ينجح فى دعوته وفى تبليغ الله إلا لأنه قد تمثلت فى نفسه مبادىء تلك الدعوة ، وإلا لأنه يسلك وفقاً لما كان يدعو إليه ، ولما كان يبلغه إلى الناس من مبادىء .

ولذا إذا تحدثنا هنا عن المبادىء الإنسانية فى حياة الرسول ، فإنها تلك المبادىء التى جاء بها القرآن الكريم ، والتى أمر هو بتبليغها للناس ، كى يكون سلوكهم فى الحياة سلوكاً إنسانياً مهذباً حراً كريماً .

وأخص ماجاء به القرآن الكريم : «وسَارِعُوا إلى مَغْفِرة من رَبِّكم وجنَّة عرضُها السَّمواتُ والأرضُ أُعدَّت لِلمُتَّقِين . الذينَ يُنْفِقُون فى السَّرَّاء والضرَّاء ، والكاظِمين الغَيْظ والعَافِين عن النَّاس ، والله يحبُّ المحسنين(١)» يقول القرآن الكريم ذلك فى وصف المتقين الذين أعد لهم الجزاء الأوفى فى الآخرة ، فيجعل من وصف هؤلاء المتقين أنهم يكظمون الغيظ عندما يُثارون ، وأنهم يعفون عن الناس إذا ما قدروا وتمكنوا من الثأر والانتقام منهم . وقد عرف عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه كان أسرع المؤمنين إلى كظم الغيظ ، وإلى العفو والصفح عمن يسىء إليه ، وفى الوقت الذى كان يمكن أن يأخذ بحقه

(١) آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤

ممن عفا وصفح عنه . فقد كان صلى الله عليه وسلم جالساً بين أصحابه إذ جاء أعرابى وأمسك بثوبه وجذبه جذباً عنيفاً حتى أثر الثوب فى عنقه وقال له : أعطنى يا محمد من مال الله الذى عندك ، فإنك لا تعطينى من مالك ولا من مال أبيك . فأثارت هذه الغلظة من كان جالساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهموا بالرجل ولكن الرسول الكريم الذى وصفه الله بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، حال بينهم وبينه ، ثم قال للرجل: المال مال الله ويقاد منك يا أعرابى ، فقال : لا . قال : لماذا ؟ قال : لأنك لا تجزى بالسيئة السيئة ، فابتسم صلى الله عليه وسلم وأمر بأن يحمل له على بعير : شعير وعلى الآخر : تمر .

وكذلك أخص ما جاء به القرآن الكريم من مبادىء : رعاية حرمات النفس والمال ، والعرض . فالقرآن يقول فى حرمة النفس : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق [1] » ، ويقول فى حرمة المال : «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل [2] » ، ويقول فى حرمة العرض: «ولا يغتب بعضكم بعضاً : أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه [3] » . يقول القرآن ذلك حثاً المؤمنين على رعاية الحرمات ، وعلى الاحتفاظ لكل فرد بحقه فى الحياة يتمتع به آمناً مطمئناً ، دون أن يزعج فى نفسه ، أو فى ماله ، أو فى عرضه . وقد عرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان أشد المؤمنين رعاية للحرمات فى عمله وفى وصاياه . فعندما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فاتحاً ، ومكنه الله من أولئك الذين آذوه واضطهدوه ، وتآمروا على قتله ، وأخرجوه من داره ، وظن هؤلاء أن الرسول لابد آخذ بثأره ، منتقم ممن أساء إليه وإلى أصحابه .. عندما مكنه الله منهم — سألهم ماتظنون: أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

---

(١) الانعام : ١٥١ (٢) البقرة : ١٨٨
(٣) الحجرات : ١٢

هذان المبدآن اللذان إذا اقتنع بهما الإنسان ، وسار عليهما فى حياته — كان معبراً عن إنسانية مهذبة ، وعن مدى تمكن المستوى الإنسانى الرفيع من نفسه . فالنفس تواقة بحكم طبعها الحيوانى إلى أن تثأر عند القدرة ، وإلى أن تعتدى على الغير عند استطاعة الاعتداء . فإذا تسامح الإنسان عند المقدرة على الانتقام ، وراعى حرمات الغير عند المقدرة على الاعتداء عليها — يكون قد حكم إنسانيته . . حكم عقله وحكم إرادته الإنسانية ، وأدرك أنه حر فوق شهواته الحيوانية ، وأنه كريم لا ينزل بنفسه إلى مستوى الحيوان فى استخدام العضلات والطاقة الحيوانية ، عندما تكون له القدرة على ذلك .

وحياة الرسول عليه الصلاة والسلام ترينا مبادىء عديدة من المبادىء الإنسانية . ولكنا آثرنا التنويه بهذين المبدأين ، لأنهما الأمارة الواضحة على الحياة الإنسانية التى تقوم على المبادىء والمثل التى يسعى الإنسان إلى إدراكها وإلى تمثلها فى سلوكه وتصرفاته .

ونحن إذا أردنا أن نتأسى بخلق الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبخلق القرآن الكريم ، فعلينا أن نصفح عند المقدرة ، وأن نرعى حرمات الغير عند القدرة على الاعتداء عليها كذلك . وبتأسينا بالرسول الكريم فى حياته ، نكون نحيى ذكراه فى نفوسنا وفى دعوته .

التضافر والتعاون

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

«المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن اخو المؤمن ، يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه»

فى هذا الحديث :

يذكر الرسول عليه الصلاة والسلام : أن تعاون المؤمن مع المؤمن فى الجماعة الإسلامية يدور فى نطاقين :

(أ) فى نطاق معنوى ، هو التوجيه .

(ب) وفى نطاق آخر مادى ، هو المشاركة فى حفظ ما به قوام العيش ، والمشاركة فى دفع الإيذاء .

التعاون فى نطاق التوجيه :

ففى النطاق الأول وهو نطاق التوجيه : عبر الرسول عليه الصلاة والسلام تصويراً للصلة ومدى وجوب التعاون بين المؤمنين : بأن المؤمن مرآة المؤمن . فلكى يدرك المؤمن نفسه ويقف على حقيقة ذاته ليستمر فى طريقه فى الحياة أو يعدل فى سيره فيما له أن يسأل آخر فى جماعته عن حال نفسه . كما ورد عن عمر رضى الله عنه أنه كان يقول لحذيفة رضى الله عنه هل ترى فىّ شيئاً من علامات النفاق ؟ فيقول : لا والله ياأمير المؤمنين . فالمؤمن بالنسبة لمؤمن آخر يشبه مرآته . يرى فيها حال نفسه على الحقيقة ، لأنه أمين عليه ، ومبتغ خيره ، وعليه وزر التقصير فى حقه .

التعاون فى النطاق المادى :

وفى النطاق الثانى وهو نطاق المعاونة بين المؤمنين حدد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا النطاق بكف الأذى وحفظ مابه قوام الإنسان ومعيشته من التلف

والضيـاع سواء ذلك فى حضرة المؤمن الآخر المهدد بذلك وشهوده ، أو فى غيبته ومن ورائه .

والمؤمن ينتظر من أخيه المؤمن أن يوجهه فى تصرفاته وسلوكه فى الحيـاة توجيهاً سليماً نافعاً . وذلك بأن يذكر له مافى تصرفاته من استقامة وما فيها من نفع ، وما فى طبعه وخلقه من حسن أو سوء . وهو إذ يعرف ذلك منه يثق به تمام الثقة فلا يظن به السوء والانحراف فى التصوير . لأن المفروض فى المؤمن بالنسبة لأخيه أنه مرآة له . وكما أن المرآة لاتنقل فى تصويرها للشيء زيفاً أو دخلا ليس فى طبيعة هـذا الشيء ، فـكذلك المؤمن فى تصويره لحال أخيه : مخلص فى هذا التصوير ، بعيـد عن الغرض والهوى ، والزيف والدخل . فالصورة التى يرسمها لأخيه المؤمن صورة نقية صافية .

المؤمن ينتظر من أخيه المؤمن أن يعونه فى دفع الأذى عنه فى نفسه أو ماله : وبالأولى ألا يكون هو مؤذياً له ولا متسبباً فى إيذائه . يدفع الشر عنه قبل وقوعه، ويحول بينه وبين أن يتعرض ماله للتلف أو نفسه للضرر . وهو إذ يؤدى له هذه المعاونة يؤديها له فى غيبته وحضوره ، وفى غيبته يكون أداؤها له آكد وأوجب . لأن طالب النصرة فى هذا الحال يكون أدعى ، ومن جانب آخر يكون تصرفه عندئذ مطابقاً لما وصف به من أنه مؤمن .

اثر الايمان فى ترابط الجماعة :

وشأن المؤمن مع المؤمن هو هذا الشـأن إذن : الإخلاص فى إعطاء المشورة والتوجيـه ، والمشاركة فى دفع الأذى والضرر ، وذلك منتهى ماينتظر فى صـلة إنسان بإنسان .

المؤمن إنسـان آمن بالله واليوم الآخر . وبسبب إيمانه بالله واليوم الآخر ترقب منه الرسول عليه الصلاة والسلام أن يكون أخاً لغيره فى جماعة المؤمنين ،

وحدد مظاهر الأخوة بين الاثنين بالإخلاص فى التوجيه والمشاركة فى دفع الأذى والضرر ، على نحو ماجاء فى الحديث الشريف .

والإيمان إذن هو مصدر الصلة بين مؤمن وآخر على هذا النحو . هو الباعث بين أفراد الجماعة على أن يكونوا فى علاقاتهم بعضهم مع بعض على نحو ترتفع فيه الأنانية الفردية وطغيانها ، وتسود فيه المعاونة والمشاركة لخيرهم جميعاً .

إن نتيجة الإيمان بالله فى نفس الإنسان المؤمن هى أن يكون باستمرار فى وضع يتيح له أن يعاون غيره وإن لم يطلب منه المعاونة ، وأن يكون درعاً لغيره يقيه الشر والإيذاء ، وإن لم يعلم هـذا الغير بما عزم عليه أو بما قدمه فى هذا السبيل . يجب أن يكون فى وضع يكف فيه عن أخيه المؤمن ضيعته ، ويحوطه من ورائه .

والإيمان بالله لذلك معنى نفسى يملك على النفس أمرها فى الحياة ، وأمر سلوكها فيها وفقاً لمـا جاء به الوحى ، وكلف بتبليغه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة .

إن العلاقة بين إنسان وآخر ــ التى يترتب عليها أن يكون كل واحد منهما مرآة للآخر ــ ليست هذه العلاقة العادية بين الإنسان والإنسان ، وليست هى العلاقة التى تـكونها فلسفة أو قانون وضعى . وإنما هى وليدة الإيمان بالله وحده .. وليدة الروح التى تأثرت بقدرة الخالق ، وبخشيته فى الدنيا ، وبانتظار لقائه فى الآخرة .

إن الإيمان بالله هو الذى يخلق معنى « الجماعة» فى نفس الإنسان ، وهو الذى يحمل الإنسان على أن يعترف بحق الإنسان فى الحياة والوجود ، وهو الذى يحول الإنسان من أنانى جامع تتحكم فيه أنانيته إلى مشارك غيره فى الحياة فى أى مجال فيها : فى الوجدان ، أو فيما وراءه من مادى الحياة ومعنويها .

ويروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : حق

المسلم على المسلم ست : قيل ماهن يارسول الله ؟ قال : **((اذا لقيته فسلم عليه ، واذا دعاك فاجبه ، واذا استنصحك فانصح له ، واذا عطس فحمد الله فشمته ، واذا مرض فعده ، واذا مات فاتبعه))** .

فالرسول عليه الصلاة والسلام يجعل المشاركة الوجدانية فى مثل هذه الأحوال حقاً للمسلم على المسلم . لأن الإنسان فى نظر الإسلام قبل أن يتأثر بجانبه المادى من الأكل والشرب وأحوال المعيشة المادية ، يتأثر بالإحساس والشعور .

ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً أنه قال : **((ثلاث من كن فيه ستر الله عليه كنفه وادخله جنته : رفق بالضعيف ، وشفقة على الوالدين ، واحسان الى المملوك))** . كما يروى عبدالله بن عمر رضى الله عنهما عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((المسلم اخو المسلم : لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة اخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة)) .

فعلى المسلم أن يرعى غيره .. على المسلم أن يعترف بأن لغيره حقاً عليه ، هو أنه أخ وشريك .. على المسلم أن يتصرف مع غيره طبقاً لما اعترف له به من حق الأخوة والشركة :

(أ) يحول دون أضراره .

(ب) ويشاركه فى سروره وأحزانه ، يترفق به فى ضعفه وعجزه .

(ج) ويمد له يد المعونة عند الحاجة .

(د) ويقدم له الرأى والمشورة ...

إلى غير ذلك مما أوجبه الإسلام على المؤمن به نحو أخيه المؤمن فى الجماعة .

وتدعيما للصلات من جانب ، ونقلا للإنسان من حال الأنانية إلى حال الجماعة من جانب آخر .

الإنسان المؤمن إيجابى نحو نفسه بأن يعمل لينقل نفسه من حال تحكم الأنانية فيه إلى حال شعوره بالغير وإقراره بالمشاركة فى الحياة .

وإيجابى نحو غيره ، فى أسرته الصغيرة أو فى جماعته كلها ، بأن يعمل لغيره ماتستدعيه حالته . وأجمل ذلك القرآن الكريم فى التعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان . يقول الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان [1] » .

ولأن الإيمان هو منشىء علاقة الأخوة والمعاونة بين الإنسان والإنسان ، عبر الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث بـ « المؤمن » عن الإنسان الذى انتظر منه أن تكون علاقته بغيره علاقة المرآة الصافية والدرع الواقى . .

وهذا الحديث الشريف إذ يطلب من الجماعة المؤمنة أن تكون متكاتلة متضافرة على دفع الأذى وصنع الخير ، متعاونة على أن تقى نفسها شرور الإنسان العادى وأن تخفف من أحداث الحياة بينها ـ هذا الحديث إذ يطلب ذلك فالقرآن الكريم يضيف إليه أن الجماعة الإسلامية لا يصح أن تقف فى عداء الجماعات الإنسانية الأخرى ، طالما لا يكون هناك اعتداء عليها . فهو إذ يقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا [2] » .. حدد الهدف من تعدد الجماعات ـ وفيها الجماعة الإسلامية ـ بالتعارف لا بالنفرة أو العداء .

الإسلام يحارب أن يكون الإنسان عدو نفسه باسترساله فى أنانيته ، وأن يكون عدو جماعته بتخليه عن المعاونة فيه برأيه أو جاهه ، أو ماله ، أو نفسه ..
وأن تكون جماعته معتدية على الجماعات الإنسانية الأخرى . لأنها إذا اختلفت معها فى التوجيه فهى مشاركة لها فى الإنسانية .. ونأمل أن تكون مواخية لها فى الإيمان .

---

(١) المائدة ٢٥ .   (٢) الحجرات : ١٣ .

التـــواد

يقول الله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[١] » .

القرآن هنا فى هذه الآية يوجه الحديث إلى الناس جميعاً . والقربى فى الإنسانية التى جعلها بينهم من الصفات المتجانسة فيهم هى التى يجب أن تترتب عليها المودة والرحمة . فأساس المودة بين الناس موجود ، وهو أن بعضهم قريب من بعض ومتجانس مع الآخرين فى صلات الإنسانية . فإذا نميت هذه الصلات الإنسانية بين الناس كانت المودة بينهم ، وكانت لرحمة فيهم .

ولا يحتاج الأمر فى تنمية هذه الصلات ، حتى تكون مودة وتكون رحمة ، إلا إلى مراعاة هذه الصلات نفسها فى الحديث .. أو فى التصرف .

والقرآن نفسه قد تكفل بتوضيح الطريق إلى مراعاة هذه الصلات ، سواء فيما ينطق به الإنسان أو ما يأتى به من فعل . فيقول جل وعلا : « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ[٢] » ، ويقول : « وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً[٣] » . ينصح المؤمنين بأن تكون ألفاظهم فى الحديث عموماً ألفاظاً منتقاة مهذبة ، وأن تكون معبرة عما يحسن إلى العلاقات دون مايسىء إليها . كما يكون ردهم التحية على من يحييهم ، كائناً من كان ، إما بأحسن مما حيوا أو على الأقل على نحو ما حيوا به . ويبلغ اهتمامه بهذا النصح إلى حد أن يعقب عليه بقوله : « إن الله كان على كل شىء حسيباً » .

---

(١) الروم : ٢٥ . (٢) الاسراء : ٥٣ .
(٣) النســاء : ٨٦ .

فرد التحية بالمثل أو بأحسن من المثل ، كفيل بتنمية الصلات البشرية حتى تصبح هذه الصلات مودة ورحمة بين الناس .

وكذلك يقول القرآن الكريم : «ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم (١) » .

وهذا القول يواجه به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه يقصد به إلى أن يكون سنة وطريقاً لجمهور المؤمنين جميعاً : «ولا تستوى الحسنة ولا السيئة» — أى لا يستوى أثر الحسنة فى النفوس البشرية ولا أثر السيئة فيها . هناك موازنة بين الأثرين : أثر الحسنة على النفوس : حسن وجميل ، وأثر السيئة عليها : سيء وقبيح . وإذا كان أثر الحسنة هو السيطرة على النفوس وامتلاكها ، وأثر السيئة هو تنفيرها وابعادها ، فدفع المسائل والمشاكل بين الناس وتصريفها بالطريق التى هى أحسن وأجمل ، هو العلاج الأولى لحل هذه المشاكل . وعندئذ لا تحل هذه المسائل والمشاكل فقط ، ولا تشعر النفوس بعدئذ بالراحة فحسب بل ستتحول العلاقات المتنافرة من قبل إلى صداقات قريبة ، وتزداد المودة بين الناس .

ما هو التواد ؟

هناك أسس للمودة بين الناس . ولكن هذه الأسس يجب أن لا يرعاها طرف دون طرف ، بل كل إنسان عليه أن يرعاها وينميها . وعندئذ تكون المودة توادا . فإذا قدم كل مودته للآخر ، وتوادت الأفراد فى الجماعة كانت المحبة والرحمة . ورسالة السماء هى فى إعداد الناس إلى شيوع المحبة والرحمة بينهم .

يروى عمر رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم، قوله : « **ان من عباد الله لاناساً ما هم بانبياء ولا شهداء ، يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى . قالوا يا رسول الله اتخبرنا من هم؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير ارحام بينهم ، ولا اموال يتعاطونها ، فوالله ان وجوهم لنور ، وانهم لعلى نور** » .

---

(١) فصلت : ٣٤ .

التواد ليس هو تبادل المجاملة فى نفاق ، ولا تبادل الثناء فيما لا يوجب الثناء . هو إشعار الإنسان بأنه قرين الإنسان ، هو دفع الأذى عن الإنسان ، هو صنع المعروف للإنسان . التواد هو التعاطف ، هو تذاكر الروابط الانسانية بين الناس.

دائرة التواد ليست دائرة محددة ، وهو كذلك مظهر بين الناس غير محدد : فالمواساة توادد ، وتبادل التحية توادد ، والرعاية فى الحرمات توادد ، وحسن المعاملة والعشرة توادد .

تعاليم الاسلام وسعادة البشر .

ونحن إذ نتحدث عن التعاون فى البر ، ونتحدث عن التوادد ، ونتحدث عن إكرام الجار، ونتحدث عن الإحسان بين ذوى القربى ..إذ نتحدث عن هذا ومثله إنما ننقل تعاليم الإسلام فى ذلك . لأن الإسلام يريد للناس أن يظلوا فى مستوى الإنسانية ويعيشوا فى الروابط المشتركة بينهم . يريد لهم طمأنينة النفس ويدفع عنهم القلق والفزع . ومهما تقدم الإنسان فى العلم ، ومهما قدم العلم للانسان من خدمات فإن شيئاً واحداً لا يستطيعه وهو حمل الناس على الاستقرار ودفع شبح الخوف عنهم . وللإنسان أن يفاخر بالذرة وبعصرها ولكنه لا يستطيع أن يفاخر بأنه وحده بدون معونة من الله ، يستطيع أن يمكن للسلام فى الأرض .

للإنسان أن يؤله العلم والذرة ، وأن يضفى على العلم والذرة طابع الدين والعقيدة ، ومع ذلك سيحتاج الناس إلى دين الله ، وسيبقى دين الله وليس دين الإنسان — هو الدين الحق : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون[1] » .

---

(١) الصف : ٩ .

رعاية الجوار

عن عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ قال :

« ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت انه سيورثه » .

١ — عنى الإسلام بالجانب الاجتماعى فى حياة الجماعة الإنسانية عناية لا تقل عن عنايته بصلة الفرد بربه : فأوصى برعاية الغنى للفقير ورعاية العالم للجاهل ورعاية الصحيح للمريض . وهو إذ يطلب هذه الرعاية قد يشدد فى طلبها إلى درجة الالزام والتحتيم : ولم يقصد من ذلك أن تقترب النفوس من بعضها فحسب ، فتقترب نفوس ذوى الحاجات من ذوى اليسار ، ونفوس الجهلاء من العلماء ، والمرضى من الأصحاء . لم يقصد ذلك فحسب حتى تخف حدة الفجوة بين النفوس ويقل الحقد والحسد ، بل هدف إلى ماوراء ذلك : هدف إلى أن تسير الحياة الاجتماعية سيراً طبيعياً إلى الأمام ، وأن تخف آلام البشرية وأخطاؤها وأن تسود الطمأنينة المجتمع الإنسانى ، ويصبح كل فرد عاملا ومنتجاً فى هذه الحياة : كل على حسب استعداده وطاقته البشرية . كما هدف إلى إيجاد وحدة متماسكة من الأفراد ، لا تنفذ إليها سموم الفرقة ولا عوامل الضعف التى تأتى غالباً من الفروق الواضحة بين الطبقات والأفراد ، وانعدام روح المشاركة عندئذ بينها وبين بعضها .

أوصى الإسلام بالزكاة وبالإحسان . ولم يقصر الزكاة والإحسان على المال . وإنما تجاوز بهما إلى ماذكرنا فى مجال العلم والصحة . كما جعل دائرة النفع بالزكاة والإحسان غير خاصة بالقريب أو البعيد .

٢ — ولأجل أن الإسلام ينشد مجتمعاً فاضلا متماسك البناء لا يتأثر بالهزات النفسية والحزازات الشخصية — طلب العناية بالجار على وجه أخص ومشاركته فى سرائه وضرائه وأحزانه وأفراحه : يقدم له العون المادى والأدبى إن استطاع إلى

ذلك سبيلا . يقدم له المشورة إن احتاج إليها فى أزماته ، كما يؤثره بصنوف المساعدة المادية إن دعت حاجته إلى مثل هذا المساعدة . والحديث النبوى الشريف إذ يعبر عن العناية بالجار بقوله : مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه — يفيد مدى الاهتمام به وإلى أى حد يجب التوفر على معونته حتى لكأنه أحد أفراد الأسرة الخاصة التى فرض لها الميراث فيما يتركه رب العائلة . وأصحاب الميراث هم عادة الأفراد الذين تتركز فيهم عناية رب الأسرة فى حاضرهم ومستقبلهم .

هذه العناية بالجار هى السبيل الأول إلى تكوين النواة الأولى فى وحدة الجماعة . ولذا إذا قامت الوحدة بين الجار وجاره على أساس من المعاونة والمشاركة النفسية والوجدانية والمادية — كانت الجماعة التى تتكون من جيران بينهم هذا التماسك على أشد ماتكون قوة واتحاداً ، وأكثر ما تكون إيجابية فى حياتها الخاصة والعامة .

إذا التقى الجار بجاره فحياه ، وإذا أصيب فواساه ، وإذا سر فشاركه فى مسرته ، وإذا أزم فعاونه فى حل أزمته — إذا حصل كل ذلك وأمثاله من الجار لجاره لاشك أن الفوارق الشخصية بعد ذلك بينهما لاتطغى على عوامل الوفاق والوئام ولا تؤثر فى السير معاً لغاية واحدة : هى دفع الأذى عن كليهما ، وجلب المسرة لهما ولأفراد أسرتيهما .

٣ — هناك بعد هذه العلاقة المرغوب فيها من الإسلام بين الجار وجاره وهى العلاقة التى تكاد تصل بهما إلى جعلهما أفراد أسرة واحدة : علاقات أخرى تختلف فى بغض الإسلام لها شدة وضعفاً :

هناك علاقة الحيدة بين الجار وجاره ، لايحاول أحدهما أن يتصل بالآخر : إذا التقيا لايكاد ينظر أحدهما إلى الآخر فضلا عن أن يقرئا بعضهما السلام . ويجوز أن يكون وقت فرح أحدهما هو وقت حزن الآخر . لايشتركان فى شىء ما : سوى

أنهما يتجاوران فى المسكن ، أو كل منهما يعرف الآخر بشخصه لا بقلبه وعواطفه .

وهناك علاقة التجاهل أو الاستخفاف : يصنع كل من الجار وجاره ما يؤذن بأن كل واحد منهما يعيش وحده فى منطقة خاصة به . لا يرى أن هناك مخلوقاً من الإنسان آخر يشاركه فى الجوار ، وله عواطف الإنسان وإحساسات البشر : إذا سمع المذياع مثلا أطلق العنان لصوته إلى آخر مراحل القوة فيه . لا يتخير من الأوقات لسماعه إلا تلك التى اعتاد أن يستمع فيها إليه ولو كانت أوقات الشدة لجاره أو أوقات الراحة التى اعتاد الناس أن يروحوا على أنفسهم فيها وقت الظهيرة أو آخر الليل . وإذا حاول أن ينظف مسكنه فلا بأس لديه من أن يكون ذلك على حساب نظافة مسكن الجار وإحساساته وراحته وهدوئه . وهكذا كل مايحصل من الجار لجاره بناء عن تجاهل أحدهما للآخر أو الاستخفاف بوجوده .

وهناك علاقة الاعتداء على الجار وإيذائه عن قصد وإرادة ، سواء أكان ذلك لسيطرة معنى الاعتداء على أحد الجارين ، أو تنفيساً للمعانى النفسية البغيضة الكامنة فيه من حقد وحسد وأمثالها .

* * *

فإذا كانت مشاركة الجار لجاره إلى حد اعتبار أحدهما للآخر كأى فرد من أفراد أسرته الخاصة هى التى يطلبها الإسلام من المسلمين ، والمؤمنين بتعاليمه — فإن المواقف الأخرى من الجار تجاه جاره يختلف الحكم عليها فى الإسلام حسب مافيها من مخالفة لهذا الذى طلبه ، وحسب ماتنطوى عليه من إيذاء واعتداء .

إن الإسلام لاينشد إلا سعادة الناس : وهى طمأنينتهم فى معيشتهم وأنهم لخير أنفسهم فى حياة جماعتهم . ورعاية الجار لجاره على نحو مايوصى به هذا الحديث النبوى الكريم دعامة قوية فى تبليغ الناس هدفهم فى هذه الحياة . وهو : الطمأنينة فى العيش والعمل المثمر فى الحياة .

المروءة

يروى عن ابن عباس رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« تبسمك فى وجه اخيك صدقة ، وامرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وارشادك الرجل فى ارض الضلال لك صدقة ، وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقة ، واماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة ، وافراغك من دلوك فى دلو اخيك لك صدقة » .

فى هذا الحديث الشريف تعرض الرسول صلى الله عليه وسلم لثلاثة أنواع من التصرف الإنسانى ، عدها جميعاً صدقة ، وكلها وراء الفروض والتكاليف الدينية :

١ — النوع الأول : لقاء غيرك لقاء هشاً ، يدل على الانشراح والسرور بمقابلته ، وهو نوع يتصل بوجدان الإنسان وعواطفه .

٢ — والنوع الثانى : إرشادك غيرك وتوجيهه لما فيه مصلحته وهدايته ، وهو يتصل بحكمة الإنسان الموجه ومعرفته .

٣ — النوع الثالث : تقديمك المعاونة العملية لمن هو فى حاجة إليها ، تبتدىء من مصاحبة ردىء الرؤيا أو عاجز البصر فى طريقه . . إلى تنقية ما يؤذى الناس فى طريقهم العام . . إلى البذل وإشراك غيرك فيما هو لك لحاجته إياه ، وهو يتصل بعمل الإنسان وفعله .

فالإنسان يستطيع بأى جانب فيه من جوانبه الثلاثة : الوجدان ، والإدراك ، والعمل ، أن يكون معاوناً على تيسير أمر غيره ، ومساعداً على تذليل العقبات فى طريق حياته واطمئنانه فيها . سواء أكانت عقبات مادية أو معنوية .

فإذا عاون غيره على هذا النحو ، لا بدافع علاقة القرابة بينهما ، ولا لصلة المعرفة والجوار مثلا ، بل للرابطة الإنسانية العامة — كان هذا المعين ذا فضل ،

وعد عمله عندئذ صدقة ، لينال جزاءها من الله وحده ، وعد هو ذا مروءة ، وإنسانية لأنه لم يصدر فيما أتى به من تصرف معنوى أو مادى عن تكاليف كلف به من قبل الشارع ولا عن داعى القرابة والعلاقة القريبة، بل عن المشاركة والأخوة فى الإنسانية عامة .

وهكذا كل تصرف ، وكل سلوك من الانسان قصد به وجه الإنسانية ، ودفع إليه بدافع إنسانى — كان مروءة . ويفرق بين هذا العمل وأداء ما كلف به الإنسان لأنه وجب عليه من قبل الشارع ، وإن انطوى أداؤه على عمل إنسانى أو خدمة إنسانية .

فصاحب المروءة إنسان بلغت فى نفسه المشاركة الانسانية مبلغاً يدفعه إلى معاونة ذى الحاجة من صحته وجاهه ، وماله ، ومعرفته ، وعواطفه الوجدانية لذات الإنسانية ، لا للقرابة والمعرفة كدافع ، ولا للرغبة فى جزاء الدنيا من حسن الصيت كنتيجة منتظرة له .

والمروءة عمل إنسانى وراء التكاليف والفروض الشرعية ، وتدل على أن صاحبها خطا خطوة أخرى بعد الطاعة لأوامر الله ونواهيه ودخل فى معنى الإنسان المهذب المثالى . ولهذا يروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : **« من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون اخيه »** .

ويروى عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : **« ما اكرم شاب شيخا لسنه ، الا قيض الله له من يكرمه عند سنه »** .

العبادات والمروءة .

إذا كانت المروءة عملاً إنسانياً بعد التكاليف والفروض الشرعية فالعبادات فى الاسلام : من صلاة ، وصوم ، وزكاة ، وحج ، مقدمات لتهيئة الإنسان لأن يكون ذا مروءة ، لأنها تحمل على تخفيف الأنانية وأثرها فى نفسه ، وعلى إندماجه

بالتالى فى الجماعة ، فتقوى الروابط بينه وبين غيره . ويومئذ يسير فى طريقه إلى المروءة ، والسلوك طبقاً المعنى الإنسانى المشترك : الصلاة توجه الإنسان إلى الله ، وعن عدد مراتها فى اليوم وفى صورتها المعروفة تغرس فى نفس الإنسان العابد غاية أخرى أسمى وأدوم ، وهى رضاء الله سبحانه . وبذلك تخف الدنيا وتخف مطالب النفس منها . والصوم فريضة أخرى لنفس الغاية من الصلاة ، ولكن عن طريق الامساك والحرمان المباشر من شهوات النفس ورغباتها فترة متكررة فى حياة العابد . والزكاة فريضة تحمل على التنازل بالفعل عن جزء مما يملك العابد المزكى لغيره فى جماعته . وبذلك يشعر شعوراً عملياً بغيره وبإخوته . والحج فريضة مشاركة للزكاة أيضاً فى تمكين المعنى الجماعى فى نفس العابد وأخوة الإنسان له .

وهذه العبادة الإسلامية فى صورة فرائضها الأربع إذن : تنمى الإحساس القوى بمشاركة الغير للإنسان العابد فى الوجود والحياة معه ، وتدفع بعد هذا الإحساس إلى معاونته عندما تدعو الضرورة للمعاونة والمشاركة الإيجابية .

المعاملات الاسلامية والمروءة :

وأيضاً وصايا الإسلام فى المعاملات المختلفة : فى المسائل المالية ، أو فى علاقات الأسرة ، أو فى الصلات العامة بالجماعة ، وهى الشعب والأمة — تهدف إلى دفع الإنسان إلى أن يكون فى سلوكه إنسانياً يصدر فيه عن روح المشاركة لغيره . وهذه الروح تتمثل أولا وقبل كل شىء فى تجنب الضرر والغبن عن كل من الطرفين المتعاملين . فإن أنتج عقد التعامل بعد ذلك خيراً لهما أو لأحدهما كان فضلاً وإحساناً ، وكان صاحب الفضل والإحسان منهما ذا مروءة ، وكان مجزياً بجزاء مماثل عند الله سبحانه .

وليس من المروءة ، ولا من الإنسانية . ولا من التهذيب البشرى أن يكون عمل الانسان للإنسان هو المكيدة أو الإيقاع ، والإيذاء .

وليس أيضاً من المروءة أن يقف الانسان على الحياد ، أو موقف المتفرج من مأساة إنسانية بسبب الجوع والفقر أو العجز ، أو بسبب انتهاك حرمة المال والملك ، أو انتهاك حرمة العرض . ومع أن ذلك ليس من المروءة فقد ذكر الرسول ﷺ أنه سيلحق به أثر موقفه هذا فى حياته : يروى عن جابر رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**ما من امرىء يخذل امرأ مسلماً فى موضع تنتهك فيه حرمته ، وينتقص فيه من عرضه ، الا خذله الله فى موطن تنتهك فيه حرمته ، وينتقص فيه من عرضه ، وما من امرىء ينصر مسلماً فى موضع ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته ، الا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته**)) .

* * *

إن المروءة تبدو فى التسامح والعفو عن المآخذ والخصومات . وصاحب المروءة هو الذى يمد يده ، مصافحاً ، أو منفقاً ، أو معيناً مساعداً . . هو الذى يؤاخى ويؤازر . إن فعلتم ذلك كان لكم عند الله ثواب الفضل والاحسان ، فوق ثواب طاعتكم وإيمانكم بالله جل جلاله .

إنكار الذات

عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : ((**جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فأى ذلك فى سبيل الله ؟ قال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله**)) .

١ — يروى بعض شراح الأحاديث ان الرجل الذى جاء إلى رسول الله ﷺ هو لاحق الباهلى . ولاحق الباهلى إذ يعدد فى قوله هذه الدوافع التى تدفع الانسان إلى المشاركة فى القتال : بالرغبة فى تحقيق النفع المادى من حصوله على نصيب فى الغنيمة ، أو تحقيق النفع الأدبى من حديث الناس عنه وذكره ضمن من يذكرون من المجاهدين المكافحين ، أو من الرياء واتقاء لوم الناس له — هو إذ يعدد الدوافع بهذه الأنواع الثلاثة لم يرد أن يستقصى كل الأسباب النفسية التى تحمل الإنسان فى واقع الأمر على أن يدخل صفوف المقاتلين أو المجاهدين، بل قص منها فقط ما يغلب على الإنسان فى العادة إذا ما أقدم على الاشتراك فى مثل هذا العمل . وكأنه أراد أن يذكر الأمثلة الشائعة فى هذه الحال ليعرف فحسب من رسول الله ﷺ على وجه التحديد : نوع الدوافع الذى يكون به الانسان خالصاً لوجه الله ، وفى سبيل الله .

وإجابته ﷺ بقوله : من قاتل لتكون كلة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ، لا نقف بها أيضاً عند حد القتال من أعمال الإنسان ، بل تشير هذه الإجابة إلى أى عمل من أعمال الإنسان يخلص من الأنانية وينطوى على إنكار الذات فهو عمل فى سبيل الله . لأن أعمال الناس دائرة فى غالبيتها بين أن تكون لتحقيق أهداف خاصة وهى الأهداف الفردية الشخصية التى تحمل عليها الأنانية وحب الذات ، أو لتحقيق مصلحة عامة تتجاوز مصلحة الفرد إلى مصلحة أفراد جماعة معينة أو مصلحة

الناس كافة . وسبيل الله فى العمل هى تلك السبيل الموصلة إلى خير الجماعة ، وهى تلك السبيل التى لا تعرّج بالإنسان لتبليغه أمانيه وآماله الشخصية . إن حياة الإنسان صراط بين طرفين متقابلين : أحدهما قريب منه والآخر بعيد عنه . أما القريب فهو مطالب الذات ، وأما البعيد عنه فهو وجه الله أو ما اصطلح عليه عرف علماء النفس والاجتماع بخير الإنسانية أو مصلحة الجماعة العامة .

وهـذا الحديث النبوى الـكريم الذى تضمن سؤال السائل وإجابته عليه الصلاة والسلام يصور هذين الطرفين ، ويحدد ما لله وما لغير الله . وما لله فهو أبقى وما لغير الله فهو زائل حقاً . وكأن ذكر القتال فى الحديث مثل لعمل من الأعمال التى يأتى بها الإنسان والتى تختلف الدوافع النفسية إليها . ومهما اختلفت تلك الدوافع فهى ترجع إلى نوعين لا ثالث لهما : إما المصلحة الذاتية الفردية وإما المصلحة العامة وهى جهة القربى إلى الله . وبقدر ما ينطوى النوع الأول منهما على حب الذات وسيطرة الفردية ، بقدر ما يتوقف الثانى على إنكار الذات وكبت الرغبات الشخصية .

٢ — وإن جماعة من الجماعات الإنسانية تقوم أعمال الأفراد فيها على الأنانية وحب الذات لهى جماعة واهية البناء ضعيفة الترابط ، إذ أنها عندئذ جماعة مشتتة النزعات مفرقة الأهواء والأغراض . وأفرادها لذلك لا يجتمعون على هـدف واحد . وإذا لم تجتمع أفراد الجماعة على هدف واحد فقوة الـكفاح والسعى الإنسانى فى هؤلاء الأفراد ستتجه حتما إلى الخصومات الفردية ومحاولة غلبة الأفراد بعضهم على بعض ، بدل أن تتجه هذه القوة الدافعة إلى التعاون والتآخى .

وإن جماعة يسيطر على أفرادها إنكار الذات فى الأعمال لهى تلك الجماعة التى أخلصت النية فى سعيها فى الحياة وتمـكن من نفوسها الإيمـان وحب المثل العليا . وهى حتماً واصلة إلى هدفها ، وهدفها لا يـكون إلا الخير لجميع أفرادها :

« وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذِينَ مِنْ قَبْلِهِم وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُم الذِى ارْتَضَى لَهُم وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِم أَمْنًا » .

٣ — إن الفساد الذى استشرى فى الحياة العصرية ، وإن التصدع والانفكاك الذى أصاب بناء الأمة ، وإن الخصومة والبغضاء التى تمكنت من نفوس الطوائف والأفراد — ليرجع ذلك كله إلى سيطرة الاتجاه الفردى فى الشعب وتغليب الأفراد مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة . وإن الاستعمار الذى طال أمده لم يجد له أرضاً خصبة يبذر فيها بذور الفتنة والشقاق سوى حب الذات الذى طغى على كل الاستعدادات الفطرية فى الإنسان بين أفراد الأمة .

لم تنقسم الأمة إلى طوائف وشيع ؟ . لم تتقاتل الأحزاب السياسية على الحكم فيما مضى ؟ لم تنقطع أواصر الاخاء فى الدين واللغة والوطن بين أفراد المجموعة الواحدة ؟ لم تتحكم الخصومات النفسية الفردية وتسيطر الروح القبلية بين أبناء الشعب الواحد ؟. جواب ذلك فى حب الذات والأثرة .

الانقسام والتشيع ، والخصومات والحزازات النفسية بين الأفراد ليست هى فحسب ناتج حب الذات والأثرة ، بل من نتائج ذلك انحناء الرؤوس والهامات لصاحب الكلمة والسلطان دون أن يكون له حق الطاعة على الناس ، كما أن الخوف من ذكر المثل والمبادئ، فضلا عن العمل لتحقيقها إحدى هذه النتائج .

٤ — إن هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : تضحية فى سبيل المبدأ ، وإنكار للذات فى العمل ، وإخاء فى سبيل الله والمصلحة العامة .

صدق رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله .

العزة والكرامة

يروى أبو هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «**ليس الغنى عن كثرة العرض (اى ناشئاً عن كثرة عروض الدنيا ومتاعها)؛ ولكن الغنى غنى النفس**».

ويقول الله جل شأنه: «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، ولكن المنافقين لا يعلمون[1]».

لله العزة والمنعة والقوة، ولرسوله العزة والمنعة والقوة، وللمؤمنين صدقاً: العزة والمنعة والقوة.

لله العزة، لأنه خالق الوجود كله. ومن أجل أنه خالق الوجود كله كانت رسالته للبشر كافة، لا تميز فيها لفريق دون فريق، ولا لشعب دون شعب هى تمثل مصلحة الناس جميعاً، كما تمثل غناه عنهم جميعاً.

ولرسوله العزة، لأنه قام بتبليغ هذه الرسالة، وامتثل لتعاليمها، وابتعد فيما بلغ وفيما امتثل، عن الهوى والحزبية، وعن القرابة والمحسوبية، فكان عمله صورة لقوله، ولم ينطق فى قوله عن هوى، إن هو إلا وحى يوحى.

اول وسائل العزة: التغلب على الهوى

وللمؤمنين حقاً العزة، لأنهم أولئك الذين اقتدوا فى سلوكهم وفى طاعتهم لرسالة الله، برسوله المصطفى ﷺ. لم يبعدهم هوى عن الطريق المستقيم، ولم تتحكم فيهم النفس الأمارة بالسوء. واصبحوا بهذا أعزاء، وأصحاب منعة وقوة. استمدوا عزتهم من إيمانهم — الذى لا تخلخل فيه — بالله وبرسالته، وانتزعوا قوتهم ومنعتهم من التغلب على هواهم وشهواتهم؛ وحزبية الإنسان ومحسوبيته.

---

(١) المنافقون: ٨.

وتغلب النفس على هواها إذن عزة ، وترفع النفس عن دناياها قوة . وسيطرة النفس على حاجاتها غنى وثروة . وليس الغنى إذن هو كثرة عروض الحياة الدنيا من مال وجاه وولد ، وإنما الغنى غنى النفس ، وفي غناها عزتها وقوتها .

وبهذا الوضع يصبح المؤمن عزيزاً . لأنه قد تمكن فعلا من أن يكون سيد نفسه ، ولم تستطع شهوات الإنسان العادية ، ولم يستطع هواه الجامح أن يتحكم فيه ، فيذله ويستعبده .

العزة معناها إذن انتصار الباقي على الفاني ، انتصار الخير على الهوى والشهوة ، انتصار ما لله على النفس . والمؤمن العزيز هو المؤمن القوى ، وهو « خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .

إن المؤمن العزيز صاحب كرامة أيضاً ، لأنه لا يتبذل ، ولا يستذل . صاحب كرامة لأنه مترفع عن الدنايا ، لا يسأل غيره قضاء حاجة لنفسه من حوائج الدنيا. وهو خير من غيره عند الله والناس جميعاً . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **لأن يغدو احدكم فيحطب على ظهره فيتصدق به ، ويستغنى به عن النـاس ، خير من أن يسال رجلا اعطاه أو منعه ذلك ، فان اليد العليا خير من اليد السفلى** » .

تكريم الله للانسان

ويقول الله تعالى جل شأنه « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُم فِي البَرِّ وَالبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وفَضَّلْنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِمَّن خَلَقْنَا تَفْضِيلاً[1] » . فالإنسان في طبيعته ونشأته مكرَّم . فاذا استذل وأهين كان في ذلك من فعله ،وكان فعله عندئذ اعوجاجاً لاقوم فيه . لايهان ولايستذل إلا من ضل السعي في الحياة . ومن ضل سعيه في الحياة يكون قد آثر الدنيا وشهوات النفس على الأعمال الصالحة الباقية . لايهان ولايستذل إلا إذا نسي الله فأنساه هدايته . فإذا

(١) الاسراء : ٧٠ .

كان فى إيثاره للدنيا يحسب أنه يحسن صنعاً : فقد انحرف انحرافاً بعيداً ، وسوف يلقى من الهوان — على الأقل من نفسه أمام غيره — ما يبعده عن أن يكون إنساناً ، وإن بقى فى صورة آدمى . لأنه لا يرى عندئذ إلا الدنيا . ولا يسعى إلا لتحصيل أغراضها ومتعها . ومن وصل أمره إلى هذه الحال أصبح كمن يأكل ولا يشبع . يروى مسلمة عن معاوية رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **« انما انا خازن فمن أعطيته عن طيب نفس ، بارك الله له فيه ، ومن اعطيته عن مسألة وشره كان كالذى يأكل ولا يشبع »** .

ومن الأفراد أفراد أعزاء كرماء وهم المؤمنون حقاً . ومن الأفراد أفراد ضعفاء أذلاء وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم . والجماعة العزيزة الكريمة هى التى يكون أفرادها أعزاء أقوياء كرماء . والجماعة الضعيفة هى التى يكون أفرادها ضعفاء أذلاء .

من معانى العزة

والقرآن لا يريد منكم أيها المسلمون .. كى تصبحوا أعزاء كرماء — أن تتركوا الدنيا ، وما لها ، وجاهها ، وزينتها ، وأن تحرموا أنفسكم من متعها . وإنما يريد منكم أن تتعففوا عن السؤال : يتعفف صغار النفوس من الموظفين عن الوساطة ، ويتعفف صغار النفوس من أصحاب الأعمال عن تقديم الرشوة ، ويتعفف صغار النفوس من التلاميذ والطلاب عن الغش فى الامتحان ، ويتعفف صغار النفوس من التجار عن التدليس والخداع ، ويتعفف صغار النفوس من العمال عن الاستهتار بالواجبات يريد منكم أن تكون كفايتكم ، وإيمانكم بأنفسكم ومجتمعكم هى وسائل تعففكم عن الدنيا .

يريد منكم ألا تطغى عليكم الدنيا فتأكلوا أموال اليتامى . « وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوالَهُم ، وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلَى أَمْوالِكُمْ ؛ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً[1] » .

---

(١) النساء : ٢ .

يريد منكم ما يريده الله فى قوله «يَأَيُّها الذِينَ آمَنُوا لا تَأكُلُوا أَموالَكم بَيْنَكم بالبَاطِل ، إلا أن تَكون تِجَارة عَنْ تَراضٍ مِنكم ، ولا تَقْتُلوا أَنْفُسَكم ، إن الله كانَ بِكم رحيماً(١) » .

وليست العزة والكرامة استماعاً لعظة ، وحماساً مؤقتاً لما يقال . إنما هى عادة وتنشئة ، بعد التبصير بهداية الله .

التربية والمسؤولية عنها .

والبيت مسؤول عن دفع الأولاد للسؤال والإلحاح فيه .. مسؤول عن وضع الأولاد فى الحياة وضعاً يدفعهم إلى ترجيح تافه الماديات ، عوضاً عن الترفع عنها وتكوين الشعور بالشخصية عندهم .

لو استقامت التربية الأولى ، ولم يُهمل الآباء والأمهات فى الإشراف على أولادهم لوجدوا فيهم أمثلة للتهذيب الكريم ، والعزة والشمم والاباء ، ولأفادوا منهم فى الحياة متعة للروح والنفس ، وزينة وجاهاً فى هذه الدنيا .

والمدرسة مسؤولة لأنها لم تجعل بعد من السلوك الاخلاقى بين التلاميذ موضوع مسابقة واختبار ، وبقيت للمعرفة دون التهذيب .

والمجتمع مسؤول لبخس تقديره الأعزاء والكرماء ، واحتضانه للمنافقين الأدنياء .

والفرق بين كريم النفس وعزيزها من جانب ، وبين دنىء النفس وضعيفها من جانب آخر — أن الأول لا يعيش لحساب شهوته ، وأن الثانى لا يعيش إلا لحسابها .. الفرق أن الأول يتمتع بمعنى السيادة .. وأن الثانى يتلذذ بنفاق العبيد وحركة الأذلاء .

قد تصيب الدنيا دنىء النفوس وضعيفها . قبل أن تصيب كريم النفس وعزيزها . ذاك لأن الدنيا تنافق . ولكن العزة لله جميعاً لا يهبها إلا لعباده المؤمنين الذين لا تستعبدهم شهواتهم : « مَنْ كانَ يُريدُ العِزَّة فَلله العِزَّة جميعاً . إليه يَصْعد الكلمُ الطَّيب . والعَمَلُ الصَّالِح يَرْفعه(٢) » ..

---

(١) النســاء : ٢٩ . (٢) فاطر : ١٠

فضيلة الصبر وأثرها فى حياة الفرد والجماعة

عن أبى سعيد رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **ما أعطى احد عطاء خيراً وأوسع من الصبر** » .

١ — الإنسان فى هذه الحياة لابد أن يتخذ موقفاً معيناً : مرة من نفسه ومرة ثانية من الآخرين . فبحكم أن له هوى وشهوة وأن له مع ذلك عقلا نيط به التكليف الإلهى ووجب عليه من أجله أن يطيع ما أمره به الله ويتجنب مانهى عنه — كان موقفه من شهوته ومن عقله أن يروض نفسه على عدم الانسياق فيما تدفعه إليه غرائزه وشهواته ، وعلى الوقوف بجانب العقل والرسالة الإلهية . وهو لاينجح فى هذا الموقف إلا إذا تحمل ألم الحرمان وفوت على نفسه متع النفس الشهوية ورغبات غرائزه . وترويض النفس على تحمل الألم والحرمان من المتع هو مايعرف بالصبر والجلد . وفى هذا الموقف إذا لم يستعن الإنسان بالصبر لم يستطع أن يقى نفسة شر الاسترسال فى شهوته ، وجاب على نفسه بعد ذلك غضب الله فى مخالفته ما أمر به ونهى عنه .

وموقف آخر يتحتم على الإنسان فى حياته أن يقفه من الآخرين ، وهو موقف مردد بين أن يعيش فى الوجود لنفسه خاصة وبين أن يكون لنفسه والآخرين معه فى جماعته . ولكن حسب ماجاءت به الرسالة الإلهية ووفق طبيعة نفسه يتحتم على الإنسان أن يعيش لنفسه ولغيره ، لاعلى نحو من المشاركة فقط . بل على نحو يصير فيه الحال بينه وبين غيره إلى حال الأخوة والساندة . ولذا لا يستطيع أن يؤدى مايجب عليه هنا اتباعاً لوصايا الدين وتمشياً مع طبيعة الحياة الإنسانية نفسها إلا إذا تحمل فى ذلك المكاره . وهى لاتعرض له إلا إذا رعى مصالح غيره . لأن فى رعايته لهذه المصالح حرماناً لنفسه من بعض المتع والرغبات . والسبيل إلى ذلك

هو الصبر وترويض النفس عليه .

٢ — والجماعة الإنسانية نفسها لها هذان الموقفان : موقف داخلي يقفه الأفراد مجتمعين من أمتهم ، وموقف خارجي تقفه الأمة ككتلة واحدة من أمة أو أمم أخرى .

فقد تحل بالأمة مثلا أزمة اقتصادية بسبب نقص فى الأموال أو الثمرات تفرض عليها لوناً معيناً من العيش وهو التنازل عن شىء من حياة المترفين وتعويد الأفراد على ضرب من التقشف والحرمان مما تشتهيه الأنفس — وهى لاتشتهى غالباً مافيه خيرها وصلاحها — وهنا يدور الحال بين أمرين لاثالث لهما : إما أن يلتزم أفراد الأمة : جادة التقشف بحرمان أنفسهم قليلا مما ألفوا وتنجو بذلك الأمة وتعود من جديد إلى حياة أوسع رفاهية وأعلى مستوى بعد حين ، أو تشتد الأزمة وتأخذ سبيلها فى تفريق الجماعة وإضعاف مستواها فى العيش والحياة حتى لدى أولئك الذين يظنون أنهم بمأمن من آثارها بسبب سعة فى المال أو اعتماد على مصادر أخرى من مصادر العيش .

وأيضا قد تضطر الأمة إلى أن تسلك مسلكا خاصاً تجاه الأحداث التى توجه إليها من بعض الأمم الأخرى . فقد تضغط بعض الأمم الكبرى على أمة صغيرة لتنال منها ميزات سياسية أو اقتصادية وتحاول فى سبيل الحصول على ذلك إيجاد أزمات من ألوان مختلفة داخل هذه الأمة الصغيرة . وهذه الأمة الصغيرة إزاء ذلك إما أن تجيب الأمة الكبرى لما تطلب ويضيع بذلك استقلالها ويسيطر على اقتصادياتها غير أبنائها ، أو تتحدى هذه الأزمات بوقوفها متماسكة فى وجه ماتطلب الدولة الكبرى ، والسلوك فى عيشتها مسلك المتحملين الأذى والمكاره ، مسلك الصابرين المتجلدين . ومهما كان شأن هذه الأزمات عندئذ فإن حدتها وقوتها لايتماسك مطلقاً أمام صلابة الأمة وإرادتها .

والإنسان إذا عرف أن حياته ليست طريقاً واحداً ، وأن طريقه فى الحياة ليس معبداً على الدوام ، بل فيه استقامة وانحناءات وفيه ميسر سهل وعسير شاق ، عرف أن الشاق فى طريقه لايجتازه إلا بالصبر وتحمل الأذى فى اجتيازه .

والأمة إذا عرفت أنها لاتعيش وحدها ، وإنما تعيش مع غيرها من أمم الأرض ، وقد يكون مذاق هذا الاحتكاك مراً لديها — عرفت أنه لكى تنجح لابد لها من الصبر وتحمل مرارة الاحتكاك ونتائجه .

والله سبحانه وتعالى قد عرض فى بعض آيات القرآن الكريم لبعض الأحداث التى تنزل بالجماعة والتى من شأنها أن تزعزع كيان الجماعة لولا التغلب عليها بالتحمل والصبر . ولذا بشر الصابرين عليها وأطاق فى بشارته إيماء إلى أن جزاء صبرهم كما يكون فى الآخرة سيتحقق فى الدنيا :

يقول جل شأنه : « ولنبلونـكم بشىءٍ من الخوف والجوع ونقص من الأموالِ والأنفس والثمرات وبشر الصابرين [1] » .

(١) البقرة : ١٥٥ .

الصبر عند الشدة

« عن أبى يحيى صهيب بن سنان رضى الله عنه : قال : قال رسول الله ﷺ **« عجباً لأمر المؤمن ! ان امره كله له خير . وليس ذلك لاحد الا للمؤمن . ان اصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وان اصابته ضراء صبر فكان خيراً له »** .

١ — إن الإنسان لو ترك وطبيعته ، يسير فى طريقها دون أن يلزم نفسه بتوجيه معين — لسار حتما إلى غاية لايختلف عنها أبداً ، وهى أن يكون أنانياً ، يحب ذاته . ويعمل لنفسه ، ويتصور الوجود كله وقفاً عليه ، والحياة خاصة به . لاتحد أمانيه وأطماعه ، ولا نهاية لرغباته . إن حصل على شىء منها أمسك به عن غيره ، وإن قدر وفاته الحصول عليه ، أو قدر وخرج من يده هذا الشىء لأمر ما : ثار وغضب وقلق واضطرب .

ذاك لأنه فى رأيه وتصوره : مركز هذه الحياة يجب أن يدور كل مافيها حول نفسه ، وأن يكون له وحده دون غيره . ونتيجة هذا التصوير أن لايعترف بمن عداه فى الوجود ، وأن لايقر له حقاً فى العيش والحياة .

ثم أثر ذلك على الشخص الأنانى الذى استسلم لميوله ونزواته ، وانقاد لطبيعته ، بدل أن يكون مهيمناً عليها وقائداً لها — أثر ذلك هو الخوف الأبدى من أن يفلت شىء مما فى يده ، والحزن الشديد على مافاته من أعراض الدنيا ، والخصومة العنيفة الدائمة بينه وبين غيره على امتلاك متع هذه الحياة . وليس مدعاة لقلق الإنسان فى عيشته من أن تسيطر عليه هذه العوامل الثلاثة : الخوف — والحزن — والنزاع .

والجماعة التى تتكون من أفراد لهم هذا الاتجاه فى الحياة — هى فى واقع الأمر

جماعة غير قائمة . لأن الأساس فى وجود جماعة ما : قيام روح المشاركة بين الأفراد . وهـذه الروح لا توجد بينهم إلا حيث تضعف الأنانية فى نفوسهم ، ولا تضعف الأنانية فى نفوسهم إلا إذا أخذوا أنفسهم بتوجيه خاص يغالب نزعاتهم وميولهم ، ويتحكم فى تصرفاتهم وأفعالهم ، ويقودهم إلى خير أنفسهم وجماعتهم وأممهم .

٢ — والتوجيه السليم للبشرية ، المنزه عن النقص ، الموصل حتما إلى الخير — هو توجيه الرسالة الإلهية . وأساس هذا التوجيه الإيمان بالله .

والإيمان بالله ليس كلمة ينطق بها المؤمن ، إنما هو التزام خاص أمام الله سبحانه وتعالى ، وعهد يعطيه الإنسان على نفسه لله جل وعلا : ومجمل هذا العهد أن لا يكون أنانيا ، وأن يعيش لنفسه ولغيره ، وأن يقر بأن له وعليه واجبات : له واجبات وحقوق بقدر ما يبذل من نفسه فى سبيل غيره من معاشريه ، وفى سبيل جماعته العامة . وعليه واجبات بقدر ما يعد بها نفسه اعداداً يجعلها تبذل عن رضا ، وتعرف فى وضوح إنها ليست وحدها فى هذه الحياة ، وأن مشاركيها لهم قبلها حقوق يتعين أداؤها .

والمؤمنون بالله إذن هم أولئك الذين لم يذعنوا لنداء الطبيعة الإنسانية الفجة . فلم يعيشوا لأنفسهم وحدهم ولم يسعوا فى الحياة لتحقيق مآربهم الذاتية الخاصة .

والمؤمن بالله عندئذ إنسان أمن على نفسه : الخوف ، وحال بينها وبين الهم والحزن ، وجنبها الخصومة والنزاع والبغضاء . هو المطمئن فى سعيه لأنه يقصد وجه الله فيما يسعى ، وهو الناجح فى هذه الدار لأنه استطاع أن يتغلب على نزوات نفسه وشهواته ، وهو الناجح فى الدار الآخرة ، لأن الله لا يخلف وعده .

وقد وضح القرآن الكريم هذين الحالين للإنسان : حاله إذا انقاد لطبيعته الأولى ، وحاله الثانية إذا أخذ نفسه بتوجيه الله جل جلاله : يقول سبحانه وتعالى: « إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً . وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً ،

إلا المصَلِّين . الذين هم على صَلاتِهم دائمون . والذين في أموالهم حَقٌّ معلوم . للسائل والمحروم ، والذين يُصَدِّقون بيوم الدِّين . والذين هُمْ من عذاب ربِّهم مُشْفِقُون [١] » .

وعبر الله سبحانه عن المؤمنين ، وهم من يفترقون عن أولئكم الذين يستسلمون لطبائعهم ، بالمصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين يرون أن في أموالهم حقاً معلوماً لغيرهم من المحرومين والذين يصدقون بيوم الآخرة ـ عبر عن إيمانهم بهذه الصفات إشارة إلى أن هذه الصفات هي التي تعبر حقاً عن إيمان المؤمن ، وهي التي تفرق بين المؤمن في السلوك ، وبين ذلك لذي بقي مرتبطاً في تصرفاته بما تمليه عليه طبيعته وغرائزه وحدها .

٣ — ورسول الله ﷺ فيما يحدثنا به الآن صهيب بن سنان رضي الله عنه ـ يريد أن يصور في إجمال حال المؤمن . وهي حال خير كلها ، سواء في سرائه أو ضرائه : لأنه إن نال مايسره في حياته شكر الله على نعمته ، وإن أصابه مايتضرر ويتوجع به صبر على ماأصابه . وشكر الله على نعمته خير ، وصبر الإنسان على مايبتلي به في هذه الدنيا خير وأي خير : « وَلَنَبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين [٢] » .

والخير في حال الشكر على النعمة آت من أن الشاكر لم تستهوه النعمة ولم تحل بينه وبين الرجوع إلى الله . وذلك شأن المؤمن يفترق عن الإنسان المسترسل في سيره وفق طبيعته الأولى ، وهو ذلك الذي يطغى أن رآه استغنى .

والخير في حال الصبر على البأساء والضراء آت من أن الصبر لا يحققه إلا مؤمن ولا يلتزمه عند المحنة إلا من اعترف بالله . إذ الطبيعة الانسانية كما هي : توحي بالهلع والجزع في الشدائد : « إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعاً» [٣] .

(١) المعارج : ١٦ ـ ٢٦ . (٢) محمد : ٣١ .

إن الخير والإيمان متلازمان.. والشكر على النعمة والصبر فى المحنة طرفا الإيمان بالله تعالى .

فمن كان مؤمناً فليكن شاكراً صابراً ، ومن يرد الخير فليكن مؤمناً ، ومن يسع إلى السعادة والطمأنينة فليخالف هواه ، وينزل عن بعض رغباته ، وما تدعوه إليه نفسه وأنانيته .

والجماعة لاتكون جماعة إلا إذا آمن أفرادها بالله . وآية إيمانهم بالله اعتراف بعضهم قبل بعض بالمشاركة فى الحياة . وأمارة اعترافهم بالمشاركة فى الحياة : التضامن وتحمل المحن والشدائد فى سبيل جماعتهم . وربح ذلك أخيراً عائد إليهم كأفراد ، إذ ليست الجماعة إلا أفراداً مشتركين فى هدف وغاية .

إن حيوية الأمة تقاس بصبرها وجلدها عند الأزمات والمحن ، وإن حيوية الأفراد تقاس بالشعور بوطنهم وجماعتهم . وأخيراً الإيمان بالله : فى الشكر عند المسرة ، والصبر عند المحنة . والمسرة والمحنة كما يكونان للأفراد يكونان للجماعة .

الصراحة والصدق

١ — عن أبى هريرة رضى الله عنه — فى رواية أبى داود والحاكم — أن النبى ﷺ قال : ((**من افتى بغير علم كان اثمه على من افتاه ، ومن اشار على اخيه بامر يعلم ان الرشد فى غيره فقد خانه**)) .

٢ — وبروى عن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر ، وان البر يهدى الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . واياكم والكذب فان الكذب يهدى الى الفجور ، وان الفجور يهدى الى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**)) .

* * *

فى الحديث الأول يعتبر الرسول عليه الصلاة والسلام أن من الخيانة عدم الصراحة فى المشورة ، وعدم الإخلاص فى النصيحة . فالذى يرشد غيره ويعلم أن الهداية والرشد فى غير ما أرشد به فقد خدعه وأضله . وعندما يخدعه ويضله قد آذاه . وهو بذلك لا يحب لغيره ما يحب لنفسه . وهو لهذا أيضاً خان العهد الذى بينه وبين كل مسلم آخر ، وهو أن يعمل بما يجب للمسلم على المسلم . يروى أبو هريرة رضى الله عنه ان النبى ﷺ قال: حق المسلم على المسلم ست ، قيل ما هن يارسول الله قال : « إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه » . فجعل من حق المسلم على المسلم النصح لمن يطلب النصيحة . ولا يكون الأمر نصحاً إلا إذا صدر عن إخلاص واعتقاد بأن فيه الهداية والرشد . فالصراحة صفة مطلوبة ، وفضيلة يتخلق بها .

وفى الحديث الثانى حث الرسول الكريم على الصدق وأوضح أنه سبيل البر

والخير والإحسان فى الحياة الدنيا ، سواء أكان للإنسان الصادق أو لمن يتعامل معه ويتصل به ، ثم فى النهاية هو الطريق الموصل إلى الجنة وثواب الله فى الآخرة. كما حذر من الكذب لانه من المهلكات : فهو موصل الى الفجور والموبقات والتصرفات المرذولة فى هذه الحياة ، ثم هو بعد ذلك سبيل إلى النار والبعد عن رضا الله وثوابه .

سبيل الصراحة الشجاعة فى ابداء الراى :

والصراحة والصدق صفتان تعتمدان على الشجاعة، ولايتصف بهما إلاشجاع . والصراحة تعتمد على الشجاعة فى إبداء الرأى والنصح ، والصدق يعتمد عليها فى التعبير عن الحق والواقع . ولذا طلب الإسلام من الإنسان أن يكون فى حياته صريحاً وصادقاً ، يطلب منه فى واقع الأمر أن يكون شجاعاً فى إبداء رأيه ونصحه ، وفى التعبير عما يعتقد أنه حق وواقع .

وبهذا ينتفى الخداع فى قوله : لأن الخداع إنما يكون عندما يكتم النصح أو يدلس فيه ، وعندما يلبّس فى التعبير عن الحق ويزور فى حقيقة الواقع .

الصدق والصراحة كلتاهما إذن يتمر عدم خداع الغير ، وكلتاهما يبعد الزيف فى العلاقة بين الإنسان والإنسان ، وفى توجيه الإنسان للإنسان .

كلتاهما ركن أساسى فى تكوين شخصية الإنسان . لأنه لا يتصف بهما إنسان إلا بعد أن يمر بامتحان دقيق فى إرادته وإيمانه بالله ثم بنفسه وبالقيم ، وإلا بعد أن ينتصر على التردد والتأرجح بين دافع الإعلان عن الرأى لمقتضى الحق فى ذاته ، وبين كتمانه خشية إغضاب الغير ، أو خشية أن تفوت مصلحة شخصية له عند هذا الغير .

الصراحة والصدق كلتاهما عنوان على أن صاحبهما منتج فى الحياة ، ويعتمد عليه فى الأزمات ، ويثق به ويركن إليه . إنصفة الصراحة أكثر من الإخلاص،

هى جرأة واخلاص معاً ، وإن صفة الصدق أكثر من التعبير عن الواقع ، هى جرأة ، واحتضان للحق ، واتباع له ، وتعبير عنه .

ولا تكون هناك صراحة ، ولا يكون هناك صدق إلا لمن له شخصية . فهما يسهمان فى تكوين شخصية الإنسان، وفى الوقت نفسه يعبران عن هذه الشخصية.

إن الصدق يهدى إلى البر ، والبر هو الإحسان والحق . ذلك لأن الصادق قد أبعد عنصر الضعف فيه ، وهو الجبن والخور والنفاق . والصراحة فى إبداء الرأى والمشورة صفة المسلم ، لأن الصريح قد سلم المسلمون من لسانه فيما يعبر ، ومن نيته فيما يفسر ، فهو خالص النية صريح القول .

الخداع والجبن امارة النفاق :

وعلى الضد من صفتى الصراحة والصدق صفة النفاق . فالنفاق يبعد صاحبه عن أن يكون ذا شخصية ، وهو أمارة على ضعفه . المنافق يعرف الحق ويكتمه. وإذا سئل عنه أجاب بشىء آخر يغاير مايعرفه ، إن كان فى ذلك ما يحقق مصلحة خاصة له ، أو يدفع مضرة عنه .

المنافق خطر على المجتمع، ومع ذلك لاشخصية له . وضعفه هو سبب خطورته فى المجتمع الذى يعيش فيه . لأنه يستمد من هذا الضعف طواعيته لكل رأى ، وكل جهة ، وكل حال ، وكل عهد . عن ابن عمر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال فى تصوير المنافق : **« مثل المنافق كمثل الشاة العائرة(١) بين الغنمين » .**

وفى واقع الأمر ، المنافق لا يعتقد بما يعلن طاعته له ويذعن إليه، فيما يتحدث أو فيما يتصرف . خطورته فى أن غيره يأمن جانبه فى وقت هو غير مأمون الجانب فيه ، يعتمد عليه فى وقت لا يعتمد عليه فيه ، يختفى عند الأزمات ، ويكثر تردده وتنشط حركاته فى الرخاء .

---

(١) العائرة : المترددة . تعير : تردد الى هذه مرة والى هذه مرة .

خطورة المنافق ليست فى أن ذاته خطرة ، أو لأن ذاته قوية ، بل لأن غيره ينخدع فيه . ولخطورة المنافق فى خداع غيره والتغرير به يقول الله تعالى فى شأن المنافقين : « إنَّ المنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، وَلَنْ تجدَ لهمْ نَصِيراً[١] » .

المنافق يلبس ثوب الصديق وهو عدو ، وثوب المشير الناصح ، وهو خادع مغرر ، وثوب المضحى فى سبيل الغير وهو نفعى أنانى ينتزع منفعته الخاصة من حطام من تظاهر له بالصدق ، والإخلاص فى المشورة ، والتضحية من أجله . « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد اخلف ، وإذا اؤتمن خان » .

* * *

الصراحة والصدق فى الإنسان كفيلان بنفى النفاق عنه . لأنه فى صراحته قد أدى أمانته ولم يخنها ، وفى صدقه لم يكذب فيما تحدث به .

الصراحة والصدق فى الإنسان تجعله مأمون الجانب ، قوياً يركن إليه ، لأنه لا يعرف الخداع ، ولا الزيف ، ولا التدليس .

ولكن كيف يكون الإنسان صريحاً صادقاً ؟ يكون صريحاً صادقاً بأن يعتقد أن نجاة الإنسان وسعادته فى الصراحة والصدق . وبأن يدرب نفسه على الصراحة فيما يؤخذ رأيه فيه كما لو كان مشيراً لنفسه ، ويعود نفسه الصدق فيما يقول ويتحدث ولو أغضب غيره أو نفسه ، ثم أخيراً بأن يكون فى صراحته وصدقه قدوة واضحة لأولاده وأهله ، وإلا لاقى من ألم النفس وعنتها — بسبب كذب الأولاد والأهل ، وكتمانهم ما يعرفونه ويرونه ـ ما يجعله يشقى وهو حى ، حق انه ليتمنى الموت كى يخلص من شقوته وآلمه .

---

(١) النساء : ١٤٥ .

الفصل الثالث

- من اخطاء المسلمين فى فهم الاسلام « التوكل » .
- من أخطاء المسلمين فى فهم الاسلام « الرزق » .
- من أخطاء المسلمين فى فهم الاسلام « القرآن شفاء » .
- اخطاء مشهورة وتصحيحها « غاية الزواج وهدفه » .
- اخطاء مشهورة وتصحيحها « قوامة الرجل على المراة » .

من أخطاء المسلمين فى فهم الاسلام

التوكل

صان الله قرآنه عن التحريف . فما بلغ لرسول الله ﷺ عن طريق الوحى هو ما دون فى المصحف الذى تداوله المسلمون الأولون من صحابة الرسول ، ويتداوله المسلمون من بعدهم جيلا بعد جيل ، حتى اليوم . وصيانة الله لقرآنه الكريم عن التحريف نعمة تميز بها هـذا الكتاب السماوى . حتى يبقى على الدوام نوراً يهدى به من يشاء : « ذَلِكَ هُدى الله يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ[1] » وحتى إذا انتكست الانسانية وسيطر عليها ظلام الطفولة فى فترة ما ، وهو ظلام الأنانية والمادية ، بقى الأمل فى أن تخرج الانسانية من جديد من انتكاسها وظلام طفولتها إلى نور الرشد ومستوى الانسانية الفاضلة ، وهو مستوى الانسانية المتعاونة على الخير وفى سبيل الوجود المشترك بين الناس جميعا .

عادات غيرت المفاهيم :

وبينما بقى القرآن الكريم مصونا عن التحريف والتبديل ، لم يبق المسلمون كما كانوا ، ولم تبق جماعتهم اللاحقة هى جماعتهم فى فهم القرآن وفهم ما ترمى إليه مبادؤه : وذلك لأنه طرأت على جماعة المسلمين جيلا بعد جيل ، عادات وتقاليد لم تكن للمسلمين الأول . وبحكم تأثر المسلمين اللاحقين بهذه العادات والتقاليد تغيرت أفهامهم فى بعض ماجاء به القرآن الكريم تغيراً يتلاءم مع هذه العادات والتقاليد ، ولكنه يختلف مع أفهام السابقين الذين عاشوا فى وحيه . وتبعاً لتغير أفهامهم تغير سلوكهم وتغيرت نظرتهم فى الحياة ، عن ذى قبل . وأصبحت المبادىء الإسلامية التى من شأنها أن تحمل الإنسان على السعى والعمل والإيجابية يتخذ منها المسلم الذى أخطأ فهمها ، تكأة يتكىء عليها فى القعود عن السعى والتراخى فى العمل .

(١) الانعام : ٨٨ .

ومن هذه المبادىء التى أخطأ فهمها كثير من المسلمين متأثرين فى هذا الخطأ بما لا يتصل بالإسلام من عادات وتقاليد طرأت على جماعتهم : مبدأ التوكل .. والرزق .. وكون القرآن شفاء ..

التوكل هو اتباع الطريق المستقيم :

ونعرض للتوكل كما جاء فى القرآن الكريم وعلى نحو ما فهمه المسلمون الأول فكان دافعاً قوياً لهم نحو العمل فى الحياة ، ونعرض كذلك لفهم المتأخرين إياه على نحو كان سبباً لتقاعدهم وتراخيهم وإهمالهم .

ويقول الله تعالى : «... وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ[1]» . فالتوكل على الله هو الاعتماد عليه . والاعتماد على الله ليس بكلمة ينطق بها من يطلب معونة الله ، وإنما باتباع الطريق المستقيم الذى خطته رسالة الوحى ، وهى ما فى القرآن الكريم من وصايا ومبادىء وأوامر ونواه . التوكل على الله والاعتماد عليه يبتدىء من الأخذ فى السبل بعد الأخذ فى تنفيذ مشورة القرآن ونصحه . ويقول الله لرسوله الكريم : « فتوكل على الله إنك على الحق المبين » . ويطلب منه التوكل وهو بالفعل قد سلك طريق الحق وهو طريق القرآن . وعندئذ ، أى عندما يأخذ الانسان فى تنفيذ نصح القرآن يكون الله فى عونه . وهذا هو معنى قوله تعالى : « فهو حسبه » : أى كافيه العون والتأييد . فعون الله وتأييده للإنسان مقرون بالأخذ فى تنفيذ مشورته ونصحه ، وهو ما جاء به قرآنه الكريم .

هذا ما تعطيه هذه الآية القرآنية وآيات أخرى مثلها جاء فيها طلبه التوكل . وهذا ما فهمه المسلمون الأول . ولذا كانوا غير متقاعدين عن السعى والعمل ، وكانوا غير متراخين ، كما كانوا غير سلبيين فى الحياة .

ولكن كثيراً من المسلمين المتأخرين فهموا أن التوكل هو إلقاء بمسئولية

---

(١) الطلاق : ٢

الإنسان فى السعى والعمل فى الحياة كلية على الله . وعندئذ يقعد الإنسان المتوكل عن العمل ، والله حسبه وكافيه فى العون . عندئذ يعينه الله على ماذا ؟ يعينه على القعود عن العمل ؟ يعينه على الركود وعدم الحركة ؟ يعينه على تجميد طبيعته ؟.

إن التوكل على الله بهذا المعنى ليس توكل القرآن ولا المسلم الأول . والقرآن إذا فهمت مبادؤه على هذا النحو لا يصلح لتوجيه الإنسان . وحاشا قرآن الله عن ذلك . فهو « كِتابٌ أَنْزَلْنَاه إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِراطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ(١) » .

والإنسان خُلق ليعمل وليسعى ، خلق ليتحرك ذات اليمين وذات الشمال ، خلق ليغالب ويقاوم ، خلق ليحيا . وما حياته إلا سلسلة من السعى والحركة والعمل والمغالبة والمقاومة .

والإسلام جاء فحسب هداية لطبيعة الإنسان ، التى من شأنها أن تسعى وتعمل وتتحرك . جاء ليوجه سعى الانسان ويوجه حركته . والتوكل الذى أوصى به المسلمين هو دافع مؤكد للانسان على السعى والحركة والعمل ، دافع آخر على ذلك . لأن المسلم الذى سلك طريق الحق سلك الطريق المأمون الموصل ، وأخذ فى سبيل تنفيذ مشورة القرآن وسار فى هدايته . ومشورة القرآن وهدايته من وحى الله العليم الخبير ، والرؤوف الرحيم . ولذلك لا يضل السالك لهذا الطريق ولا يتعثر من شىء فى ضوء هدايته . وذلك رشد الله وعونه لمن توكل عليه .

---

(١) ابراهيم : ١

من أخطاء المسلمين فى فهم الاسلام :

الرزق

يقول الله تعالى فى سورة هود : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ(١) » . وسورة هود تهتم أولاً وبالذات بالعدل الإلهى فى جزاء الله لأولئك الذين أنكروا نعمه وكفروا برسالاته فى العصور المختلفة . وهى لذلك تقص أخبار الرسل السابقين ، وما تحملوه فى سبيل أداء رسالاتهم ، كما تصور موقف المعاندين المنكرين وما حل بهم من جزاء ، يتمثل فيه العدل الإلهى تمثلا واضحاً .

وإذا كان جو هذه السورة هو هذا الجو فما ذكر مما يتعلق بصفات الخالق ونعمه على خلقه من شأنه أن يوصل إلى تفرده بالعبادة وإقناع البشر بما بدأت به السورة فى قوله تعالى : « ألاَّ تَعْبُدُوا إلا الله ، إنَّنِى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ(٢) » . ومن شأنه أيضاً أن يوضح أن موقف المشرك فى العبادة عندئذ موقف المتعنت المتثبت فى عناده . وقوله تعالى : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ... » : آية من آيات هذه السورة التى تعدد خصائص الله سبحانه وتعالى ونعمه بالنسبة لخلقه . ومفادها أن كل كائن يتحرك على وجه هذه الأرض مرتبط فى رزقه بإرادة الله إرتباطاً وثيقاً . والله من جانبه يؤكد أنه سيتكفل بهذا الرزق ، على نحو ما جاء فى قوله : « عَلَى اللهِ رِزْقُهَا » . هو قد تكفل بالرزق لكل دابة على الأرض ، أى لكل كائن متحرك على الأرض . ولكنه يتكفل لهذا الكائن المتحرك بالرزق إن استخدم خصيصته التى اختصه بها الخالق ، وهى الحركة . وهذا ما يعبر عنه قوله : « دابة » .

وكأن هناك تقابلا ، أو كأن هناك مقدمة ونتيجة . وهما : عندما يتحرك الكائن ،

---

(١) هود : ٦ . (٢) هود : ٢ .

الذى أعده الله بقوة الحركة ، يتكفل الله له بالرزق . وغير الإنسان من الكائنات المتحركة يتحرك بالغريزة وبدفعها القوى . ودفع الغريزة هو الأصل فى الحركة فى اتجاه واحد وهو اتجاه تحصيل الرزق . والإنسان أيضاً من الكائنات المتحركة التى تدب على الأرض وتتحرك فوقها ، ولكنه كائن له اختيار وإرادة يستطيع أن يجمد فى حركته ويستطيع أن يميل وينحرف فيها . ولذا رزقه فى سعته وضيقه وفى اطمئنانه فى الحياة بهذا الرزق أو عدم اطمئنانه به ، وفى تمتعه به كثيراً أو قليلا : مرتبط بنوع حركته واتجاهه فيها . وحركته فى الحياة لا تكون مثمرة ثمرة نافعة ويسعد بها إلا إذا كان متبعاً فيها خطوط الرسالة الإلهية .

وقد كانت سورة يونس قبل سورة هود : تحكى من قبل الله تعالى ذلك الاطمئنان النفسى والسعادة والبهجة التى يسعد بها الإنسان المتحرك حركة نافعة مثمرة . وهو ذلك الإنسان المؤمن العامل . ثم جاءت سورة هود تحكى الشقاء الذى يصيب الإنسان الآخر صاحب الحركة غير المثمرة ، وهو الإنسان الجاحد بنعم الخالق . فالحركة المثمرة إذن ، والسعى المجدى أساسان فى الحصول على الرزق وأساسان فى قيمة التمتع به .

ولم يكتف الإسلام بذلك من المؤمن بإيمانه . بل طلب منه العمل مع الإيمان وهنا نجد آيات القرآن التى وردت فى وصف المؤمنين تقرن الإيمان بالعمل كشرط يترتب عليه الثواب أو كتمهيد تعقبه حالة الاطمئنان النفسى . يقول الله تعالى . « فأَمَّا الذين آمَنُوا وعمِلُوا الصَّالحات فيُوَفيهمْ أُجُورَهم ويزيدَهمْ مِنْ فَضْله[١] » . ويقول : « الذينَ آمَنُوا وعمِلُوا الصَّالحات طوبَى لهم وحُسْنُ مآب[٢] » . ويقول « ومَنْ يَعْمَل مِن الصَّالحات وهُوَ مُؤْمِن فَلا يَخاف ظُلماً ولا هَضْماً »[٣].

---

(١) النساء : ١٧٣ .
(٢) الرعد : ٢٩ .
(٣) طـه : ١١٢ .

وعمل الصالحات هو كل عمل فى الحياة لا انحراف فيه عن النهج القويم . ومن بين الصالحات تحصيل الرزق ، من طريقه المشروع .

هذا هو فهم المسلم الأول فى تكفل الله برزق الكائنات الحية ، حسبما ورد فى هذه الآية . فهم ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام وفهمه صحابته رضوان الله عليهم . وكم من أحاديث تروى فى الحث على العمل فى سبيل تحصيل الرزق . وقد فضل الرسول حال الذى يؤدى العبادة فى غير تزايد ومبالغة على حال ذلك الذى يقوم آناء الليل وأطراف النهار تاركاً شأن نفسه على غيره أومهملا أمر من يعوله . وأصبح شعار ذلك الوقت : العمل . إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

فهم خاطىء :

ولكن بعض المتأخرين من المسلمين وقف بنظره عندما ورد فى قوله تعالى : « عَلىَ اللهِ رزقُها » وأخذ من الآية كلها كفالة الله الرزق لعباده ، وترك أنه فى سبيل الحصول على الرزق : عليه أن يسعى ، وأن سعيه سعياً مستقيما ، طبقاً لتعاليم الله ووصاياه . ترك أنه كائن يتحرك ويدب على الأرض وأن واجبه أن يترك ذاته تتحرك وأن يتدخل بإرادته فى توجيه حركته فحسب .

فهم بعض المسلمين المتأخرين أنه ينبغى للمسلم كى يحصل على الرزق أن يتردد على المسجد ، أو يكرر دعاءه لله ويستنجد به رافعاً بغيته نحو السماء ، وأنه يكفى أن ينتمى إلى المسلمين بالاسم وينطق معهم الشهادة ، وأغفل أنه يجب عليه أن يعمل وأن يكون فى عمله مخلصاً لله فلا يؤذى غيره . أغفل أنه يجب عليه أن يعمل عملا صالحاً .

إن الله يتكفل بالرزق لمن يسعى وأعلن هذا التكفل فى صيغة الإلزام فقال : «على الله رزقها» ليحفز الناس على الانتفاع بطبيعتهم البشرية فى الحركة والسعى ، وليس ليحول بينهم وبين خصائص طبيعتهم التى خلق البشر عليها . إن الإسلام لا يرتد بالطبائع عما لها . وإنما ينميها فحسب بالهداية الإلهية فى التوجيه .

من أخطاء المسلمين فى فهم الاسلام :

القرآن شفاء

يقول الله تعالى : « وننزل مِنْ القرْآن مَا هُو شِفَاء ورَحمة للمؤمنين وَلا يزيد الظَّالمين إلا خسَارًا [(١)] » . يمثل هذه الآية يحدد الله جل شأنه وضع القرآن وأثره على نفوس الناس فهو بالنسبة لمن آمن به هدى ، يهديه إلى الصراط المستقيم وهو صراط النفس . التى تتخلص من الأحقاد والأثرة والتى لاتصد عن سبيل الخير ولا تبغى الفساد والاعوجاج فى المجتمع الذى تعيش فيه . فإذا اهتدت به خرجت من ظلمات الانحراف فى الإنسانية سواء فى التصور الفكرى ، أو السلوك العملى ، وخرجت من ظلمات الضلال فى السير والسعى إلى نور الاستقامة واعتدال الاتجاه . « آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد [(٢)] » . وعندئذ تكون النفس التى آمنت واهتدت به قد سلمت مما يحيلها إلى نفس مريضة ليس لها الوضع الصحيح لمستوى الإنسانية . وعندئذ يكون القرآن لها شفاء ، عن طريق هدايته إياها .

وإذا كان القرآن لها شفاء فهو رحمة لها ونعمة عليها . وهذا معنى قوله تعالى : « ونُنَزِّلُ مِنَ القرْآن مَا هُوَ شفَاء ورَحمة للمؤْمنين » .

ولكن هذا القرآن نفسه الذى هو للمؤمنين شفاء ورحمة ، هو للكافر به ـ من وجه آخر ـ عامل فى زيادة تبعاته بسبب انحرافه عن الاستقامة ، وبالتالى عامل فى زيادة خسرانه . ذلك لأن الذى كفر به وبهدايته وبتوجيهه هو فى واقع أمره

(١) الاسراء : ٨٢ . (٢) ابراهيم : ١

متحد للدخول فى الوضع الصحيح للإنسانية ، متحد لأن يكون ذا مستوى إنسانى رفيع بعيد عن الحقد والأنانية وبعيد عن الخطأ فى الإدراك ، وبعيد عن الانحطاط فى السلوك العملى . فكفره بالأخذ بأسباب الاستقامة والهداية ضاعف وزره وضاعف مسئوليته فى الاستمرار فى مباشرة الأخطاء . إذ هو الآن ضم إلى سوء مستواه فى الإنسانية الذى كان له ، إصراره على الجمود فيه وعدم الأخذ بما ينقله إلى محيط المستوى الصالح ، بل ضم مع ذاك إصراره على الصد عن طريق الخير وسبيل الله ، وإصراره على الاعوجاج والفساد . عندئذ : «فأذَّنَ مُؤذِّنٌ بَيْنَهم أنْ لَعنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالمين . الذينَ يَصدُّونَ عَنْ سَبيل الله ويبغُونَها عوَجاً ، وهُم بالآخرَةِ كافِرُون [1]» . هو ظالم لنفسه بحرصه على بقائه فى المستوى الدنىء للإنسانية وظالم لغيره بتحديه المستوى الرفيع فيها ، ويصده بهذا التحدى عن طريق الخير فى المجتمع . وإذا أضاف إلى ظلم نفسه ظلم غيره فقد زاد فى حسابه خسارته . وهذا هو معنى قوله تعالى : « ولا يزيد ـ أى القرآن ـ الظالمين إلا خساراً » . والظالمون هنا هم من شرحهم قول الله تعالى : «الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون» .

والقرآن بهذا المعنى كتاب شفاء للمؤمنين ، أى كتاب هداية إلى الصراط المستقيم ، صراط العزيز الحميد . وكان كتاب هداية لأنه يصور الحق : «إنّا أنزَلنا إليْكَ الكتابَ بالحقِّ — أى معبراً عنه وموحى به — فاعبُد الله مُخلِصاً لهُ الدِّين . ألا لله الدينُ الخالِص [2] » .

ولأنه الحق كان واجب الاتباع ، وكان فى اتباعه رحمة ونعمة على المتبع :

---

(١) الأعراف : ٤٥ . (٢) الزمر : ٢ .

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا ، لعلكم ترحمون » . « طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين . هدى وبشرى للمؤمنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » .

هذا هو كتاب الله كما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما فهمه أصحابه رضوان الله عليهم وكما عملوا به : «إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لايؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما[1]» . القرآن إذن كتاب : من آمن به وجب عليه أن يعمل عملا صالحاً ، طبقاً لما ورد فيه . فهو كتاب للإيمان والعمل معاً .

اعتقاد خاطىء :

ولكن بعض المسلمين قلد فى تحريف وضعه على هذا النحو ، واعتقد أنه كتاب شفاء : على معنى أنه يتداوى به من أمراض البدن إذا مرضت، وأنه كتاب وقاية لايتعرض حامله لأذى مادى . وكاف فى الحصول على آثاره من الشفاء والوقاية أن يكتب بعض آياته ويذاب المداد الذى كتبت به فى قليل من الماء يتعاطاه المريض المحموم ، أو أن يلف المصحف الشريف فى غلاف يحمله من يريد التحصن ضد الأمراض وأنواع الإيذاء الأخرى .

نعم القرآن شفاء ولكنه شفاء للنفس من مرض الحقد والأنانية ، وضلال الاعتقاد بالخرافة ، والاعوجاج فى السلوك .

نعم القرآن وقاية ولكنه وقاية للنفوس من التردى فى أمراض الإنسانية ووقاية لها من الايمان بالكهانة والصدفة وكل مايقعدها عن السعى فى العمل والحركة والتضحية فى سبيل المثل والقيم . هو كذلك لمن آمن به وترجم إيمانه

---

(١) الاسراء : ٩ ، ١٠ .

إلى عمل . هو كذلك لمن اتحد باطنه مع ظاهره ، فظاهره يعبر عن باطنه ، وباطنه يدفع ظاهره لأن يكون مرآة له . هو كذلك للذين آمنوا وعملوا الصالحات معاً .

إن البدن يصح إذا صحت النفس أولا . وصحة النفس فى صفائها ونقاوتها . ومهمة القرآن الأولى هى تصفية النفوس وتنقيتها : «والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفساً إلا وسعها ، أولئك أصحاب الجنة ، هم فيها خالدون» ..

« ونزعنا مافى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار ، وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله »[1] .

---

(1) الأعراف : ٤٣ .

اخطاء مشهورة وتصحيحها :

غاية الزواج وهدفه

يقول الله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً[1] » .

جعل القرآن الكريم غاية الزواج هى أن يسكن أحد الزوجين إلى الآخر ، أي يطمئن كل منهما إلى الثانى. وعبر عن هذه الغاية بالسكنى ـ بدل الاطمئنان ـ ليفيد أن الزوجة هى بمثابة السكن . والسكن من شأنه أن يأوى إليه الإنسان وبالإيواء إليه ينقطع حال التعب والكد التى تصيبه من حركة الجسم فى سبيل السعى. ولكن سكن الزوجية هو سكن نفسى من شأنه — كما يريد الاثنان ـ أن يهيىء النفس الراحة ويدفع عنها القلق. وما أشبه قلق النفس بحركة الجسم فى إيجاد التعب، بل هو أشد منها فى إثارة المشقة والألم .

مسكن مادى ، هو البيت والمنزل ، تأوى إليه الأجسام لتستريح وتهدأ بعد حركتها فى السعى ، وسكن نفسى معنوى ، وهو الزوجية ، تدخل فيها النفوس لتحصل راحتها وتبعد عنها القلق، والاضطراب . فالنفس إذا التقت بنفس أخرى ورغبت كل واحدة منهما فى الالتقاء بالثانية رغبة صادقة تنسى ما عندها من هم ، وما أصابها من مشقة فى سعى ، أو ما حل بها من ضيق . وهى إذن بهذا اللقاء هادئة ، لا يخالجها قلق الهم والمشقة والضيق ، ومطمئنة لأنها لا تفكر فى متاعب صادقتها ، وهى الآن ساكنة ، ولكنها ساكنة إلى من تحب أن تسكن إليه ، وتطمئن إلى لقائه .

هذا هو ما تفيده تلك الآية الكريمة فى تحديد غاية الزواج وهدفه . وإذن

---

(١) الروم : ٢١ .

ليس الزواج مجال قلق ومجادلة ، وليس مجال مناكفة ومشاكسة ، وليس مجال مساومة . ليس مجالا فيه حركة أخذ ورد ، وشد وجذب . لأنه نفسه سكنى أحد الزوجين إلى الآخر .

وأى شىء يخرج الزواج عن هذه الغاية ، يجعل الزوجية مثاراً للقلق واضطراب النفس البشرية ، يجعلها مثاراً لقلقها فى العواطف . واضطرابها فى النزاع والمخاصمة لا يقره الإسلام كدين حدد غاية الزواج بما سبق وجعل هذه الغاية آية من آيات الله فى خلقه كتلك الآيات الأخرى من مودة الناس بعضهم لبعض ورحمة بعضهم لبعض .

الاسلام يدفع إلى الانسجام ويكره البغضاء والنزاع . يدفع إلى المودة وإلى أكثر من المودة . يدفع إلى الرحمة والإحسان . ولذا لا يقر أن يخرج الزواج عن غايته من السكنى والاطمئنان . وكل تصرف ينمى معنى السكنى فى الزوجية ، معنى الاطمئنان ، معنى الرضا ، معنى الثقة بين الزوجين، معنى المحبة ، معنى السرور بلقيا أحد الزوجين بالآخر — كل تصرف ينمى ذلك هو تصرف محمود من وجهة نظر الإسلام . وكل تصرف يسىء إلى هذه الغاية الإنسانية الكريمة هو تصرف مبغض إليه لا يرضى عنه .

المبدأ العام للزوجية :

وإذا كان الإسلام بعد تحديده لغاية الزواج على هذا النحو قد أباح أن يضم الرجل إلى زوجته.. ثانية فثالثة ..فرابعة — فهو لا يوجب هذا الضم ويفرضه، بل يرخص به فحسب لضرورة توجيه . والرخصة بشىء ما من شأنها أن تستخدم بحيث لا تخل بالغرض الأصلى من مبدأ عام . والمبدأ العام هنا أن يكون هدف الزوجية الوفاق والانسجام وإبعاد القلاقل والخصومات النفسية . والترخيص إذن بالجمع بين أكثر من زوجة واحدة .. إلى أربع: يجب أن يكون فى دائرة هذا المبدأ العام

للزوجية لا يخرج عنه ولا يتنافى معه . ولذا يقول الله تعالى : « . . . فإنْ خِفْتُم أنْ لا تَعْدِلوا فَوَاحِدةً[1] » . وليس العدل المطلوب هو العدل فى الإنفاق ، ولا فى إعداد المسكن المادى ، ولا فى مرات الزيارة واللقاء وإنما هو قبل كل شيء فى الانسجام وعدم إثارة القلق النفسى ، وعدم الإيذاء بالنزاع والخصومة .

ولا يحقق هذا العدل إطلاقاً إذا كان تعدد الزوجات للترفيه والرفاهية أو كان للإفادة من كسب المرأة المادى فى العمل الذى تؤجر عليه ، أو كان لحل أزمة الرجل فى فترة خاصة من فترات حياته اليومية . . . أو نحو ذلك مما من شأنه أن لا يُبقى على الوفاق والاطمئنان بينه وبين كل زوجة من زوجاته وبين كل زوجة وأخرى معها فى عقد زواجه بها . ولذا أوجب الاسلام أن يقصر الزواج عندئذ على واحدة .

والإسلام فى كل شأن يتعلق بتصرف الإنسان يكل أولاً إلى الانسان نفسه : تقدير هذا التصرف فى حدود المبادىء العامة ، ويربط حل هذا التصرف وحرمته بشعور الانسان وإحساسه الداخلى . ولذا يقول هنا : « فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة» . فجعل أساس وجوب الاقتصار على واحدة : شعور أولئكم الذين يقدمون على الجمع بين أكثر من واحدة .

ومن هنا قد يكون ظاهر الجمع بين أكثر من واحدة مباحاً حلالا ، ولكن فى واقع أمره منكر بغيض إلى الله . وذلك إذا انتفى العدل ، انتفى الانسجام والوفاق ، وحل محل ذلك : النزاع والقلق والاضطراب . لأن هدف الزوجية حينئذ لم يتحقق ، وأصبحت الزوجية سبيلا إلى الانفكاك فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، وسبيلاً إلى التنافر والشحناء ، بدلاً من السكنى والاطمئنان .

والإسلام لم يأت ليحدد كل حالة فردية بين المؤمنين به فى كل جيل من

---

(١) النساء : ٣ .

الأجيال . بل جاء فقط بمبادىء عامة وربط تطبيقها بضمير الإنسان الفرد وشعوره النفسى . فإذا أتى فريق من المسلمين وأساء رخصة تعدد الزوجات ، وأخرج الزوجية بذلك عن غايتها السامية فقـــد أخطأ فى فهم الاسلام وفى تطبيق مبادئه معاً .

وإذا جاء آخرون ليسوا مؤمنين به وشرحوا الهدف من تعدد الزوجات بأنه تنفيس لحيوانية الرجل ، وسبيل إلى إشباع متعته الجنسية فقد أغفلوا عمداً : أن الزواج فى الإسلام هو للنفوس قبل الأجسام ، وللقلوب قبل الأبدان ، وللبشرية والإنسانية قبل الحيوانية .

اخطاء مشهورة وتصحيحها :

قوامة الرجل على المرأة

يقول الله تعالى: « الرجال قوّامُون عَلى النّساء بما فضّل الله بعْضَهم عَلى بَعْض وبما أنفقُوا مِنْ أمْوالهم(١) » . ومعنى أن الرجال قوامون على النساء أنهم راعون لأمورهم فى الأسر التى كونوها معاً . فقوامة الرجل على المرأة فى الزواج هى رعاية وتدبير أمر الزوجية وليست سلطة يستبد بها الرجل . ووكل الإسلام أمر الرعاية والتدبير لشؤون أسرة الزواج إلى الرجل دون المرأة ، لأن المرأة تحمل ، وتلد ، وتحضن من تلد .

وكل هذه أعمـــال من وحى طبيعة المرأة ومن أخص أنوثتها كطريق ، وحالها إذن دائر بين : الحمل ، والولادة ، والحضانة . وهى حال تشغل كثيراً من فراغها ، وتستنفد الجانب الأكبر من نشاطها وإمكانياتها ، وبالتالى لا تدع لها فراغاً ولا استطاعة لممارسة شؤون الأسرة فى الحياة الخارجيـة ، وتحصيل الرزق فى مجال هذه الحياة . وهى الحياة القائمـة على الـكفاح والمناضلة . والنجاح فيها مرهون بالتمرس والاحتمال .

أما الرجل فلم تعد طبيعته الخاصة ، وهى طبيعة الرجولة ، لأن يشارك المرأة فيما كان خاصاً لها بحكم أنوثتها . ولذا فالوقت لديه لم يشغل بعـــد ، وإمكانيته ونشاطه لم يستنفدا أيضاً. وهنا كان تكليفه برعاية الأسرة وتدبير أمرها . وعندئذ سيشغل وقته وسيتجه بإمكانياته الإنسانية إلى تلك الرعاية وهذا التدبير .

ولو أن الإسلام أضاف رعاية شأن الأسرة وتدبير أمرها إلى المرأة ، مع

---

(١) النساء : ٣٤ .

ما تقضى عليها طبيعتها كامرأة من : حمل وولادة — وحضانة — لأجحف بالمرأة ولأجحف كذلك بالرجل .

أما إجحافه بالمرأة فلأنه كلفها فوق طاقتها ، أو بما تضيق به طبيعتها . وأما إجحافه بالرجل فلأنه لم يفد من طبيعته، وتركه يلهو ويعبث بفراغه وإمكانياته. والمصير هو إفلاس الحياة الزوجية منذ بدئها . لأنه تكايف ضد الطبيعة البشرية.

فما نظمه الإسلام من جعْل رعاية شأن الأسرة وتدبير أمرها يقع على عاتق الرجل وحده هو النظام الطبيعى لشخصية تميزت خصائص كل منها عن الأخرى.

ولهذا عللت الآية القرآنية إسناد رعاية الأسرة فى الزواج إلى الرجل بما يتصل بخصائص طبيعته التى أشرنا إليها ، فتقول: « بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » . أى بسبب ما تميزت وفارقت به طبيعة أحدهما طبيعة الآخر ، وبالتالى بسبب تكفل الرجال بالإنفاق على الأسرة الذى هو وليد المفارقة بين الطبيعتين .

ولأن الإسلام بذلك يريد فقط تنظيم العلاقة بين الزوجين حسب خصائص طبيعتهما ولم يشأ من قريب أو بعيد أن يمتهن أحد الطرفين فى الزيجة القائمة بينهما : أكد التكافؤ فى الحقوق والواجبات بينهما فقال : « وَلهنَّ مِثْل الذِى عَليْهن بالمعْرُوف[1] » . فما للنساء من حقوق وواجبات هى مثل التى للرجال سواء بسواء . وأما قوله فى نفس الآية : « وللرجال عليهن درجة » فلم يقصد من هذه الدرجة التى للرجال على النساء : سوى الرعاية وتدبير الأمر ، على ماذكرت الآية السابقة : « الرجال قوامون على النساء » .

والتكافؤ فى الحقوق والواجبات بين الزوجين هو حتما تكافؤ بحسب

(١) البقرة : ٢٢٨ .

ماتستطيعه طبيعة كل منهما ، وما هى له مهيأة ومعدة إعداداً بدنياً ونفسياً .

* * *

إن تنظيم العلاقة بين الزوجين كما أقامه الإسلام على أساس من خصائص الطبيعتين للذكر والأنثى — هو أيضاً لصيانة الغاية من الزوجية ، هذه الغاية التى وضحها الله سبحانه وتعالى فى قوله : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة [1]». فالغاية من الزواج الاطمئنان النفسى وتأكيد المودة والتعاطف بين الزوجين . وهذه الغاية لا تنمو ، بل ولا تتحقق إذا قصد الإسلام من قوامة الرجل على المرأة أن يكون سيداً والمرأة مسودة ، بالمعنى الذى يحاول فريق من الناس أن يشيعه ضد الإسلام ، أو بالمعنى الذى يريد بعض الذين يخطئون فهم الإسلام أن يطبقوه فى حياتهم الزوجية العملية .

إن الاسلام لم يكره أحد الطرفين فى عقد الزواج على الدخول فيه ، ولم يلزم أحد الطرفين كذلك بالاستمرار فى الحياة الزوجية ، طالما كان هناك خطر مترقب أو محقق من الاستمرار فيها . الإسلام أراد الحياة الزوجية حياة مطمئنة مثمرة ، أرادها حياة كريمة مهذبة : «فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان[2] » ، ومن هنا لايصح أن يفهم من الإسلام — إذا ماأسند رعاية شؤون الأسرة وتدبير أمر التوجيه والإنفاق عليها للرجل — أنه يريد للرجل أن يكون مستبداً وأن يكون سيداً ، وبالعكس يريد للمرأة أن تكون مستذلة ومسترقة . وإلا ففيم تحديده لهدف الزواج بالاطمئنان وتأكيد المودة والرحمة ، وفيم طلبه : « وعاشروهن بالمعروف » .. « ولاتمسكوهن ضراراً لتعتدوا » .. « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» ؟.

الإسلام لم يسلب بعقد الزواج شخصية أحد الطرفين كما لم يهمل خصائص

(١) الروم : ٢١ . (٢) البقرة : ٢٢٩ .

طبيعتها فيما نظمه من علاقة بينهما . لم تزل شخصية المرأة بعد الزواج هى شخصيتها قبل الزواج ، لها حرية الرأى وحرية القول وحرية الاعتقاد ، وحرية التصرف فى مالها الخاص حتى مايصل إليها من زوجها لايحل له أن يسترجع شيئاً منه إلا برضا وطيب نفس منها : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة — أى عطية — فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً »[1].

قامت أسرة الزواج فى الإسلام للتقارب والتواد والتعاطف، وليست للاستغلال ولا لممارسة شهوة الاستبداد والاسترقاق . وقوامة الرجل على المرأة هى رعايته لأمرها بحكم طبيعته ، وتفرغه للحياة الخارجية .

وهذا هو الإسلام فيما يريده فى تنظيم الأسرة .

(١) النســاء : ٤ .

الباب الثاني

شخصية المسلم في ضميره وسلوكه

- **شخصية المسلم :**
- **اثر الضمير الديني :**

الفصل الأول

- ان هى الا حياتنا الدنيا .
- طبيعة الانسان فى حاجة الى توجيه الهى .
- الكرامة الانسانية فى دعوة الاسلام .
- الاسلام واستقلال الشخصية .
- استقلال الشخصية لا يمنع التعاون .
- التحرر من الخرافة فى الاعتقاد .
- تحرر الفرد من انانيته .
- طريق التحرر من الخوف .
- الانتاج وقيمته فى الحياة .
- العمل واستغلال الفراغ .
- القدوة الحسنة .
- الطريق الى التقدم .

أولا — شخصية المسلم

ان هى الا حياتنا الدنيا !!

إن الوجود الحاضر الذى يعيش فيه الإنسان له علاقة وثيقة بتفكيره وتصوره: يتأثر به ويؤثر فيه ، سواء أكان فى مرحلة طفولته أم فى سن مراهقته أم فى وقت رشده ونضوجه . ومن هنا كانت : «البيئة» عاملا من العوامل الرئيسية فى تكوين الفرد من جانب ، وفى فهم غيره له من جانب آخر .

ولكن هذا الوجود الحاضر الذى يعيش فيه الإنسان لا يملك عليه تصوره وإدراكه إلا فى مرحلة الطفولة له ، وهى المرحلة التى تتميز بالتفكير الحسّى وحده ، وعدم استطاعة تجاوز الحس بتفكيره إلى محيط آخر من الوجود . وهو محيط المعنويات والمبادىء والقيم ، أو محيط اللامحسوس الذى ينتزعه العقل من المحسوس نفسه وتشغله أمور عامة كلية هى المبادىء والقوانين .

فالإنسان الطفل يدرك أشخاصاً محسوسة ويقف بإدراكه عندها : يدرك الأب فى شخص أبيه ، ولكنه لا يدركه فى «معنى» : من له ولد على الإطلاق . ويدرك الأم فى شخص أمه فحسب ، ولكنه لا يدركها فى «معنى» : من كانت لها ولد سواء أكانت أمه هو ، أم أكانت أماً أخرى لولد آخر . ويتصور «المنزل» فى شخص المنزل الذى يسكنه ولكنه لا يتصوره على أنه : معنى عام لمسكنه هو ولمسكن غيره... يرتبط تصوره وتفكيره بالمحسوس لا بما عداه . حتى إذا أريد له أن يتصور قريته أو مدينته تصورها على أنها العالم ، وليس وراء قريته أو مدينته قرية أو مدينة أخرى فى وطنه أو فى وطن آخر . كذلك إذا كشف عن تصوره لوجوده الحاضر الذى يعيش فيه تصوره على أنه : «الوجود كله» . وليس بعده أو وراءه وجود آخر بحال من الأحوال .

... ذلك لأن الحس قد استبد به وانغمس هو فيه ، بحيث لم يستطع بعد أن يطل برأسه عليه ويقف على معالمه ويعرف حدوده ، ويكون حكماً وقاضياً على مايجرى فيه ، بدلا من أن يكون قطعة غارقة فى العمق فيه .

وما يزال رويداً رويداً يحاول أن يطفو على سطحه لتكون له فرصة إدراك حجمه وتنوعه ، وكلما ارتفع بإدراكه عن محدودية الشخص إلى إدراك المعنى العام كلما سار قدماً فى تطوره الإنسانى .

ومرحلة المراهقة تمثل فترة « الانتقال » من الطفولة الخالصة إلى الرشد الإنسانى الواضح . وهى من أجل ذلك خليط تمتزج فيه تصرفات الطفل بسلوك الإنسان الرشيد . فبينما نرى الإنسان المراهق يتوصل بالبكاء للحصول على مبلغ معين من والدته مثلا لينفقه فى الترفيه عن نفسه أو فى شراء شىء رغب فى شرائه ... إذا به قد يمنح بعضه أو يمنحه كله لزميل أو صديق له رآه فى حاجة إليه . فالبكاء عادة هو وسيلة الطفل فى تحقيق أغراضه .. والمنح والعطاء لايكون إلا من رشيد فى الإنسانية. لأن الطفل يتشبث بما فى يده ، بل قد يتشبث أيضاً بالحصول على مافى يد غيره بالإضافة إلى مافى يده هو .

* * *

ومن هنا يقال : إن الطفل مادى فى تصوره ، وأنه فى إدراكه يقف عند حد المحسوس ، لايتجاوزه إلى مالا يره ويبصره .. أو إلى مالا يسمعه ولا مالا يلمسه .

والطفولة الإنسانية ليست سناً معينة فى عمر الإنسان ، بقدر ماهى ظاهرة فى تفكيره وتصرفاته . فقد يبقى الإنسان طفلا وهو بالغ أو متزوج وله ولد . لأن مدار الوصف بالطفولة هو ربط الإدراك لدى الفرد من الإنسان بالمحسوس لاغيره ، والوقوف بالتصور عند حد ما يلمسه ويبصره . ورحاب المحسوس ضيقة وأبعاده محدودة مهما اتسع الأفق فيها .

... ومن هنا كذلك يستسلم الإنسان الطفل فى إدراكه إلى إغراء المحسوس، بحيث لا يكون له سلطان أو إرادة تنتزعه من هذا الاغراء ، فضلا عن أن ترفعه فوقه ليختبر مصدره ويقيمه فيقبعه أو لا يتبعه . واستسلام الإنسان الطفل إلى الإغراء يفقده إدراك : «النوعية» أو ما يسمى بـ «الكيف» للأشياء ، وبالتالى يحول بينه وبين الإسهام فى بناء الحضارة الإنسانية . لأن الحضارة كيف ونوعية قبل أن تكون كمًّا وحجماً . فتعبير بناء الاهرامات عن حضارة قدماء المصريين ليس لأنها ضخمة مركبة من أحجار يزن الواحد منها عدة أطنان ، بل لما فيها من فكر هندسى فى البناء استخلص من المحسوس والتجارب فيه وأصبح قواعد عامة صاغها الفكر الانسانى فى نظريات أو معادلات . وذلك أمر فوق المحسوس نفسه ، وإن كان مفرغاً ومستنتجاً منه . ثم أيضاً لما فيه من فكر آخر انطوت عليه الغاية من بنائها ، وهو ذلك الفكر الذى يصور الوجود ودرجاته لدى قدماء المصريين ، كما يحدد إطار الحكم والعلاقة بين الأفراد فى المجتمع إذ ذاك .

فدلالة البناء للأهرام على فكر هندسى يمكن أن يصاغ فى نظريات ، ثم دلالته أيضاً على فكر آخر يرسم نظام المجتمع القائم آنئذ ... هو إسهام فى حضارة فنية واجتماعية تعلو درجة المحسوس والكم والأحجام .

والإنسان الطفل إذن يؤثر الحجم والكم على النوع ، كما يؤثر لون الشىء على كيفه . فكلما كان حجم الشىء كبيراً كلما كان أكثر إغراءً للإنسان الطفل . وكلما كان لونه زاهياً أو فاقعاً كلما كان أكثر تأثيراً وأخذاً بلب هذا الإنسان . وينسى فى سبيل كبر الحجم أو فى سبيل لونه الزاهى أو الفاقع : نوع الطعم والمذاق إن كان مما يؤكل ، أو نوع الجودة والصلابة إن كان مما يلبس أو يتقى به عند الإيواء .

* * *

ومن استبد بهم المحسوس عند التفكير وهم كبار ، وأخذ عليهم منافذ الادراك يحاولون إقناع غيرهم بصحة مايتوجهون إليه فى الارتباط بالحس وحده عند الحديث عن اليقين أو عند التعبير عن «الواقع»، ويعدون ماوراء المشاهد والمحسوس : وهماً وتخيلا أو خداعاً .

وهؤلاء الذين يقفون عند المحسوس وحده إن فكروا أو تفلسفوا ليسوا هم فقط من أصحاب الجديد . بل كانوا فى القديم كذلك وسيكونون أيضاً فى الغد القريب والبعيد . لأن التفكير الحسى المادى كالتفكير المعنوى من الظواهر الإنسانية شأنهما شأن الطفولة والرشد فى حياة الإنسان : فما دامت هناك طفولة وما دام هناك رشد فى الإنسانية ... فالتفكير المادى قائم والتفكير المعنوى الآخر موجود .

ومن النتائج المترتبة على الاتجاهين فى التفكير : أن الذى يقف بتفكيره عند المحسوس المادى يقصر الوجود والحياة على هذا الوجود الحسى ، ثم ينكر وجود الآخرة كمرحلة ثانية فى حياة الإنسان . بينما الذى يدرك المحسوس ثم يخلص منه إلى نوع من الإدراك المعنوى وراء هذا المحسوس لا يستبعد أن تكون هناك مرحلة ثانية لوجود الإنسان على هذه المرحلة لوجود الحاضر . وهو من أجل ذلك قريب إلى الإيمان بالدنيا والآخرة ، على نحو مايذكر دين الله ، وقريب كذلك من الإيمان بوجود الله الذى لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

يحكى القرآن الكريم صورة من صور الاتجاه المادى فى التفكير الذى يصل بأتباعه إلى إنكار الدار الآخرة لأنها ليست محسوسة ولا مشاهدة :

« ثم أنشأنا من بعدهم [قوم نوح] قرناً [قوماً أو مجتمعاً] آخرين .

« فأرسلنا فيهم رسولا منهم [هو على الأرجح هود عليه السلام] :

« أن اعبدوا الله ، مالكم من إله غيره

« أفلا تتقون ؟ .

« وقال الملأ من قومه الذين كفروا ، وكذبوا بلقاء الآخرة ، وأترفناهم في الحياة الدنيا :

« ماهذا إلا بشر مثلكم ، يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون .

ولئن أطعتم بشراً مثلكم ، إنكم إذاً لخاسرون .

« أيعدكم : انكم اذا متم وكنتم تراباً وعظاماً انكم مخرجون !

« هيهات ، هيهات لما توعدون .

« ان هى الا حياتنا الدنيا .

« نموت ،

« ونحيا [فى خلقنا من بعدنا]

« وما نحن بمبعوثين .

« إن [هو] إلا رجل افترى على الله كذباً ، وما نحن له بمؤمنين ! »(١)

ثم إذا عرض الإيمان بالله عليهما أنكره الأول وهو المادى فى تفكيره ويطلب أن يراه عياناً ، بينما يصدقه الثانى وهو الذى لم يقف بادراكه عند المحسوس وحده استنتاجا من هذا الكون العظيم وما فيه من نظام وتنسيق عرف الإنسان بعضه ولم يزل يكشف السر عن باقيه ، وقلما يصل إلى عمقه كله .

ويحكى القرآن عن أصحاب هذا الاتجاه المادى إزاء وجود الله ، فيقول :

« وقال الذين لايرجون لقاءنا :

« لولا انزل علينا الملائكة !

« أو نرى ربنا !

«لقد استكبروا فى أنفسهم ، وعتوا عتواً كبيراً» .

ويرجع القرآن رأى هؤلاء أصحاب الاتجاه الحسى فى التفكير إلى وقوعهم تحت تأثير الإغراء بالوجود المادى وحده ، وبحيث لايستطيعون الانفكاك عن أسره ، فى قوله :

---

(١) المؤمنون : ٣١ — ٣٨ .

« إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون [يسيرون فى ضلال] » .

والجدد من أصحاب هذا الاتجاه المادى فى التفكير إذ ينكرون الله والدار الآخرة كلية ويعتبرونهما وهما ، كما يعتبرون الدين كله خداعا لأنه يتحدث عما وراء الطبيعة المشاهدة ، لا يستقيمون مع منطقهم الحسى عندما ينكرون : « الفرد من الإنسان كذات مستقلة تُرى وتحس ، ويقرّون فى الوقت نفسه « بالمجتمع » على أنه حقيقة موجودة يفوق فى وجوده وجود أفراده ، مع أن المجتمع « مفهوم » و « معنى » يتصوره الإنسان فحسب ، ولكن لا يراه ببصره ولا يلمسه بيده ولا يسمع نداءه أحد إن كان له نداء .. وهذا من شأنه أن يثير سؤالا هو : ما الفرق فى نظر هؤلاء بين وجود الله ووجود المجتمع ، وكلاهما لا يرى ولا يحس ؟ .

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » ..

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟ »

* * *

إن دين الله فى دعوته إلى الإيمان بوجود الدار الآخرة إنما يريد أن يحمل الإنسان على التوازن فى حياته الدنيوية الحاضرة . فلا يُذَلّ عندما يفقد ماله أو ما هو مصدر متعته فى حياته ، وينحدر فى مذلته إلى درجة اليأس ، ويتملكه الحقد آنئذ فينكر الوجود والخالق له معاً . ولا يتعالى كذلك ويدل على غيره فى أمته ، ويطغى على كل ما حوله إن اغتنى بعد فقر ، ويسر الله له الأمر بعد عسر فيه

إنه يريد للإنسان عن طريق الإيمان بالآخرة أن يصبر عندما ينزل به الضرر والإيذاء فى المال أو فى أى عرض من أعراض الدنيا ، وأن ييسر لغيره ويعمل صالحاً إن

فى سلوكه الشخصى أو فى بره بالآخرين معه ، إذا أنعم الله عليه بفضل من متع هذه الحياة :

«ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة [نعمة] ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور .

«ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء [فقد رشده] مسته ليقولن : ذهب السيئات [الفقر والضيق] عنى ، إنه لفرح فخور [متكبر على الناس ، مستهين بهم] .

« إلا الذين صبروا [عند الفقر والشدة] وعملوا الصالحات [عند الميسرة] أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » .

فالإنسان قبل الإيمان بالله والتوجيه به هو على النحو الذى أشارت إليه الآيتان هنا ، الأولى والثانية من عدم الاتزان . فإما إلى الأدنى والمذلة واليأس والكفر ، وإما إلى الأعلى فالترفع والتكبر والطغيان .

ولكن الإنسان الذى دخل الإيمان إلى قلبه هو الصابر فى الضراء والبأساء وحين البأس ، وهو الذى يتخذ من نعمة الله عليه عند الميسرة سبيلا إلى إسعاد غيره وداعياً إلى الاستقامة والسلوك المهذب فى تصرفاته ، وسبيلا آخر إلى الزهد والقناعة فى متع هذه الحياة التى هى وفيرة لديه .

إن الدار الآخرة — فى نظر الدين — هى الحل لمشكلة الحقد بين الناس فى الدنيا لأنها موضع الأمل الأخير . فأنظار المؤمن بالله تتجه إليها وحدها . ومن أجل ذلك حياتهم فى الدنيا يجب أن تكون حياة سلام وصفاء ، يسعون جميعاً لخير أنفسهم ، إذ هذه الدنيا فى إيمانهم بداية وليست نهاية .

ولأن الآخرة أيضاً دار الجزاء : فيها النعيم الذى لا يوصف ، والشقاء الذى لا يعرف مداه ، ونعيمها أو شقاؤها مرهون بنوع العمل والسلوك فى الدنيا ، كان مستوجباً على المؤمن أن يسعى بعمله فى دنياه للحصول على نعيم الآخرة واتجنب شقائها . ومن أجل ذلك أيضاً ينبغى أن لا تكون الدنيا داراً للخصومة أو الحرب

بين المؤمنين أنفسهم ، بل على العكس يجب أن يكون التنافس فيما بينهم من أجل الخير العام عن طريق إنكار الذات .

والآخرة إذن دار القرار والجزاء معاً ، والدنيا مجاز ومكان اختبار وتجربة يوصل إليها فحسب . وبقدر مايكون عمق الإيمان بالآخرة تكون صلاحية التجربة فى الدنيا .

وبهذا التصوير يسعى الدين لحل مشكلة الحقد الإنسانى . وهو الداء المزمن مع الإنسان ، والذى لم يجد فى علاجه حتى الآن : تقدم العلم فى القرن التاسع عشر ، وتقدم التيكنولوجيا والتطور الآلى فى القرن العشرين .

كما لم تنجح معه فلسفة القرن التاسع عشر المادية الداعية إلى حرمان الإنسان كلية من التملك للمال ، ووضعه فى حياته تحت الرعاية العامة للمجتمع . وإنكار هذه هذه الفلسفة للدار الآخرة وللدين عامة بالاضافة إلى التبشير : « بغد أفضل » فى هذه الدنيا لم يفد شيئاً فى حل مشكلة الحقد الإنسانى وأثره فى تمزيق النفوس والمجتمعات البشرية شر ممزق . بل على العكس طرد من النفوس : البقية الباقية من إيمان ، وأفسح بذلك فيها المكان لتمدد هذا الداء الإنسانى الخطير .

وما يذكر الآن من إحصائيات وتقديرات لسكان العالم فى الفترة الباقية من قرننا العشرين يشير إلى زيادة خطيرة فى عدد السكان تنذر بمجاعة عالية لاتعرف نتائجها . فهل مع ذلك : الوعد : « بغد أفضل » فى الرفاهية ومستوى المعيشة سيتحقق ؟ أم أن الإيمان بالله والدار الآخرة يمكن أن يعمل على تخفيف حدة التوتر فى وجودنا الدنيوى الحاضر ، وبالتالى يمكن أن يسهم فى تقليص دائرة المجاعة المتوقعة ؟ .

طبيعة الإنسان فى حاجة إلى توجيه إلهى

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الزمر ، وهى سورة مكية :

« وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ، قل : تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار »(١) .

ويقول جل وعلا فى سورة يونس ، وهى سورة مكية أيضاً :

« وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون »(٢) .

ويقول فى سورة الروم ، وهى كذلك سورة مكية :

وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ، ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون . أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون . وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون »(٣) .

ويقول فى سورة فصلت ، وهى أيضاً من السور المكية :

« وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض »(٤) .

وآيات أخرى وردت فى بعض السور المكية الأخرى . وهذه الآيات وتلك

---

(١) الآية : ٨ .
(٢) الآية : ١٢ .
(٣) الآيات : ٢٣ — ٢٦
(٤) الآية ٥١ .

نزلت فى أولى مراحل الإسلام ، وهى مرحلة الدعوة إلى التوحيد والتوجيه فى العبادة إلى الخالق الواحد .

وهى تشير إلى طبيعة الإنسان قبل أن تتأثر بالتوجيه الإلهى وبرسالة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتوضح أن شأن الطبيعة الإنسانية مردد بين أمرين :

بين حال العسر وحال اليسر ، بين حال المرض وحال الصحة ، بين ضعف الشيخوخة وقوة الشباب ، بين الجهل والعلم ، بين الضر والنعمة ، أو بين الشر والخير على العموم . كما تذكر أن الإنسان فى الحال غير المرغوب فيها لديه — وهى حال العسر والضيق أو حال المرض والضعف أو حال أزمة النفس أو كربتها — يضرع إلى المولى الخالق ويتجه إليه بالدعاء ويلح فى دعائه فى كشف الغمة عنه وتبديل حال السوء الذى يشعر به . حتى إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته نسى حاله الأول ، ونسى صلته بالله ، ونسى دعاءه إياه ، ونسى فضله سبحانه فى استجابة ما دعا به ، ونسى تبعاً لذلك رسالته جل وعلا فى كونه ، ووحيه إلى رسله ، وما نزلت به الرسالة لخير الإنسان نفسه وخير الناس جميعاً .

ويتصرف عندئذ فى حاله الثانى — وهى حال النعمة : حال القوة ، حال اليسر والرخاء ، حال العلم والمعرفة ، حال المتعة النفسية والشعور بامتلاك ناصية الأمر ، يتصرف فى هذه الحال تصرف المستقل فى الوجود . ينخدع بحاله وما فيه من سعة حتى ليطغى على جاره ، وقريبه ، وعشيره فى الجماعة ، وربما يطغى على نفسه . وكثيراً ما يطغى عليها فيوردها مورد الهلاك البدنى والنفسى آخر الأمر . وربما يتجاوز فى طغيانه فيشرك بالله ويجعل له أنداداً من المال ، أو الجاه والسلطان ، أو القوة ، أو المعرفة : يعتمد عليها دونه سبحانه وتعالى . وربما يجعل غير ذلك مما لا يضر ولا ينفع : نداً لله وشريكا فى التوجه إليه . وليس من سبب لانحرافه فى التصرف وطغيانه فى التصور والعمل إلا أنه قد توهم أنه استغنى بما لديه من نعمة عن غيره

حتى عن خالقه وصاحب النعمة عليه فى واقع الأمر ومن له فضل الرحمة على عباده فى ملكوته .

طبيعة الانسان بين الشدة والرخاء :

٢ — تلك طبيعة الإنسان يحددها المولى جل جلاله فى هذه الآيات الكريمة وأمثالها : فالإنسان يعرف الله وقت بؤسه ، ويكاد ينكره وقت غناه وسعته . يكثر من دعوة الحق سبحانه يوم لاتسعفه الحال فى حياته ويوم تضيق عليه نفسه بوجوده ، ولايكاد يذكر اسمه يوم يغريه جاه المال أو القوة والسلطان ، أو العلم والمعرفة .

والإنسان إذ يدعو الله فى أزمته يود أن لو يتمكن من العمل برسالة الله كلها: فيواسى الجار ، ويرعى القريب ، ويطعم المسكين ، ويعلم الجاهل ، ويكون لغيره أخا يشد أزره فى الملمات ويعاونه على دفع المكروه عنه ، ويكون لأمته وجماعته خير من يذود عن حماها ، وأول من يفنى فى سبيل مثلها وأهدافها ، وفى مقدمة المشاركين فى خيرها .

ولكنه إذ ينخدع بما فيه من نعمة وسعة لاينكر الله وحده، وإنما ينكر كذلك رسالته فى خلقه : فالفقير فى نظره مبتذل ، والضعيف أمامه مهان ، والجاهل فى تقديره محتقر ، وأمته لايعنيه من أمرها إلا بقدر ما يستغل فقيرها ، ويزيد من ضعف ضعفيها ، وإلا بقدر ما يحرص على بقاء جاهلها يتخبط فى جهله ، حتى يبقى متميزاً بحال قوته ، وجاهه ، وماله ، ومعرفته .

تلك سنة الإنسان فى حياته وفق طبيعته . ولو ترك وطبيعته تتحكم فيه ويسير فيما تدفعه إليه ، دون أن يؤخذ بتوجيه الله سبحانه وتعالى ، ودون أن يروض نفسه على العمل بما جاء فيها ، لصار أمر الناس إلى فريقين : فريق له القوة فى

صورة من صورها . وهذا لا يرعى حرمات غيره ، ولا حاجاته ، ولا يقدر بشريته على العموم . وفريق آخر ضعيف ومستضعف ، وذليل ومستذل ، لا يؤمل كثيراً فى صاحب القوة فى جماعته ، ولا يترقب أن يستدر بضعفه وحاجته عطف صاحب المال والجاه والقوة معه .

وعندئذ لا يكون المجتمعون فى رقعة واحدة جماعة ، وعندئذ لا يوجد الشعور بالإنسانية بين طرف وطرف ، بل الأمر حينئذ خصومة ونفرة فى الجانبين . ثم بالإضافة إلى ذلك حقد وحسد من جانب الضعيف ، واستخفاف بالقيمة البشرية والأخوة الإنسانية وصلات القربى فى الوطن الواحد من جانب القوى صاحب الجاه وصاحب الثراء والنعمة .

علاج الطبيعة الانسانية :

٣ — تلك طبيعة الإنسان لا يتخلف عنها ، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات .. إلا المصلون ، إلا المؤمنون بالله حقاً يعملون برسالته فى أزمتهم وسعتهم ، وفى ضعفهم وقوتهم . يقول تبارك وتعالى فى سورة هود : « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » . ويقول فى سورة المعارج : « إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً . إلا المصلين » .

إن علاج الطبيعة الإنسانية وتقويمها فى الإيمان بالله . والإيمان بالله أن تبقى صلة الإنسان بربه وقت الفرج والميسرة ، وقت النعمة والقوة ، وقت الجاه والسلطان ، وقت الصحة وفى حال العلم والمعرفة ، على نحو صلته به وقت العسر والشدة ، والضعف والمحنة ، والذلة والحاجة .

والإنسان إذ يتصل بالله فى حال كربته فيتجه إليه بالدعاء: أن يفرج عنه الضيق، ويزيل عنه الشدة، يتصل به فى حال الرخاء والقوة ليديم عليه رخاءه وقوته ويجنبه الانحراف والطغيان ويسدد خطاه فى العمل بما جاءت به الرسالة الإلهية.

وصلة الإنسان بربه فى كلا الحالين هى العمل بما أنزله فى كتابه الكريم: فالالتجاء إلى الله فى الشدة مطلوب فى كتاب الله. وعدم جحود نعمته مأمور به أيضاً فيما أنزله على رسوله صلوات الله عليه وسلامه. يقول جل شأنه: « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون »(١).

وأمارة عدم جحود المرء فضل ربه: أن يرعى نفسه وغيره حسبما وضحته رسالة الحكيم الخبير.

فرعايته لنفسه أن يجنبها زلل الغرور والخداع. ورعايته لغيره إن كان صاحب ولاية عامة أو خاصة أن يتقى الله فيما ولى عليه أو فيمن ولى عليهم، وإن كان ذا مال أو معرفة: أن يكون لغيره نصيب من شرائه ومعرفته .. وهكذا ...

أمارة عدم جحود المرء فضل ربه أن يتخذ من القوة، والجاه، والنعمة، والصحة، والمعرفه، وسائل لخير نفسة وخير قومه وجماعته، ولا يتخذ منها أنداداً لله يعتمد عليها دونه، أو يشركها معه فى التقدير والاعتبار.

٤ — إن الله سبحانه وتعالى — برسالته إلى خلقه وحثه الناس على اتباعها — يريد أن يوجههم إليه فى حالى سرائهم وضرائهم على السواء. لأن فى اتجاههم إليه سبحانه وتعالى فى كلا الحالين مأمن من الزلل والطغيان وقت الرخاء، ومأمن من اليأس والقنوط وقت الشدة.

---

(١) البقرة: ١٨٦.

إن فى الاتصال بالله فى واقع الأمر دفعاً للبلاء فى كل حال . أما فى حال العسر ففى الاتصال بالله دفع لبلاء الأزمة والمحنة . وأما فى حال اليسر ففيه دفع لبلاء طغيان الجاه والقوة .

وإن حقيقة الاتصال بالله : العمل بكتابه والأخذ برسالته . والعمل بكتاب الله والأخذ بتعاليم رسالته ينتهى إلى التوازن فى حياة الجماعة : فلا تشتد أزمة بإنسان ، ولاتغرى ميسرة إنسان بآخر . كما ينتهى إلى التوازن فى حياة الفرد نفسه أيضاً ، إذ يحول بينه وبين السقوط المادى والأدبى إذا ما عاث بعناصر النعمة الفساد .

إن الاتصال بالله يحول دون إذلال الناس وامتهان كرامة البشرية ، كما أنه يضفى الوقار والاتزان على تصرفات من حباه الله بفضله وأفاض عليه من نعمته .

الطبيعة البشرية فى حاجة إلى تقويم وتهذيب . وتقويمها وتهذيبها فى دين الله . والناس أفراداً وجماعات يتوقف اطمئنانهم ، ويتوقف خيرهم على اتباع هداه ...

الكرامة الإنسانية فى دعوة الإسلام

يقول الله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »[1] .

كرم الله الإنسان فى خلقه ، فأعده بالإمكانيات التى تؤهله للسيادة على الأرض. وهى إمكانيات العقل ، والقلب ، والسعى . ولذا فضله على كثير من المخلوقات تفضيلا واضحا .

فبالعقل يهتدى الإنسان فى مسالك الحياة ، وبالإيمان يدفع لارتياد هذه المسالك ، وبالسعى يتمكن من السيطرة على البر والبحر ويحصل رزقه من طيبات ما فى الأرض .

والإنسان مطالب أمام الله من إعداده الذى أعده الله به — أن يهتدى بعقله ، وأن يملأ بالإيمان ، وأن يسعى ليحقق سيادته على المخلوقات الأخرى ، التى هى أدون منه والتى يفضلها فى غير لبس : « أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون »[2] .

وهنا يبدو تكريم الله للإنسان ليس فقط فى أنه خلقه فى أحسن تقويم كما تحكى الآية الكريمة : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم »[3] . وإنما أيضاً فى أن يسود الإنسان . فما منحه إياه من قوة العقل والقلب ؛ وقوة السعى هى وسائله التى تعينه على السيادة ، إن استخدمها على الوجه الذى ينبغى أن تستخدم عليه : يستخدم العقل للهداية والإرشاد لا للإفساد والإضلال . ويستخدم

(١) الاسراء : ٧٠ . (٢) النمل : ٦٢ .
(٣) التين : ٤ .

القلب للإيمان ومحبة الناس ، لا للكفر والحقد والكراهية ، ويستخدم السعى فى تحصيل الخير ، لا للوشاية والإيذاء والإضرار .

تكريم الله للإنسان فى أن يكون الإنسان سيداً على نفسه ، سيداً على الهوى لا يقبل المهانة فى أن يسود به الحق على الباطل ، فى أن يؤمن بالحق وينصره ويكفر بالباطل ويطارده ، فى أن تسود قوى الخير على نوازع الشر .

وهنا يطالب الإنسان — من طبيعته ومن إعداد خَلْقه على هذا النحو — بالكفاح فى حياته : بالكفاح من أجل سيادة الهداية . بالكفاح من أجل سيادة الإيمان بالله ، بالكفاح من أجل سيادة الخير . كما يطالب بالكفاح ضد الضلال ، وضد قوى الشر .

والهداية ، والإيمان بالله ، والخير ، تصور مظاهر الحق . والضلال ، والإلحاد أو الكفر ، والشر ، يصور مظاهر الباطل . وإذ يقول القرآن الكريم : «وقلْ جاء الحق وزهقَ الباطلُ إن الباطلَ كانَ زهوقاً »[1] .. يخط الإنسان مجال الكفاح ، يضعه بين الحق والباطل ، ويطلب منه نصرة الحق فهو آت ، وسيتحقق يوماً ما ، كما يطلب منه مقاومة الباطل لأنه سيذهب يوماً ما .

والقرآن بما يقصه فى الآية التى افتتحنا بها هذا الحديث من تكريم الله للإنسان على نحو ما أشرنا من تمكينه بالاستعداد الطبيعى من أن يسود — سيادته للحق ومن أجله ، وضد الباطل وفى سبيل مقاومته — بما يقص من ذلك يحدد معنى الكرامة الإنسانية التى يدعو إليها الإسلام .

فالكرامة الإنسانية ليست شيئاً آخر ، وراء محافظة الإنسان على خصيصته وميزته . وقد تجلت خصيصة الإنسان وميزته فى أنه خلق للكفاح ، وأعد لأن

---

(١) الاسراء ٨١

يكون ذا سيادة بالحق على الباطل . ودعوة الإسلام – وهى رسالة الله ليهتدى بها عقل الإنسان – تقوم على طلب وإعزاز الحق وإزهاق الباطل ، أينما وجد الحق وأينما وجد الباطل .

وكل ما يدعو إلى صفاء النفوس وإزالة ما بها من أحقاد وضغائن ، وكل ما يقوى الروابط ويجمع الكلمة هو دعوة إلى الحق : « وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآنِ ما هُو شِفَاء [للصدور] ورحمة للمؤمنين » [فى ترابطهم وتوادهم] (١) ولا تصفو النفوس من الأحقاد والضغائن ويتواد بعضها إلى بعض إلا إذا امتلأت القلوب بالإيمان بالله .

وعلى العكس من ذلك ، كل ما يدعو إلى ملء النفوس بالفرقة والحقد . ويمزق ما بينها من ترابط هو دعوة إلى الباطل . وأساس الباطل: الإلحاد والكفر بالله . إذ الملحد والكافر بالله لا يتهيب أن يسلك طريق الإجرام ، ويرتكب المنكر ، ولا يتهيب أن يشيع الفاحشة بين الناس . « يَاأيُّها النَّاسُ كلوا مِما فِى الأرضِ حَلالاً طيباً ، ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشيطانِ إنه لكم عدوٌّ مبين . إنما يأمرُكم بالسوءِ والفحشاءِ وأن تقولوا على اللهِ ما لا تعلمون (٢) » .. « إنَّ الذينَ يكفرونَ بآياتِ الله ويقتلون النبيِّينَ بغيرِ حقٍ ويقتلونَ الذين يأمرون بالقسطِ منَ الناسِ فبشرهم بعذابٍ أليم . أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرةِ وما لهم من ناصرين » (٣) .

* * *

دعوة الإسلام إلى الكرامة الإنسانية هى دعوة التمسك بالحق والوقوف بجانبه ، ومناصرة من يناصره . والذى يدعو إلى الترابط والتوادد ؛ ويدعو إلى

(١) الاسراء : ٨٢ . (٢) البقرة : ١٦٨ ، ١٦٩ .
(٣) آل عمران : ٢٠ ، ٢١ .

الإيمان بالله ، يدعو إلى الحق . والذى يناصر الترابط والإيمان بالله يناصر الحق .

وما يدعو إليه الإسلام ليس بعيداً عن طبيعة الإنسان واستعداده . ومن لا يستجيب لدعوته حينئذ فقد انحرف عن فطرته التى فطره الله عليها وتغلب عنده الهوى على رشد العقل ، وأفرغ قلبه من الإيمان ودفعته فى سعيه نوازع الشر والضلال .

وآية أننا أصحاب كرامة هو أن نكون فى جانب الحق لإحقاقه ودفع الباطل عنه . وآية أننا نستجيب لدعوة الإسلام أننا نناصر الله فيما أتت به رسالته من إعزاز الحق ونصره ، ومن السعى فى سبيل الترابط والتوادد .

وبذلك نكون قد حققنا نعمة الله علينا ، وهى : أنه فضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا .

الإسلام واستقلال الشخصية

الاستقلال هو عدم قبول الاعتداء . وفى الوقت نفسه استطاعة رد الاعتداء . فاستقلال الفرد فى شخصيته هو عدم قبول الاعتداء على مقومات هذه الشخصية واستطاعته ماديًا ونفسيًا رد هذا الاعتداء عليها . واستقلال الجماعة والأمة هو عدم قبولها الاعتداء على مقومات شخصيتها ، واستطاعتها كذلك نفسيًا وماديًا رد هذا الاعتداء . لأنه لا تكون شخصية للفرد إلا إذا تحددت فى نفسه مقومات شخصيته ولا تكون شخصية للجماعة والأمة إلا إذا اتضحت فى نفوس أفراد هذه الجماعة المقومات الأساسية لشخصية جماعتهم .

ومقومات شخصية الفرد هى معالم إنسانيته التى تتميز بالحرية والإرادة ، فيما يعتقده وفيما يحكم به ، وفيما يسلك . واستقلال شخصية الإنسان هنا هى محافظته على أن لا يتأثر فى ذلك بغير خصائص إنسانية . لا يتأثر فى قضائه وشهادته وقوله بعلاقته بمن يقضى لهم . لأن علاقة الإنسان بغيره أمر أجنبى عن خصائص إنسانيته. ولا يتأثر فى سلوكه بعمل غيره بل يترسم معانى الإنسانية فى هذا السلوك ، غاضًا النظر عن تصرف غيره .

فإذا تجلت مقومات شخصية الفرد فى التفكير والاعتقاد ، وفى الحكم والفصل ، وفى السلوك والتصرف — فاستقلاله فى شخصته هو دفعه العوامل بعيدة عن المعانى الإنسانية ، وعدم تأثره بها فيما يرى ويعتقد وفيما يحكم ويفصل ، وفيما يسلك ويتصرف .

والإسلام يدفع الإنسان إلى أن يكون ذا استقلال فى شخصيته : يحمله على أن يكون محافظًا على بشريته ، يدفعه إلى عدم قبول أى اعتداء على خصائص الإنسانية فيه . يدعوه إلى أن يرفض هواه ويرفض تأثره بغيره ، ويرفض تأثره بالعادات التى

كانت تعوقه ، وأن يخلى بين نفسه وبينها فيما يعتقد ويؤمن به ، وفيما يقضى وينطق به ، وفيما يسلك ويتصرف فيه :

١ — يقول الله تعالى فى وصف فريق رفض أن يؤمن بالإسلام تحت التأثر بالإلف والعادة فيما كان لقومه من عقيدة : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون[1] » .. فقد لام القرآن الكريم هذا الفريق على موقفه من دعوة الإسلام لأنه لم يرفضها إلا لأنه نشأ على إلف وتمسك به ، ولم يخل بين نفسه وبين إلفه من عقائد الماضى فى تفهم هذه الدعوة . أى لم يدع نفسه حراً ولم يحافظ هنا على استقلال شخصيته فى خصائصها ومقوماتها الانسانية . بل ترك خصيصته الانسانية يعتدى عليها ولم يرد عنها اعتداء العادة والالف . إذ المعتدى هنا هو ما كان عليه الآباء من عقيدة تمتهن بشرية الإنسان الذى يعتقد بها ويساير رسومها .

٢ — وقول الله تعالى : « وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى[2] » فطلب من المؤمن أن يكون عدلا فيما يقول . وما يقول قد يكون شهادة يؤديها وقد يكون فصلا فى خصومة ينطق به ، وقد يكون رواية يرويها وحديثاً ينقله . وطلب إليه أن يلتزم هذا العدل ولو كان قوله الذى يقوله متعلقاً بذى قرابة وبذى صلة خاصة من شأنها أن تؤثر عليه وتجعله يميل إليه .

ومعنى طلب العدل فى القول هنا والتزامه فى جميع الحالات — ولو كان منها ما يجرح — هو الدعوة إلى أن يحافظ الفرد على استقلال شخصيته فى مجال الحكم من العوامل التى من شأنها أن تؤثر ولا دخل لها فى خصائص بشريته . معناه الدعوة إلى يحول الفرد بين نفسه وبين أن يعتدى على مقومات شخصيته . معناه أن يحول الإنسان هنا بين نفسه كإنسان له خصائص البشرية وبين هواه وميله الذى هو خارج عن هذه الخصائص .

(١) البقرة : ١٧٠ . (٢) الأنعام : ١٥٢ .

٣ — وقول الله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى[1] » . فطلب من المؤمنين أن يكونوا خاضعين لخصائص بشريتهم وحدها غير متأثرين بما يفعله غيرهم . وهو إذ يطلب منهم ذلك يدعوهم دعوة واضحة إلى أن يحافظوا على استقلال شخصيتهم فى جانب الفعل والعمل ، وأن يردوا عنها عوامل التأثر فيها وهى عوامل أجنبية لا تتصل بإنسانيتهم .

الإسلام يريد للإنسان أن يكون إنساناً ، ويبقى إنساناً ، ولا يكون كذلك إلا إذا بدت إنسانيته فى مظاهرها الواضحة . ومظاهر الإنسانية الخالصة : فى الاعتقاد الصحيح والحكم العدل والسلوك المستقيم . فإذا ضل فى اعتقاده أو مال فى حكمه أو انحرف فى سلوكه — فقد تأثر فيما ضل وفيما مال وفيما انحرف بعوامل أخرى بعيداً عن إنسانيته . ولذا كانت محافظة الإنسان على استقلال شخصيته جزءاً رئيسياً فى رسالة الاسلام . والعبادات التى فرضها الله عليه من شأن أدائه إياها وقيامه بها أن تنحى عنه عوامل الهوى وتنمى فيه الإرادة وتقوى شخصيته . فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، أى تنحى عن الهوى ، والصوم تدريب نفسى لقوة الشخصية .

الإسلام يحافظ على قوة الشخصية . إذ الفرد السليم وهو الذى صار إنساناً فى تطوره وبقى إنساناً فى حياته — هو الوحدة القوية فى بناء الأمة ، وهو الوحدة التى تستطيع أن تبعد عن الشرور ، وتعمل من أجل الخير . إذ الشرور ليست إلا الانحرافات عن خصائص الإنسانية الخالصة .

شخصية الفرد فى مقومات إنسانيته ، واستقلال هذه الشخصية فى المحافظة على هذه المقومات . استقلالها فى أن تدفع عوامل الانحراف . ودائماً انحراف الإنسان يكون بما وراء إنسانيته ، يكون بهواه . والهوى هو الذى يكون العقيدة الباطلة والرأى الفاسد ، والسلوك العابث . والإسلام إذ يطلب استقلال شخصية الفرد يطلب إبعاد الهوى الذى هو مصدر كل شر وعبث .

---

(١) المائدة : ٨ .

الاسلام واستقلال الشخصية

استقلال الشخصية لا يمنع التعاون

الإسلام إن عنى باستقلال الفرد فى مواجهة فرد آخر وفى مواجهة جماعته ، وإن عنى باستقلال الجماعة الإسلامية كلها فى مواجهة الجماعات الأخرى — فإنه لايقصد بهذا الاستقلال بحال أن تنقطع صلة الفرد بالفرد ولا صلة الجماعة الإسلامية بجماعة أخرى لاتدين بدينها . فنى قوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » — مايفيد إفادة واضحة أنه يجب أن تكون هناك صلات بين الأفراد المؤمنين قوامها التعاون على البر والخير وعلى تقوى الله والخشية منه . وطالما وجد هذا الأساس أيضاً فى الصلة بين الجماعة الإسلامية وجماعة أخرى إنسانية ، فالجماعة الإسلامية مطالبة بالتعاون معها لتحقيق مافيه خير الإنسانية جميعها .

وهنا مايطلبه الإسلام من استقلال الفرد فى شخصيته ، واستقلال الجماعة الاسلامية فى شخصيتها — هو فى واقع الأمر : أن لايذوب الفرد فى الفرد أو يذهب بما له من كيان ، وحرية ، وإرادة : فى الجماعة الإسلامية .. وأن لا تذوب الجماعة الإسلامية بدورها معها خصائصها فى جماعة إنسانية أخرى تخالفها فى خصائصها . فإذ يقول القرآن الكريم : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » — يبغى فقط أن لايحمل فرد مسئولية فرد آخر ، وأن لايتحمل تبعات عمل شخص آخر . فكل فرد له كيان شخص خاص ، تحدده إرادته ومشيئته ، ومن ثم فعليه أو له ماتأتى به إرادته وتحدده مشيئته من تصرف وعمل . ولكنه لايبغى بحال أنه من أجل هذا الكيان الشخصى الخاص انقطع أو يجب أن يكون منقطعاً فى العلاقة مع غيره .

وكذلك إذ يقول الله جل شأنه : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » — لايقصد بحال أن المؤمنين يجب أن لايكونوا فى علاقة مودة أو تعاون

مع غيرهم . وإنما يقصد فحسب أن للجماعة الاسلاميه كياناً شخصياً خاصاً ، يحدده إيثار المؤمن بالولاء والمودة أولا . وهذا أمر طبيعى فى وجود جماعة قامت على هدف واحد فى سبيل تحقيق غاية واحدة .

أمران يعنى بهما لاسلام تمام العناية فى توجيه الإنسان : يعنى بإيقاظ الشعور بالمسئولية الشخصية ، ويعنى مع ذلك بإيقاظ الشعور بالتعاون ، وفى سبيل الخير وحده . وإيقاظ الشعور بالمسئولية الشخصية فى العمل وبالتعاون فى سبيل الخير يصور التوجيه السليم للإنسانية . إذ على أساس من إيقاظ الشعور بالمسئولية يصدر الفرد فى عمله عن ثقة بذاتيته ، وتدفعه إلى العمل والإنتاج حريته المنبثقة من وجوده الخاص . وعلى أساس من إيقاظ الشعور بالتعاون فى سبيل الخير تتهذب أنانية الفرد فلا تطغى على تصرف من تصرفاته . وعندئذ يسير بدافع من ذاتيته وحريته الفردية ، ولكن فى سبيل المشاركة والمعاونة المثمرة بغيره .

إن الانحراف فى توجيه الفرد يكون إما بسبب سلب الفرد شخصيته وحريته وإرادته ، أو بسبب ترك شخصيته وأنانيته تنمو حتى لاتعرف لتصرفها حدوداً ومقاييس . وفى الحالة الأولى يساق الفرد إلى العمل والانتاج سوقاً ، ويحتاج لكى يعمل وينتج إلى حراسة خارجية مستمرة ، كما يفقد فى داخل نفسه متعة العمل ، لأنه فقد حينئذ الحرية فيه وعندئذ هو مكره من الخارج ، وكاره فى قرارة نفسه . وذلك شر وضع يوضع فيه الانسان أما فى الحالة الثانية فتتأصل الأنانية فى تصرفه وتحمله على أن يتجاوز غيره معه فى مجتمعه فلا يراه ولا يراعى له لذلك وجوداً ولا حرمة فى ماله وعرضه ونفسه . ولا يقوى له علاقة مع غيره إلا على أساس من الإثم والعدوان . وعندئذ وضع الفرد فى البشرية لايقل عن وضع سابقه ، من حيث الآثار السيئة التى تترتب على الانحراف فى توجيه كليهما .

إن القرآن الكريم إذ يقول : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » (١)

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

يعنى لهذا ـ ضمن ما يعنى ـ أن توجيه الإسلام المؤمنين به يتجنب كلا الانحرافين: لم يسلب المؤمن حريته وشخصيته واستقلاله حتى يكون ذليلا مكرهاً ، وكارهاً ، كما وضحنا — ليكون ذا شخصية واستقلال، ومع ذلك ذا تعاون ومشاركة ، لا فى الإثم والعدوان وإنهاك الحرمات ، وإنما فى الخير والنفع العام ، وهو نفع المجتمع وخيره .

وبهذا التوجيه الإسلامى كان المؤمنون بالإسلام أمة وسطا .

وإذ ، يذكر القرآن الكريم فى آية أخرى : « كُنتُم خَيرَ أُمَّة أُخرِجَت لِلنَّاس ، تَأمُرُونَ بالمَعْرُوف ، وتَنهَون عَن المنكرِ ، وتُؤمِنُون بالله [١] » .
يذكر ذلك ليقرر تلك الحقيقه الواضحة وهى أن بهذا التوجيه الإسلامى الذى يتجنب الانحراف فى كلتا صورتيه تكون الأمة التى تنشأ عليه حقاً : خير أمة ، يمكن أن تظهر وتوجد بين البشر جميعاً .

الإسلام توجيه سليم ، وطريق مستقيم ، وهدى للمؤمنين : « كِتاب أَنزَلنَاه إِليكَ لِتُخرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّور بِإذْن رَبِّهم إلى صِرَاط العَزِيز الحَمِيد » [٢] . صدق الله العظيم .

---

(١) آل عمران : ١١٠ . (٢) اول سورة ابراهيم .

التحرر من الخرافة فى الاعتقاد

الإسلام دعوة إلى التحرر . دعوة إلى تحرر الفرد من الخرافة فى الاعتقاد والتصور ، ودعوة إلى تحرره من سيطرة الأنانية والفردية على تصرفاته وسلوكه ، ثم هو دعوة أيضاً إلى تحرر المجتمع من عدم التوازن الداخلى وأخيراً دعوته إلى تحرره من الخضوع لقوة المعتدى عليه وسلطانه ذلك السلطان الذى يفرضه لاستغلال وإلحاق الضرر المادى والأدبى بأفراد المجتمع .

والإسلام إذ يدعو الفرد إلى التحرر من الخرافة فى الاعتقاد أو فى التصور يدعوه فى واقع الأمر إلى رفع العقبات المعنوية والفكرية التى تحول بينه وبين استخدام طاقته كإنسان مفكر ، هيئت له وسائل السيادة على الأرض بالسعى فيها والتمكن من نعمها ، على أساس من كشفها بعقله الطبيعى الذى لم يتأثر بعد بالانحراف فى التوجيه .

إن الاعتقاد فى الخرافة هو الاعتقاد فى باطل ، لايصدقه واقع الأمر . فإذا روى أبو داود — عن قبيصة رضى الله عنه — أنه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : العيافة والطيرة والطرق من الجبت [الباطل] » — عرفنا أن الإسلام يحارب التكهن فى صوره المختلفة ، ليس فقط فى الصور التى كانت معروفة فى الجاهلية على نحو ما ورد فى هذا الحديث. والعيافة والطيرة تكهن بالطيور، وترتيب أمر الإنسان فى إقدامه على العمل أو عدم إقدامه عليه على حركات الطير يميناً وشمالا . والطرق تكهن أيضاً ولكنه بضرب الحصى .

فتشاؤم الإنسان وتفاؤله بحركات الطير ، أو تصديقه أن مصيره فى جانب من جوانب حياته مرتبط بضرب الحصى — على نحو ما كان فى الجاهلية — من شأنه أن يقيد الإنسان فى مسعاه بما لا يصدقه الواقع ، ومن شأنه أن يجعل

الإنسان العملاق فى هذا الوجود قزماً صغيراً ذليلا ، يتحكم فى تقديره للأمور حجر أو ما يشبهه فى فقدان استطاعة التحكم من مخلوقات الله فى كونه .

والقرآن الكريم إذ يقول : « مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرة ، ولا سَائِبة وَلا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لا يعقلون »[1] — يقصد إلى محاربة الاعتقاد فى الخرافة . ذلك الاعتقاد الباطل الذى ساد الجاهلية عند العرب فيما كانوا يعتقدونه فى الإبل والغنم ، إذا نسلت عدداً معيناً أو نسلت أناثاً فقط أو جمعت فى نسلها بين الذكر والأنثى . فهم كانوا بناء على الوضع الخاص فى النسل للناقة أو الشاة يطلقون سراحها أو يعفون أنفسهم من شرب لبنها ، رجالا ونساء أو نساء فقط . ويحارب ذلك الاعتقاد لأنه اعتقاد فى خرافة أى فيما لايصدقه الواقع .

وإذن الإسلام منطقى مع تعاليمه التى كشف بها عن طبيعة الإنسان ككائن يجب ألا يقيد حركته ومسعاه إلا بما منحه الله من تفكير فى حدود ما تفضل عليه من رسالة الرسول ﷺ . يريد الإسلام بمحاربة الخرافة إذن أن يفسح الطريق للإنسان من الأوهام والأباطيل فى الاعتقاد ليكون ذا تفكير سليم وعلم صحيح ، وذا إيجابية فى الحياة .

والأوهام والأباطيل فى الاعتقاد هى كل ما لا يصدقه الواقع : فالاعتقاد فى شىء ما على أن فى حركته بالصدفة تقرير لمصير الإنسان — وهو فى واقع الأمر ليس كذلك — اعتقاد فى الأوهام والخرافة . والاعتقاد فى شىء على أنه ينفع أو يضر — وهو فى واقع الأمر لاينفع ولايضر اعتقاد فى الأوهام والخرافة: «واتخذُوا مِنْ دُونِه آلهة لا يَخلقون شيئاً وهمُ يخلقون ولا يملكون لأنفسِهم ضَراً ولا نَفعاً وَلا يملكون مَوتاً ولا حَياة ولانشُوراً[2] » . واعتقاد الإنسان فى

---

(١) المائدة : ١٠٣ . (٢) الفرقان : ٣ .

هواه على أنه رأى وعلم — وهو فى واقع أمره ليس رأياً ولا علماً بل هوى — اعتقاد فى الأوهام والخرافة : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون »(١) .

إن الإسلام بدعوته الإنسان إلى أن يحرر نفسه من الخرافة فى الاعتقاد ، يريد فرداً قوياً فى تصوره وإدراكه . يريده سيداً على نفسه يهتدى بعقله وبهدى الله إياه معاً . يريده غير ذليل وغير هياب فى ارتياد سبل الحياة . يريده إذا خضع فى عبادته : أن يخضع لله وحده ويعبده ، لايشرك فى عبادته أحداً .

«قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين »(٢) .

إن عبادة الإنسان لاتنقص من سيادة الإنسان على نفسه ، ولاتحول بينه وبين معرفة الواقع الذى يعيش فيه . لأن الله لايريد من عبادة الإنسان إياه إلا أن يهديه إلى الحق ، وإلا أن يفهم العدل فى مجتمعه ويتجنب الانحراف والباطل فى اعتقاده :

« وممن خلقنا أمة يهدون بالحق ، وبه يعدلون » .. « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا : أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » ...

الإسلام دين : لهداية الفرد إلى القوة والتمكن ، ومصدر تخليص الإنسان من رق الخرافة وضعف الأوهام ..

---

(١) الجاثية : ٢٣ .　　　(٢) الأنعام : ٥٦ .

الإسلام دعوة إلى التحرر

تحرر الفرد من الانانية :

يحكى الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم مقالة قوم قارون له ناصحين إياه :
« وابتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخرَةَ ولا تَنْسَ نصيبَكَ مِنَ الدُّنيَا ، وأحْسِنْ كما أحْسَنَ اللهُ إليْكَ ، ولا تَبْغِ الفسَادَ فى الأرْضِ ، إنَّ اللهَ لا يحبُّ المُفْسِدِينَ[1] » . وما يحكيه القرآن هنا على لسان قوم قارون هو مطلوب الإسلام من المؤمنين به أيضاً . لأنه يمثل الصراط المستقيم الذى خطته الرسالة الإلهية عامة لسلوك الإنسان .

وهذه الآية الكريمة تطالب المسلم : أن يتحرر من أنانيته ، تطالبه أن يتحرر من طمعه وجشعه ، أن يتحرر من إغفال شأن غيره ، واستخدامه فى سبيل رفاهية نفسه ، لايحس بشقوة غيره وهو فى سعة ، ولا يتصور حرمان غيره وهو يسرف هنا وهناك ، وهو يمعن فى التضييق عليه ليزيد فيما يتمتع به .

والإسلام إذ يطالب المسلم بالتحرر من الأنانية وسيطرتها على سلوكه ، لا يطالبه بحرمان نفسه ولا بإهمال حاجياته وضروراته : فهذه الآية إذ تقول : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » .. أى اقصد فيما أعطيته من مال الدار الآخرة ، وذلك بالإحسان منه إلى ذوى الحاجة – تذكر بعد ذلك مباشرة : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » .. فطالبته برعاية حاجات نفسه مما يملك كذلك .

وبهذا كان المطلوب من الفرد : أن يرعى نفسه وغيره معاً ، وأن لا يقتصر بماله على تحصيل المتع وتوفير الملذات لنفسه وحدها ، تاركا الغير فى شقوته وحقده . إذ بذلك تفسد العلاقة بينهما ، ويشيع العبث فى الأرض التى يقيمان فوقها . ولذا جاء فى الآية عقب ماتقدم : « وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ،

---

(١) القصص : ٧٧ .

إن الله لايحب المفسدين» .. تأكيداً للمطلوب ، وهو التحرر من الأنانية ، بالحد من انطلاقها من جانب ، ورعاية الغير من جانب آخر .

هذا الذى يدعو إليه الإسلام من تحرر الفرد من سيطرة الأنانية هو مايتحقق به العدل والتوازن بين فرد وآخر . وليست حدود العدل والتوازن هى الإعطاء من فائض من جانب.. وقبول العطاء من جانب آخر ، بل كما يتمثل فى الإعطاء وقبول العطاء : يتمثل فى الكف والمنع .

وإذا هو تمثل فى الإعطاء تمثل فيما ينفع ، وإذا هو تمثل فى المنع تمثل فيما يضر ويؤذى . ولذا لو تلونا قول الله تعالى فى سورة الأنعام :

« قلْ تعَالوا أتلُ مَاحَرّمَ ربُّكم عليكُم : ألا تشركُوا به شَيْئًا،وبالوالدين إحْسَانًا ، ولا تَقْتُلوا أولادكم مِنْ إملاقٍ نَحْنُ نرزُقُكُم وإيَّاهم ، ولا تقْربوا الفَواحِش مَاظَهر مِنْها ومَا بطن ، ولا تقتلُوا النفْس التى حرَّم الله إلا بالحق، ذَلِكم وصَّاكم بِه لعَلكم تعقِلُون . ولا تقْربوا مَال اليتيم إلا بالتى هِى أحْسنُ حتى يَبْلغ أشده ، وأوْفوا الكَيْلَ والميزانَ بالقِسْطِ ، لانكلف نَفْسًا إلا وُسعَهَا ، وإذَا قلتم فاعْدِلوا ولو كانَ ذَا قُربى ، وبعهْدِ الله أوْفوا ، ذَلِكم وصاكم بِه لعلكم تذكرون . وأنَّ هَذَا صرَاطى مُستقيما فاتبعُوه ، ولا تتبِعوا السبل فتفرق بِكم عَنْ سبيلِهِ ، ذَلِكم وصاكم بِهِ لعلكم تتقُون(١) »..

لو تلونا هذه الآيات لوجدنا القرآن الكريم يطلب العمل فيما يترتب عليه عدل وتوازن . فيطلب الإحسان إلى الوالدين ، وأن يوفى الكيل والميزان بالقسط ، وأن يوفى بالعهد إن كان فى سبيل الخير ، وأن يكون الحكم ، كما تكون الشهادة قائمة على عدم التحيز مهما كانت دوافع التحيز ، ووجدنا كذلك أنه يطلب الكف

---

(١) الأنعام : ١٥١ — ١٥٣ .

والمنع فيما يترتب على الكف والمنع من الفعل : صيانة للغير من الضرر والأذى : فيطلب الكف عن الشرك فى العبادة ، وقتل الأولاد خشية ما يترتب على الفقر من جوعهم وحرمانهم ، واستغلال مال اليتيم .

وما يذكره القرآن الكريم هنا من صور للفعل والمنع ، تحقيقاً للعدل والتوازن وتحرراً للفرد من غلبة الأنانية عليه : هى أمثلة يقاس عليها غيرها . فكما أن الاعطاء والمنع لايكون فى المال وحده ، وارتكاب الفواحش والمنكرات ، المادى منها كالسرقة وانتهاك العرض ، والنفسى منها كالحقد والحسد ونية السوء على العموم ، كذلك صور مايجب أن يفعل وما يجب أن يترك : ليست قاصرة على ما ورد فى هذه الآيه الكريمة . والضابط لتحرر الفرد من أنانيته هو أن يعمل صالحاً ويسلك مستقيما . ولذلك : قال القرآن الكريم فى نهاية هذه الصور من الفعل والترك : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .. فوصف هذا المطلوب من الفعل مرة والترك مرة ، بأنه صراط الله المستقيم ، وأنه سبيل واحدة لاتعدد فيها .

تحرر الفرد من سيطرة الأنانية عليه ليس بالأمر الهين . ولكنه طريق يحتاج إلى إيمان وإلى دربة وصبر فيما يدرب الإنسان نفسه عليه من : إعطاء ما يملك مرة ، وحد من رغباته الجامحة مرة أخرى . وهنا كان مكان العبادة من صلاة ، وصوم ، وزكاة :

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، لأنها ليست رسماً يؤدى بركعات ولا بسجدات تعد وتحصى ، وإنما تقوم قبل الركوع والسجود على خشية الله ، وتمثل لذاته الكريمة جل جلاله . وما ينطق به المصلى من قوله : الله أكبر ، إن هو إلا اعتراف قلبى منه بأن : متع الحياة لاتصلح أن تكون غاية فى نفسها للإنسان . والغاية الأخيرة هى رضاء الله وحده . ومن هنا لايدع المصلى نفسه تستجيب

لرغبات ذاته وهواها ، مما فيها إيذاء الغير وإضراره .

.. والصيام عبادة تنطوى على الحرمان والحد مما تطلبه أنانية الفرد . ينطوى على الحرمان انطواء مباشراً . تنطوى على الحرمان مما يشتهيه الفم ، أو يشتهى أن ينطق به اللسان من غيبة ونميمة . وعلى الحرمان مما يدور فى خلد النفس من سوء .

.. وأما الزكاة فمكانها فى العبادة أنها التى تدفع دفعاً مباشراً إلى العطاء : إلى رعاية الغير .

فالإسلام دعوة إلى تحرر الفرد من سيطرة الأنانية،وعمل لتحقيق هذه الدعوة الإنسانية المهذبة .

وأمارة المسلم إذن أنه هو الذى تحرر من أنانيته ، عملا وقولا .

طريق التحرر من الخوف

١ — إن الأمر الذى يبدد نشاط الفرد ، ويعوق طاقته الفكرية والبدنية عن أن تتجه اتجاهاً سليماً لصالح ذاته وأمته .. هو « الخوف » : الخوف من الطبيعة وكوارثها ، وللأزمات والمشاكل التى قد تخلفها ، والخوف من الإنسان فى خصومته ولجاجته فى الخصومة .. فى غدره وخيانته .. فى تآمره .. فى تسلطه .. والخوف من الموت قبل أن يستمتع بشبابه ، أو بماله ، أو قبل أن يتم رعاية أولاده وأسرته .

وقبل الخوف من الإنسان الآخر معه فى مجتمعه : الخوف من نفسه هو .. الخوف من هواه على أمره .. الخوف من شهواته وجموحها فى تصرفه وسلوكه :

قد يبدو للفرد لأول وهلة أنه يستطيع بماله وبما يكتنزه منه أن يكون بمنجى من خوف الطبيعة ونوازلها ، وأنه بولده وعصبيته يكون فى حمى من أن تمتد إليه يد إنسان آخر بالسوء . ولكنه إن عاش فى تخيله هذا فترة من الوقت فإنه لا يمكنه أن يمضى طويلا بعيداً عن قلق الخوف من الطبيعة ، والإنسان مرة أخرى . لأن المال المكتنز نفسه عرضة للتلف أو الضياع أو النفاد ، ولأن الولد والعصبية كذلك عرضة للضعف وللفناء . وهذا .. وذاك يثير القلق من جديد أو يزيد فيه إن ظل باقياً عنده .

وقد يبدو للفرد أيضاً أنه يستطيع بتجنبه ظروف الموت والمخاطرة بحياته فى لقاء العدو فى القتال مثلا أنه يستطيع أن يمد من أجل نفسه وبالتالى يتيح الفرصة للاستمتاع بدنياه من مال وولد وزوجة . ولكن الموت لا يأتى على موعد ،

ولا يرتبط حتماً بظروف معينة . فقد يأتى من شهوة البطن والفرج ، ومن الفتنة بالولد قبل المرابطة لمواجهة العدو ، أو الاشتباك معه فى قتال .

والفرد الذى تسيطر عليه فى تصرفه شهواته وهواه يعيش فى خداع ما تزين له تلك الشهوات وهذا الهوى ، بحيث لا يحس بالخوف من المصير إلا وقت أن يخلو بنفسه فيراجع أمره بين الفينة والأخرى . ومثله يفاجأ بالنهاية : إما نهاية الحزن والأسى على المصير ، أو نهاية التحطم المادى وسوء ما آلت إليه أجهزة بدنه .

وربما يبدو كذلك أن « الثقة » بالذات هى وقاية من الخوف فى صوره المختلفة . فإذا وثق الفرد بذاته أبعد عنه شبح الخوف ، ومهد لنفسه طريق الاطمئنان والاستقرار فى الحياة . وربما يقال هنا أيضاً : أى مصدر يوحى بالثقة فى نفس الفرد؟ أذلك المصدر هو الذات نفسها أم هو أمر خارج عنها ؟ .

قد تكون الذات نفسها مصدر الثقة ومبعث الاطمئنان والاستقرار . ولكنها ثقة محدودة على أية حال لا تستطيع أن تمتد طوال العمر كله الفرد ، كما لا يمكن أن تقف فى وجه كل الأحداث التى تمر به . وقد تكون هذه الثقة بالذات فى حقيقة أمرها غروراً بالنفس يحول بينها وبين كشف الواقع وإدراك نتائج الأحداث القريبة والبعيدة منها على السواء . وعندئذ تكون مثل هذه الثقة أداة تحطيم للذات كلية ، وليست لوقايتها من اضطرابات الخوف والتردد فى الحياة .

إن الثقة هى فى ذات الفرد التى مبعثها الذات نفسها كثيراً ما تعتمد على صحة البدن ، أو على المال المقتنى ، أو على عصبية الأسرة ، أو على الجاه المستمد من الآخرين حوله .. أو على ما يماثل ذلك من الأوضاع التى هى بطبيعتها مؤقتة ،

وبطبيعتها أيضاً معرضة بالضعف والتلاشي ، كما هي معرضة القوة والطغيان وعندئذ لا تجعل من الثقة المعتمدة عليها ضماناً ضد خوف يطرأ وتملك على الذات شأنها في أي وقت لأجل غير معلوم . والخوف إذن أمر مترقب في حياة الفرد ، ونتائجه المترتبة عليه محتملة الوقوع .

وصحة البدن ، والمال الذي يقتنى ، والعصبية في الأسرة والقبيلة ، والجاه وما يشبه ذلك .. كله مما ينتمي إلى الحياة التي يعيش فيها الإنسان على هذه الأرض وإلى الوجود المادي .

ومن أجل ذلك إذا كانت « الثقة » هي العامل الذي يبعد الخوف من نفس الفرد ، ويجعل أثره عديم الأهمية ، إن وجد على سبيل الغريزة والاستعداد فيها .. يجب أن يكون المصدر الذي يوحي بها لاينتمي إلى ماهو عرضة للتوقيت ، أو عرضة للضعف والتلاشي كما هو عرضة للقوة والطغيان . يجب أن يكون هذا المصدر موجوداً في كل وقت ، وأن يكون غير قابل للضعف أو للتغير بحال من الأحوال .

مثل هذا المصدر هو القوة الإلهية الخالقة .. هو « الله » وحده . والإيمان به هو الضمان المستمر لإبعاد مخاطر الخوف وآثاره في نفس الفرد المؤمن به .

والإيمان بالله ليس على أنه فحسب قوة تعلو في تصرفها مشيئة الفرد ومقدراته وطاقاته ... ولكن كذلك على أنه الكفيل بتجنب الفرد هموم الحياة وعنتها ومشاقها ، إن اتبع الطريق المستقيم في تصوره وتفكيره ، وفي سلوكه وتصرفاته : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز » .

فهو لايزن الحياة المادية ومتعها بأكثر من قيمها .. لايزنها بأكثر من أنها وسيلة تستخدم لغاية أسمى ، وليست هدفاً في ذاته يتشدد الفرد في التوسع في اقتنائه

ولو على حساب القيم الإنسانية ، من الأخوة والمحبة والاعتبار البشرى فى العلاقات بين الأفراد ، وعلى حساب إعزاز نهضتها وبعثها حية قوية ، كما لا يغلو فى تقدير المتعة بأى جانب منها ، مما يصير به إلى أن يفنى إنسانيته ويهدر كرامته ، تحصيلا لهذه المتعة وإنهما كما فى تذوقها .

وكذلك لا يسلك ولا يتصرف مع نفسه هو ، ومع الآخرين : سلوك المتسبب فى ضرر وأذى ، إن لم يستطع أن يكون ذا نفع تفيد منه ذاته ويفيد منه مجتمعه .

وإذن الإيمان بالله ليس قولة ينطق بها الفرد ، أو اعتقاداً يعتقده المؤمن مجرداً عن تجربة وتطبيق عملى فى الحياة . فلا يكفى أن يعلن الفرد إيمانه بالله فتأتى آثاره فى الحياة ويكون الفرد محصناً عندئذ من الأخطار ، أو يضمن له رزقه ويؤمنه جانب الخوف من قطعه . إن الإيمان بالله ليس سحراً ولا شعوذة ولا أمراً خارقاً للعادة .. إنه أمر إنسانى .. إنه جهاد النفس ، وإنه الجهاد فى الحياة .. إنه مغالبة النفس على شهواتها وملذاتها .. إنه مغالبة النفس على عدم طغيان فرديتها ، فلا ترى فى الوجود إلا الذات ولا تشعر إلا بأحاسيس الذات وحدها . . إنه عمل مستمر بعد تصديق ، وسعى شاق ومضمن بعد اعتقاد . . إنه ملاءمة فى الحياة الإنسانية بين مطالب الذات ومطالب الغير . . إنه فى تطبيقه الأخير محافظة على وجود الآخرين وأحاسيسهم ، على نحو المحافظة على الوجود الخاص وأحاسيس الذات نفسها .

ويخطىء من يقيم الإيمان بالله من أوضاع الذين يعيشون بالوراثة على أنهم من أمة الله . لأنهم يرددون قولا بدون عمل ، حتى أضحى قولهم لا مدلول له فى حياتهم ، وأصبحت كلماته محرفة عن مواضعها .

الإيمان بالله ليس حياة انتقال فى التصور والتفكير والعمل فى عمر الإنسان

على الأرض.. إلى حياة أخرى منتظرة فى السماء يعيشها هناك . ليس ابتداءاً وصداً للمال والبنين والنساء ، ولكنه فقط ليس تكالباً عليها ، ولا خضوعاً لإغرائها ، ولا إغراقاً فى جوها ، حتى يكون مادى التفكير والتصرف ، ومادى النفس ، ومادى الارتباط فى العلاقات مع الآخرين ، ومادى التقييم للظواهر البشرية .

الإيمان بالله هو أن يترك الفرد المؤمن فى حياته مكاناً فسيحاً للإنسانية يتنفس فى جوه فى غبطة ، ولا يغلق هذه الحياة دون القيم الإنسانية ، كما لا يربط طاقاته بالمصالح المادية وحدها . إن الإيمان بالله ينتهى حتماً بالإيمان بالإنسان الذى يفضل الحيوان بسيادة العقل والقلب فيه معاً .

٢ — فإذا آمن الفرد بالله على هذا النحو يكون قد تخلص فى الواقع من مقومات الخوف . لأن أبرز مقوم للخوف هو خشية الفرد من فقد ما يكون قد حصله لنفسه من مال أو ولد أو جاه . وتقييم المؤمن — على سبيل الحقيقة — لماديات الحياة ، ضمن تقييمه لمتعها كلها ، تقييم معتدل لا يبالغ ولا يغلو فيه . ولذا فحرصه على اقتناء أى منها ليس بالدرجة التى تجعله يضطرب ويقلق ويموت خوفاً وفرقاً بعد أن يميت إنسانيته وكرامته فى سبيل بقائها والتشبث بالاحتفاظ بها

على أن الإيمان بالله فى نفسه يتضمن الإيمان « بالعوض » من جانب الله لما يفقده المؤمن به ، إن عاجلا أو آجلا ، إن عاجلا فى دنياه أو آجلا فى آخراه . فهذا الإيمان بالعوض من شأنه أن يهدىء روع المؤمن به عندما يفقد ما بيده وما فى حوزته . لأنه عوض ممن هو قادر ، وله الأمر كله فى الوجود : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » .. «ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .. « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون »

والحديث هنا عن الإيمان هو حديث فقط عن فعل « الإيمـان » فى النفس وما يصنعه من ثقة واطمئنان . وليس حديثاً عن وجود الدنيا «والآخرة» والبرهنة عليه فى مواجهة المنكر للأمور الغيبية على الإطلاق ومن يراها خداعاً للنفس وصارفاً لها عن التمتع بالوجود المادى الحاضر . فالإيمان بأمر ما على أى نحو له أثره الحتمى وعلى شاكلة الصورة التى آمن بها المؤمن .

و«الجنة» التى وعد الله بها المتقين هى مكان العوض عما فات المؤمن من زخرف الحياة الدنيا وزينتها ومتعها فى الحياة الأرضية ، سواء أكان النعيم فى هذه الجنـة معنوياً كما يقـال .. أو مادياً . والأقرب : أنه مادى لأن جو المـادة هو جو الإنسان فى نشأته .. وفى حياته فى الدنيا .

ولذا : « فالآخرة » فى الدين تـكون جزءاً رئيسياً فى الايمان به . على أن التجربة العملية والتطبيق الفعلى لما يؤمن به الإنسان ، لها أثرها الآخر فى عدم الاهتزاز ، عندما يشح القوت أو يواجه المؤمن الموت فى قتال الأعداء أو يواجه مكائدهم وأذاهم . لأنه يعتقد أن ذلك كله ابتلاء من الله يجب على المؤمن الصبر عليه وعدم اليأس منه : « لتبلون فى أموالـكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الـكتاب من قبلـكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً . وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

وصيام رمضان فى سلسلة التجارب الإيمانية له دوره فى تـكوين « القناعة » لدى المؤمن . وهى مصدر غناه الحقيقى . والقناعة ليست تنازلا عن متع الحياة المادية عند العجز . بل على العكس : هى تنازل عند القدرة والاستطاعة . والصائم فى رمضان مع وجود الإمكانيات لديه فى تلبية شهوة النفس يحول دون مباشرتها إياها بفعل العزم والتصميم ، حتى يصبح قوة سائدة فى النفس ، يمكن أن يواجه بها أى حرمان

تفرضه الضرورة والظروف فى غير رمضان من أيام السنة وعلى طول حياة المؤمن .

وهكذا ترى النفس أن «القناعة» لديها مصدر غناها الحقيقى ، وليس المال فى ذاته أو الجاه ، والولد والعصبة . وصاحب هـذه الصفة يستطيع فى يسر أن يستغنى عن السؤال ، فضلا عن الإلحاح فيه . يستطيع أن يترفع عن سؤال الوظيفة ذات الجاه ، وعن زينة الحياة فى النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيـل المسومة والأنعام والحرث ... الخ .

ومن يستطع الاستغناء عن السؤال يمكنه الاحتفاظ بحريته . فقد تحرر فعلا من الخوف . وهو لم يسأل لأنه مستغن استغناء ذاتيا ، ومن له الغنى الذاتى لا يخشى فقدان شىء . إذ أن ما كان ذاتيا للإنسان لا يتخلف إلا إذا أدركه الموت ، حتى وعندما يدركه الموت فهو يرجو لقاء ربه مطمئنا هادئا ، غير آسف على وضع كان يريد بقاءه والاحتفاظ والاعتزاز به .

الإنتاج وقيمته فى الحياة

« عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبى ﷺ :

نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس :

(ا) الصحة :

(ب) والفراغ :

١ — يشير الحديث النبوى الشريف إلى قيمة الصحة فى ذاتها ، وقيمة الفراغ فى ذاته . والفراغ هو الفسحة من الوقت بعد القيام بما يتصل بضرورات العيش . وقيمتهما تتضح مع التعبير فى الحديث عنهما « بالنعمة » ، كما تتضح من أن الذى لا ينتفع بهما على الوجه الصحيح يعد مغبونا من نفسه كما يعد غابناً وظالماً إياها . لأنه وضعها فى غير موضعها .

إن الإنسان المعافى فى بدنه والسليم فى عقله يستطيع — عن طريق معافاته فى بدنه وسلامته فى عقله — أن يكون منتجاً لخير نفسه ، ومساهماً بإنتاجه فى خير جماعته : فسلامة بدنه تمكنه من ممارسة أنواع الإنتاج الذى يرتبط بالقوة البدنية . وسلامة عقله وتفكيره تمكنه من مزاولة ما يتصل بالمعرفة والتوجيه الأدبى والمادى .

الانسان الذى لا يستفيد من وقته يكون غابنا لنفسه :

وإذا أتيح للإنسان المعافى أن يكون لديه فراغ من الوقت ، ونظمه فيما يفيد ويثمر ، وانتفع بصحة بدنه وسلامة عقله فى ذلك — إذا أتيح له هذا : كان إنتاجه إنتاج القوى الموجه فى الحياة توجيها صحيحاً ، وكان إنتاجه ، كمه ونوعه يفوق إنتاج من لم تتوفر له إمكانية الصحة والفراغ ، أو من لم يحسن الانتفاع بهما .

إن حياة إنسان ما تختلف عن حياة إنسان آخر فى كمية الإنتاج ونوعه . وإن حياة جماعة ما تختلف عن حياة جماعة أخرى بنشاط الأفراد فى دائرة الإنتاج

الإنسانى ، أو بضعفهم فيه . وليس الاختلاف بين حالة وأخرى — وسواء للإنسان أو للجماعة — يرجع إلى وجود الصحة والفراغ من الوقت عند فريق ، وفقدانهما عند الفريق الآخر ، وإنما يرجع إلى استخدام الصحة وحسن تنظيم الفراغ من جهة وسوء استخدامها من جهة أخرى .

فالإنسان الموجه توجيهاً حسناً يتجه بصحته وتفكيره بالفراغ عنده إلى ما يكون منه عاملا إيجابياً فى الحياة. قد ترتفع به إيجابيته إلى أن يكون موجهاً لحياة جماعته كلها ، أو أن يصير عنواناً لحلقة فى تاريخها أو تاريخ الإنسانية كلها .

والإنسان مهمل التوجيه يستنفد صحته وفراغه فيما يضره ويضر جماعته . وعندئذ يكون قد غبن نفسه لأنه صار بها إلى ضررها. غبن نفسه لأنه سجل عليها أنها لا تحسن الانتفاع بأهم الإمكانيات اللازمة لها والتى يمكنها من الدفع . سجل عليها أنها تغلب على أمرها فتصرف هذه الإمكانيات فيما لا يوصل إلى خير خاص أو عام . سجل عليها أنها تستمرىء الركود وعدم السعى المثمر فى الحياة . سجل عليها ضعف الإرادة وضعف الشخصية .

وفى الوقت نفسه يكون مغبوناً ، إذ وهب نعمة — هى نعمة الصحة والفراغ — وحسبت عليه ، دون أن يفيد منها : أعطى وسائل العمل والإنتاج الصالح فى الحياة ، ولكنه أهملها أو وجهها توجيهاً سيئاً فصارت فى حكم المهملة . وبذلك خسر الإنتاج المثمر . وبالقياس إلى غيره الذى منح الصحة والفراغ وأفاد منهما بعد هذه الحصيلة : فقد غبنته نفسه لأنها مالت به عن طريق النفع الواضح بصحته وفراغه ، فهو مغبون حينئذ .

شأنه شأن الجندى السالح بسلاح العصر الذى لا يحسن استخدام هذا السلاح . فكونه لم يفد من سلاحه الحديث لا يذهب بقيمة هذا السلاح فى إحراز النصر . وبالتالى عدم استخدامه إياه على الوجه المثمر مصدر لوم ومؤاخذة له . وتبعاً لذلك

وجوده معه مع عدم الانتفاع به سبب فى عدم جدوى اعتذاره عند الهزيمة .

ومن جهة أخرى : وجود سلاح العصر معه أعطاه الفرصة للنصر والعمل لخير نفسه ووطنه ، لكنه لم يفعل . فهو عندئذ لا يستطيع أن ينفى تهمة التخاذل أو التقاعد عن نفسه، ولو لم يمكن له بهذا السلاح فى مساهمة النصر لبقى أمام نفسه وغيره فى صورة من لا يلام على عدم القيام بالواجب الناشىء عن الاستطاعة فى الواقع . فقد ظلم نفسه ، وظلمته نفسه كذلك .

الأزمات النفسية سببها عدم استغلال الفراغ :

وإن الأزمات النفسية والخلقية ، وإن كثيراً من المشاكل الاجتماعية فى الأمة ترجع إلى عدم الإفادة من صحة الأقوياء وعقول المفكرين كما ينبغى ، وإلى عدم تنظيم الفراغ وتوجيهه وجهة سليمة فى الحياة : يتحدثون الآن عن قانون للآداب العامة ، وتتحدث الصحافة ويتحدث المجتمع عن التسكع فى الطرقات واستهتار المتسكعين فى السلوك العام ، وعن الجلوس الطويل فى المقاهى واستهلاك الوقت فى اللاحظات التافهة أو النابية على المارين والمارات ، أو فى تجريح الأعراض ، أو الوشايات ، أو اختلاق الروايات ، أو التعليق على الوقائع بما يجعلها روايات أخرى مصطنعة ، وتتحدث عن الزواج ومشاكله ، وعن الوسائل التى تحول دون الأضرار النفسية والخلقية فى حال عدم استطاعته ، وتتحدث عن الموظفين فى مكاتبهم وقلة إنتاجهم فى العمل العام ... وهكذا عن مسائل أخرى تتصل بحياة الإنسان وحياة الجماعة ولها مساس كبير بتطور الأمة وارتقائها إيجابياً وسلبياً .

إن حل هذه المشاكل يرتبط ارتباطاً كبيراً بتوجيه النشاط البدنى والفكرى وتنظيم الفراغ لدى أصحاب الفراغ .

لم تعرف الأمة القوية المنتجة فى تاريخنا الحديث أغنياء يستثمرون أموالهم فى الزراعة أو الصناعة، دون أن يكون لهم نشاط إيجابى آخر ينتفعون فيه بصحة أبدانهم

وعقولهم ، ويتخذون من هذا النشاط وسيلة لتنظيم فراغهم . لم تعرف هذه الأمم علماء لايصرفون وقتهم وحيويتهم الذهنية فى البحث والقراءة وبين الكتاب والحياة التى هى مصدر الكتاب ووحى كتابته . لم تعرف هذه الأمم شباناً وشابات ، ورجالا وسيدات، لايساهمون فى الإنتاج إسهام معاونة أو كسب مادى أو أدبى .

إن الحياة الشرقية مليئة بالصور التى تعبر عن الكسل البدنى والركود الذهنى ، أو تعبر عن الانحراف فى توجيه الصحة وتنظيم الفراغ . إننا معشر الشرقيين فهمنا « القناعة » على غير وجهها . إننا معشر المسلمين فهمنا « التوكل » على غير حقيقته . إن مثل هذا الحديث الشريف الذى يهدف إلى توجيه الناس وحثهم على الانتفاع بصحتهم وفراغهم عن طريق العمل للخير — لايجعل من التوكل على الله إلا عدة أخرى يستعين بها المتوكل على الافادة من نعمتى الصحة والفراغ إلى أقصى درجات الإفادة .

الحياة عمل وإنتاج لخير النفس ، والوطن ، والجماعة . وما طلبت « القناعة » إلا كوسيلة من وسائل رد الاعتداء بسبب الطمع وسوء استخدام الصحة والفراغ . والمنتج العامل فى الحياة يكون طموحاً ولكنه لا يكون طامعاً بحال .

ومن يعيش فى الحياة لينتج فقد عاش أيضاً بعد مماته . ومن وجد فى الحياة ليعيش وارتضى لنفسه السعى ليأكل فقط فقد ارتضى لنفسه أن يكون ميتاً بين الأحياء .

إن القلة من الناس هى التى تعرف : كيف تحيا بحسن استخدام القوة البدنية والعقلية وتنظيم الفراغ . وإن الكثير من الناس يظلم نفسه بإعدادها بين الأحياء ، ولكنه لسوء توجيهه وعدم الافادة من صحته وفراغه يعيش بينهم ولايحسب معهم . أن الإسلام يسعى بتوجيهه إلى أن يعيش الناس فى هذا الوجود وبعده أحياء .

العمل واستغلال الفراغ

عن عائشة رضى الله عنها — فى رواية أبى داود — قالت : « كنت مع **النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فسابقته على رجلى ، فلما حملت اللحم سابقته فسبقنى ، فقال : هذه بتلك السبقة »** .

ويروى عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : **« مر النبى صلى الله عليه وسلم على نفر من اسلم ينتصلون (يترامون بالنصال والسهام) ، فقال : ارموا بنى اسماعيل ، فان اباكم كان رامياً ، ارموا . وانا مع بنى فلان (فى رواية مع محجن بن الادرع) فامسك احد الفريقين بايديهم ، فقال : مالكم لا ترمون ؟ قالوا : كيف نرمى وانت معهم ؟ قال ارموا فانا معكم كلكم (أى فى حسن النية وقصد الخير) »** .

فى الحديث الأول تحكى عائشة رضى الله عنها أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يباشر رياضة العدو والسرعة فى الجرى والمسابقة فيه . وفى الحديث الثانى يروى سلمه بن الأكوع أنه ﷺ كان يشجع رياضة الرمى والتصويب ، كما كان يجيدها . وهذا مثل من العمل الذى كان يؤديه الرسول فى غير أوقات تبليغ الرسالة ، وهو عمله المنوط به كرسول ، ويعتبر الأول بعد أن كلف بالرسالة من قبل الله جل شأنه .

وهناك أمثلة أخرى على نحو ما يروى عن عائشة رضى الله عنها عندما سئلت عما كان النبى عليه الصلاة والسلام يصنعه وهو بين أهله فى المنزل قالت : « كان فى مهنة أهله [فى معاونتهم ومشاركتهم فى القيام بأعمال المنزل] فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة » .

فهو عليه الصلاة والسلام كان يباشر من الأعمال — بعد أداء عمله الرئيسى — ما فيه نفع لبدنه وصحته ، أو ما فيه إعداد لنفسه عند لقاء خصمه ومغالبته ، أو ما فيه ترويح أو مساعدة لأقرب الناس إليه ، وهم أهل بيته وخاصته .

وهكذا كلما وجد الرسول عليه الصلاة والسلام عنده فراغاً من الوقت بعد

عمله العام وهو تبليغ الرسالة ، باشر من الأعمال فى هذا الفراغ ما يحقق المنفعة لنفسه أو لأهله : وبالتالى ما هو بعيد كل البعد عما فيه إيذاء لنفسه أو لأهله .

فى الحياة نوعان من العمل :

وكل إنسان فى الحياة له نوعان من العمل : نوع يؤديه كواجب تفرضه عليه الحياة العامة ، أو تحتمه عليه ضرورة السعى لحفظ بقائه ورعاية أسرته الخاصة .

ونوع آخر يملأ به الوقت الباقى ، بعد إنجاز النوع الأول من العمل ، ويشغل به ما يسمى بـ « الفراغ » . والفراغ هو الوقت الزائد إذن عن العمل اليومى لضرورة العيش أو حاجة التعليم فى سن التنشئة .

فمثلا : فراغ الموظفين بعد عمل الدواوين .. وفراغ العمال الصناعيين والزراعيين بعد أداء المطلوب منهم فى عمل الصناعة والزراعة . . وفراغ الطلاب والتلاميذ بعد عمل اليوم الجامعى والمدرسى . . وفراغ الذين يعيشون على تأجير الأراضى الزراعية والأملاك العقارية يشمل جميع وقتهم فى يقظتهم .

والعاقل من الناس هو الذى يملأ الفراغ من وقته بما يعود عليه بالنفع ، أو يبعد عنه الضرر على الأقل ، ويتخذ من الرسول ﷺ أسوة حسنة فى ذلك . فإن الذى يستغل فراغه على وجه يحقق مصلحة خاصة به ، هو ذلك الإنسان الذى يتحكم فى هوى نفسه ، ويدرك أن الحياة كفاح من أجل الخير لنفسه ولغيره . هو ذلك الإنسان صاحب الشخصية أو صاحب الإرادة ، وصاحب الإيمان بنفسه ومجتمعه ، وبخالق الكل .

إن وضع أى إنسان فى الحياة يتردد بين وضعين متقابلين : إما أن يترك نفسه للأحداث والاتجاهات المختلفة . وهو فى هذا الوضع لا يحتاج إلى عناء ومشقة ،

ولاجهاد وكفاح ، ولا إرادة وإيمان ، ولا أى مجهود بشرى إيجابى ، سوى أن يسير حسبما تهوى نفسه ، أو حسبما يهوى له غيره . وحظه من الحياة عندئذ حظ التابع الأسير يحيا ليعيش كيفما كانت عيشته . وإما أن يتخير طريقاً خاصاً فى حياته يجنبه احتكار غيره له . ويكفل له أن يكون سيد نفسه ، وعندئذ لابد أن يسعى وأن يجاهد فى سعيه ، وأن يتحمل مشقة الجهاد ومتاعب الكفاح . وبذلك إذا عاش انتظر أن يعمل ، وأن يكون لعمله هدف ، وأن يكون وقته دائماً مجالاً لتحقيق مصلحة أو دفع مضرة خاصة أو عامة .

هذا الإنسان الثانى صاحب العمل المثمر دائماً وصاحب الكفاح يمكن أن يستغل فراغه بالاستمرار فى التعليم والتزود بالمعارف العامة والفنية ، فيتردد على المكتبات العامة أو على الندوات وقاعات المحاضرات .

يمكنه أن يشترك فى النوادى الرياضية المختلفة ، وفى رحلات آخر الأسبوع .

يمكنه أن يشترك فى الخدمات الاجتماعية والقومية التى هدفها البر بالآخرين ، أو ترقية الوطن والمساهمة فى إنهاضه .

يمكنه — إذا لم يتيسر له ذلك — أن يخلو للعبادة وذكر الله تصفية للقلب وتطهيراً للنفس من الحقد والحسد وأمثالها من الصفات الضارة .

يروى عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله : أى الناس خير ؟ قال : رجل جاهد بنفسه وماله ، ورجل فى شعب من الشعاب يعبد ربه ، ويدع الناس من شره » .

استغلال الفراغ فى العبث ضياع وتدمير :

وليس من استغلال الفراغ أن يقضى الإنسان الوقت فى الجلوس على المقاهى والحانة فى الغادين والرائحين ، والغاديات والرائحات .

يروى أبو سعيد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :
«إياكم والجلوس بالطرقات ، قالوا يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها : فاذا ابيتم الا المجلس فاعطوا الطريق حقه .. قالوا : وما حقه ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

وليس من استغلال الفراغ أن يتسكع الإنسان فى الطرقات ، ويتابع السيدات والآنسات بألفاظ الغزل البذيئة ، أو بحركات تشبه حركات القردة .

وليس من استغلال الفراغ اللعب بالنرد . فيروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يقول : « من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله » .

وليس من استغلال الفراغ أن يساهم فى أحاديث الغيبة والنميمة ، وتناول أعراض الناس بالحق أو بالباطل .

يروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« اتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .. قال : ذكرك اخاك بما يكره . قيل : أفرايت ان كان فى أخى ما أقول ؟ قال : ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وان لم يكن فيه فقد بهته (رميته بالبهتان والباطل) » .

ليس من استغلال الفراغ أن يعمل الإنسان على الإيقاع بالغير لحقد فى النفس ، وتدبير المكايد له ، وهو فى واقع الأمر برىء عند الله . يقول الله تعالى : « ولا تطع كلّ حلّاف [كثير الحلف] مهين [حقير] . همّاز [عياب للناس] مشّاء بنميم [ساع بالإفساد](١) » .

ليس من استغلال الفراغ تناول الشائعات ، واللغو فيها . يقول الله جل شأنه : « يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وتناجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذى إليه تحشرون(٢) » .

* * *

(١) القلم : ١٠ ، ١١ (٢) المجادلة : ٩

مثل هذه الأعمال فى أوقات الفراغ تدل على عدم جدية صاحبها فى الحياة ، وتدل بالأولى على تفاهته وعدم تربيته التربية السليمة . إنها لا تسكون إلا من إنسان تمكن منه الكسل ، ووقفت به الحيوانية عند حد إشباع شهوة النظر وشهوة الكلام ، وحالت دون أن ينمى عقله ، ويهذب خلقه وسلوكه .

* * *

آفتنا فى الشرق أننا نتجه إلى هذه الصغائر التى من شأنها أن تصيب الإنسان فى شعوره أو إدراكه وإنسانيته ، وأن تقطع الأوصال بين الناس جميعاً ، وإن تطبعنا بطابع السلبية فى الحياة ، وفينا مع ذلك دين يدعو إلى الإيجابية فى الحياة والعمل المثمر المنتج فيها .

إن حالنا بالقياس إلى غيرنا فى الأمم الأخرى القوية أننا نبذل تفكيرنا ونشاطنا ، وسعينا إلى هذه الأعمال البغيضة المهلكة . نحن لو ملأنا فراغنا بما يعود علينا بالمصلحة من زيادة فى التثقيف ، ومن رعاية لصحة أبداننا ونفوسنا ، ومن مشاركة ومعاونة لبعضنا بعضاً — نحن لو اتجهنا هذا الاتجاه لنقصت هذه الرذائل ، ولضاقت مجالها ، ونظرنا إلى فاعلها نظرة الصغار والاحتقار ، كما نظر الله جل جلاله إلى فاعلها فى قوله « وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ، هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ »[1] .

شيوخ يملأون فراغهم بالجلوس على المقاهى والتناجى بالإثم والعدوان ، وشبان يذرعون طرق المارة ذهاباً وإياباً فى غير ملل ، ويمنعون هؤلاء المارة من مباشرة حقهم الطبيعى فى الانتقال وإنجاز الأعمال بدون إزعاج ، ويتفننون فى الحصول على المال بوسيلة أو بأخرى لارتياد دور السينما ونحو ذلك — يعلنون عن أنفسهم بأنهم أشباه الناس ، وهم ليسوا فى عدادهم ، ثم هم عند الله بعد ذلك معتدون آثمون .

---

(١) القلم : ١٠

القدوة الحسنة

يروى عن أنس رضى الله عنه أنه يقول : « **كان رسول الله عليه الصلاة والسلام احسن الناس ، واجود الناس ، واشجع الناس** » .

ويقول الله جل شأنه فى وصف نبيه الكريم : « وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (1) » .

* * *

لا تكون للإنسان شخصية إلا إذا تميز فى مجتمعه ، وأصبح مثلا واضحاً لصفات طيبة تبرزه فى بيئته ، وتجعله مقدماً على غيره ، وموضع احترام لمن يعرفه ولمن يسمع عنه وعن خلاله .

ولكل مجتمع ، ولكل بيئة عرف فى تحديد الشخصية ، وتوضيح معالمها :

(أ) فللمجتمع الدينى عرف فى تحديد الشخصية الدينية .

(ب) وللمجتمع العلمى عرف فى تحديد الشخصية العلمية .

(ج) وللمجتمع السياسى عرف فى تحديد الشخصية السياسية ... وهكذا تتنوع الشخصيات حسب تعدد المجتمع والبيئة .

ولا تكون لرجل الدين شخصية إلا إذا ابتعد عن إخضاع الدين فى فهمه وشرحه لميل خاص ، أو لعهد خاص ، أو لمجتمع بشرى خاص ، وكان مع ذلك مثلا عملياً لما ينصح به الناس باسم الدين ورسالة السماء .

ولا تكون للعالم الشخصية العلمية إلا إذا أبعد الهوى ، والحزبية السياسية ، والمذهبية الطائفية فى التفتيش عن الحقيقة ، وفى التعبير عنها أيضاً ، وكان سلوكه الشخصى مع ذلك عنواناً لما وصل إليه باسم البحث عن الحقيقة ، من حيث هو

(1) القلم : ٤

حقيقه ، وذلك هو السلوك البعيد عن الهوى والغرض ، وهو نفسه السلوك الفاضل .

ولا تكون لرجل السياسة الشخصية السياسية إلا إذا حكم مصلحة الوطن فيما يسوس به الناس داخل المجتمع أو خارج هذا المجتمع ، وكان تصرفه العملى مع ذلك نموذجاً للمصلحة الوطنية وحدها .

وعلى هذا النحو تحدد الشخصيات المختلفة فى الجماعة الإنسانية . وعلى هذا النحو يفرق بين بعضها وبعض . ولكن مع ذلك يوجد قدر مشترك هو عنصر ضرورى فى تكوين الشخصية الإنسانية على العموم ، وهو عنصر القدوة الحسنة ، والمثل الطيب لصاحب الشخصية .

والرسول ﷺ لم تتميز شخصيته لأنه صاحب رسالة إلهية فحسب كلف من قبل الله سبحانه وتعالى بتبليغها للناس كافة ، بل لأنه مع ذلك كان قدوة حسنة ومثلا أعلى للاستقامة الإنسانية ، والمبادىء الخالدة التى تضمنتها رسالته المنزلة ، وهى تلك المبادىء التى تصور الرشد الإنسانى ، وتهدف إلى نضوج البشر ، والخروج بهم من الطفولة الإنسانية إلى مستوى إنسانى أرقى ، ومجتمع بشرى أفضل .

الرسول هو المثل الاعلى :

الرسول عليه الصلاة والسلام كان مثلا أعلى للاعتدال فى الوجدان ومظاهره ، مثلا أعلى لضبط النفس فى حال ما يسرها أو يحزنها : كان إذا فرح ابتسم ، وإذا ضحك لم يقهقه . يروى عن جابر بن سمرة : « ... وكان لا يضحك إلا تبسماً » وإذا حزن طوى حزنه فى نفسه ، وإن اشتد به الحزن دمعت عيناه ، دون أن تخرج به شدة الحزن إلى المظاهر الأخرى غير الكريمة . ويروى أنس رضى الله عنه قال: « دخلنا مع النبى ﷺ على ولده إبراهيم عليه السلام وهو يجود بنفسه — أى يحتضر — فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان . فقال له عبد الرحمن بن عوف:

وأنت يا رسول الله ؟ فقال: يا ابن عوف إنها رحمة » . ثم قال صلى الله عليه وسلم : **ان العين تدمع والقلب يحزن ، ولا نقول الا ما يرضى ربنا ، وانا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون »** .

فالرسول عليه الصلاة والسلام كان مقتصداً في حزنه إذا عرضت له أحداث الحزن واشتدت به ، ومعتدلا في التعبير عن سروره إن وجدت له مقتضيات السرور . وبهذا أو ذاك كان يمثل الصورة الرفيعة لعواطف الإنسان وانفعالاته .

فطول أمد الحزن ، أو الاستمرار فيه كفيل بقطع الإنسان عن الحياة العامة، وسبب في النظرة إلى الناس والحياة نظرة المتشائم ، أو اليائس . ولهذا يروى عنه — في رواية أنس رضي الله عنه — : « لا يتمنين أحدكم الموت ، إما محسناً فلعله يزداد . وإما مسيئاً فلعله يستعتب [يرجع إلى الله بالتوبة] » .

وكذا المبالغة في التعبير عن الفرح والسرور بالقهقهة أو ما يشبهها من حركات الجسم والصوت ، سبيل إلى أخذ الحياة بغير مأخذ جدي وعنوان على عدم سيطرة الإنسان بعقله على اهتزاز وجدانه .

الرسول عليه الصلاة والسلام كما كان مثلا أعلى للاعتدال في الوجدان ومظاهره — كان مثلا أعلى أيضاً في العمل حتى في العبادة نفسها . يروى عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه يقول : **اما والله ، اني لأخشاكم لله ، واتقاكم لله ، لكني اصوم وافطر ، واصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن يرغب عن سنتي فليس مني** ويروى عن عائشة رضي الله عنها قالت : « ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً » ..

كان مثلا أعلى في سلوكه مع أصحابه رضوان الله عليهم ، وفي سلوكه في أسرته. سئلت عائشة رضي الله عنها ما كان النبي ﷺ يصنع في أهله ؟ قالت : « كان في مهنة أهله ، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة » .

* * *

القدوة الحسنة فى حاجة الى تدريب :

والقدوة الحسنة تحتاج إلى أن يدرب الإنسان نفسه على الفعل الحسن حتى يكون مثلا للفعل الحسن ذاته . وأقوم سبيل إلى ذلك أن يسلك الطريق الذى خطه الإسلام للعمل الصالح وهو طريق المؤمنين الناجحين ، ويصوره الله فى قوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الذين هُم فِي صَلاتِهِم خاشِعُون ، وَالذين هُم عَن اللغوِ مُعْرِضُون . وَالذين هُم للزكاةِ فاعِلون . والذين هُم لفُروجِهم حَافظُون . إلا عَلى أزْوَاجِهم أوْ مَا ملكَت أيمانهم فإنهم غَير مُلومين . فمن ابتَغى وَرَاء ذَلك فأولئك هُم العادُون . والذين هُم لأمَانَاتِهم وعهدِهم رَاعُون . والذين عَلى صلوَاتِهم يُحافِظُون . أُولـئك هم الوَارثون . الذين يَرثُون الفِردَوْس هُم فِيها خالدُون[1] » .

وإن الصوم من أهم العوامل التى تدفع الإنسان إلى أن يكون ذا قدوة حسنة فى أهله وجماعته ، لأنه امتحان لمدى سيطرة الانسان من نفسه على نفسه وتغلبه على هواه ، وميله إلى العمل الحسن ، والعمل الصالح . ويقول الرسول ﷺ :

« كل عمل ابن آدم له الا الصوم فانه لى وانا اجزى به » .

---

(١) سوررة المؤمنون ١ — ١١ .

الطريق إلى التقدم

هناك فى مجتمعنا الإنسانى المعاصر تقدم علمى ، وتقدم تيكنولوجى يتميز بهما هـذا العصر عن عصور البشرية السابقة . وهما أساسان للتقدم الصناعى والتقدم الاقتصادى .

وهناك كذلك تقدم حضارى يتمثل فى بناء المساكن وتعبيد الطرق ، وفى وسائل المواصـلات ، وفى الوقاية من الأمراض ، وفى أداء الخدمات العامة فى القرية والمدينة على السواء .

وهذه الأنواع من التقدم تدل من غير شك على التقدم الفكرى الإنسانى وتفوقه فى السيادة من أجل ذلك على الأرض والماء والهواء ، تفوقاً تجلت فيـه قدرة الإنسـان على البناء والهدم على السـواء .

ولـكن هل ساد الإنسان بهذا التقدم الخلاق على نفسه فعاش فى سلم معهـا ومع الآخرين فى مجتمعه الخاص ، أو المجتمع الدولى العام ؟

... تقدم الإنسان فى تفكيره ، وعلمه . وفى تطبيق هذا العلم فى مجالات الحياة المختلفة ، وفى بناء حضارة مادية شامخة .

فهل وجه التفكير والعلم لإسعاد الإنسان وتوفير ظروف الاطمئنان له ؟

وهل قصر تطبيق علمه ، على ماينفع الإنسان ويتيح له فرصة إبعاد عامل الفقر والجوع والمرض ودفعها الملايين من البشر إلى الهلاك ؟

وهل عمل على صيانة هذه الحضارة المادية من التدمير ؟

أم أنه اتجه بكل أنواع تقدمه فى الدرجة الأولى إلى إمكانية التحطيم والتخريب لما بنى بالأمس ويبنيه اليوم ؟

إن ماينفق على معدات الهجوم ووسائل الدفاع فى المجتمعات التى تقدمت فى العلم والصناعة يشير إلى رقم عال فى الانفاق قد يكون توفيره ليس على حساب المواطنين وحدهم فى هذه المجتمعات بل أيضاً بطريق غير مباشر على حساب المواطنين فى المجتمعات التى لم تتقدم بعد أو أخذت فى سبيل هذا التقدم... أى على حساب البشرية كلها .

وعلى أية حال لابد أن يوصف العمل الخلاق الإنسان فى العلم والتيكنولوجيا والحضارة فى قرننا العشرين، وبالأخص فى النصف الثانى منه : بأنه تقدم إنسانى لا شك فيه .

ومع ذلك أليس إنسان القرن العشرين هذا متخلفاً فى إنسانية السلوك والمعاملة؟

إنه يقاتل أو يخرب فى سبيل استغلال غيره والتمتع بمنافع اقتصادية يحرم منها الآخرين الضعفاء فى مواجهته .

إن صاحب هذا التفوق فى العلم والصناعة يستخدم تفوقه فى هذه المجالات لإرغام غيره على قبول وصايته بصورة أو بأخرى لمصلحة ينتزعها فيسعد نفسه ويشقى غيره . وإن القوة التى يحصلها عن طريق التقدم العلمى والصناعى يصرفها فى إذلال الغير أكثر مما يصرفها فى الحفظ على اعتبار الإنسان وكرامته كإنسان يتميز عن الحيوان .

ما الفارق بين الإنسان المتفوق فى العلم والصناعة والتفكير فى المجتمع المعاصر عندما يذل غيره لإسعاد نفسه أو لتتخم معدته ويشبع شهوة فرجه .. وبين الحيوان الأقوى بعضلاته عندما يبعد الأضعف منه عن المشاركة له فى المرعى أو فى الرأى ويناطحه ، وربما يقتله عندما تقل كية الغذاء أو الماء ؟ .

إن الصراع الدائر فى عالمنا المعاصر اليوم هو صراع بين قوى حقاً هى متفوقة فى العلم والصناعة والتفكير ، ولكنها على وجه القطع متخلفة فى إنسانية السلوك

والمعاملة . لأن صراعها صراع اقتصادى فى أساسه ومغلف بايديولوجية أو بأخرى .

أيضاً إذا كان هو صراعاً بينها وبين بعضها فهو كذلك صراع بينها مجتمعة من جهة وبين الضعفاء الذين لم يتفوقوا مثلهم فى العلم والصناعة والتفكير ، أو ابتدأوا فى سبيل هذا التفوق ولكنهم أقل منهم وأبعد عن الدرجة التى تمكنهم من المنافسة .

وصراعهم إذن يشبه صراع الحيوان من أجل المعدة أو الفرج ... صراع الحيوان الذى لايعرف إلى القسمة والمشاركة السلمية سبيلا ، فضلا عن أن يعرف التعاون مع غيره على دفع الجوع والعطش .

وتفكير هؤلاء المتفوقين وأصحاب القوة عن طريق العلم والصناعة إن أوصلهم إلى الإبداع فى مجال الصناعة والحضارة وبالتالى إلى محاولة السيطرة الاقتصادية .. فإن تفوق هذا التفكير لديهم يتجلى أيضاً واضحاً فى إبداع الشعارات التى تخدع الضعيف وهى تخفى وراءها محاولة الاستغلال والانفراد وعدم المشاركة للآخرين الذين هم موضع الاستغلال .

تفكير القرن العشرين تفكير غريب : يكشف ويمعن فى الكشف عن الطبيعة والكون ، وفى الوقت نفسه يخدع الإنسان ويمعن فى خداعه . وعلم القرن العشرين علم غريب يرفع فى الوقت الذى يذل فيه ، ويبنى فى الوقت الذى يهدم فيه . وحضارة القرن العشرين حضارة غريبة : تشمخ بمزاياها وبضخامتها ولكن ينقصها روح الإنسان التى تشع الصفاء والاطمئنان والأمن فى الغد القريب والبعيد .

وما هو كائن اليوم بين المجتمعات بعضها مع بعض ... كائن أيضاً بين أفراد المجتمع الواحد . إذ قلما تجد السلام فى النفوس على انفراد أو فى علاقاتها معاً . وبصورة غير واضحة يدور الصراع بين أفراد المجتمع الواحد كما يدور بين المجتمعات .

وعلى شاكلته: المتفوق أو القوى لسبب من الأسباب يطارد الضعيف عنه ومن أجل منفعة اقتصادية . وهكذا نجد تفوق الإنسان المعاصر فى المجتمع الواحد: فى العلم وتطبيقه يصاحبه تخلف فى إنسانية السلوك والمعاملة ، على نحو ماهو بين المجتمعات المتفوقة .. والأفل فى التفوق .

أليس التمييز العنصرى فى مجتمع والصراع الطبقى فى مجتمع آخر آية على أن طابع الحيــاة المعاصرة كما يحمل التفوق فى التفكير ... كما يحمل التخلف فى إنسانية السلوك والمعاملة ؟

وإذا كان الملونون اليوم فى التمييز العنصرى موضوع استذلال للمتفوقين عليهم من البيض ، وإذا كان العمال اليدويون موضوع استغلال لمن هم أشد بأساً من رجال الصناعة ... فليس هناك ضمان فى الغد إذا أصبح هؤلاء العمال وأولئك الملونون ذوى قوة وسيادة : من أن يكونوا كذلك أصحاب تخلف فى إنسانية السلوك مع الآخرين؟.

وإذن السبب الرئيسى فى هذا الطابع المزدوج للحياة المعاصرة — وهو طابع التقدم الفــكرى والعلمى والصناعى .. مع التخلف فى إنسانية السلوك — ليس هو ذات التقدم فى هذه الجوانب بل هو فراغ هذه الحياة من «روح الإنسانية» وافتقارها إلى قوة أخرى تدفع هذه الحياة كذلك إلى الأمام بحيث يصبح الفرد فى سلوكه مع نفسه وغيره من المجتمع المتقدم فى علاقته بمجتمع آخر بعيداً عن مشاركة الحيوان فى الاعتداء على الآخرين بصورة أو بأخرى من أجل ملء المعدة والتلذذ بحرمان الآخرين ، وبحيث يصبح التقدم العلمى والتيكنولوجى خالصاً لخير البشرية وأمنها.

إن دعوة « الحرية » أو دعوة « السلام » أو ماشاكل ذلك مما يرمز لإيديولوجية معينة فى صراع المجتمعات المعاصرة وتنافس ، عن طريق التقدم الفــكرى على استغلال الضعيف بدلا من الجدية فى مصاحبته فى السير فى طريق

التطور والبناء . . هى من الشعارات التى تجذب ، ولكنها لاتحول - من جانب من يرددها فى هذا المجتمع أو ذاك — دون ممارسة التخلف فى إنسانية السلوك .

تقدم فكرى وعلمى وصناعى : فى حاجة ماسة إلى تقدم « روحى » ... فى حاجة إلى تقدم إنسانى فى السلوك والمعاملة ، حتى يمكن الإنسان أن يحيا حياة الإنسان .

والعدل البشرى فى المجتمع الإنسانى كله لايمكن أن يتحقق إلا إذا ساوق التقدم الروحى تقدم الفكر والعلم والصناعة . .

لايمكن أن يخفف من حدة الجوع والمرض فى العالم إلا إذا اتجه الفكر والعلم والصناعة إلى توفير الغذاء للإنسان وتوفير الوقاية الكافية من الأوبئة والأمراض المنتشرة . . وابتعد الفكر والصناعة بالقدرة : عن تدمير الحضارة الإنسانية وإبادة الجنس البشرى .

ويوم يؤمن هذا الإنسان الخلاق بالله — كما آمن بالفكر . . يوم يوفر تفكيره لمحض الخير .

إن الإنسان المعاصر آمن بشىء وكفر بشىء آخر فى خصائصه هو كإنسان : آمن بفكره ، وكفر بوجدانه . ولذا لم يساير وجدانه تفكيره . ويوم محى عنه الروحية أمات وجدانه ، وأصبح ينظر إلى الأفراد الآخرين كأجزاء فى مركب عضوى يتحرك بالدفع وليس بالإرادة أو بالأحاسيس والمشاعر الإنسانية المتبادلة .

« والروحية » التى نشير إليها هى مجموعة القيم الإنسانية الرفيعة التى يناجى بها الدين وجدان الإنسان ويدعوه إلى السمو فوق مستوى تبادل المنفعة المادية ومستوى التنازلات فى المعاملة الإنسانية . هى الدعوة إلى الإنفاق والبذل فى الرخاء والشدة على السواء ، هى الدعوة إلى الإعطاء أكثر من الأخذ ، وإلى التسامح والعفو عند القدرة ، وكظم الغيظ عند الإثارة ... هى الدعوة إلى الانسانية المهذبة ، وهى الإحسان فى المعاملة والسلوك .

« وَسَارِعوا إلى مَغفِرة مِنْ رَبكم ، وَجنَّة عَرْضها السَّمَوَات والأَرْض أُعدت للمتقين .

« الذِين يُنفِقون فِى السرَّاء والضرَّاء ،

« والكاظمين الغَيْظ ،

« والعَافين عَن النَّاس ،

« والله يحبُّ المحسنين .

« والذِين إذَا فَعلُوا فَاحِشَة أوْ ظلموا أنفسهم ذَكرُوا الله فَاستغفروا لِذُنوبهم ومن يَغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا عَلى مَا فَعلُوا وَهم يَعْلمون »(١).

على أن هذه الروحية ليست دعوة إلى السلبية فى الحياة ، وليست كذلك دعوة إلى الاستسلام للاعتداء ، ولا هى دعوة إلى عدم الأخذ بأسباب القوة المادية التى تقوم على الكشف والبحث والتجربة والتصنيع ، والتى من شأنها أن تعين على دفع الفقر والمرض والجهل .. كما ترد اعتداء المعتدى .

يقول القرآن الكريم : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ،

وأنزلنا معهم الكتاب ، والميزان ليقوم الناس بالقسط ،

« وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ،

« وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز »(٢).

فهذه الآية تقرن طلب الهداية وإقامة العدل بين الناس عن طريق كتاب الله بالكشف عن الحديد واستخدامه كمصدر للمنافع العديدة للبشر وقت سلامتهم وأمنهم ، كما هو مصدر القوة الرادعة عند دفع الاعتداء ورد الظلم .

وفى التعبير بـ «أنزلنا» فى هذه الآية : مرة فى جانب «الكتاب» ومرة أخرى فى جانب « الحديد » يشير إلى أن ذات القيمة التى يضعها القرآن على الحديد هى

(١) سورة آل عمران : ١٣٣ — ١٣٥ .

(٢) سورة الحديد : ٢٥ .

نفس القيمة التى يضعها على الكتاب : فهما ضروريان للأمة وللبشرية : فى إنسانية سلوكها ، وفى قوتها المادية على السواء .

ثم ماجاء فى ختام هذه الآية من قوله تعالى : « إن الله قوى عزيز » . . . يؤكد أهمية القوة والعزة والمنفعة فى حياة الأمة . فما هو من صفات الله : مطلوب من الإنسان أن يسعى لتحقيقه فى حياته فرداً وجماعة . فإذا وصف الله نفسه بالرحمة وبالشدة : «اعلموا أن الله شديد العقاب وإن الله غفور رحيم» ، فالمؤمنون على سبيل الحقيقة هم كذلك يجب أن يكونوا أشداء ورحماء فى الوقت نفسه «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

وليست الروحية كذلك عدم استمتاع بالحياة المادية . فالقرآن الكريم ينكر على من حرم متع هذه الحياة : تحريمه هذا بقوله : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة » . بل لم يكتف بالإنكار وطلب مع ذلك من الناس أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد : « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد .. » .

إن مالاتتفق معه « الروحية » حقاً هو استخدام القوة المادية للطغيان والاعتداء وإساءة استعمال متع هذه الحياة المادية فى الاثم وإثارة البغضاء بين الناس واستضعاف الضعفاء وإذلال أصحاب الحاجة . « قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق . . »

دعوة الروحية إذن هى دعوة إلى تقدم الانسان : فى إنسانية السلوك التى تجعل من الناس محسنين ومهذبين فى المعاملة ، ومتوادين ومتعاونين فى المجتمع . ثم إلى التقدم فى التفكير الذى يستتبع بدوره التقدم العلمى والصناعى والحضارى .

دعوة « الروحية » ليست دعوة إذن إلى «التخلف» ولا هى رجعية . بل هى الطريق إلى التقدم المصحوب بالأمن والسلام . والوقوف عند حد التقدم العلمى والصناعى وحده دون تقدم فى إنسانية الإنسانية الإنسان ومعاملته — هو فى واقع الأمر : طريق إلى الرجوع إلى الوراء .. الرجوع إلى حيوانية الحيوان فى الاعتداء من أجل نداء المعدة والفرج ، ولكن بصورة مدمرة ومخربة .

الفصل الثانى

- اثر الخشية من الله .
- قـــوة الايمـــان .
- آثار الضمير الدينى .
- الضـــمير الدينى واثـــره فى اداء الواجب .
- الضـــمير الدينى واثره فى اتقـــان العمـــل .
- الضمير الدينى واثره فى توجيه الشباب .
- التـــدين واثره فى المجتمع .
- الضـــمير الدينى واثـــره فى تـــكوين الأسرة كجماعـــة .
- الضمير الدينى واثره فى الاتحاد والشـــعور بالجماعة .

أثر الخشية من الله

الناس صنفان :

١ — إن الناس مهما كثر عددهم واختلفت أجناسهم وصفاتهم يتنوعون إلى نوعين : نوع يصدر فى معاملته لنفسه ولغيره عن رقابة نفسية بين جنبيه . وآية ذلك لا يؤذى نفسه ومن يتصل به من الناس ، إن أتى بعمل ما له أو لغيره . فإن كان عاملا أو صاحب وظيفة أتقن عمله وأدى وظيفته بأمانة . وإن كان تاجراً حرص على نصح من يتعامل معه . وإن كان ذا رسالة بين اثنين أو فى جماعة تحرى قصد الخير ووجه الله فى رسالته . فالعمل المتقن محل رضا للعامل والمنتفع به على السواء . والأمانة فى أداء الوظيفة وسيلة لدفع الضرر عن المصلحة العامة . والإخلاص فى نصح التاجر للمتعامل معه إبعاد له عن أثر الخديعة ونتائجها النفسية والمادية . وتحرى قصد الخير فى أداء الرسالة بين الناس تجنيب لهم عن احتكاك بعضهم ببعض .

التربية السليمة اساسها الخشية من الله :

هذه الرقابة النفسية الداخلية التى يصدر عنها الإنسان فى أعماله ومعاملته للناس — قد تكون وليدة التربية السليمة والتوجيه الحسن ، كما قد تكون ثمرة الخشية من الله تعالى . ولكنها إذا كانت ثمرة الخشية من الله تعالى ونتيجة لتقوى الله فإنها تكون أفعل فى النفس وأبقى على الأحوال كلها . لأن صاحب التربية السليمة والتوجيه الحسن قد تتغلب على عاداته طبيعته الإنسانية الأولى ، أو يسيطر على هذه العادات فى بعض أحواله شعوره القوى بتحقيق مصالحه ومنافعه الخاصة على حساب ما اعتاد من عمل متقن أو أمانة فى أداء وظيفته أو إخلاص فى النصح فى تجارته أو تحرى الخير فى رسالته بين أهله ومواطنيه ، فلا يؤدى عمله حينئذ كما كان يؤديه .

أما ذلك الذى يراقب الله ويخشاه سراً وعلانية فمن العسير أن يتخلف عما درج عليه فى معاملته لنفسه وغيره . لأن عظمة الله التى استقرت فى نفسه ومناجاته هذه العظمة فى صلواته الخمس كل يوم : لا تدع له مجالا للتغيير فى تصرفاته .

إن الإيمان بالله واليوم الآخر، وإقامة الصلاة : عاملان أساسيان فى إيقاظ معنى الخشية من الله فى نفس المؤمن. وقلما يدانى التوجيه الإنسانى هذه الخشية من الله فى قوة التأثير على عمل الإنسان : سواء فى كه أو نوعه . وهيهات أن يبقى هذا التوجيه على حاله من القوة مثل ما تبقى الخشية من الله ويطول أجلها ، وليس فى حالتها الأولى فحسب، بل ربما يصير أمرها إلى أن تتمحض آثارها ونتائجها إلى الخير.

٢ — أما النوع الثانى من النـاس فهو ذلك الذى يصدر فى معاملته لنفسه ولغيره عن معنى الاستهتار والاستخفاف . لا يهمه فى عمله أو فى أداء رسالته على العموم إلا أن يقتنص أكبر ربح مادى ، أو يحقق أبلغ لذة تهويه من وراء ما يأتى به من عمل أو تصرف . بل ربما يرى فى إلحاق الضرر بنفسه أو بغيره لذة ومتعة . وقد يتخذ من إضرار نفسه أو غيره حافزاً على العمل الذى يأتى به . فالعامل أو الصانع الذى يستخف بقيمة العمل فلا يجيده ، والموظف الذى يستهين برسالته عن طريق وظيفته فى حياة الجماعة فلا يخلص فى أدائها ، وكذا أمثالها فيما يأتون به من عمل فى ميادين أخرى فى الحياة — هؤلاء يضرون أنفسهم ويضرون غيرهم بسبب استهتارهم واستخفافهم بما يسمى بالمسؤولية الإنسانية .

هـذا الصنف من الناس ، وهو المستخف المستهتر — هو مصدر الفساد أو الضرر فى الجماعة . وتقويمه لا يكون من طريق فرض الرقابة الخارجية عليه وحدها ، أو من طريق التقنين الوضعى فحسب ، أو عن طريق أمثال هذه الوسائل الإنسانية . بل قبل ذلك يجب أن يكون للضمير الدينى مكانه بين وسائل تقويم هذا الصنف المستهتر من الناس .

والضمير الديني لا تؤثر في تكوينه العظة الدينية وحدها ، ولا ما يلقى من المعارف الأخلاقية ويشرح من القصص التهذيبي للناشئة في مراحل الدراسة المختلفة. وإنما المنزل .. وإنما سلوك الأسرة هو صاحب التأثير الأول في ذلك . والوالدة قبل الوالد هي إما صاحبة الفضل على ولدها وعلى وطنها بالتالي ، أو مصدر الجناية عليهما معاً .

٣ — والصوم في رمضان وسيلة من وسائل تربية الضمير الديني ، وأمارة قوية على وجود الخشية من الله في نفس الصائم . فالله في قوته وجبروته وفي رحمته وعدل جزائه يتمثل للصائم في كل لحظة من لحظات صومه . وأوضح ما يتجلى له في حال الأزمات النفسية التي تعترضه وقت إمساكه ولأجل شهوة بدنية .

٤ — هل نريد أن ننجح في كل خطوة من خطواتنا في الحياة ؟ هل نحرص على أن نوفر لأنفسنا الطمأنينة ولوطننا الرفعة ؟ إذا كنا نريد ونحرص على ذلك فعلينا أن نخشى الله ونراقبه دائماً في أفعالنا وأعمالنا .

إني لأعجب ! كيف يلوم الفاشل في الحياة: القدر ويحمله مسؤولية فشله ؟ وأعجب كذلك كيف تلوم الأمة المستعمرة الاستعمار وتنسب إليه التخلف في جوانب حياتها الاقتصادية ، والثقافية ، والأخلاقية ، والصحية ... ؟ .

إن فشل الإنسان في حياته يرجع إلى نوع عمله في الحياة . وليس هناك عمل مثمر منتج في الحياة إلا وقد صدر عن خشية الله فيه .

وإن انحطاط الشعوب في مستواها في الحياة يعود أكثر ما يعود إلى ضعف نفوس الأفراد . وما ضعفت نفوس آمنت بالله واتقته حق تقاه . وما استعمرت أمم وثقت بالله واتجهت إليه في مصائرها وراقبته في أعمالها .

قوة الإيمـــان

عن أنس رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم . قال :

« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان :
١ — ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما ،
٢ — وان يحب المرء لا يحبه الا لله ،
٣ — وان يكره أن يعود فى الكفر كما يكره ان يقذف فى النار » .

(أ) فإن إيمان المرء بالله جل جلاله وبرسوله صلى الله عليه وسلم إذا وصل به إلى أن يفضلهما على غيرهما فى الوجود .. إلى أن يفضلهما على نفسه وولده وماله وزينة الدنيا ومفاخرها ، وذلك بأن يؤثر طاعتهما على طاعة غيرهما وبالأخص على طاعة نفسه ، ويقدم العمل بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم على مايوحى به هوى نفسه — إذا وصلت درجة إيمان المرء بالله ورسوله إلى هذا الحد فإنه لاشك مدرك لذة روحية فى إيمانه هذا ، وفيما يأتى به من عمل نتيجة لهذا الإيمان . وهذه الحال النفسية للمؤمن لاتعرض إلا لمن قوى إيمانه بما آمن به حتى يملك عليه نفسه. فصاحب الإيمـان القوى لاتتحكم ذاته عادة فى تصرفاته ، وليس لها فى نفسه كيان مستقل يحرص على استقلاله ، بل قوة إيمانه تدفعه إلى أن يكون مستجيباً لما آمن به . وعندئذ يكون سروره النفسى لا فى أغراضه الخاصة التى توحى بهـا ذاته ، بل فى سلوكه طريق العمل الذى حدده له إيمانه .

إن المؤمن القوى ، وهو الذى يحب الله ورسوله أكثر من حبه لـما سواهما ، يتجلى حبه لهما على هذا النحو فى أن تكون عنده كلمة الله دائماً هى العليا ، سواء فى الاعتقاد والعمل . وهو بهـذا قوة منتجة فى الحياة ، وهو مع هذا صاحب النفس المطمئنة الراضية فى هذه الحياة الدنيا .

وكلمة الله هى التى تتمثل فى أوامره ونواهيه ، وهى السبيل لخير الناس جميعاً ، لا لخير أفراد معينين ولا لطائفة دون أخرى .

(ب) وإذا وصل إيمان المؤمن كذلك إلى أنه إذا أحب غيره لله حباً خالصاً دون أن يكون لذات المرء المحبوب أو لأفعاله أو لما ينتظر ويترقب منه أثر فى هذا الحب — كانت هذه الحال عنده أيضاً أمارة من أمارات متعته بالإيمان ، ودليلا من وجه آخر على أن الإيمان — وحده لا غيره — هو الذى يملأ فراغ قلبه ونفسه .

وحب الإنسان غيره لله إنما يتمحض لله وحده إذا كان المحبوب نفسه مؤثراً لله ورسوله على كل ماعداهما فى الوجود : عمله لله ووفق ماجاء به رسوله الكريم . فهو حب فى واقع الأمر لله ولرسوله ، ومظهر من مظاهر الإيمان القوى بهما .

(ج) والمؤمن كذلك إذا كره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار — كان ذلك منه أيضاً دليلا على قوة إيمانه بالله وبرسوله: إذ الكفر يمثل الفساد فى جوانب الحياة الإنسانية المختلفة ، فى العقيدة والسلوك والعمل . والإيمان بالله ورسوله يمثل من جانب آخر حياة الطهر والنقاء والعمل الصالح لخير الفرد وجماعته . فإذا تعلق المؤمن بهذه الحياة النقية الصالحة وتمسك بالبقاء فيها، وكره أن يعود إلى اللون الآخر من الحياة وهو اللون القاتم الذى يشوه جمال العقل البشرى ويسىء إلى الإنسان فى حياته الخاصة والعامة ، ويجعل منه مثلا آخر للحيوان فى تصرفاته .. يكره أن يعود إلى هذا اللون كما يكره أن يرمى به فى النار — كان ذلك آية أخرى على أنه متذوق حلاوة الإيمان ، وراغب فيما آمن به رغبة أكيدة أساسها الطمأنينة النفسية لما صدق به . والطمأنينة النفسية تكاد تكون هى سعادة الانسان ومصدر مسراته الحقيقية .

* * *

وهذا الحديث النبوى الكريم يريد أن يوضح لنا حالة من حالات الايمان بالله جل وعلا وبرسوله صلوات الله عليه وسلامه ، ويكشف عن مرتبة عليا من مراتبه ، وهى : تعلق المؤمن بالمثل العليا والقيم الرفيعة فى هذا الوجود ، وهى تلك التى يمثلها الوحى الإلهى وتحددها رسالته عليه أفضل الصلاة والسلام . فهى كل شىء ، وليس وراءها شىء آخر فى نظره : ليس أمامه إلا الله ورسولة ، يحبهما دون سواهما ، ولو أحب إنساناً آخر فلله وفى سبيل الله ، لايرضى بديلا آخر عنهما ، بل ليكره كرهاً شديداً أن يتحول عنهما إلى ما كان عليه فى ماضيه .

ومن غير شك ، هذه المرتبة من الإيمان مطلوبة لصالح الجماعة وصالح الأفراد . ومن سعادة الجماعة وسعادة الأفراد ألا يدركوا فحسب فرقاً بين حياة الفساد والعبث وحياة الجد والخير والمثل العليا ، وألا يؤمنوا فقط بهذا الفرق وينحازوا بالنية والقصد إلى جانب الحياة الثانية ، بل الخير فى أن يتعلقوا بهذه الحياة الجديدة الثانية ، وأن يكرهوا كرهاً شديداً أن يعودوا إلى حياتهم السابقة ، وهى الحياة العابثة الفاسدة المرذولة . الخير كل الخير فى أن تطيب نفوسهم بهذه الحياة الجديدة وهى الحيـة النظيفة النقية بعد إيمانهم بها . ولا تطيب نفوسهم إلا إذا كانوا أقوياء الإيمان بها ، حريصين عليها متمسكين بما فيها من مثل وقيم ومبادىء ، ضاربين بسلوكهم الشخصى : المثل لهذه القيم والمبادىء .

آثار الضمير الدينى

عن عمر رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : **« ان من عباد الله ناساً ما هم بانبياء ولا شهداء ، يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى ، قالوا يا رسول الله فخبّرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير ارحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى نور ، لا يخافون اذا خاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس ،** . ثم تلا قوله تعالى : ألا إنّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون » .

هذا الحديث الشريف يصور حال المؤمن الذى امتلأ قلبه بالإيمان بالله حتى لا يصدر فى فعل من أفعاله إلا عن هذا الإيمان بالله ، ولا يتجه فى سلوكه أو معاملاته إلا لله . إن أحب ففى سبيل الله ، لا لعلاقة نسب أو قرابة ، وإذ ارتبط بصلة مع غيره كان باعثها الله ، ولم يكن مبعثها أموال أو منافع دنيوية يتبادلها معه.

إنه بقوة إيمانه ، ولامتلاء قلبه بالإيمان مشرق الوجه وصافى الطبيعة حتى ليبدو من شدة إشراقه وصفائه أنه نور نفسه . إنه لقوة إيمانه لا يخاف إذا خاف الناس ، ولا يحزن إذا حزن الناس ، لأن إيمانه بالله يدفعه إلى أن يعتقد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه . ولأن إيمانه بالله يجعله غير حريص على ما فى يد نفسه أكثر من حرصه على ما فى يدى الله .

حال هذا المؤمن هى حال يغبطه عليها الأنبياء والشهداء . لأن مكانه من الله سبحانه مكان المقرب منه ، المرضى عنه ، المكرم فى جناته .

نوعان من الناس :

نرى فى حياتنا ، وفى معاملة بعضنا بعضاً نوعين من الناس :

(أ) نوع يشعر فى قرارة نفسه بأن فوقه قوة عليا هى الله سبحانه وتعالى

تدين الكون كله ، وتحدد مصائر الناس فى هذه الحياة وفى الحياة الآخرة ، هى قوة مرهوبة الجانب ، ومع ذلك هى موضع أمل الانسان فى دنياه وآخرته لأنه يذكر قوله تعالى : «ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله المصير»(١) .. «واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه ، واعلموا أن الله غفور حليم»(٢) .. « ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون »(٣) .. « وخافون إن كنتم مؤمنين » ..

موقف هذا النوع من المولى جلت قدرته أن يكون فى فعله ومعاملاته متأثراً بهذا الشعور العميق فى نفسه . ففعله ومعاملاته تأتى طبقاً للأوامر والنواهى التى تتكون منها رسالة الله للمصطفى صلى الله عليه وسلم : يخشى ربه فلا يقدم على إساءة لنفسه وغيره ، ويؤمل فى عدل الله ورحمته إن أحسن لنفسه وغيره .

(ب) ونوع آخر يقابل هذا النوع تماماً ، وعلى الضد منه فى شعوره النفسى : لايعترف بقوة الخالق ، ولا يداخل نفسه إحساس بوجوده وعظمته ، ولا ينطوى قلبه على أثر من آثار الإيمان بالله . يقر بدنياه فقط ، وبوجوده الذى يعيش فيه ، وتصور له نفسه أنه هو وحده صاحب الأمر فيه ، وليس هناك معقب على تصرفه ولا رقيب على سلوكه ، ولا مجاز على فعله . إن تصرف فعلى حسب مايهوى ، وإن فعل فتنفيذاً لما يريد . ويسخر بالقول أو بالفعل من الحديث عن الدار الآخرة وما يقع فيها من بعث وجزاء . وينظر نظرة المستخف إلى من يذكر له حقوق الآخرين فى جماعته ، وحرمات الآخرين فى أموالهم وأعراضهم ..وفضائل السلوك والأخلاق .

صاحب الشعور الأول تكون فى نفسه ضمير دينى أو وعى دينى ويقظة قلبية ،

---

(١) آل عمران : ٢٨ (٢) البقرة : ٢٣٥
(٣) الأعراف : ١٥٦

أى إحساس دينى داخلى يدفعه إلى العمل حسبما جاء فى رسالة الله سبحانه وتعالى من أوامر ونواهى . هذا الإنسان هو صاحب الضمير الدينى . استقر فى نفسه الإيمان بالله واستقرت فيها الخشية منه ، والأمل فيه ، وانطبع ذلك فى تصرفاته وأفعاله ، وسلوكه على العموم . آمن بالله فخشيه وأمل فيه ، لايضطرب بعد ذلك ولا ينزعج فى حياته ، لأنه لم يعد لديه سبيل للاضطراب . خشيته من الله نتيجته عدم الانحراف فى الاعتقاد والعمل ، وأمله فى الله سيدفعه إلى المثابرة والسير فى الحياة ، دون أن تكون للأحداث التى تصيبه أثراً سلبياً على مثابرته وسيره . إنه الآن صاحب نفس راضية مطمئنة .

أما ذلك الإنسان الذى لم يخالط قلبه إيمان بالله ، فتولى عن ذكر الله ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا — هذا الإنسان فقد الضمير الدينى .

إن فعل ذكر فيما يفعله نفسه فقط ونسى ربه ، ومن يذكر نفسه وينسى ربه فيما يفعل ينسى الناس جميعاً كذلك . لأن الله فيما يأمر وينهى يبتغى مصلحة الناس كافة . وحتماً من ينسى الله ينسى أوامره ونواهيه . هذا الإنسان خلت نفسه من تلك القوة الدافعة الموجهة له فى حياته طبقاً للرسالة الإلهية ، واستبدت به قوة أخرى فى التوجيه ، هى قوة النفس الخاصة . وهى عندئذ النفس الأمارة بالسوء . لأنها تدفعه إلى مايحصل لها المتعة والترويح ، ولو على حساب الآخرين : فى أبدانهم ، أو أموالهم ، أو حرماتهم ، أو أعراضهم . والضمير الدينى إذن يقوم على الإيمان بالله ، والخشية ، والأمل فيه .

أما آثار هذا على العموم فهى :

١ — الرضاء والاطمئنان بما يقع من أحداث فى محيط الإنسان .

٢ — ومحاسبة الإنسان نفسه بالعمل . وهذه المحاسبة يترتب عليها إتقان العمل

من جانب ، وأداء مايجب على الإنسان أداؤه — دون رقابة خارجية — من جانب آخر .

٣ — وعدم اليأس عند الصدمات ، والاستمرار فى السير فى الحياة بروح الأمل المشرقة .

٤ — ثم عدم تهيب الحياة ، وعدم الخوف من أخطارها .

إن هذه الآثار بدورها هى عوامل النجاح فى الحياة ، فى كل طور من أطوار حياة الإنسان ، وفى كل طبقة من طبقات الجماعة ، لأنها عوامل القوة . والقوة سر النجاح فى الحياة دائماً .

إن الذى لاينزعج بالأزمات قوى ،

والذى لايخاف مخاطرة الحياة قوى ،

والذى يؤدى الواجب عليه من ذاته قوى على هوى نفسه وأمام غيره :

إن الشباب فى حاجة إلى تكوين الضمير الدينى وإيقاظه فى نفسه حتى يقوى على دفع الأخطار التى تواجهه فى مرحلة المراهقة ، وهى أخطار كثيراً مايقع الشباب تحت تأثيرها ، وينزعون إلى السلبية الهدامة فى حياتهم . لم يتخلف باحث نفسى ولا تربوى عن الإقرار بأن التدين فى حياة المراهق كفيل بتوجيهه التوجيه الصحيح : فى مدرسته ، وفى سلوكه الشخصى والجماعى ..

إن العامل فى حاجة إلى تكوين الضمير الدينى وإيقاظه فى نفسه حتى يساهم مساهمة إيجابية فى إنتاجه سواء فى مقدار هذا الإنتاج أو نوعه . وليس هناك وراء الضمير الدينى فى حياة العامل مايحفزه على إتقان العمل ، وأداء الواجب دون رقابة عليه من غيره ، أكثر من هذا الضمير . قد تكون للدربة أثر ، وقد يكون للوعى القومى أثر ، ولكن هذا الضمير عامل مستمر لاينقطع فى أن يتقن العامل عمله ويؤدى واجبه ، دون انتظار لتفتيش عليه .

إن حارس الوطن لكى لايتهيب أخطار الدفاع عن الوطن ورد الاعتداء عليه في حاجة إلى أن يكون عنده هذا الضمير الدينى ، فهو عدته الروحية بجانب عتاده المادى .

إن الجهاز الحكومى لايثمر ثمرته الإيجابية إلا إذا كان القائمون به من الموظفين يخشون الله فى أعمالهم ، ويؤملون فى جزائه الأخروى على ماتحملوا من صعاب أو لاقوا من مشقة فى سبيل مواطنيهم وأمتهم .

لاتستطيع المعرفة ولا الثقافة ولا تستطيع المدرسة ولا تجارب الحياة وحدها : أن تزود الإنسان بقوة تكفل له النجاح فى حياته ، وحياة جماعته مثل ماتكفل له هذه القوة الضمير الدينى الذى أساسه الإيمان بالله والخشية منه ، والأمل فيه — إنه هو الذى يحول علاقة الناس بعضهم ببعض إلى محبة خالصة لاتقوم على أرحام بينهم ولا على أموال يتعاطونها، وأنه هو الذى يجنبهم الخوف إذا خاف الناس، والحزن إذا حزن الناس . وذلك مالم تصل إليه ثقافة ولا توجيه إنسانى بعد .

الضمير الديني واثره في اداء الواجب

صنع المعروف يجلب طمانينة النفس :

روى على بن الحسين عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **اصنع المعروف فى اهله وفى غير اهله فان اصبت اهله فهو اهله وان لم تصب اهله فانت من اهله** » .

يطالب هذا الحديث النبوى الشريف ممن آمن بالله ورسوله أن يصنع المعروف وهو مايجب أداؤه — حباً فى ذات المعروف لا إرضاء لمن يصنع له ولا ترقباً لجزائهم وثنائهم . لأن صانع المعروف على هذا النحو كافيه اطمئنان نفسه بما صنع . فهو مطمئن النفس إن أصاب عمله هذا من يستحقه ، ومطمئن النفس إن أصاب هذا العمل من لا يستحقه . لأنه عندئذ قد أرضى ضميره ودلل على أنه نفسه من أهل المعروف : « فإن أصبت أهله فهو أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله » . فى كلتا الحالتين هو مطمئن النفس مستريح الضمير لما قام به من أداء المعروف والواجب لذات المعروف والواجب . ثم هو بعد ذلك له الجزاء الأوفى فى آخرته . « وأمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ ونَهَى النَّفسَ عَنِ الهوَى . فإنَّ الجَنَّةَ هِيَ المأوَى[1] » .. والذى يصنع الواجب غير مراع الناس من يستحقه منهم ، ومن لا يستحقه : قد راعى الله فيما صنع وتحكم فى هوى نفسه وشهوته .

الحياة واجبات وحقوق متبادلة :

إذ الواجب هو مايجب على الإنسان أن يعمله نحو نفسه ، أو نحو غيره : فالجار عليه واجب نحو جاره . والعامل عليه واجب نحو صاحب العمل ، وصاحب المال

---

(١) النازعات : ٤٠ ، ٤١

عليه واجب نحو العامل . والتاجر عليه واجب نحو عميله ، والعميل عليه واجب نحو تاجره . والمعلم عليه واجب نحو تلاميذه ، والتلاميذ عليهم واجب نحو معلمهم. والموظف عليه واجب نحو جمهور الناس ، وجمهور الناس عليه واجب نحو الموظف . والآباء عليهم واجب نحو أبنائهم ، والأبناء عليهم واجب نحو آبائهم . وذوو الأرحام عليهم واجب نحو أرحامهم . والمواطنون عليهم واجب نحو وطنهم وأمتهم . والمؤمنون جميعاً عليهم واجب نحو خالقهم وخالق الكل .

هذه كلها واجبات لكل واجب منها حدود ومعالم . وكلها ترجع إلى واجب الإنسان نحو نفسه وغيره . وإذا سلك فيها الإنسان ما رسمه الإسلام فى رسالته ، وجعله هداية المؤمنين : يكون قد أدى الواجب نحو نفسه ، ونحو غيره ونحو خالقه .

الواجب دائرته الصالح العام :

أما حدود الواجب فهى حدود الصالح العام : من يتلمس حدود الصالح العام فى تصرفه نحو نفسه يكون قد تلمس حدود الواجب ، ومن يبتغى الصالح العام فى سلوكه مع غيره يكون قد ابتغى أداء الواجب . ولهذا قد يتعارض الواجب مع المنفعة الشخصية : يتعارض البذل فى سبيل المجموع مع حرص النفس على المال لهدف شخصى . وتتعارض العفة والعفاف مع الرغبة فى تحصيل المتعة الخاصة . ويتعارض إيثار الغير مع الأثرة الذاتية . وتتعارض التضحية فى سبيل الوطن مع الحرص على الحياة الفردية .

وأداء الواجب يقوم على تحمل المشقة دائماً فى سبيل أدائه . وكلما زادت المشقة فى سبيل أدائه كلما كان أثر هذا الواجب فى تحقيق الصالح العام أوسع وأوضح .

أداء الواجب ليس هو أداء العمل من أى نوع ، وعلى أى نحو . أداء

الواجب هو أداء عمل معين ، هو أداء ذلك العمل الذى يكون له أثره فى خير المجموع وخدمة الغير :

إن ترفقت بالضعيف أديت واجباً ،

وإن منعت الإيذاء والضرر عن الجار أديت واجباً ،

وإن راعيت حق من لك به صلة فى العمل أديت واجباً ،

وإن منعت الخداع فى معاملة من تبيع له وتشترى منه أديت واجباً ،

وإن منعت عن نفسك الضرر ولم تسترسل فيما تهوى أديت واجباً ،

وإن صنعت كل ذلك وخشيت الله فيه أديت واجباً هو واجبك نحو الله .

الواجب أن تعمل لترضى الله وترضى ضميرك كإنسان مساهم فى خير الجماعة .

الواجب أن ترقب الله فى أدائك إياه .

وليس من أداء الواجب أن تعمل فى ظل رقابة الغير ، أو فى سبيل هوى النفس .

الواجب والضمير الديني:

وصاحب الضمير الدينى — وهو من يرقب الله فى العمل — يستغنى إذن عن إشراف الغير عليه ، ويستغنى كذلك عن مغالبة هوى نفسه وشهواتها فى أداء ما يجب عليه إداؤه ، سواء نحو نفسه أو غيره . لأنه انتقل فيما يعمل من خشية الناس إلى خشية الله ، ومن رضاء نفسه إلى رضاء الله . والله دائم معه ، فالخشية منه باقية ، والرغبة فى إرضائه متوفرة ومستمرة .

الواجب والحياة الواقعية :

وقد يرى بعض الناس أن أداء الواجب يتطلب حرمان النفس من بعض المنافع الخاصة أو بعض المتع الشخصية . والواجب لذلك أمر مثالى فى نظره . وأولى

بالإنسان ـ فى نظره ـ أن يكون واقعياً يستمتع بالحياة ما وسعه الاستمتاع بها ، ويستغل فرصها ما أمكنه استغلالها، ويؤدى من العمل ما يتكافأ مع الأجر الذى يتناوله: فلاغضاضة على المدرس فى فصله ، والطبيب فى مستشفاه ، والموظف فى مكتبه ، والعامل مصنعه أو حقله: أن يؤدى من العمل ما يبرر به فقط انتسابه إلى الوظيفة التى يؤجر عليها، طالما لا يكافأ عليها فى سعة حسب تقديره .وسواء بعد ذلك أثمر عمله الذى أداه أم لم يثمر ، وسواء اقترب به من الصالح العام أم لم يقترب . سواء تثقفت التلاميذ أم لم يتثقفوا ، وصحت المرضى أم لم يصحوا ، ونجح صاحب العمل أم لم ينجح ، وقضيت مصالح الناس فى دواوين الحكومة أم لم تقض .

صاحب هذا الرأى يبيح للناس أن يكونوا واقعيين ، على معنى أن يرعوا مصلحتهم الشخصية فحسب ، يلتقطون المنفعة من هنا وهناك كما تلتقط الطيور حبات الأكل التى توجد فى مجالها الذى تتحرك فيه ، غير سائلة عن من يملك هذه الحبات إن كانت لصاحبها أم لسواه ، وعما إذا كان لها أن تأكل منها أو تتركها .

صاحب هذا الرأى ينزل بالإنسان درجة دونه ، بدلا من أن يحافظ على أن يبقى إنساناً ، ويتطور كإنسان ، ويصل إلى ذلك المخلوق الذى تميز عما عداه بقوة الإدراك ، وبإمكان الفصل فى الحياة بين نافع وضار وإحسان وإساءة .

مستوى الأمة مرتبط بأداء الواجب :

وعلى أداء الواجب وحده يتوقف ارتفاع مستوى الأمة فى حياتها : يتوقف عليه ارتفاع مستواها فى الخلق ، وفى المعرفة ، وفى الفن ، وفى الحضارة ، وفى المعيشة .

إذ معنى كل إنسان فى الأمة يؤدى واجبه : أن هناك إنتاجاً وأن هناك تقدماً مستمراً فى الإنتاج . معنى ذلك أيضاً أن هناك تضحية فى سبيل المجموع ، وأن هناك عملاً يبذل فى سبيل الصالح العام . معنى ذلك أخيراً أن الشعور بالمجموع أصبح

أقوى من الشعور بنفس الفرد ، وأن حاجة المجموع أصبحت تعلو حاجة الفرد الخاصة .

لم تتقدم أمة من الأمم ولم تسد فى مجالات الحياة كلها فى شىء إلا كان تقدمها ، وكانت سيادتها رهناً بأداء أفرادها الواجب . كان المسلمون أصحاب سيادة ، وقوة يوم أن كانوا يدركون الواجب ويؤدونه بنفس مطمئنة .

ولا سبيل لأداء الواجب بنفس مطمئنة إلا إذا سبقه بنفس الإنسان شعور بالخشية من الله وقيام ضمير دينى :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » ...

الضمير الديني وأثره في إتقان العمل

يروى عن الرسـول ﷺ : **((ان الله يحب من احدكم اذا عمل عملا ان يتقنه))** .

ينصح الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يتقن الإنسان عمله إذا باشر عملاً من الأعمال . ويبدى هذه النصيحة فى صورة أن ذلك محبوب لله ، ومما يتقرب به العبد لربه . لأن مايحبه الله ورضاه إذا أتى به المرء تقرب به إلى الله جل جلاله .

كل عمل يباشره الإنسان مطلوب منه أن يتقنه ، إذا حرص الإنسـان على رضاء الله وقبول الله لعمله :

١ — فى العبادة مطلوب من الإنسان أن يؤديها على نحو يـكفل الهـدف المرجو منها . فتأدية الصلاة مثلاً ليست تأدية الركوع والسجود على الوجه المعروف. بل لاتؤدى إلا إذا أثمرت البعد عن الفحشاء والمنكر : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْـكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ[1] .. » .. ولهذا يروى مسلم عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس أنه يقول : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجـد وحبـل ممـدود بين ساريتين ، فقال : **ما هـذا ؟ قالوا : حبـل نتكىء عليه ... قال : حلوه ! ليصـل احدكم نشاطه فاذا كسل او فتر قعد))** . ويروى مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : **((اذا قام احدكم من الليل فاستعجم القـرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضطجع))** . فحرص الرسول عليه الصلاة والسلام أن تؤدى الصلاة فى وقت نشاط الإنسان ويقظته حتى يكون على ذكر من الله إذا وقف بين يديه ، وأعان عن عدم رضائه عن تأديتها

---

(١) العنكبوت : ٤٥

فى حال كسل الإنسان أو غفوته . لأن تأديتها عندئذ لا تحقق الغاية منها .

وفى الصدقة لاتؤدى فى أية صورة ما ، بل فى صورة واحدة وهى أن يشعر المتصدق عليه بأن صاحب الصدقة قد حفظ عليه كرامته كإنسان فلم يؤذه عندما تصدق عليه بنظرة الصغار والاحتقار إليه ، أو بنابى القول أو نحو ذلك : « قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذىً [1] » . وعندما أوصى رسول الله ﷺ بأن يد الإنسان اليسرى لا ينبغى أن تعلم ما أعطته يده اليمنى قصد إلى إخفاء أمر الصدقة وعدم إشعار الإنسان المتصدق نفسه بأنه تصدق حتى يحفظ على المتصدق عليه آدميته وإنسانيته . هذا مثل فى إتقان العمل فى العبادة .

٢ — وفى الصناعة مطلوب من الصانع إذا كان حريصاً على رضاء الله ومحبته أن يتقن عمله فيما يصنع ، يعنى بنوعه وجودته قبل العناية بكمه وكثرته . إذ إتقانه وسيلة لترويج ما يصنع ، وأبقى على دوام العمل لمن يعمل .

٣ — وفى التجارة مطلوب من التاجر كتاجر أن يتقن عمله ، وليس ذلك بأن يقوم بالمبادلة على أية صورة ، بل على الصورة التى ينتفى فيها الخداع والمكر السىء .

٤ — وفى التثقيف ، وفى التطبيب .. إلى غير ذلك من الأعمال : مطلوب من المثقف والطبيب والموجه والمرشد أن يتقن كل منهم عمله بأن يقوم به على نحو يحقق فائدته . يثقف للمعرفة ، ويطبب للتداوى ، ويوجه للتنوير والارشاد . ولا يتم ذلك كله إلا إذا عمل المثقف على إفهام من يثقفه ، والطبيب على إنقاذ من يمرضه ، والموجه على هداية من يوجهه .

إتقان العمل فى جملته يقوم على نفى الخداع فى المعاملة ، ووسيلة لترويج مايصنع أوينتج إنتاجاً مادياً ، وطريق لإيجابية العمل إن كان يتصل بالقيم والتوجيه الإنسانى .

---

(١) البقرة : ٢٦٣

إن الإسلام إذ يعنى بإتقان العمل ويدعو إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويفرق القرآن بين عمل مثمر وعمل غير مثمر فى مثل قوله تعالى : « أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى ، أمن يمشى سوياً على صراط مستقيم[1] » .. الإسلام إذ يعنى بذلك : يعنى بنوع العمل قبل كمه ، وبجودته قبل كثرته ، وبإيجابيته وثمرته فى الحياة قبل ضخامته :

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يارسول الله ؟ قال : لا ، بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل » .

فالرسول عليه الصلاة والسلام يرى قوة الأمة فى نوعها : فى تربيتها .. فى توجيهها .. فى صحة أبدان أبنائها . . وفى سلامة تربيتهم وتوجيههم . ولم ير هذه القوة فى ، كمها وعددها ، وكثرتها .

إتقان العمل من المباشر له أمارة على رشده وصحة فهمه للحياة . والإسلام يقصد بالحث على إتقان العمل أن يدل الناس على الرشد الإنسانى وصحة فهم الحياة :

الطفل ، وليس الرشيد هو الذى يفرح بالكثرة ، لأنه لم يعرف بعد قيمة النوع والجودة .

إن إتقان العمل يساوى الصدق فى القول . كلاهما يبعد الخداع وكلاهما يوصل إلى النجاح الدائم ، وكلاهما أمارة الإنسان المهذب الرشيد .

أما الذى يراقب الله فى العمل ويخشى جزاءه فى الآخرة ، ويرغب فى لقائه والتنعم برضاه بعد البعث — فله من مراقبة الله وخشيته والرغبة فى لقائه دافع إلى إتقان العمل بالإضافة إلى الجد فى قيمة إنتاجه . لأنه على ذكر دائماً من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام فى ذلك . ومما ذكره الله فى كتابه الكريم .

صاحب الضمير الدينى إذن مدفوع من ضميره إلى إتقان العمل وإجادته .

---

(١) الملك : ٢٢

الضمير الديني وأثره في توجيه الشباب

يروى عن سعد بن هشام أنه قال: دخلت على عائشة رضى الله عنها فسألتها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: أما تقرأ القرآن ؟ قلت بلى ، قالت كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن .

إن الإنسان منذ ولادته إلى شيخوخته له أطوار ثلاثة :

(أ) طور الطفولة المبكرة والمتأخرة ، وهو من الولادة إلى سن الثانية عشرة .

(ب) وطور الشباب أو المراهقة ، وهو من الثالثة عشرة إلى العشرين أو بعدها بقليل .

(ج) وطور الرشد الإنساني ، وهو من سن الحادية والعشرين إلى الشيخوخة .

وطور الشباب إذن هو المرحلة الوسطى بين طفولة الإنسان من جانب ورشده العقلي والنفسي من جانب آخر . هو مرحلة الانتقال التي ينتقل فيها الإنسان الصغير إلى حال الإنسان الكبير . ولأن الشباب يمثل المرحلة الوسطى ،أو لأنه هو يمثل مرحلة الانتقال: كان تصرف الشباب يعبر مرة عن تصرف الطفل ، ومرة أخرى يتسم بطابع تصرف الرشيد . تصرف الشباب خليط ، ليس هو بتصرف الطفل على الإطلاق ، ولا بتصرف الرشيد على الاطلاق .

يريد أن يكون إنسانا كبيراً . فالذكر الشاب يريد أن يكون رجلا في مشيته وفي حديثه، وفي مظهره، وفي علاقته بغيره ، وفي تعبيره عن أمانيه . والأنثى الشابة تريد أن تكون امرأة في زينتها ومظهرها، وفي حديثها مع أخيها أو أبيها في الأسرة ، وفي صلاتها بواجبها وفي رفضها كل مايقلل من شأنها كامرأة مكتملة .

ومع ذلك فالشاب ذكرا أو أنثى سريع البكاء ، كثير التدلل ، شديد الحب لنفسه، حريص على اللعب على نحو ما يلعب الأطفال ، كثير الضحك ، قليل الجد .

الشاب يود أن يكون كبيراً ، ولكنه يأتى بما يأتى به الأطفال من تصرفات.

الشاب يود أن يسير إلى الأمام نحو الرشد، ولكنة قد يدفع إلى أن يرجع إلى الوراء نحو الطفولة .

ومن هنا كانت مرحلة الشباب مرحلة معقدة ، وكان دور الموجه إياه دوراً ليس من السهل القيام به وليس من السهل تأديته حق الأداء .

والتوجيه السليم للشباب هو التوجيه الذى يسير به إلى الأمام نحو الرشد ونحو الإنسان الكبير ، ويحميه من النكسة والرجوع إلى الوراء : نحو الطفولة فى دورها المتأخر أو المبكر .

والضمير الدينى فى مرحلة الشباب عامل رئيسى فى دفع الشباب نحو الأمام ، وفى خلق شخصية الإنسان الرشيد فيه ، وفى إبعاده عن أن يبقى طفلا فى عقله ونفسه ، وخلقه ، وسلوكه ، وأن يعيش كما يعيش الأطفال فى دور الطفولة الطبيعى .

الضمير الدينى سيوجه الشباب نحو الله ، نحو الموجود الكامل فى قدرته مالك السموات والأرض ، مدبر الأمر كله . سيوجه الشباب إلى رسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم وما فيها من هداية تصور الطريق المستقيم للإنسان فى حياته .

وإذ يتوجه الشاب إلى الله تعالى يتوجه فى واقع الأمر نحو مثل أعلى فى الوجود . وعندئذ يتصور الحياة على أنها ليست اللعب ، والدلال ، أو البكاء ، والضحك ومطاوعة النفس وشهوتها ، بل على أنها طريق إلى السمو ، وأنها سبيل إلى رضاء الله الخالق القادر .

وإذ يتوجه الشاب إلى رسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم يتجه إليها: لا على أنها شيء يحفظ ويتلى ، أو شيء يستمتع به على نحو ما يستمتع بكتاب رفيع فى أدبه وأسلوبه ، بل على أنها تحديد عملى للسبيل الى الله وإلى رضائه .

رسالة الإسلام هى رسالة الإنسان الرشيد ، هى الرسالة التى تنقل الإنسان بتعاليمها من طفولته العقلية إلى الرشد النفسى والنضوج العقلى والروحى : « واعلموا أنَّ فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتّم ولكنَّ الله حبَّبَ إليكم الإيمان وزيَّنه فى قلوبكم ، وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الرّاشدون [1] » :

يصلى لكى يكون دائما على ذكر الله تعالى فيبتعد عما يكره الله لعبده وما لا يحب أن يكون بين عباده . ويؤدى بقية الفرائض من صوم وزكاة وغيرها ، كى يحول بين نفسه وبين أن تتحول إلى الطفولة وتعود للسير فى مجالها . فالصوم لا يؤديه إلا من قدر على ضبط نفسه وتحكم فى هواه ، وذلك شأن الرشيد من الإنسان . والزكاة لا يعطيها إلا من وقف ضد طغيان الأنانية فى نفسه . وذلك أيضاً شأن الرشيد من الإنسان . أما الطفل من الإنسان فأخص صفاته أنه لا يستطيع أن يكبح جماح نفسه ، كما لا يستطيع أن يحد من جشعه وسيطرة هواه على كل تصرف يأتى به .

إن الضمير الدينى هو الذى يدفع الشاب ذكراً كان أو أنثى إلى معرفة للمثل الأعلى فى الحياة ، وإلى الجد فيها ، وإلى التخلص من صفات الطفولة الإنسانية وعدم النكسة إلى الوراء .

تحاول المدرسة الحديثة أن تعوض الشباب عن تكوين الضمير الدينى عنده ،

---

(١) الحجرات : ٧

بقراءة تاريخ العظماء والأبطال ، ومعرفة آداب السلوك وأخلاق الإنسان المهذب . ولكنها إذ تحاول ذلك تحاول فى واقع الأمر أن تضع هذا الشباب أمام شىء محدود العظمة وهم رجال التاريخ ، وأمام آداب وأخلاق هى من صنع الإنسان الذى من شأنه أن يختلف على نفسه وفى رأيه ، ولا يستطيع الحياد فيما يرسمه ويقرره .

وفرق بين عظمة الله إذا دفع الشاب للايمان به ، وبين عظمة رجل التاريخ إذا دفع الشباب لقراءة سيرته . وفرق بين طريق الهداية فى هذه الحياة الذى هو من وحى رب العالمين الذى لا إله إلا هو ، وبين ذاك الطريق الذى وضعه الإنسان على أنه مسلك الإنسان المؤدب المهذب .

أيتها الأمهات ، أيها الآباء : تعنون بناشئكم فى صغره وتقر أعينكم بنموه الجسمى فتزداد عنايتكم بهذا الجانب فيه ، حتى إذا دفعتم به إلى المدرسة أخذ تحصيل المعرفة على نحو ما رسم فيها : جزءاً من هذه العناية ، حتى إذا وصل هذا الناشىء إلى مرحلة المراهقة أو مرحلة الشباب واجهتكم مشاكله ، وهى مشاكل ناشئة عن تذبذبه من الطفولة والرشد : ينمو جسمه فى سرعة ، وكثيراً مايبطء فى تحصيله المعرفة . يهرب من المجتمع ويتهيب الحياة ، أو يستهتر بها وبقوانين أمته وجماعته . وحلكم لتلك هذه المشاكل إما الضغط عليه مرة ، أو تركه مرة أخرى ، وإما معاملته بقسوة مرة ، واستجداؤه مرة أخرى . وهكذا فى مرحلة شباب أولادكم ، حياتكم غير مستقرة : اطمئنان وفزع ، وخوف وأمل ، وإصرار وندم .

ولو أنكم يوم عنيتم ببدنه وهو ناشىء ، عنيتم بروحه ونفسه ، واتخذتم له

من أنفسكم مثلا صالحاً يرقب الله فى عمله ويتصوره فى سلوكه لوجدتم فيه ناشئاً يتقظ فيه الإحساس بالله .

ولو أنكم بعد ذلك قصصتم عليه شيئاً من سيرة الرسول عليه الصـــلاة والسلام ، ثم رسمت له مدرسته طريقاً إجمالياً لهداية الله لوجدتموه فى مرحلة شبابه يسير بقوة الشباب فى طريق الراشدين . ويومئذ لاتكون له مشاكل ، ولا تكون حياتكم من أجله لحظات مختانقة ، ولا تكون نفوسكم بسببه موزعة بين أحاسيس متناقضة .

« كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

« يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » . ...

التدين وأثره فى المجتمع

اساس الاسلام نقــاء القلوب وصفاؤها :

ابتدأت رسالة الإسلام فى المجتمع الإنسانى بربط الإنسان بأخيه الإنسان، وإيجاد علاقة من التماسك بينهما، تقوى وتزيد حسب قوة الإيمان فى نفس المؤمن.

وأول صورة لهذا الربط والتماسك تنقية النفوس من الغل والحقد والغش والخداع. يقول الرسول عليه الصلاة والسلام لأنس فيما يروى عنه : ((**يابنى ان قدرت ان تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل، قال انس : ثم قال لى : يابنى وذلك سنتى، ومن احيا سنتى فقد احبنى، ومن احبنى كان معى فى الجنة**)). فالرسول حريص كل الحرص على أن تصبح النفوس وتمسى وليس فى نفس منها شىء من الغش والخداع لانسان آخر. لأنه إذا ضعف معنى هذا الحقد والغش والخداع فى النفوس ضعفت أسباب الخصومة بينها، وبرز مكانها مجال المودة. والمودة مظهر أولى لإدراك معنى الإخاء الإنسانى، والاشتراك فى هدف واحد ورسالة واحدة.

وعن إدراك معنى الأخاء والاشتراك فى الهدف الواحد يبتدىء المجتمع ويظهر وجوده. ولكن لايتأكد وجود المجتمع ويقوى إلا إذا انتقلت النفوس البشرية فيه خطوة أخرى، تجاوبت بها محاولة إضعاف الحقد والغش والخداع.

هذه الخطوة الأخرى خطوة إيجابية فى بناء المجتمع وتكتيله، هى — بعد أن يدرك الإنسان علاقة الأخوة بينه وبين إنسان آخر — أن يحب له مايحب لنفسه يروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه يقول : ((**لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**)).

أى لايبلغ أحدكم مبلغ الايمان الكامل، إلا إذا عمرت نفسه بمحبة أخيه الانسان.

فإذا وصلت علاقة الانسان بالإنسان فى المجتمع البشرى إلى هذا الحد من المحبة تلاقت النفوس فيه ، فأصبح كل واحد للآخر كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

فإذا انتقلت العلاقة بعد ذلك إلى المعاونة ثم إلى الاحسان والبر ، عندئذ تبلغ الجماعة أشدها فى القوة ، وتصل إلى آخر مظهر لها فى التكتل . يروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه يقول : « **من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه** » .

والدين عن طريق الايمان بالله هو الذى يوصل المجتمع إلى هذه الدرجة من القوة والتكتل . ولا تبلغ مبلغه فى ذلك الخدمات الاجتماعية ، أو إيقاظ الوعى الجماعى عن طريق المدرسة والثقافة الانسانية المشتركة .

وجانب آخر من جوانب أثر التدين فى المجتمع هو أن صفاء النفوس ، ومحبة بعضها لبعض ، ومعاونة بعضها لبعض — يدفعها إلى الرضا بحظ كل إنسان فى الحياة ، وعدم سخط طبقة على أخرى . يقول الله تعالى . « وَهُوَ الذِى جَعَلَكُم خَلائفَ الأرْض ، وَرَفَعَ بَعْضَكُم فَوْقَ بَعْض دَرَجَات ، لِيبلُوكم فِيما آتاكُم (١) » .. ويقول جل شأنه : « ولاَ تتَمَنوا مَا فَضَّل الله بِه بَعْضَكُم عَلى بَعْض ، للرِّجَال نَصِيب مما اكتَسَبُوا وللنِّساء نَصِيب مما اكتسبْن واسألوا الله مِنْ فَضْله (٢) » .

ومجتمع يقوم أساسه على المحبة بين أفراده ، وعلى عدم القلق والاضطراب فى العلاقات بينهم — مجتمع صان نفسه من التدهور والانحلال . وقد كان ذلك شأن الجماعة الإسلامية الأولى . ولذلك امتَنَّ الله على المسلمين بقوله : « وأَلَّفَ بَينَ قُلوبِهم لَوْ أنفقْتَ مَا فِى الأرْض جَميعاً مَا ألفتَ بَين قلوبِهم ، وَلكنَّ الله ألَّفَ بَينَهُم إنهُ عَزِيز حَكِيم (٣) » .

(١) الانعام : ١٦٥ (٢) النساء : ٢٢
(٣) الأنفال : ٦٣

الضمير الديني وأثره في
الاتحاد والشعور بالجماعة

يروى مسلم عن النعمان بن بشير — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ قال : « **المؤمنون كرجل واحـد ، ان اشتكى عينه اشتكى كله ، وان اشتكى راسه اشتكى كله** » .

فالرسول عليه الصلاة والسلام يصور الجماعة المؤمنة ، وما يجب أن يـكون عليه وضعها بأنه :

١ — يجب أن يشعر أفرادها : بعضهم ببعض ،

٢ — وأن يعمل بعضهم لبعض ، لأجل مصلحتهم جميعاً ،

٣ — حتى إذا تمحض عمل الأفراد للصالح العام ، وهو صالح الجماعة ، كان المؤمنون عندئذ كرجل واحد ، يتجـاوب أعضاء جسمه مع بعض ، إن لحق ألم بعضو منها .

المرحلة الأولى :

فشعور الأفراد بعضهم ببعض الأساس الأول فى قيـام الجماعة . وهو أول ظاهرة عملية لإسلام المسلم ، وإيمانه برسالة الإسلام . إذ رسالة الإسلام فى حيـاة الفرد تبتدىء بنقله من سيطرة الشعور الفردى عليه وطغيـان الأنانية فى تصرفاته إلى إنسان جماعى ، يشعر بوجود الآخرين معـه ، ويبادلهم الإحساس بواجباته نحوهم ، وبحقوقه من قبلهم .

فمن بقى فى دائرة عمله الفردى لمصلحته وحدها — لم يتذوق بعـد حلاوة الاعتقاد بالإسلام ، وإن انتسب إلى جماعة المسلمين ، وأعلن القيام بفروض الإسلام وواجباته .

١ — فمن كاد للغير ، أو وشى به ، أو تآمر عليه بدافع الحقد أو المنافسة الرخيصة أو لتحقيق مصلحة شخصية — بعيد عن الإحساس بالإسلام وتذوقه .

عن أبى برزة الأسلمى رضى الله عنه — فى رواية أبى داود والترمذى — أن رسول الله ﷺ صعد المنبر فنادى بصوت رفيع : **« يا معشر من اسلم بلسانه ولم يفض الايمان الى قلبه : لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من اتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله »** .

ويقول الله جل شأنه : « والذين يُؤْذُون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً[(1)] » . ويقول سبحانه وتعالى لرسوله الكريم : « وَلا تطع كلَّ حلافٍ مهين . همّازٍ مشّاءٍ بنميم . منّاعٍ للخير معتدٍ أثيم . عتلٍ بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مالٍ وبنين[(2)] » .

(ب) ومن خدع الغير باسم الدين ، وباسم الإنسانية ، أو العلم والتوجيه لبلوغ هدف شخصى — بعيد أيضاً عن الإحساس بالإسلام وارتباطه به ارتباط المعتقد به : فمثلاً من صلى ، أو زكى : أو حج ليتستر وراء صلاته ، أو زكاته ، أو حجه ، ومن باشر مداواة الغير باسم الإنسانية ليحترف بمداواته إياه ، ومن شارك فى رعاية الفقير والضعيف ليتجر بهذه المشاركة فى الرعاية ، ومن نصب نفسه لتوجيه الغير فى دينه أو دنياه كى يصيب بذلك مغنماً مادياً أو جاهاً ومنزلة — كل هؤلاء بعيدون عن الشعور بحقيقة الإسلام فى نفوسهم ، وهم أنانيون ، يعملون لأنفسهم فقط ، ولكنهم توسلوا بوسائل من شأنها أن تحمل الناس على قبول المعاملة معهم والثقة بهم .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه :

---

(١) الأحزاب : ٥٨ (٢) القلم : ١٠ — ١٤

١ — رجل استشهد فاتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لان يقال جرىء ، فقد قيل ، ثم امر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

٢ — ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرا القرآن ، فاتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟ قال تعلمت العلم ، وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء ، فقد قيل ، ثم امر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

٣ — ورجل وسع الله عليه واعطاه من اصناف المال كله به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال ما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب ان ينفق فيها الا انفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل ، ثم امر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار)) .

(ج) ومن ابتعد عن أولاده الصغار أو الكبار ، وحرم صغارهم من رعايته وكبارهم من عطفه الأبوى ، ليحقق لنفسه متعة شخصية بامرأة أخرى — لم يخالط الإسلام روحه ، ولم ينفذ إلى دخيلة نفسه . فهو أشبه بذلك الذى رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يخبط فيه بغير علم : لايتقى فيه ربه ولايصل فيه رحمه ، ولايعلم لله فيه حقاً . ومنزلته أخبث المنازل عند الله — كما جاء فى رواية الترمذى عن الرسول ﷺ .

فأول ظاهرة لإسلام المسلم إذن أن يشعر الإنسان المعتقد به بالجماعة . وشعوره بالجماعة يقوم أولاً وقبل كل شىء على أن يخفف من سيطرة مصلحته الشخصية ، على أفعاله وتصرفاته ، ويجعل فعله وتصرفه شركة بينه وبين جماعته : لايعبن مصلحته الشخصية .. ولايهضم حق جماعته. وجماعته: من عداه من أقاربه وجيرانه ومواطنيه .

أول ظاهرة لإسلام المسلم : أن يتمنى لغيره مايتمناه لنفسه من خير ، أو دفع أذى . فهذا التمنى منه وإن كان أمراً نفسياً لكنه يحول فى واقع الأمر دون أن يتسبب هو نفسه فى إيذائهم بلسانه أو عمله ، وعدم إيذاء الغير باللسان أو الفعل

خطوة تساعده فى حياته على أن يكون سعيه موجهاً لخير نفسه وأهله ، بدلا من أن يوجهه لمكافحة الإيذاء الذى يناله ، سواء أكان إيذاء القول أو إيذاء العمل .

المرحلة الثانية :

لم يقف الإسلام فى تكوين الجماعة وبنائها عند حد أن يتخلى أفرادها عن الإيذاء ، أو عند حد أن يتمنى بعضهم لبعض الخير أو زوال الشر ، بل دفع المسلم — خطوة أخرى فى تقوية شعوره بالجماعة — هى خطوة العمل الإيجابى لصالح الأفراد الآخرين ، وهو صالح الجماعة نفسها .

يقول الله تعالى : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ[1] » . « وَقُلْ لِعِبَادِى يَقُولُوا التِى هِىَ أَحْسَنُ[2] ... » ، « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنَاً .. » فوجه المسلمين أن يكون نطقهم بالتى هى أحسن ، وأن يكون عملهم تعاوناً على البر والخير ، واتقاء لما يضر ويؤذى . ويقول سبحانه جل شأنه أيضاً: «واعْبُدُوا اللهَ ولاَ تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً ،وبالوَالِدَيْنِ إحساناً وَبِذِى القُرْبَى وَاليَتَامَى والمَسَاكِين ، والجَارِ ذِى القُرْبَى والجَارِ الجُنُبِ ، والصاحب بالجنب . وابن السبيل ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم[4] .. » فقرن جل شأنه الإحسان إلى هؤلاء جميعاً — وهم أفراد جماعته فى واقع الأمر — بعبادته وحده ، وجعل البر إليهم وهو عمل الخير صورة من صوره فى منزلة الإخلاص فى عبادته ، وعدم إشراك غيره فى العبودية .

ويروى عن الرسول ﷺ أنه يقول: « **انما الدنيا لاربعة نفر : عبد رزقه الله مالا وعلما ، فهو يتقى فيه ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقا ، فهذا بافضل المنازل** » .

إذا عمل الإنسان المسلم لغيره إذن ، وخرج بإيجابيته من دائرة التمنى إلى دائرة العمل لصالح جماعته ، كان ذلك منه آية واضحة على طاعته لتعاليم الإسلام ، بجانب شعوره به كعقيدة .

---

(١) المائدة : ٢ — (٢) الاسراء : ٥٣
(٣) البقرة : ٨٣ — (٤) النساء : ٣٦

المرحلة الثالثة :

فإن آثر الغير على نفسه ، وفضل الصالح العام لجماعته على صالح نفسه الخاص، وبذل من عمله أو ماله ، وجاهه ، وعلمه فى سبيل وطنه وأمته أكثر مما يبذل لرفاهيته ومتعته الخاصة — ارتفع شعوره بالجماعة إلى مستوى يصير المؤمنون فيه كرجل واحد ، إن اشتكى عينه اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله ، عندئذ يصبح حبه لله وبغضه لله ، وإعطاؤه لله ، ومنعه لله .. عندئذ يصبح عمله خالصاً لايبتغى به سوى وجه الله . عن أبى أمامة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال :

« **من احب لله ، وابغض لله ، واعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الايمان** » .

وعنه أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

((**ان الله لا يقبل من العمل الا ما كان له خالصاً ، وابتغى به وجه الله**)) .

وهذه الدرجة من الشعور بالجماعة لا تكون إذن إلا ممن تيقظ فى قلبه الوعى بالله ، وتمكن من نفسه الإيمان به ، فأصبح لايرى نفسه هدفاً فى الحياة ، بل الهدف هو خير الناس ، هو خير جماعته . ومن تيقظ فى قلبه الوعى بالله إلى هذه المنزلة هو ذلك الذى تكوّن عنده الضمير الدينى، يدفعه إلى اتجاه واحد : هو الله. ومن اتجه إلى الله وحده عمل حتماً لجماعته ، ومن عمل لجماعته كان الإنسان المهذب الرشيد .

الضمير الديني وأثره في تكوين الأسرة كجماعة

يروى أبو هريرة رضى الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
« تنكح (اى تتزوج) المراة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين ، تربت يداك » .

أى الدافع إلى الصلة الزوجية بين الرجال واحد من هذه العوامل الأربعة: إما المال، أو الحسب، أو الجاه، أو الجمال، أو التدين. ولكن الذى يجب أن يحرص عليه الرجل هو عامل التدين فى اختيار زوجته. وإلا عاقبة الزواج تؤول إلى اضمحلال وفناء، بدل أن يكون انسجاماً ما بين الطرفين وحياة منتجة. ويروى أبو حاتم المزنى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:
« اذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فانكحوه (زوجوه) الا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

فنصح أولياء أمر المرأة وأصحاب الشأن معها أن يفضلوا المتدين صاحب الخلق الحسن من الرجال عند اختيار الزوج لعزيزتهم — أن يفضلوه على من تكون له صفة أخرى من شأنها أن ترغب الناس فيه كالمال، والجاه.. ونحو ذلك من الصفات العارضة والمؤقتة.

* * *

سبيل تكوين الاسرة : الشعور المشترك:

الأسرة فى نظر الإسلام هى أول صور الجماعة، والزواج طريق تكوينها. ولا تكون أسرة إلا حيث يشعر الطرفان بالحياة المشتركة بينهما، ويدرك كل منهما أن هذه الحياة تجاوب بينهما، تدور فى إطار واحد، ويساند أحد الطرفين الآخر فى استمرار حركة الحياة المشتركة، وزيادة نشاطها، وتوجيهها نحو غاية واحدة.

فإذا لم يبدأ الشعور بالحياة المشتركة بين الاثنين فالأسرة لم تتكون بعد،

وإن تشابكا فى المعيشة واختلطا فى الجوار ، لأن مثل هذه الأسرة لاتمثل عندئذ معنى الجماعة . إذ هنا عندما ينتفى معنى الجماعة فى الأسرة لايكون أحد الطرفين سكناً للآخر يطمأنّ إليه ، ولا تكون بينهما مودة نفسية ، ولا رحمة متبادلة على نحو ماجاء فى قول الله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْوَاجاً لِتَسْكُنوا إليهَا ، وَجَعَل بَيْنَكُم مَوَدَّة وَرَحمة(١) » .

وهذه الزيجات التى لاتكون منها الشعور بالحياة المشتركة بين الطرفين هى تلك الزيجات التى اجتمع فيها الطرفان لغاية أخرى وراء الزواج لذاته : كأن تكون غاية الزوج الاستمتاع بجاه الزوجة ، أو مالها أو جمالها ، دون صلاحيتها للحياة المشتركة كزوجة وأم ، وكمعاونة .. أو تكون غاية الزوجة الإفادة من مال الزوج ، أو شبابه ، أو جاهه ، دون صلاحيته لهذه الحياة المشتركة كزوج له كرامته ، ورجولته ، وإنسانيته وخلقه ، وسعيه الجدى فى الحياة وكمسئول متمرس على الكفاح من أجل بقائه هو ، ومن أجل بقاء من يحمل مسئولية وجوده معه .

فكل طرف من الطرفين فى مثل هذه الزيجات ينشد شيئاً آخر وراء الزوجية . فإذا فقد هذا الشىء الآخر المنشود ، أو ضعف أثره فى الإغراء بتوحدهما ومصاحبة بعضهما بعضاً فى الظاهر — بدأ تفكك الزيجة يتضح ، وبرز للعيان ما بين الطرفين من فجوة وعدم انسجام ، واتجه كل واحد منهما إلى الخلاص النهائى من الآخر بوسيلة أو بأخرى ، كريمة أو غير كريمة — وكثيراً ماتكون غير كريمة — وتحول الوقت منذ أن نفذت الغاية من تواجدهما ، أو منذ ضعف العامل على هذا التواجد حتى فرقتهما النهائيــة — تحول هذا الوقت إلى قلق نفسى ، واضطراب فى حياة كل منهما .

والرسول عليه الصلاة والسلام عندما ينصح بتركيز عنصر الاختيار عند الزواج سواء فى جانب الرجل أو جانب المرأة : فى التدين والخلق الكريم دون

---

(١) الروم : ٢١

شيء آخر بعد ذلك : من مال ، وجاه ، وجمال ، وشباب يبقى فقط النصح باتباع الوسيلة الصحيحة فى تكوين أسرة ، وجماعة من الزواج تكويناً سليماً ، حتى لا يستحيل هذا الزواج بعد قليل من الزمن إلى اختلاط ، هو تفكك أقرب منه إلى الانسجام .

التدين عامل ايجابى فى ايجاد الشعور المشترك :

والإسلام هنا كدين لا يتحيز للمتدينه أو المتدين وصاحب الخلق ، إذا نصح بتفضيله أو تفضيلها فى الاختيار فى الزواج . وإنما يكشف بهذه النصيحة للإنسان — كموجه له — عن أمر لا بد من الكشف عنه فى النصيحة : وهو أن التدين عامل إيجابى فى الألفة والانسجام ، والتآزر والتساند . فهو ليس رسماً يؤدى ، أو شكلا يسعى إليه ، بل هو إيمان ، إيمان بمثل وقيم فى الحياة ، وليس من بينها المال ، والجاه ، وعرض الدنيا . بل فى مقدمتها : الإنسانية فى المعاملة والتهذيب فى السلوك ، وتقدير الإنسان لذات الإنسان وابتغاء الإخاء فى الله . والحياة المشتركة بين الاثنين اللذين تزاوجا لا تنمو إلا فى ظل هذه المثل والقيم ، ولا تحطمها إلا الغايات الأخرى التى أشرنا إلى أمثلة منها ، وتضمنها الحديث النبوى الشريف .

نعم قد يؤول التدين إلى حرفة أو مظهر ورسم . ومن أجل ذلك ربما لا نفهم فضله فى جانب المرأة أو جانب الرجل عند الزواج . ولكن التدين فى واقع أمره ليس هذا : هو التهذيب الإنسانى فى أوضح معانى التهذيب وأكمل مظاهره ، الصادر عن ضمير وإعداد نفسى لله وللمثل العليا . ثم لا يفرق فى واقع الأمر بين إنسان وآخر — ذكر أو أنثى — إلا بأن أحدهما أصبح مهذباً فى سلوكه ، والآخر بقى فى بدائيته أو حيوانيته الأولى . إذ المعنى الإنسانى فى الإنسان طارىء على الطبيعة الحيوانية فيه المشتركة بينه وبين غيره من نوع الحيوان الآخر . فأى إنسان صار إلى الإنسانية فهو ذلك الذى يجب أن يفضل ويختار فى المعاشرة والمعاملة ،

لأنه الإنسان الذى تميز عن الحيوان ، فهو يتجه فى الحياة اتجاه الإنسان المكرم ، فى سبيله وحده ، أو فى سبيله مع غيره .

الزواج فى الاسلام ليس صفقة :

ولم ينظر الإسلام إلى الزواج كأساس لتكوين الأسرة ، على أنه صفقة بين طرفين يجب أن يتعادل فيها الربح والكسب المادى بينهما ، وإنما ينظر إليه على أنه ترجمة عملية لرغبة نفسية صادقة تكونت بعد امتحان دقيق لتقدير كل منهما للآخر ، على أنه إنسان مهذب .

والمهر الذى قرره الإسلام ليس ثمناً لسلعة ، بل اعتباره ووزنه إنما فى تيسير وضع الزواج فقط . وليست له قيمة ذاتية إلا أنه يدل على رغبة الرجل فى الزواج ، وعلى تأكيد أنه الطرف الطالب فى الزيجة المتوقعة . ولذلك يكفى فى مسمى المهر بعض الدراهم ، أو تقديم بعض الخدمات الثقافية والتعليمية مثلا للزوجة ، وقد كان ذلك الشأن فى الحياة الإسلامية الأولى .

إنه نحلة ومنحة من الرجل قصد بها تأكيد حياء المرأة ، وجعلها مطلوبة ، بدلا من أن يكشف عنها ستار طبيعتها فتبدو طالبة . إن الاسلام بتقريره المهر على هذا النحو يدل على أنه نفسه دين المروءة والخلق المهذب . إن المرأة يجب أن يتوفر لها الحياء والخفر ، حتى تبقى سيدة ذات عزة نفس ، وتبقى معها عواطفها لا تمتهن ولا تستذل . وذلك لا يكون إلا إذا وصى غيرها وهو الرجل على أن يكون طالباً لها ، وساعياً فى سبيلها .

إن المهر رمز لهذا السعى وليس ثمناً . إنه حجاب وستر على حياء المرأة . إن الاثنوية فى الحياة الطبيعية بين الذكر والأنثى تدل على تفاعل بين الاثنين ، وتدل على أن الطرف القابل منهما صاحب الخطوة الأولى فى اللقاء : فالزهرة فى النبات تتفتح لاستقبال عنصر الحياة من حامله . والحيوان الأنثى يعين بلغته الصوتية على

الفناء بالآخر . وهذا وضع ينبو عنه ذوق الإنسان المهذب ، لو طلب تطبيقه بين الذكر والأنثى فى الحياة الإنسانية ، فتجعل المرأة على أن تكون طالبة الزواج بالرجل ، وليس هو الحريص على ذلك .

إن الضمير الدينى عامل له كفالته فى إشعار الزوجين بالحياة المشتركة بينهما ، وعامل له كفايته أيضاً فى إبعاد الزواج عن الانحراف عن غايته كأساس لأسرة وجماعة ، وعامل له كفالته أيضاً فى حياة الاطمئنان والسكنى والانسجام . وهنا نفهم قول الرسول الكريم : (**فاظفر بذات الدين ، تربت يداك**) . . و « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فانكحوه [أى زوجوه] إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض أو فساد كبير » .

إن الاضطراب الذى يحصل فى حياة الزوجية يرجع إلى الانحراف عن نظرة الإسلام إلى الزواج ، يرجع إلى الرغبة فى الدنيا ومتعتها وحدها . والدنيا فى طبيعتها قلقة مضطربة لأنه لا يؤمن جانبها ، وكذلك شأن من يوليها السعى ويجد فى الحرص عليها .

الباب الثالث

المجتمع الإسلامي

- اولا : مجتمع الاسلام .. بناؤه وتطوره :
- ثانيا : تكافل الجماعة الاسلامية :
- ثالثا المرأة فى الاسلام :
- رابعا : مجتمع الاسلام بين الماضى والحاضر
- خامسا : من مقومات المجتمع الصالح :
- سادسا : العادات الشعبية :
- سابعا : اعيادنا :
- ثامنا : الى الشباب :

الفصل الأول

- الفردية او الوجود الفردى فى الاسلام .
- الاحتفاظ بشخصية الفـرد فى الجماعة .
- ايجابية الاســلام فى توجيـه الفـرد .
- تبادل الشـعور بين الفــرد والجماعـة
- وحـــدة الجماعة .
- تماسـك الجماعة .
- الميـــل الاجتماعى وطـــريق انمـائه .

الفردية أو الوجود الفردى فى الإسلام

الإنسان لو ترك وطبيعته يسير فى طريقها دون أن يلزم نفسه بتوجيه معين — لسار حتماً إلى غاية لا يتخلف عنها أبداً . وهى : أن يكون أنانياً يحب ذاته ، ويعمل لنفسه فقط ، ويتصور الوجود كله وقفاً عليه ، والحياة الإنسانية خاصة به . ولا تحد أنانيته ، ولا نهاية لرغباته : إن حصل على شىء منها أمسك به عن غيره ، وإن فاته الحصول عليه غضب وقلق .

ذاك لأن ذاته فى تصور نفسه مركز هذه الحياة ، كل ما فيها يجب أن يدور حول نفسه ، وأن يكون له وحده دون غيره . ونتيجة هذا التصور أنه لا يقر لغيره بحق العيش فى الحياة معه .

ونتيجة أنانيته إلى هذا الحد أن يسيطر عليه الخوف الأبدى من أن يفلت شىء مما فى يده ، ويستولى عليه الحزن الشديد إن فاته عرض من أعراض الدنيا ، ويخاصم غيره خصومة عنيفة على امتلاك متع الحياة . وإذن عيشته : خوف ، وحزن ، ونزاع ، وإذن حياته قلق واضطراب ، لا طمأنينة فيها .

وهذه مظاهر تحكم الفردية فى سلوك الإنسان ، وهى بذاتها دائرة الوجود الفردى الذى يعيش فيه الإنسان ، ذلك الذى لم يوجه توجيهاً جماعياً ، يجعل منه ومن غيره جماعة وأمة .

الإسلام لا يرضى عن هذه الفردية ، ويراها فردية منحرفة لأنها لا توصل إلى سعادة الإنسان نفسه ، ولا إلى قيام جماعة منه ومن غيره . ولهذا يحرص كل الحرص على أن ينشىء الإنسان على الإيمان بالله ، دفعاً له على الخروج من هذه الدائرة الفردية الضيقة ، وبالتالى دفعاً له على الخروج من هذا الحرج النفسى الأليم . والإيمان بالله ليس كلمة ينطق بها المؤمن ، بل هو عهد يعطيه الإنسان لله جل وعلا :

ويحمل هـذا العهد أن يعيش لنفسه وغيره ، ويقر إقراراً نفسياً بأن له حقوقاً وعليه واجبات . له حقوق تدر ما يبذل من نفسه فى سبيل معاشريه وجماعته العامة ، وعليه واجبات بقدر ما يعدنفسه إعداداً يجعلهاتعرف فى وضوح أنها ليست وحدها فى هذه الحياة ، وإن مشاركيها فى هذه الحياة لهم حقوق قبلها يتعين أداؤها .

والمؤمنون بالله إذن: أولئك الذين لم يذعنوا لنداء الطبيعة الإنسانية الفجة، فلم يعيشوا لأنفسهم وحدهم ، ولم يمشوا فى الحياة لتحقيق مآربهم الذاتية الخاصة ، دون غيرها .

والمؤمن بالله عندئذ إنسان أمن على نفسه الخوف ، وحال بينها وبين الهم والحزن ، وجنبها الخصومة والنزاع . هو المطمئن فى سعيه لأنه يقصد وجه الله فيما يسعى ، وهو الناجح فى هذه الدار لأنه استطاع أن يتغلب على نزوات نفسه ، وهو الناجح فى الدار الآخرة لأن الله لا يخلف وعده المؤمنين . يقول الله جل شأنه : « وَالذين هُم لأَمَانَاتِهِم وَعَهدِهِم رَاعُون . وَالذين هُم عَلَى صَلَوَاتِهِم يحَافِظُون . أولئِكَ هم الوَارِثُون . الذين يَرِثُون الفردَوس هُم فيها خَالِدُون » (١) .

والقرآن الكريم وضح حال الإنسان إذا انقادلطبيعته الأولى ، فيقول سبحانه: «إنّ الإنسَانَ خُلِقَ هَلوعاً. إذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً.وإذَا مَسهُ الخير مَنُوعاً»(٢). كما وضح حاله فيما إذا آمن بالله وأخذ نفسه بميثاق الله ، فاستثناه من طابع صاحب الحالة الأولى ، فقال : « . . . إلا المصَلِّين . الذين هُم عَلَى صَلاتِهِم دَائِمُون . وَالذين فِى أموَالهِم حَق مَعلُوم . للسَّائِل والمحروم . والذين يصدِّقُون بِيومِ الدين . والذين هم مِنْ عَذَاب رَبهم مُشفِقُون(٣) » .

ويروى عن أبى يحيى صهيب بن سنان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) المؤمنون : ٨ — ١١ (٢) المعارج : ١٩ — ٢١
(٣) المعارج : ٢٢ — ٢٧

« عجباً لأمر المؤمن ، ان أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد الا للمؤمن : ان اصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وان اصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

— فالرسول عليه الصلاة والسلام يصور حال المومن بأنها حال الاطمئنان والاستقرار . وتلك حال خيرة ، بعيدة عن الألم والانزعاج ، بالقياس إلى حال الانسان المسترسل وفق نزواته وغرائزه ، الأنانى فى مسعاه ، والفردى فى إتجاهه . وهو ذلك الإنسان الخائف الحزين ، القلق .

الإسلام يؤمن بالفرد ، ولكنه لا يؤمن بالفردية . وهو فى حال إيمانه بالفرد يؤمن بحقيقة موجودة . وفى حال إنكاره للفردية يرغب فى تجنيب الفرد مخاطر الفردية التى تتمثل فى الخوف الدائم ، والحزن الدائم . وعلى هذا الأساس يشجع الإسلام نشاط الفرد فى أى جانب من جوانب الحياة ، وحريته فيما يرى وفيما يعبر . ولا يحد نشاطه الفردى وحريته الفردية — فى نظر الاسلام — إلا فى إيذائه لغيره فى جماعته . وعلى هذا الأساس لا يقر الإسلام كيفية نشاط الفرد وحريته ، وذهابه كلية فى جماعته ، كما لا يقر أن تؤمن جماعته عن طريق انحرافه فى فرديته .

الاحتفاظ بشخصية الفرد فى الجماعة

الفرد والجماعة :

الجماعة المسلمة ليست شيئاً وراء أفراد المسلمين ، هى الأفراد جميعاً فى صلات بعضهم ببعض وجودهم كحقيقة ، مستمد من وجود الأفراد كحقائق قائمة مشاهدة. ولم يعرف القرآن الكريم فى أوامره ونواهيه ، وفى وصاياه العامة : الجماعة المسلمة بعيدة عن المؤمنين أنفسهم .. بعيدة عن ذواتهم وأشخاصهم . يقول الله تعالى : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور[1] » .. ولا شك أنه يقصد بالولاية هنا — التى هى التولى والتدبير والحماية — الجماعة المؤمنة . ولكنه فى إعلانه هذه الولاية أعلنها لهذه الجماعة فى أفرادها بصيغة الجمع وهم الذين آمنوا . وكذلك عندما يوجه أمراً أو نهياً عاماً كما فى قوله تعالى : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ الله إذا عَاهدتم ولا تَنقضوا الأيمان بَعدَ تَوكِيدِها وَقدْ جَعَلْتم الله عَلَيْكم كَفيلا »[2] .. يوجهه إلى المؤمنين كأفراد فى صيغة الجمع . وكذلك الشأن عندما يخبر عن حال عامة ، يخبر عنها مسندة إلى الأفراد مجتمعين . كما فى قوله تعالى : « والذين يؤذُون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً[3] » ..وقوله : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » .

علاقة الفرد بالجماعة :

وإذا كانت الجماعة المسلمة ليست وراء أفرادها ، وإنما هى الأفراد بعينهم وأشخاصهم — كانت علاقة الفرد بالجماعة ، هى نفسها علاقة فرد ببقية الأفراد الآخرين معه . والفرد لم يلغ إذن ، والفرد باق بكيانه الشخصى المستقل . ووجوده كفرد وكوحدة بذاتها لم يمس ، وكل ماجد له من الجماعة التى هو عضو

(١) البقرة : ٢٥٧ (٢) النحل : ٩١
(٣) الأحزاب : ٥٨

فيها — أنه قد أضيفت إليه اعتبارات خاصة بحكم هـذه الجماعة ، وهى اعتبارات الروابط المتبادلة بين كل فرد والآخرين معه فى الجماعة . وهى اعتبارات الواجبات التى تؤدى من قبل الفرد نحو الآخرين معــه ، والحقوق التى تعطى له من هؤلاء الآخرين معه ، وهى واجبات عليهم أيضاً .

والفرد فى الجماعة المسلمة طالما لم يمس كيانه كوحدة بذاتها ، مستقل فى التصرف يتمتع بإرادة حرة ، وبحرية فى التملك . ولاستقلاله وحياته حرمة شخصية ، لاتهدر ولا تزول .

ولــكن — لأنه قد أضيفت إلى وجوده الشخصى الفردى اعتبارات خاصة بحكم الجماعة التى يعيش فيها ويشترك مع أفرادها فى الغاية العامة ، ويكون بعضويته جزءاً من كيانها العام — ليس استقلاله فى التصرف استقلالاً مطلقاً وليست حرية إرادته حرية كاملة ، وليست حريته فى حق التملك مطلقة ، وبالتالى ليست حرمته الشخصية حرمة على الإطلاق .

الفرد مع الأفراد الآخرين ، أو الفرد مع الجماعة — من وجهة نظر الإسلام — وحدة تتفاعل مع غيرها ، وتأخذ وتعطى ، وتتوقف عن التصرف . لهـا استقلال مقيد ، وحرية مقيدة . والفواصل التى تحدد استقلال الفرد فى الجمـاعة المسلمة فى التصرف والتملك على السواء هى الفواصل التى بين الحلال والحرام . و « الحلال بيّن والحرام بيّن » . إذ الحلال هو مايمثل النفع الفردى أو النفع العام ، هو نفع الآخرين مع الفرد فى الجماعة . والحرام بالعــكس هو مايمثل الضرر الفردى ، أو الضرر العام ، وهو ضرر الآخرين مع الفرد فى الجماعة .

وإذن استقلال الفرد محدود بحدود علاقته بالآخرين . فإن تجاوز فى تصرفه وتملــكه دائرة النفع ، فتصرفه وتملكه عندئذ غير مشروع . والفرد حينئذ يجب أن يرد إلى دائرة النفع ، ويحال بينه وبين الإضرار بالآخرين إضراراً أدبياً أو مادياً . وهنا يكون دور الحــكومة والولاية العامة .

استقلال الفرد فى الجماعة الإسلامية لايلغى إذن بعلاقته بالآخرين . ولكنه يحد فقط . فالمرأة بزواجها لاتفقد هذا الاستقلال فى التصرف والتملك ، ولا تفقد الحرية فيما ترى وتعتقد . حتى فى مهرها الذى هو نحلة وعطية من زوجها إياها لايجوز استرداد جزء منه إلا عن رضا واختيار منها : « وآتُوا النِّساءَ صَدُقَاتِهِن نِحْلَة فَإن طِبنَ لَكم عَنْ شَىء مِنه نَفساً فكلُوه هَنيئاً مَريئاً (١) ».

وإذا كانت المرأة بعقد الزواج — ووضعيتها عندئذ تنبىء عن الاندماج — لاتفقد استقلالها فى التصرف والتملك ، فأى فرد مع فرد آخر أو أفراد آخرين معه لايفقد هذا الاستقلال بحال . لكن فقط يحد من هذا الاستقلال إذا اقتضت المصلحة العامة هذا التحديد. وليست المصلحة العامة سوى مصلحة الآخرين معه فى الجماعة .

إن إيجابية الإسلام فى علاقة الفرد بالجماعة هى فى تحديد الإسلام لوضعية الفرد ووضعية الجماعة معاً : فطالما الجماعة فى نظره ليست معبوداً فوق الأفراد — لأنها الأفراد أنفسهم — فللفرد إذن حريته واستقلاله المنبثقان من ذاته كوحدة بذاتها. ولكن صلاتها بالوحدات الأخرى ، وهى وحدات الأفراد الآخرين : هى التى تملى عليها رعاية حقوق هؤلاء الآخرين معه فى الوجود المشترك والحياة المشتركة . ورسالة الإسلام التى جاء بها القرآن الكريم وشرحتها السنة الصحيحة لاتخرج عن تحديد هذه الحقوق ، التى على كل فرد فى الجماعة أن يؤديها نحو الآخرين . وإذا أدى كل فرد هذه الحقوق لمن معه ، وصانه بالتالى الحقوق التى له على الآخرين . ولذا أوجب الإسلام على المؤمنين طاعة رسالته فقال : « يا أيها الذين آمنُوا أطِيعُوا اللهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأمْرِ مِنكم (٢) ». كما أوجب الاحتكام إليها عند النزاع والاختلاف فقال بعد ذلك : « فإنْ تَنازَعتُمْ فِى شَىء فَرُدُّوه إلى اللهِ والرسُولِ إنْ كنتم تؤمِنُون باللهِ واليَومِ الآخرِ ذَلكَ خَيرٌ وأحسَنُ تأويلا (٣) ».

(١) النساء : ٤
(٢) النساء : ٥٩
(٣) النساء : ٥٩

إيجابية الإسلام فى توجيه الفرد

معنى الايجابية :

الإيجابية فى حياة الإنسان أو حياة الجماعة ، هى دفع الإنسان إلى مباشرة أمر الحياة فى وجوده الذى يعيش فيه . هى عدم انصراف الإنسان عن واقع حياته . هى تخير الإنسان الطريق الذى يمارس به شأن الحياة ، ويواجه به أحداث الحياة ، ويستغل به نشاطه فى الحياة ، ويحتم عليه السعى لصالح نفسه ، وحياته ووجوده .

الإيجابية فى حياة الإنسان ليست إذن تركا للحياة ، وبعداً عن أحداثها ، وعزلة للنجاة من أزماتها . كما أنها ليست إلغاء لإرادة الإنسان . إن الإيجابية فى حياة الإنسان هى تفاعل الإنسان مع الحياة : يدركها وتدفعه إلى إدراكها ، ويعمل فيها ، وتملى عليه العمل فيها .

ايجابية الاسلام :

ولكن كيف يدرك الإنسان الحياة ؟ وكيف يعمل فى الحياة ؟ . هنا يجىء حديثنا عن « إيجابية الإسلام » . فالإسلام ليس خالقاً لإيجابية الإنسان . وإنما هو موجه فقط فى نموها ، وسير حركتها . إذ الإسلام ، يقر للإنسان إيجابية من نفسه ، وأن طبيعته ، كطبيعة أى شىء له قوة الحركة ، طبيعة سائرة غير جامدة . وهذه الطبيعة له بحكم خلقه وتكوين الله إياه . وموقف الإسلام عندئذ هو موقف المنظم فحسب فى الايجابية ، حدد له طريق إدراك الحياة ، وحدد له كيفية العمل فيها . ولذلك كان كتاب الإسلام ، وهو القرآن كتاب هداية : « إنَّ هَذَا القرآن يَهدِى لِلتى هِىَ أقوَم ، ويُبشر المؤْمنين الذين يَعمَلُون الصَّالحِات أنَّ لهم أجْراً كبِيراً »[1] .

---

(١) الاسراء : ٩ .

إذا كان الإسلام موجهاً لحركة الإنسان وإيجابيته فقد ساير إذن فطرة الله التى فطر الناس عليها : « إن الدينَ عِنـدَ الله الإسْلام »[1] .. « فَأقِم وَجْهَكَ للدِّين حَنيفاً ، فِطرةَ اللهِ التى فَطرَ النَّاسَ عَليهَا ، لا تَبْدِيلَ لخلقِ الله ، ذَلكَ الدِّين القَيِّم ، وَلكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعْلَمون »[2] .

والإسلام ، فى توجيهه لإيجابية الإنسان عنى بتوجيه الفرد كفرد ، وبوحدة الجماعة ، وبتماسكها ، ثم بالاحتفاظ بشخصية الفرد وشخصية الجماعة معاً — بحيث لا يفنى الفرد فى الجماعة ، ولا تفنى الجماعة فى الفرد ، أى بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر .

* * *

فى توجيه الفرد :

وأول أمر حرص عليه فى توجيه إيجابية الفرد إشعار الفرد نفسه بأن له إيجابية وبأن له ذاتية خاصة ، يجب أن تترتب عليهـا آثارها . وتلك الآثار هى العمل والمسئولية من أجل الحيـاة . وهنا ، لإشعار الفرد بقيمة العمل ، جعل الإسلام العمل فى سبيل الحياة والعيش ، سعياً من الإنسان فى سبيل الله . فيروى أنه ﷺ كان جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذى جلد وقوة — وقد بكر يسعى — فقالوا : ويح هذا ، لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله ؟ فقال ﷺ : **« لا تقولوا هذا ، فانه ان كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس ، فهو فى سبيل الله ، وان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله » .**

فالرسول هنا إذ يعتبر سعى الإنسان فى سبيل عيشه وعيش أسرته بأنه سعى فى سبيل الله — يوقظ الإنسان لذاتيته ، وينبهه إلى أن تصريف الإنسان لإيجابيته فى العمل أمر يقدره الإسلام حق قدره . وإذن سبيل الله ليس فى ترك

(١) آل عمران : ١٩ .

(٢) الروم : ٣٠ .

العمل ، وإلا لكان الإسلام فى توجيهه الإنسان مغفلا طبيعة الإنسان . إنها طبيعة إيجابية كما ذكرنا ، وموقف الإسلام منها موقف الموجه. وفى حديث آخر يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **من طلب الدنيا حلالا تعففا عن المسألة ، وسعيا على عياله ، وتعطفا على جاره ، لقى الله ووجهه كالقمر ليلة البدر** » .

وإذا كان الحديث الأول قد أشعر الإنسان بقيمة العمل ، الذى هو نتيجة لإيجابيته ، فالحديث الثانى كان توجيهاً لإيجابية الإنسان فى عمله : إذ العمل الذى يجب أن تتجه إليه إيجابية الإنسان هو الحلال منه . وكل عمل لا يؤذى الغير، وكل عمل بعد عن مواطن الإيذاء أو شبهة الإيذاء ، فهو عمل لله وعمل صالح للإنسان . وكما وجه الإسلام إيجابية الإنسان فى العمل إلى النوع الحلال منه ، وجهه أيضاً فى مجال العمل ودائرته . يقول القرآن الكريم: «وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ[1]» .

كل فرد مطالب بالعمل ، وكل عمل يجب أن يتجنب فيه صاحبه الإيذاء والإضرار بالغير. وأرض الله واسعة ورحبة للتعمير والعمل . ليس المحلة أو القرية ، أو البلد هى موطن العمل المباح وحده ، ولا هى المتنفس لإيجابية الإنسان فى العمل، بل الأرض جميعها : « فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ»[2] .

---

(١) الحجر : ٢١ . (٢) الجمعة : ١٠ .

تبادل الشعور بين الفرد والجماعة

نتحدث الآن عن عواقب مخالفة الأمم للسنن الكونية . ويجدر بنا قبل الحديث فى ذلك أن نقف على عوامل نمو الأمة ، والمبادىء التى تعتبر سنناً كونية طبيعية فى قوة الأمة ونجاحها .

إن هذه العوامل وهذه المبادىء ترجع فى جملتها إلى تبادل الشعور بين الأفراد من جهة ، والقوامين على شئون الأمة من جهة أخرى .. ترجع إلى أن يتمكن فى نفوس الأفراد شعورهم بالجماعة وبالأمة ، ويتمكن فى نفس الراعى والحاكم الشعور بحقوق الأفراد فى جماعته وأمته .

١ — فمن تمكن الشعور بالجماعة والأمة فى نفوس الأفراد يعطى هؤلاء الأفراد من أنفسهم وعلمهم وتفكيرهم قسطاً يختلف فى السعة لصالح أمتهم : فإذا فكروا فليس لأنفسهم فحسب ، وإذا عملوا فليس ذلك محضاً لمنفعة أشخاصهم ، وإنما لأمتهم وجماعتهم النصيب الأوفر فى التفكير والعمل ، إذا غلب على نفوسهم الشعور بالأمة والجماعة .

لاتطغى روح الفردية عليهم ، ولا يتغلب حب الذات على حقوق غيرهم من أبناء أمتهم : فإن كانوا عمالاً راعوا حق العمل وحق أصحابه فى الربح والإنتاج ، وإن كانوا تجاراً راعوا حقوق المتعاملين معهم فلا يغشونهم ، ولا يخدعونهم . وإن كانوا مربين ومصلحين راقبوا الله وحق الوطن فى توجيههم للناشئة .. وهكذا كل يرعى حقوق غيره إذا ماعمل أو فكر .

كما أن تمكن الشعور بالجماعة فى نفوس الأفراد يكون من نتائجه أن يوقر الصغير الكبير ، وأن يعطف الكبير على الصغير ، وأن يرعى الغنى حقوق الفقراء ،

والمتفوقون فى العلم والجاه من هم أقل منهم فى ذلك . ورعاية حق الغير هو المظهر الواضح لتمكن الشعور بمعنى الأمة فى نفوس أفرادها ، وهو بالأحرى مظهر إشراك حق الجماعة والأمة فى عمل الأفراد وتفكيرهم .

ولكون شعور الأفراد بحق الأمة والجماعة سنة كونية لنمو الأمة ونجاحها ، ركز الإسلام توجيهه وعنايته لتنمية هذا الشعور وتمكينه من نفوس الأفراد : فطلب من المؤمنين أن يكونوا إخواناً متحابين،وطلب إليهم أن يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً : أن يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى أحد أعضائه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . وحثهم فى العبادة على أن يتقربوا إلى الله مجتمعين فحبب إليهم صلاة الجماعة فى كل يوم ، وأوجب عليهم الاجتماع فى أهم مناسك الحج كل عام . ولم يدع وسيلة من وسائل تمكين شعور الأفراد بالجماعة والأمة إلا سلكه وأكد الأخذ به .

كما أيقظ فى الجماعة الكبرى وهى البشرية قاطبة الروح المشترك بين أعضائها وهى الروح الإنسانية : فوجه النداء إلى الناس ، وأرشدهم إلى أن الفوارق بينهم من كونهم ذكوراً وإناثاً،وكونهم شعوباً وقبائل،وغير ذلك هى الوسائل لتعارفهم وترابطهم: «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »

٢ — هذا عن تمكن الشعور بمعنى الأمة والجماعة فى نفوس الأفراد . أما عن تمكن الشعور بحقوق الأفراد فى الجماعة والأمة فى نفس الراعى والحاكم ، فمظهر هذا التمكن العدل بين الأفراد : القوى ضعيف عنده حتى يأخذ الحق منه ، والضعيف قوى حتى يأخذ الحق له . ثم محافظته على الحقوق الخاصة بالأفراد : على حرمة ملكيتهم ، وحرمة أسرهم ، ثم الإشراف على توجيههم لكسب قوتهم ، وإنتاجهم فى الحياة .

وكلما كان الحاكم أو كانت الدولة راعية لحقوق الأفراد ، ومؤمنة لهم على حرماتهم وحقوقهم كلما كان لهذه الرعاية أثرها فى شعور الأفراد بدولتهم وأمتهم .

٣ — وهناك بجانب تبادل الشعور بين الأفراد فى الأمة من جهة وراعى هذه الأمة من جهة أخرى، عامل آخر لا يقل أهمية عنه فى نمو الأمه ونجاحها هو : أن يكون أصحاب التوجيه فى الأمة أمثلة لما يوجهون به الأفراد : السياسيون يكونون أمثلة لممارسة الحكم الصالح العادل ، ورجال الدين يكونون أمثلة للتدين والخلق الكريم ، وأصحاب المعرفة يكونون أمثلة لتحرى الحق والحكم الصحيح .

لا يبتغى السياسيون الثراء والجاه على حساب حكم الأفراد ، ولا يقصد رجال الدين من عظاتهم الاحتراف بالعظة . ولا أصحاب المعرفة أن يتجروا بها .

إذا تمكن الشعور بحق الجماعة فى نفوس الأفراد ، وتمكن الشعور بحقوق الأفراد فى نفس الراعى والحاكم ، وكان أصحاب التوجيه فى الأمة أمثلة عملية لما يوجهون به الناس ، كانت الأمة عندئذ سائرة على المنهج الطبيعى لحياة أية أمة قوية ناجحة .

* * *

إن هذه العوامل هى السنن الكونية لرقى الأمة ونموها ونجاحها . إن الأمة إذا انحرفت عنها لا تسلك حينئذ سبل الأمم الناجحة . إذا ضعف شعور الأفراد بأمتهم وجماعتهم ، وطغت روح الفردية على نفوسهم ، وسيطر حب المنفعة الذاتية على تصرفاتهم وتوجيههم فى الحياة، فإنهم عندئذ لا يكونون أعضاء فى بناء أمة ، وإنما يكونون حلقات مستقلة يجاور بعضها بعضاً ، ويحتك بعضها ببعض ، وينفر بعضها من بعض . ليس لهم رأى عام ، وإنما لهم آراء متعددة . وليس لهم كفاح نحو هدف عام ، وإنما كفاحهم لتحقيق الحيــــاة الخاصة لكل واحد منهم . وكثيراً ما يكون هذا الكفاح من بعضهم ضد بعض . وهنا يسهل على الأجنبى أن يسيطر على مثل هؤلاء الأفراد فى رقعتهم التى يقيمون عليها ، ويسهل عليه أن يستغلهم لمصلحته بأيسر الطرق وأرخص الوسائل .

إذا ضعف شعور الأفراد بمعنى الجماعة والأمة كثر الاعتداء فيها من بعضهم على بعض ، واتجه تفكير الكفاح فيهم إلى الشر والانتقام ، بدلاً من أن يوجه إلى الخير . كل محاولاتهم تتجه إلى الخديعة والثأر . لأنهم ركزوا حينئذ نشاطهم البدنى والعقلى فى الحصول على المنافع الخاصة والمحافظة على الكيان الخاص ، دون نظر إلى المشاركين معهم فى أرضهم ، ولغتهم ، وسائر المقومات الأخرى للجماعة .

وكذلك إذا ضعف الشعور عند الحاكم والراعى بحقوق الأفراد ، فإنه لايتصرف تصرف الحريص على أبناء هذه الأمة وعلى حقهم فى الحياة ، وإنما يكون تصرفه أقرب إلى استغلالهم منه إلى خدمتهم . ويكون هدفه صالح نفسه على حساب صالحهم .

وإذا سلك أصحاب التوجيه فى الأمة مسلكاً لايتفق مع طبيعة التوجيه الذى ينتسبون إليه ، فإنهم يكونون عندئذ محترفين بالقيم وبالمثل العليا . وويل لأناس احترف الموجهون بينهم بالمثل والقيم الرفيعة .

إن السنن الكونية لحياة أية أمة من الأمم هى إذن الشعور المتبادل بين الأفراد من جانب ، وبين ممثل الجماعة من جانب آخر ، وهو ذلك الراعى العام . وكل عمل مثمر فى أية أمة يكون حتماً نتيجة لهذا الشعور : سواء من قبل الأفراد أو من قبل الحاكم العام .

وإن مخالفة الأمم للسنن الكونية تتمثل بالتالى فى ضعف هذا الشعور المتبادل أو فى انعدامه . وإذا كانت القوة ، والنمو ، والتماسك ، والنجاح فى الجماعة من مظاهر الشعور القومى الذى ذكرناه ، فإن الوهن والاضمحلال ، والفشل فى الحياة نتائج لضعف هذا الشعور عند الأفراد وعند الحاكم الذى يعد المثل الأعلى للجماعة .

الإسلام قصد أن يكون الفرد قوياً ، وإلى أن تكون الجماعة قوية . وجعل قوة الفرد فى سيطرة عقله على مطالب بدنه ، وقوة الجماعة فى سيطر معنى الجماعة

على نفوس الأفراد . وهو إذ يقصد إلى قوة الفرد وقوة الجماعة يهدف أخيراً إلى خير الفرد وخير الجماعة، وإلى أن يعيش الفرد معززاً مكرماً، وتعيش الأمة عزيزة كريمة على نفسها وعلى غيرها .

هدم أية أمة لا يكون إلا عن إضعاف شعور الأفراد بمعنى الأمة والجماعة ، وطريق ذلك تمكين حب المنافع الشخصية فى أنفسهم. وغالباً ما يكون ذلك على حساب مصلحة الأمة أو مصلحة الآخرين .

وبناء أية أمة لا يكون إلا عن طريق تقوية الشعور بالأمة والروح العامة فى الجماعة بين الأفراد والمواطنين ، وخير طريق لهذا البناء هو ما رسمه الإسلام فى عبادة الناس لربهم ، وفى معاملات بعضهم لبعض .

وحدة الجماعة

الجماعة الاسلامية ذات هدف موحد :

إن الجماعة لا تكون جماعة إلا إذا اتحدت على هدف ، وتمثلت صورة هذا الهدف فى نفس كل فرد من أفرادها تمثلاً واضحاً . وقبل ظهور الإسلام قامت جماعات إنسانية ، وانحلت جماعات أخرى . وبظهور الإسلام قامت الجماعة الإسلامية . فأى شيء وحد هذه الجماعة ؟ أو أى هدف تكون حوله ومن أجله المسلمون ، حتى صاروا جماعة معينة ؟ وما هى إيجابية الإسلام نحو وحدة الجماعة المسلمة ؟ . إن وحدة الهدف فى الجماعة الإسلامية هى عبادة الله الواحد : « ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم لا إله إلا هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ فَاعْبُدُوه ، وَهُوَ عَلَى كُل شَيءٍ وَكِيل[1] » .. وسبيل الله هو سبيل الوحدة إذن بين المسلمين . فالله غاية الجماعة الإسلامية ، وسبيله هو السبيل لهذه الغاية : « يَأَيها الذِينَ آمَنُوا هَلْ أدلكُمْ على تِجَارَة تنجيكم مِنْ عَذاب أليم . تؤْمِنُون بالله وَرَسُوله ، وَتجاهِدُون فى سَبِيل الله بأموالكم وَأنفُسكم ، ذَلِكُمْ خَيرٌ لَكم إنْ كُنتُم تَعْلَمُون[2] » .

ولكن ماهو السبيل إلى الله ؟

السبيل إلى الله إيمان وعمل ، إيمان بالله ورسوله ، وعمل بما جاء به الله ورسوله .. إيمان بالله ورسوله حتى يكون الله ورسوله أحب شيء لدى الفرد ، وعمل بما جاء به الله ورسوله حتى تكون الطاعة لما جاء به الله ورسوله فوق رغبات نفسه التى بين جنبيه ، وفوق إغراء المال الذى فى يده .

إيجابية الإسلام فى وحدة الجماعة عن طريق عبادة الله الواحد : ليست فحسب نصحاً للأفراد بأن يعبدوا الله ، ولكن فى حملهم على أن يترجموا هذه العبادة لله وحده فى سلوكهم ، حتى يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . ولا يشد

(١) الأنعام : ١٠٢ . (٢) الصف : ١٠ ، ١١ .

البناء بعضه بعضاً إلا إذا كان هناك انسجام فى وضع لبناته ، وتوازن بين صفوفه .
ورسالة الإسلام — التى تعبر عن سبيل الله — هى رسالة توازن وانسجام بين الأفراد .

التوازن أساس تكوين الجماعة الاسلامية :

وعبادة المسلمين لله هى تنفيذ هذا التوازن والانسجام . ولا شىء أدل على التوازن من الإيثـار ، كما أنه لا شىء أدل على عدم الانسجام من الأثرة . وما أوجبه الإسلام من عبادة وأحكام هو طريق التوازن ، وما حرمه ونهى عن فعله هو طريق النفرة ، وعدم الانسجام .

بين الإنسان والإنسان علاقات . فإذا سيطر الإيثار على كل منهما كانت المحبة وكان التوازن . وإذا تغلبت الأثرة بينهما كانت الـكراهية وكان الاحتكاك وعدم الانسجام بينهما .

إن الإيثار ليس رغبة ولا أمنية ، وإنما هو مجاهدة وجهاد . مجاهدة فى حمل النفس على أن تدرك حق غيرها فى المشاركة فى الحياة ، وجهاد فى أن تعطى هذا الحق عملياً لغيرها فى صورة فيها وفاء الوجود المشترك . الإيثار هو التغلب على تحكم النفس : تغلب على طمعها ، وتغلب على حقدها .

فإذا وجدت النفس الإيثارية وجدت النفس المصقولة ، وأصبحت كاللبنـة المشذبة المستقيمة ليس فيها اعوجاج ولا نتوء ، فإذا ضمت إلى مثيلتهـا كان الضم مستوياً وأبقى .

وإذا كان الإيثار مجاهدة وجهاداً ، فالنفس لا تقبل عليه إلا إذا كانت لها غاية تتمثلها تمثلاً واضحاً وتقر عيناً بإدراكها .

وسبيل الله هو سبيل الوحدة ، وسبيل القوة ، وسبيل البقاء . ولن يصل إنسان ما إلى الوحدة فى نفسه وفى جماعته ، وإلى القوة فى نفسه وفى جماعته ، وإلى البقاء فى نوعه وفى جماعته ، إلا بالتحكم فيما تدعو إليه نفسه من نزعات ، وفيما تطلبه من جاه مثل : فى ماله ... أو ولد .

تماسك الجماعة

اسس قيام الجماعة الاسلامية :

قامت الجماعة الإسلامية على أسس :

١ — على أن تتجه عبادتها إلى معبود واحد : « وَاعبُدُوا اللهَ وَلا تشركوا به شيئاً(١) » .

٢ — وعلى أن تبقى فى سلام مع غيرها من الجماعات الأخرى : « يَأيها الذينَ آمنوا ادخلوا فِى السّلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين(٢) » .

٣ — ولكن إذا هوجمت من جماعة أخرى غيرها يجب عليها أن لا تستكين لهذا الهجوم : « وَقاتلوا فِى سَبِيل الله الذين يُقاتلونكم ، ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين(٣) » . أو إذا اعتدى عليها يجب أن ترد الاعتداء : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أنّ الله مع المتقين »(٤) .

هذه هى تعاليم الإسلام فى شأن قيام جماعة المسلمين فى علاقاتها مع غيرها من الجماعات الأخرى .

* * *

وإن ما أتى به الإسلام فى شأن تماسك هذه الجماعة وبقائها صلبة قوية — فنبثق أكثر من ذات الإيمان بالله ، ويعود غالبه إلى الجانب الروحى فى الإنسان .

---

(١) النساء : ٣٦ .
(٢) البقرة : ٢٠٨ .
(٣) البقرة : ١٩٠ .
(٤) البقرة : ١٠٤ .

فالإيمان بالله — لاغيره — هو الذى ربط بين الفرد والفرد فى الجماعة الإسلامية . فيجب إذن أن يكون هذا الإيمان ملحوظاً فى الاستمرار فى العلاقة .

الولاء بين المسلمين :

ويجب بناء على ذلك أن لا يهجر المؤمن بولائه وأخلاقه مؤمناً آخر معه ، ويتجاوز بهذا الولاء والإخلاص إلى من هو عدو لهما معاً : « لا يَتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء ، إلا أن تتقوا منهم تُقاة ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله المصير »[1] .

وتعبير القرآن الكريم هنا فى صورة النهى القاطع : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » : ثم حكمه على أن من يصنع ذلك ليس على الحقيقة من المؤمنين بالله فى شىء : «ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء» .. ثم هذا التحذير القوى للمخالف من رب الكون كله سواء فى الحياة القائمة أو الحياة المنتظرة : « ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » — كل هذا يوضح إلى أى مدى حرص الإسلام على تماسك الجماعة الإسلامية وبقائها قوية ، بعد أن قامت وأصبحت لها شخصيتها الخاصة .

إن تجارب الأيام فى تاريخ البشرية تؤكد أن العامل النفسى فى حياة الإنسان والجماعة أقوى من أى عامل آخر سواه ، إذا ضعفت نفس الفرد أو ضعف الترابط النفسى بينه وبين غيره كان التلاشى والفناء للفرد نفسه وكانت القطيعة بينه وبين غيره . وبالعكس تبرز صورة الوجود والحياة واضحة لمن قويت نفسه ، وكذلك الجماعة التى قويت الصلات الروحية بين الأفراد فيها .

وولاء المؤمن للمؤمن الذى يدعو إليه القرآن هو أكثر من صلة نفسية أو

---

(١) آل عمران : ٢٨ .

أى صلة وأكثر من شعور روحى متبادل قائم على التعاطف وعدم النفرة بين فرد وآخر . إن هـذا الولاء هو الإخلاص فى العلاقة ، هو إيثار الصديق للصديق ، هو الإحساس القوى بالكيان المشترك للإثنين معاً .

والإسلام بهذه الآية القرآنية لاينهى عن علاقة المودة بين المؤمن وغير المؤمن . لا ! بل الإسلام يركز النهى هنا فقط فى علاقة المودة والولاء على علاقة خاصة . وهذه العلاقة الخاصة أن يؤثر المؤمن بولائه وإخلاصه ومودته عدو المؤمنين جميعاً ، وهو المعاند لهم المنكر حقهم فى الحياة كجماعة خاصة وهو من سماه بالكافر .. يؤثر بهذا الولاء والإخلاص والمودة دون المؤمنين معه فى الجماعة والمشاركين لوجوده الخاص كمؤمن . وهذا هو صريح قوله : « لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » .

وبما يجب على المؤمن نحو المؤمن من الولاء والإخلاص ، على هـذا النحو الذى بينه القرآن الكريم تقوم الأسباب الأخرى فى تماسك الجماعة وصلاتها . إذ كل تصور للمؤمن وكل عمل يصدر عنه عندئذ هو مبنى على هـذا الإخلاص فى العلاقة .

إذا وجد هذا الاخلاص فى العلاقة فلا يتصور مؤمن عنـدئذ مؤمناً آخر تصوراً يشينه ، وحينئذ لايغتابه ولا ينم ويشى به ، ولايسعى بالفساد بينه وبين غيره ولا يفزع منه ويخافه ، ولاينزع الثقة منه ، ولايحتقره أو يسخر منه .

كما لايصدر من مؤمن عندئذ لمؤمن آخر فعل يؤذيه إيذاء نفسياً أو بدنياً أو يضره فى ماله وولده ، أو فى عرضه وحرماته ، وحينئذ لا يسبه ويشتمه ، ولا يتبعه بالإيذاء البدنى فى صورة ما ، ولا يسرق ماله أو يخدعه ويغشه فى التعامل معـه ، ولا يسىء توجيه ولده ويحرضه على الانحراف والفساد ، ولاينتقص من حرمته فى زوجته أو بنتـه .

وكل ما أتى به الاسلام فى آدابه ووصاياه الخلقية ، سواء فى جانب الترك أو الفعل ، هو فى واقع الأمر تفريع على الولاء الذى طلبه بين المؤمن والمؤمن بصفة كون كل منهما مؤمناً ، وهو ذلك الولاء الذى عبر عنه فى صورة هى تعبير عن الواقع ، أو عما يجب أن يكون : « والمؤمنُون والمؤمنَات بَعْضهم أوْلياء بَعْض[1] » .. كما عبر عنه فى الصورة الأخرى التى أوردناها ، وهى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين .. »

لم تقم الجماعة الاسلامية بالأمس لتفنى اليوم أو غداً . إن قيامها كان نتيجة لرسالة من الله . وكذلك بقاؤها وتماسكها ذو صلة قوية بالإيمان بالله : « وَليَنْصُرن الله مَنْ يَنْصره ، إنَّ الله لَقوِى عَزيز[2] » .

إن الإيمان بالله هو الإخلاص للخير ، ودفع العدوان ، وتعاون على العمل المثمر فى الحياة .

---

(١) التوبة : ٧١ . (٢) الحج : ٤٠ .

الميل الاجتماعى وطريق إنمائه

إن استقلال الفرد من الإنسان حقيقة موجودة غير منكرة ، وإن كيانه الذاتى وخصائصه المميزة أمر واقعى . لكن بحكم طبيعته الإنسانية وما لها من ميول عديدة يتجه بميل خاص فى النوع الإنسانى نحو غيره من الأفراد الآخرين ، وهو ما يعرف بالميل الاجتماعى .

وهذا الميل الاجتماعى — ككل ميل فى طبيعة الإنسان — هو استعداد يقبل الضعف إلى حد أنه يبدو متلاشياً ، وتبدو معه الذات وكأنها لاصلة لها بالآخرين إطلاقاً ، إن فى تصرفاتها وسلوكها معهم ، أو فى أحاسيسها بالنسبة لهم . ويقبل النمو والقوة إلى درجة أن يضحى صاحب هذا الميل القوى فى سبيل فرد آخر أو فى سبيل قيم ومبادىء عامة .

و « الأنانى » — كما يطلق عليه — ليس إلا الفرد الذى كاد ميله الاجتماعى يغيب تماماً فى كل عمل وتصرف يأتى به، وفى كل مسلك يسلكه إزاء الآخرين. تفكيره حول ذاته وحدها ، وسعيه فى الحياة من أجل الذات ومتعتها فقط ،ولذته أو ألمه بسبب ما يتصل بهذه الذات من مصادر اللذة والألم فى الحياة الإنسانية دون مايلحق غيرها فى المجتمع معها .

و «الزاهد » فى متع الحياة المادية من أجل القيم العليا ، والمضحى أو «المستشهد فى سبيل الله » ليس إلا ذلك الفرد الذى دفع إغراء زينة الحياة التى نعيش فيها واكتفى من هذه الحياه بما يحفظ عليه نشاط العمل لتحقيق أهداف أخرى وراء ذاته ، وهى المبادىء والقيم الإنسانية التى يعم نفعها مجموعة من الناس فى وطن معين أو البشرية عامة . ولأن نفع هذه المبادىء والقيم عاماً وليس للفرد وحده : توصف دائماً بأنها « عليا » أى فوق مصلحة الفرد وذاته .

فالميل الاجتماعي عند الأول — وهو الأناني — ضعيف لايمكن معه قيام مجتمع ، فضلا عن أن يكون مجتمعاً متماسكاً . لايمكن معه أن يكون هناك ترابط مع غيره من أفراد البشر ، لأن الأساس المشترك للترابط مفقود أو في حكم المفقود . وهو أساس «الاعتراف بالغير والآخرين معه» .. ذلك الأساس الذي يقوم عليه التبادل ، والتعاون ، والتضامن . وفي النهاية يؤدي إلى تكوين إحساس قوي بالمصالح المشتركة وصيانتها والدفاع عنها . وعندئذ فقط يبدأ المجتمع ، ثم يتلو هذه البداية نماؤه وتزايد العلاقات بين أفراده .

... بينما هذا الميل الاجتماعي عند الثاني — وهو الزاهد أو المضحي أو المستشهد في سبيل القيم والمبادىء العليا — يبلغ ذروته . لأن أي واحد من هؤلاء لم يركز تفكيره وسعيه في الحياة من أجل الذات وحدها . بل على العكس تجاوز في هذا التفكير وفي هذا السعي : الذات نفسها وتخطاها كي يعيش في رحاب أوسع في سبيل قيم ومبادىء تعلو هذه الذات وترتبط بمصالح الآخرين ارتباطاً مباشراً . ويكفي أنه يزهد في المتع المادية للحياة ليتركها لغيره ، أو يضحي بماله وولده وبما يملك من طاقات في سبيل الآخرين ، أو يضحي بنفسه ويستشهد ليعيش الآخرون بعده في المجتمع عيشة أكرم قوامها التخلص من انحرافات الأنانية .

ولأن الزهد في متع الحياة المادية ، والتضحية بالمال والولد ، والاستشهاد والموت في سبيل المبادىء والقيم العليا .. هي نماذج إنسانية لبلوغ الميل الاجتماعي قمته عند الفرد .. لايطلب أن يكون جميع أفراد المجتمع هذا النموذج . لأن ذلك مطلوب غير واقعي ، تقف عقبات كثيرة في طريق تحققه ، وهي عقبات « الأنانية » والعكوف في التفكير، والسعي على الذات وحدها وما لها من شهوات وأماني .

والذي يطلب هو فقط : تحقيق مستوى من الميل الاجتماعي يقوم معه المجتمع ويبقى متماسكا . ولكن تحقيق هذا المستوى لايتم إلا بالحد من الأنانية ، عن طريق حمل

الأفراد — بوسائل مقبولة يرضونهـا — على الاعتراف بالآخرين ، والمشاركة فيما بينهم فى السراء والضراء ، وتبـادل المصالح المـادية ، وقبلها تبادل العواطف الإنسانية .

وإذا نحن قرأنا هذه الآيات القرآنية من سورة آل عمران :

١ — « زُيِّنَ للناس حب الشهوات ،

« من النساء ،

« والبنين ،

« والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ،

« والخيل المسومة ، والأنعام والحرث ،

« ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المـآب .

٢ — « قل أؤنبئكم بخير من ذلـكم ،

«الذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، «وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد .

« الذين يقولون : ربنا إننا آمنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وقنا عذاب النار .

« الصابرين ،

« والصادقين ،

« والقانتين ،

« والمنفقين

« وَالمسْتَغفِرين بِالأسْحَار » (١) .

... إذا نحن قرأنا هـذه الآيات نجد القرآن الـكريم يصنف الناس صنفين : صنف يحب نفسه وتطغى عليه أنانيته ، ومن أجل ذلك تغريه متع الحياة ويتوسع فى التمتع بها ويركز عليها ، ولا يكتفى منها بمـا يحقق له أسباب الوجود والبقـاء فحسب ، كى يوجه النشاط الزائد على تحصيل أسباب وجوده : إلى خـير مجتمعه وأمته أى إلى خير الآخرين معه .

والتوسع فى متع الحياة المادية وهى النساء ، والبنين ، والأموال على اختلاف أنواعها نقدية أو عينيه يسميه القرآن : « شهوات » . فطلب متع الحياة فى ذاتها لحفظ البقاء أمر مفروغ منه ، وواجب لمواصلة سعى الانسان لتحقيق القيم والمبادىء العليا . ولـكن الأمر الذى لا يرحب به القرآن هو التوسع فى هذه المتـع أو هو الوقوع تحت إغراء مفاتن : « الشهوات » كما يعـبر القرآن نفسه ، بحيث يقصر سعى الفرد عليها من أجل ذاته وحدها . والمعيب إذن ليس الاتصال بالمرأة ، ولا نسل الأولاد ، ولا اقتناء المـال ، لأن ذلك أمر فطرى . وإنما الانحراف فى كل ذلك . ومعيار هذا الانحراف هو الاغراق فى الملذات والمتع .

أما الصنف الثانى من النـاس ، وهو يرضى عنه القرآن ، فهو ذلك الذى آمن بالله . آمن بالقيم العليا والأهداف التى تتجاوز ذاته ، والذى يتقى الفواحش ، وهى الانحرافات فى التمتع بالحياة المـادية والوقوع تحت إغرائها ، والذى يصبر عنـد الملمات والأزمات فلا يفقد إيمانه ولا يتشكك فى تمسكه بالمبادىء والمثل ، والذى يصدق فى إيمانه وتقواه ، ويصدق كذلك إذا ما تحدث أو نصح ، ولا يخدع غيره بالـكذب والاختلاق ، والذى ينفق من ماله فلا يبقى منه إلا مايكفى حاجته ،

فى سبيل مجتمعه وأمته . فى سبيل بقاء هذا المجتمع وإعزاز الأمة إذا مادعا الداعى وتأكدت الحاجة إلى ذلك .

وهذا الصنف بأوصافه الخاصة يصور أصحاب الميل الاجتماعى الذين خرجوا بنشاطهم عن دائرة الذات ، ولم يقعوا تحت إغراء مفاتن الشهوات والمتع المادية فى الحياة .

* * *

والشأن لو ترك النـاس لطبائعهم وغرائزهم فإنهم ينهجون النهج الأول ويسلكون فى الحياة مسلك الوحدات المستقلة التى ينكر بعضها بعضاً ، ويخاصم بعضها البعض الآخر . لأن الـكل لايريد الحفظ على الذات فحسب وإنمـا يدفع بحكم الإغراء إلى التوسع فى تحقيق مطالب الذات ، وهى لاتنتهى . وهذا التوسع يؤدى حتما إلى الاعتداء على حق الآخرين فى الحياة . ومقتضى غريزة — المقاتلة — فى الطبيعة البشرية والحيوانية على السواء يثير فى الذات المعتدى عليها الدفاع عن النفس . وهذا معناه الاشتباك والخصومة بين المعتدى والمعتـدى عليه . والواقع عندئذ أن كل فرد معتد على غيره.. ومعتدى عليه من غيره ، حسب الاختلاف فى القوة والضعف .

ويشير الشق الأول من الآيات السابقة إلى ذلك فى قول الله تعـالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنـــين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ... »

* * *

ولأجل الخروج من دائرة « الذات » فى التفـكير ، والسلوك ، والإحساس ، إلى دائرة الاعتراف بالغير والتعاطف بين الإنسان وتبادل المصلحة بينهما والحفـاظ

عليها والتماسك سويا من أجل البقاء ، والبقاء للقوى ... كان لابد من أن توجه الطبيعة البشرية توجيهاً قوياً يحقق لها هذه النقلة أولا ، ثم تلتزم برعايتها بحيث تحب للغير ماتحب للنفس ، وبحيث يكون الفرد للفرد كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وبحيث ينجذب الفرد نحو الفرد ويتداعى كل منهما للآخر عند الملمات ، كما تداعى أعضاء الجسم الواحد بعضها لبعض لدفع العلة والابقاء على ترابطها .

وقاعدة هذا التوجيه هي : « الإيمان بالله » . وليس غير الايمان بالله من طريق ينمى الميل الاجتماعى فى الطبيعة البشرية ويخفف فيها حدة : « الأنانية » وطغيان : « الذات » .

لأن الإيمان بالله نقل للإنسان من مخالب الحياة المادية وتشابكها مع الذات إلى قيم عليا هى القيم الإنسانية فى أرفع مستواها . فإذا سعى الإنسان المؤمن عندئذ سعى فى دائرتين : دائرة دنيا وهى التى تلتصق بذات الفرد ، ودائرة عليا وهى ماتعم هذه الذات وغيرها من أفراد الانسان . وبذلك يكون هناك توازن على الأقل فى نشاط الفرد ويخرج عن التركيز فى دائرة الذات لاغير .

والإيمان بالله ليس تصديقاً بقيم عليا فى المجتمع الإنسانى فحسب ، وإنما هو تطبيق وسعى لتحقيق هذه القيم فى حياة الفرد — كل فرد . وأولى هذه القيم : الاعتراف بالغير والترابط معه على أساس إنسانى متساوٍ فى الاعتبار والقيمة .

ومن أجل ذلك ابتدأ البعض الآخر من الآيات التى ذكرت هنا بهذا الايمان فى قوله : « الذين يقولون : ربنا إننا آمنا ، فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . . »

ولـكى يكون الايمان بالله حقيقة واقعـة فى حياة الفرد المؤمن . . كان دور مايسمى بالعبـادات التى هى الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحـج : فى الممارسة والتطبيق .

وهذه العبادات ليست رسوماً وصوراً تؤدى . وإنما هى فى جانب الصلاة: تفريغ النفس من سيادة الأنانية وتحـكم الذات فى اندفاعها نحو إغراء متـــع الحيـاة المـادية . وفى جانب الصوم والزكاة : مباشرة إيجابية فى: « الاستغنـاء » و « التنازل » للغير . وفى جانب الحج : لقاء عملى بين الأفراد وتعاهد على الترابط فى حدود القيم الانسانية وحدها ، دون خضوع لإغراء المتع الدنيوية وزينة الحياة.

ومن هنا كان اقتراب الانسان فى الحج إلى الفطرة والبعد عما يمـيز إنساناً عن آخر بالزى والمظهر أمراً واجب الاتباع .

* * *

وصوم رمضـان ليس إمساكا فحسب عن مأكل ومشرب ، ولا إمساكاً كذلك عن لغو الحديث وانفعال النفس فترة معينة فى اليوم . وإنمـا هو قبل كل شىء : « اكتفاء » بأقل مايمكن فى معيشة الإنسان مما يحتاجه الإنسـان فى حفظ بقاء ذاته . حتى إذا تأزمت أوضاع المجتمع الاقتصادية يوماً ما . . كانت هناك طاقات إرادية لدى الأفراد تدفع للتنازل للغير ، والاستغناء عن بعض مايملك الفرد ، بالمستوى الضرورى فى المعيشة .

ولذا كان للصـوم الذى هو عبـادة وقربى لله آداب فى الفطور والسحور ـ أى عند استئناف الأكل والشرب ـ يجب اتباعها . وتستهدف هذه الآداب فى جملتها تحقيق معنى : « الاكتفاء » بالأقل وبالضرورى فى حياة الإنسان ، كى تبقى بعد ذلك : فضلة تسد حاجة الغير .

وقيمة صوم رمضان لاتقف عند حد الشهر المعين . بل تتجاوزه إلى الحياة الإنسانية للفرد الصائم عامة ، بحيث يكون رمضان فى كل عام تجربة تقوى فى حياة الانسان معنى الاكتفاء ، وليس من الوجهة النظرية، وإنما فى التطبيق والممارسة .

ومن هنا كان تقييم الحديث الشريف لصوم رمضان : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » . وما كان لله فهو للمجتمع . . والأمة . . . والإنسانية .

الفصل الثانى

- (أ) تكافل فى البناء والاستقرار
- (ب) تكافل فى المحافظة على البقاء
- (جـ) تكافل فى الولاء
- عدم الخداع فى الصلات بين الأفراد والجماعة
- الرعاية والمسئولية
- اداء الواجب اولا

التكافل فى البناء والاستقرار

اعتاد القرآن الكريم فى توجيه خطابه إلى الجماعة الإسلامية كجماعة وأمة — لا كأفراد — أن يوجه نداءه ووصاياه إلى المؤمنين فى صيغة الجمع فيقول : يأيها الذين آمنوا .. المؤمنون والمؤمنات .. وما أشبه ذلك ، مما يدل على أن الأمر المعنى لا يخصهم كأفراد متفرقين ، ولكن يخصهم فى صلات بعضهم ببعض . وصلات الأفراد بعضها ببعض هو معنى الجماعة والأمة .

ولو انتقلنا الآن إلى ما يطلبه الإسلام من المؤمنين به كجماعة وأمة لوجدناه يدور حول: « التكافل » أو التضامن والتعاون . وهذا شىء طبيعى فى تكوين أية جماعة ، وفى صراعها من أجل البقاء ، وفى تمكنها من بلوغها ما تهدف إليه فى الحياة ، وتحقيق ما نيط بها من رسالة .

والتكافل أو التضامن أنواعه متعددة أو مظاهره متنوعة : فهناك تكامل وتضامن فى البناء . وهناك تكافل فى المحافظة على البقاء وصيانة الجماعة من الهجوم الخارجى عليها كما يقول القرآن الكريم : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »[1] . وهناك تكافل فى الولاء والإخلاص فى الروابط كما يقول : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض[2] » . وهناك تكافل فى تسوية الخلاف الداخلى بين أفراد الأمة : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »[3].

ونتحدث الآن عن التكافل فى البناء والعمل من أجل الاستقرار . .

يطلب الإسلام : أن يتضامن المسلمون ، وأن يعاونوا فى البناء وفى إقامة

---

(١) البقرة : ١٩٠ .
(٢) التوبة : ٧١ .
(٣) الحجرات : ١٠ .

حياة جماعية مستقرة . فقال : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وقد شرح الله معنى: «البر» فى آية أخرى ، فى قوله : « ليس البر أنْ تولُّوا وجُوهَكم قِبَلَ المشرق وَالمغرب ، وَلكنَّ البرَّ مَنْ آمنَ بالله وَاليوم الآخر وَالملائكة وَالكتاب والنبيِّين ، وآتى المالَ عَلى حُبِه : ذوى القُرْبَى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسَّائلين وَفى الرقاب ، وَأقام الصَّلاة ، وآتى الزكاة ، وَالموفون بِعَهْدِهِم إذا عَاهَدُوا ، والصابرين فى البأسَاء والضرَّاء وحين البَأس ، أُولئِك الذين صَدَقُوا وَأُولئِك هم المتقُون(١) » .

فالبر الذى طلب من المسلمين أن يتكافلوا من أجله هو : عقيدة وعبادة .. وحسن معاملة .. وتحمل فى الشدائد .. ومنح وإعطاء فى الرخاء : إيمان بالله وباليوم الآخر والكتاب والملائكة والنبيين . . وعبادة بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة .. وحسن معاملة بالوفاء بالعهد .. وتحمل وصبر فى البأساء والشدائد .. ومنح وبذل للمال على الرغبة فيه لمن يستحق العون والمساعدة من أبناء الجماعة .

والبر إذن مجموعة من الصفات يجب أن تكتسب وتحصل . والتعاون عليه هو تعاون على خلق السبيل القويم لاستقرار الجماعة ، ورفع أسباب الخصومة والاحتكاك بين الأفراد بعضهم ضد بعض . وبداية هذه المجموعة من الصفات : الإيمان بالله ، وما يتصل به من الإيمان باليوم الآخر والكتاب والملائكة والنبيين . وشأن الإيمان بالله وما يتصل به أن يحول بين الإنسان وبين أن يطغى بما يملك فى هذه الحياة من جاه أو مال ، كما يحول بينه وبين أن يضعف وييأس إذا سلب منه الجاه والمال ، أو إذا لم يصل إلى جاه أو مال فى حياته . يحول أيضاً بينه وبين أن يخدع بزخارف هذه الحياة حتى ينكر غيره ومشاركه فى الدم والقرابة أو فى

(١) البقرة : ١٧٧ .

الجوار والوطن فى سبيل الحصول على زخرفها . وعندئذ ليس له هدف إلا أن يعيش هو كما يشاء وكما يهوى ، ولو على حساب أسرته وشعبه .

ونهاية هذه المجموعة من الصفات التى تعبر عن البر والتى طلب الاسلام من المسلمين كجماعة التعاون على تحصيلها هى : التحمل عند قسوة الحياة ، فلا يفقد الانسان نفسه ، ولا تفقد الجماعة كيانها وروابطها فى أزمات الحياة وضيقها . وطلب تحمل قسوة الحياة ليس تخديراً لفريق من الناس وصرفاً له عن متع الحياة، توفيراً لهذه المتع لفريق آخر فى الجماعة . إنه طلب عام ممن يؤزم وتشق عليه الحياة لسبب ما . والانسان ليس صاحب وضع واحد فى حياته ، وليس بمأمن من الضيق بعد الرخاء .

وما بين بداية هذه المجموعة من الصفات . . ونهايتها من أداء العبادة والمنح والاعطاء ، وحسن المعاملة والوفاء بالعهد : هو أشبه بنتيجة للإيمان الصادق ، ثم فى الوقت نفسه تمهيد نفسى للصبر وتحمل أزمات الحياة ، وعدم فقد الإنسان ثقته فى نفسه وفى الله خالقه . ولذلك عقب الله فى هذه الآية بقوله : «أولئك هم المتقون » .. أى فإن هؤلاء الذين يحصلون هذه المجموعة من الصفات هم الذين صدقوا فى إيمانهم واتقوا الله فى سلوكهم . فالتعاون فى البر تعاون على البناء والاستقرار فى حياة الأمة . وهو تعاون أيضاً على كبت أسباب الخصومة والشحناء . وذلك هو قوله جل شأنه : «ولا تعاونوا على الاثم والعدوان» . فالإسلام لا يريد من جماعة المؤمنين به غير البناء ، والعمل المثمر لخيرهم وخير الناس جميعاً . ويحدد طلبه لتعاونهم وتكافلهم فى هذه الدائرة الإيجابية ، بأنهم لا يتجاوزون به إلى ما يسبب الهدم والشقاء من الإثم والعدوان ، أى مما يعد به الإنسان مذنباً أمام الله ومتجنياً على غيره أمام الناس .

إيمان وعبادة ومعاونة :

التكافل فى البناء هو تكافل فى الخير ، وتضامن على عدم الإيذاء. وأساسه الإيمان بالله ، وأداؤه ما يجب على الإنسان أداؤه من عبادة لربه ، وكذا أداء ما يجب على المؤمن أداوه لأخيه المؤمن من الوفاء بالعهد الذى يهدف إلى الخير ، ومعاونته بماله فى الظروف التى تدعو إلى المعاونة ، ثم عدم فقد الثقة بالنفس وبالله عندما تقسو أزمة من أزمات الحياة .

رسالة المسلمين :

ورسالة المسلمين فى الحياة إذن ليست رسالة هدم ، وليست رسالة كسل وبطالة ، وليست رسالة ضعف واستكانة أمام أحداث الحياة ، وليست رسالة تحصيل متع فردية أو منافع طائفيه . إنها رسالة البناء والاستقرار ، منكم جميعاً ، وإليكم جميعاً ، وتعاونكم هو تعاون فى تحقيق هذه الرسالة . فأنتم لكم رسالة . وواجب عليكم التعاون فى أدائها . وأنتم لذلك أمة وجماعة لا أفراد وطوائف .

التكافل فى المحافظة على البقاء

كما يطلب الإسلام تكافل المسلمين وتضامنهم فى الدفاع عن وجودهم والمحافظة على بقائهم . يقول الله تعالى فى قرآنه الكريم :

« وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(١) » .

ومعنى قوله [فى سبيل الله] هنا : تلك الغاية التى اجتمعت من أجلها جماعة المؤمنين وأصبحت مميزة بها . وهى غاية الإيمان بالله ، والعمل المثمر فى الحياة ، لا من الوجهة المادية فقط ولكن من الوجهة النفسية والروحية قبل ذلك . سبيل الله هو الرسالة التى وضح معالمها الكتاب المنزل ، وهى رسالة الأخوة والصفاء ، ورسالة البناء والانتاج ، ورسالة التعاون والمشاركة ، فى سبيل حياة أفضل وفى سبيل سلام أكثر استقراراً واطمئناناً .

فإذا قاتل هذه الجماعة المؤمنة بهذه الرسالة ، فريق من غير أهلها ، فواجب المؤمنين أن يتكافلوا ويتضامنوا فى دفع هذا القتال ، يجب عليهم أن يقاتلوا الذين يقاتلونهم ، ولكن وجوب تضامنهم وتكافلهم فى دفع هذا القتال مشروط بأن يكون الباعث عليه هو المحافظة على أهداف جماعتهم ، هو أن يكون فى سبيل الله .

ولم تكن جماعة المؤمنين جماعة إلا عند اجتماعها على هذه الأهداف . إذ بدون هذه الأهداف هم أفراد عاديون ، هم أفراد متفرقون يتبعون سبلا شتى . وإذن سبيل الله هو شعار جماعتهم ، وإذن بقاء جماعتهم رهن ببقاء هذا الشعار . فإذا لم يقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونهم ليصدوهم عن سبيله ، ذهب معنى الجماعة من نفوسهم وفى علاقة بعضهم ببعض .

---

(١) البقرة : ١٩٠ .

أنتم مسلمون أى تتبعون رسالة الإسلام . وأنتم جماعة ، وشعار جماعتكم سبيل الله ، فواجب عليكم أن تتآزروا فى دفع العدوان عليكم من أجل شعار جماعتكم ، من أجل بقائكم جماعة وأمة . ومن يقاتلكم من أجل أهدافكم فى حياتكم كجماعة ، ومن يعمل على تفريق جماعتكم فى عزم وتصميم ، ومن يباعد بينكم وبين شعار جماعتكم ، ومن يحاول أن يجعلكم أفراداً بعد أن أصبحتم إخواناً ، وبعد أن كنتم خير أمة أخرجت للناس ، ومن يعمل على إفنائكم وإذلالكم ، هو فى منزلة من يقاتلكم إذ كل واحد من هذه الأعمال بمثابة القتل فى نتيجته . إذ نتيجة قتلكم : ذهاب جماعتكم التى اجتمعت فى سبيل الله .

وقتالكم لهؤلاء هو ردكم لعملهم كى تحافظوا على بقائكم ، وكى تصونوا أنفسكم كجماعة لها كيان مستقل . وردكم لعمل هؤلاء الذين يحاولون القضاء عليكم ، وتضامنكم جميعاً فى هذا الرد أوجبته هذه الفقرة فى الآية الكريمة : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ».. فالخطاب فيها موجه لجميع المؤمنين ، وهو بصيغة الأمر والوجوب .

١ — ولأن الإسلام حريص على السلام والاستقرار فى ذاته حرصه على بقاء جماعتكم — نهاكم فى نفس الآية ، عن الاعتداء على غيركم فقال: « ولا تعتدوا » ثم أكد هذا بقوله بعد ذلك : « إن الله لا يحب المعتدين » . لأن الاعتداء هدم ليس فيه بناء . ولكن قتال المقاتل لكم هو دفع لاعتدائه ، هو دفع لهدمه لرسالتكم وجماعتكم ، فهو بناء . لأن الحيلولة دون الهدم تنطوى على بناء .

وهذه الآية الكريمة ، فيما أمرتكم به من دفع عدوان غيركم عليكم ، وفيما نهتكم عنه من اعتدائكم على غيركم — حددت خطتكم وموقفكم من جماعتكم : يجب أن تتكتلوا وتدافعوا عن هذه الجماعة ، ويجب أن تنصرفوا عن الإساءة لغيركم .

واجب المسلمين نحو جماعتهم :

هذا واجبكم نحو جماعتكم ، وجهكم إليه إسلامكم . أنتم ، أعضاء هذه الجماعة تشعرون بوجودها ، ومصيركم مرتبط بمصيرها . ولذا أنتم وحدكم أخلص وأقدر على أداء مايطلب منكم فى سبيل بقائكم . ومن يظن منكم أن غيركم من خارج جماعتكم يمكن أن يشاركـكم فى دفع العدوان عليكم ، وفى حفظ استقلالكم — كجماعة خاصة — فقد توقع ما يستبعد وقوعه من طبيعة البشر . تروى عائشـة رضى الله عنها أنها قالت:

« خرج النبى صلى الله عليه وسـلم قبل بدر (أى متجها الى بدر) فلما كان بـ « جرة الوبرة » (موضـع على أربعة أميال من المدينة) أدركه رجل يذكر بالجراة والنجدة ففرح به الأصحاب ؟ فقال للنبى صلى الله عليه وسلم : جئت لأتبعك واصيب معك ــ فقال : تؤمن بالله ورسوله ، قال : لا . قال فارجع فلن أستعين بمشرك ، ثم مضى ، حتى اذا كنا بـ «الشجرة» إدركه الرجل فقال له كما قال أول مرة ، فرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم كالمرة الأولى . ثم رجع فادركنا بـ « البيداء » فقال كالأول فقال له النبى صلى لله عليه وسـلم : تؤمن بالله ورسوله ؟ قال : نعم فقال له : انطلق . فاذن له رسول الله بالمشاركة فى الدفاع ، بعد أن اصبح عضـواً فى الجماعة المؤمنة .

فالمشرك بشركه قد بعـد كل البعد عن هدف الجماعة الإسلامية وغايتهـا فلايتوقع منه أنه يخلص إن اشترك مع المسلمين فى الدفاع عن جماعتهم . لأنه على النقيض منهم ، إذ هو عدوهم . وكذلك الشأن مع كل من يناوىء جماعة المسلمين فى أهدافها ويحول بينها وبين الاحتفاظ بكيانها كأمة غير تابعة وغير مستذلة — لايصدق إن تحدث عن معاونة ، ولايخلص إن شارك فى عمل يتصل بصميم استقلال الجماعة الإسلامية .

الحياة كفاح . وكفاح المسلمين فى سبيل بقائهم هو الطريق لحياة كريمة ، وهو الطريق للبناء . فليكونوا أصحاب سلم وتسامح ، ولـكن عليهم أن يقاوموا كل من يريد إفناءهم ، أو إذلالهم .

التكافل فى المحافظة على الولاء

١ — يقول الله جل شأنه : « والمؤْمنون والمؤْمنات بعضهم أولياء بعض »(١). أى المؤمنون والمؤمنات حماة بعضهم بعضاً ، ورفقاء بعض لبعض. وأخبر القرآن عنهم بأنهم على هذا النحو من الولاء فى العلاقة بينهم ، ليشير إلى أن كونهم مؤمنين يجب أن يستتبع أن يكونوا أقرباء : بعضهم من بعض ، ونصراء : بعضهم لبعض. لأنهم ساعة أن آمنوا ، آمنوا بأنهم : « يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله(٢) ».. فقد آمنوا ، مشتركين فيما آمنوا به من مثل وقيم فى هذه الحياة. وشأن الاشتراك فى الإيمان بأهداف واحدة عليا ، أن يجعل الإخلاص والنصرة والرفقة بين المشتركين جميعاً فى علاقة بعضهم ببعض : أمراً لازماً. ولو أن هذه الأهداف كانت مادية من أعراض هذه الحياة الدنيا ، كالاستيلاء على الغير وسلب ما فى يده من مال وثروة ، أو تسخيره فيما لا يسخر فيه إنسان ذو كرامة ، لما كان الاشتراك فيها مستتبعاً : « الولاء » بين المشتركين والإخلاص والنصرة فى علاقاتهم. ولو أنه لم يكن هناك إيمان أصلاً بالأهداف السامية عن مادية الحياة ، وكان موضع الإيمان بها معرفة وعلم بها فقط — لما كان الاشتراك فى العلم بها مستتبعاً أيضاً : « الولاء » والنصرة فى العلاقات.

اتحاد الهدف ونزاهته :

إنه الإيمان ، والإيمان بالمثل والأهداف النزيهة عن دناءة ما فى هذه الحياة من متع مادية موقوتة — هو الذى يحيل الاشتراك فيه إلى علاقة الولاء ، والمحبة

---

(١) التوبة : ٧١ .

(٢) التوبة : ٧١ .

والنصرة بين المؤمنين جميعاً . ومن أجل هـذا ، قال القرآن الـكريم فى صيغة الإخبار ، وفى وصف الإيمان : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أوليـاء بعض » .

وإذ لم يأمر المؤمنين بأن يكون بعضهم ولى بعض ، وأن يتبادلوا الحـماية والنصرة فيما بينهم ، وأن يتعاونوا على إيجاد الولاء والرفق فى صلاتهم ، لأن ذلك أمر لايحتاج إلى إنشاء جديد بين المؤمنين ، بعـد أن يصبحوا مؤمنين . وكأن الإيمان مستلزم لهذا النحو من العلاقة بين المؤمنين ، كما هو مستلزم ضد هذه العلاقة من التوتر ، وعدم المعاونة فى الصلات بين ينـكر عليهم رسالتهم فى الحياة وهى الرسالة التى أوحى بها الله لرسوله عليه السلام : يقول جل شأنه : « لا تَجِدُ قَوْماً يُؤمِنُون بالله واليَوْم الآخر ، يُوادُّون منْ حادَّ الله وَرَسوله [أى خالفهم فى إصرار] وَلَو كانُوا آباءَهُم ، أوْ أبنَـاءَهُم أوْ إخوَانهم أوْ عَشِيرَتَهم »[1] .

وإذن مقتضى الإيمـان أن يحيل علاقة المؤمنين بعضهم ببعض إلى رفقـة ، ونصرة ، ويحيل كذلك علاقتهم بمن عداهم ممن يناصبهم العداء من أجل وجودهم ومن أجل حياتهم ومن أجل أهدافهم .. إلى توتر وكراهية .

ولـكن قد يواجه القرآن المسلمين بالنهى الصريح عن الموالاة لخصومهم فى بعض الحالات : وذلك إذا بدا فى موالاتهم لغيرهم : الخطر على جماعتهم وكيانهم كأمة مستقلة برسالتها وأهدافها : على نحو ما يقول القرآن : « ودّوا لو تكفرُون كما كَفَرُوا [أى تكونون على نحو ما يشتهون] فَتَـكونُون سواء [أنتم وإياهم ، وعندئذ لا استقلال لـكم ، وليست لـكم رسالة خاصة] فلا تَتخِـذُوا منهم أوْلِيَاء[2] » .. فإذا بدت العداوة والبغضاء من أفواههم ، وظهر الخطر على جماعة المؤمنين من تصرفاتهم ، عندئذ يمنع المسلمون منعاً واضحاً من التودد إليهم ، فضلاً عن الركون إلى مشورتهم ، ويترك أمر الموالاة فيما بين بعضهم بعضاً فقط .

---

(١) آخر المجادلة (٢) النسـاء : ٨٩

المحافظة على ولاء المسلمين بعضهم لبعض :

٢ — ولأن الموالاة بين المؤمنين والمؤمنات بعضهم مع بعض ، تكاد تكون أمراً مفروغاً منه بعد إيمانهم ، لايحتاج فى تأكيده إلى أمر خاص من الله سبحانه — كانت أوامره جل شأنه فى جانب علاقات المؤمنين بعضهم ببعض يتجاوز أصل الموالاة ، وأصل الرفقة والمودة إلى ما يحفظ بقاءها وإدامتها . يقول القرآن الكريم : « وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا [أى تخاصموا وتنازعوا] فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى [أى تجاوزت الحدود فى الخصومة والنزاع ، وذلك عندما يشتد الهوى عندها وتقوى الرغبة الخاصة] فقاتلوا [أى كافحوا] التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله . [أى ترجع إلى الحدود التى رسمها الله فى العلاقه بين المؤمنين ، وهى هنا الموالاة والنصرة] ، فإن فاءت [ورجعت] فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين[1] » . وهنا يطلب القرآن من المؤمنين أن يتعاونوا وأن يتكافلوا ، لا فى إقامة الولاء فى العلاقات بين بعضهم بعضاً . ولكن فى الحرص على بقاء هذا الولاء وفى استمراره بدفع النزاع والخصومة ، وتسوية الأمر بين المتنازعين تسوية عادلة . ويؤكد معنى هذا الأمر : أمر آخر فى الآية التى تلى هذه الآية مباشرة وهى : « إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون[2] » . فلم يأمرهم القرآن فى هذه الآية بأن يكونوا إخوة لأن ذلك أمر مفروغ منه ، بعد الاشتراك فى الإيمان بالله ورسالته ، وإنما أمرهم جميعاً بالتعاون والتكافل فى التوفيق بين المتنازعين فيهم ، وعبر عن المتخاصمين منهم : بالأخوين ، إشعاراً بأن من شأن العلاقة التى أساسها الإيمان : أن لاتنفصم ، وأن لاتخرج بحال عن علاقة

---

(١) الحجرات : ٩ (٢) الحجرات : ١٠

الأخ بأخيه ، والرفيق برفيقه ، والمشارك لمشاركه فى الحياة ، وأن النزاع الذى يحدث هو شىء طارىء ، مصيره إلى الزوال .

هذا هو تحديد القرآن لعلاقة المسلمين بعضهم ببعض . إيمانهم بالله يستتبع أن يكونوا إخواناً فى الله وفى سبيله . وأن تكون علاقة بعضهم ببعض أسبق ومفضلة على علاقتهم بغيرهم . وإذا كان غير المسلمين لا يألو جهداً فى التضييق عليهم ، وقد يضمر لجماعتهم الفناء ، فعليهم أن يناصبوه العداء ، دون الولاء ، إن كانوا من أولئكم : «الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب[1]» .

---

(١) الرعد : ٢٠ ، ٢١ .

عدم الخداع فى الصلات بين الأفراد والجماعات

الإسلام دين الفطرة الإنسانية . ومعنى ذلك أنه يحدد فى اتجاهاته ووصاياه ماتنمو به الطبيعة الإنسانية فى صفائها التى فطر الناس عليها ، من غير التواء ولا اعوجاج. وصاياه وتعاليمه وتوجيهه الفرد فى صلته بغيره ، والجماعة فى صلتها بغيرها ، والشعب فى علاقته بشعب آخر ، توجيهاً ليس فيه مواربة ولا تدليس ولا خداع فيه .

يحارب الخداع والمواربة فى علاقة المسلمين بالله ، ويطلب منهم أن يكونوا مخلصين فى عبادته : « فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص[1] » .

ينصح المسلمين منذ نشأتهم على أن يدربوا أنفسهم على عدم انطواء قلوبهم على الغش والخديعة لغيرهم ، ويبشر من اتبع ذلك بأن تكون الجنة مكفولة له :

يروى أنس رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **يابنى ان قدرت ان تصبح وتمسى ، وليس فى قلبك غش لأحد فافعل . ثم قال لى : وذلك من سنتى ، ومن احيا سنتى فقد احبنى ، ومن احبنى كان معى فى الجنة** » .

الخداع إذن مناف للفطرة السليمة ، ومضاد للتوجيه المستقيم . الخداع نوع من التضليل فى المعاملة والعلاقات . الخداع يقوم على سوء النية ويهدف إلى الانتصار الرخيص، الانتصار الوقتى الذى تسوء عاقبته على المخادع نفسه: « يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون[2] » .

الإسلام يحارب الخداع فى جميع صوره ، لأن نتيجته مفجعة مؤلمة للطرفين لمن خدع غيره ، ولمن خدع به . والرسول صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن أبى هريرة رضى الله عنه يقول : « **حسن الظن من العبادة** » .. فيقتلع بذلك الأساس الذى يقوم عليه الخداع والتضليل وهو سوء الظن، سواء : سوء ظن الفرد بالفرد ، أوسوء ظن الجماعة بالجماعة .

يعتبر بعض الناس أن الخداع ضرب من الكياسة فى المعاملة ، ولكنه فى واقع

---

(١) الزمر : ٢ (٢) البقرة : ٩

الأمر مكروسىء يحيق أثره الخبيث بالماكر نفسه. لأن الذى يعتاد الخديعة فى معاملته لغيره يتضح أمره بعد قليل ، ويكشف بذلك عن سوء نيته ، فيتجنبه الناس لا خوفاً منه لأنه قد عرف ، ولكن احتقاراً له : « ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم » .. بهذه الآية الكريمة ينصح المولى جل وعز رسوله الكريم بتجنب الساعى بالافساد فى مواربة وخداع ، ويصفه بأنه مهين محتقر .

ويعتبر بعض الشعوب أن الخداع فى العلاقات العامة نوع من اللباقة السياسية . ولكن ذلك فى واقع الأمر إفلاس : فى كسب الشعوب عن طريق المودة والمعاونة فى صورها المختلفة .

إن الذى يعلن صداقته للدين وهو يحاربه : مخادع ، والذى يعلن عشقه للحرية الفردية أو الشعبية وهو شاهر سيفه: مخادع ، والذى يعلن تودده للفقراء : وهو يمسك عنهم البذل والاعطاء : مخادع ، والذى يعلن حبه للإنسانية وهو جلاد أو مستغل مخادع ، والذى يعلن حسن العلاقة بينه وبين القيم الرفيعة والفضائل الإنسانية وهو مادى منحرف فى ماديته : مخادع .

الاستعمار خداع ، والاشتراكية العالمية خداع ، والمدنية الانسانية إن لم تخدم المثل العليا فى صراحة فهى خداع .

ومن الآيات على أن الإسلام دين الله ، دين الانسانية عامة : أنه أبعد الخداع فى علاقات الانسان بربه وبغيره ، وفى علاقات الشعوب بعضها مع بعض ، وبالغ فى إبعاده، لأنه لا يكون معه إخاء ووئام ، وهو يسعى فى هدفه الأخير إلى الإخاء والوئام .

هذا دين الله . هذا هو الإسلام . فلا تطمئن إلا لمن تأمن جانبه . نح عنك كل مظاهر الاغراء فيما يحكى أو يبدى لك من آراء . وكن فى ذاتك غير مخادع ، إذا أردت أن تنجح كفرد أو كشعب .

وقد يلقى المستقيم أول الأمر عنتاً ومشقة فى سبيل الوصول إلى غايته ، ولكنه بعد ذلك : الناجح المطمئن الذى أرضى نفسه وربه .

الرعاية والمسئولية

يروى عن رسول الله ﷺ أنه يقول : « **كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته** » . . ومعنى هذا الحديث : أن كل من له أهلية التصرف من الأفراد هو راع على نفسه ، وراع أيضاً على من هو فى ولايته من الأبناء أو الأقرباء وذوى الرحم أو اليتامى ، ممن هم جميعاً فى دور التكوين والاعداد وبحاجة إلى التوجيه والارشاد . لأنه لم تتهيأ لهم بعد الاستطاعة لأن يدركوا الأمور إدراكا واضحاً ، وبالتالى يحسنوا الفصل فيها والسلوك طبقاً لما تقضى به المصلحة العامة والخاصة على السواء .

ودائرة كل راع تختلف فى السعة والضيق ، حسب وضع الراعى ومكانه فى الولاية الخاصة أو العامة . فرعاية الزوج قبل أن يكون أباً ، والزوجة قبل أن تكون أماً : مجالها أضيق ، مما لو أصبح كل منهما ذا ولد ، أو ذا قرابة قريبة أو بعيدة . ورعاية الوالى فى ولايته العامة تضيق وتتسع حسب ماله من سلطة ، وحسب ما ألقى عليه من تبعة .

والرعاية التى يفرضها الإسلام على الراعى فى دائرة الأسرة ليست رعاية الانفاق وتدبير الأمر فى سبيل حفظ الحياة فقط عمن يرعاهم الراعى فى أسرته . بل مع ذلك رعاية التوجيه لهؤلاء . ورعاية توجيه هؤلاء ليست فى دفعهم إلى المدرسة وتركهم لرسالتها التى تقوم بها ، دون أن تكون هناك مشاركة إيجابية من أولياء أمورهم — وهم الراعون عليهم — ومساعدة قوية نفاذة على تحقيق هذه الرسالة . وإنما تتمثل رعاية توجيه الأب لأولاده وأقاربه ، وتوجيه الأم لأولادها وأقاربها فى الملاحظة الدقيقة المستمرة لسلوك أبنائهم وأقاربهم ، وفى تكوين العادات الصالحة التى تقيهم وتقى مجتمعهم شرور العادات السيئة ، وشرور الانحراف فى السلوك على العموم . تتمثل رعاية توجيه الأب والأم للأولاد والأقارب فى القدوة الصالحة التى

يرسمانها بحسن سلوكهم وحسن تصرفهم رسماً عالياً واضحاً لهؤلاء الأولاد والأقارب .

والمدرسة إن تكفلت فى الدرجة الأولى بتزويد الطلاب والطالبات بالمعلومات المتنوعة التى تصورها مناهج المواد المختلفة فيها ــ فالمنزل بمن فيه من الأب والأم واجب عليه أن يتكفل بتنشئة هؤلاء الطلاب والطالبات على الخلق الإنسانى الكريم ، لا بالنصح فقط .. ولكن بالتتبع لكبت العادة السيئة وتنمية العادة الفاضلة .

إن المدرسة والمنزل كليهما يجب أن يسعى إلى هدف واحد . وهو تجنيب الطالب أو الطالبة الانحراف فى الحياة . تجنبه المدرسة هذا الانحراف عن طريق تبصيره بالمعرفة السليمة . ويجنبه المنزل هذا الانحراف أيضاً بالتهذيب فى السلوك . وليس التهذيب إلا تكوين عادات فاضلة مكان عادات قبيحة .

وهنا تؤدى المدرسة رعايتها ، ويؤدى المنزل رعايته . وعندئذ يكون من المدرسة والمنزل تعاون فى التوجيه . وعندئذ يتحقق قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « كلكم راع » .. فإن كل راع إذا قام بما فرض الله من رعاية كان التعاون فى الرعاية أمراً محققاً فى حياة المجتمع .

والمنزل — بمن فيه من الأب والأم — إذا كان واجباً عليه أن يقوم بالرعاية فى التوجيه ويسهم إسهاماً قوياً فعالا فى هذا الجانب مع المدرسة — فالأم على وجه الخصوص يقع عليها عبء ذلك . إذ منزلة الأم — وهى التى وهبت خصائص الأمومة من الحمل والارضاع والحضانة — أثرها على توجيه الولد أقوى وأبقى من توجيه الأب له . ليس فقط لطول الزمن الذى تتصل فيه الأم بولدها . وإنما العاطفة التى تنساب منها إليه ، تلك العاطفة التى تصاحب لبن الرضاعة وتبرز فى صورتها القوية عندما تحنو عليه الأم وهو يقتطف منها غذاءه ، كذا مرة فى اليوم والليلة .

ولمنزلة الأم هذه فى حياة ولدها شدد الإسلام فيما أوصى به عند اختيار الزوجة ،

أم الولد مستقبلا . فأوصى باختيار ذات الدين ، ذات الخلق الكريم ، وتفضيلها على غيرها ممن تكون لها مسحة جمال ظاهر ، أو لها وجاهة مال أو شرف عارض . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ... **فاظفر بذات الدين ، تربت يداك** » .. أى إن لم تختر صاحبة الدين والخلق الكريم ، وآثرت عليها ذات الجمال الجسمى للجمال ، أو ذات الجاه ، أو ذات المال : فانتظر الاضطراب والقلق فى علاقتك بها ، وانتظر آثار الاضطراب والقلق ، مما يؤدى إلى فقر يدك أو إذلال نفسك .

والأم صاحبة الخلق الكريم — وهى صاحبة الدين — سيكون تأثيرها على ولدها من نوع ما عرفت به من تهذيب وسلوك مستقيم .

الإسلام إذ يوصى بقيام كل راع بأمر رعيته ، وبالتعاون فى هذه الرعاية — يقر أيضاً المسئولية الشخصية والفردية على كل راع . فيقول الرسول الكريم فى هذا الحديث : « ... وكلكم مسؤول عن رعيته » .. ليؤكد أمر القيام بهذه الرعاية ، وبالتعاون فيها .

وهذه المسؤولية الشخصية تعطينا : أن الإسلام يطلب من المؤمنين به أن يكون كل واحد منهم بناء فى أمر نفسه ، وفى أمر أسرته ، وفى أمر مجتمعه . كما تعطينا أن الدولة وهى صاحبة الولاية العامة لاينبغى أن تتحمل كل شىء وحدها ، وتعمل للجميع دون أن تكون هناك معاونة من الجميع لها .

وإذن المدرسة إذا كانت تصور رعاية الدولة فى التوجيه ، فالمنزل يمثل إسهام الجميع مع الدولة فى هذا التوجيه . وعندئذ يكون الخير للجميع ، وعندئذ يكون التعاون على البر والتقوى .

أداء الواجب أولا

« الواجب » هو مقابل « الحق » . فما يؤدى للغير هو الواجب ، ومايؤخذ للذات هو الحق . وكلا الأمرين : الواجب والحق ينتهيان إلى شيء واحد يختلف فقط بالنظرة إليه . فالخدمة التى تؤدى فى المجتمع إلى فرد من فرد آخر هى حق لمن حصل عليها ، وواجب فى الوقت نفسه على من قام بها . والذى يحصل على الحق لذاته يقوم بأداء واجب لغيره .

... وهكذا خدمات المجتمع هى واجبات تؤدى وحقوق تحصل باعتبارين مختلفين ، ولكنها كلها فى واقع الأمر واجبات . على معنى أنها التزامات يقوم بها أفراد المجتمع جميعاً . فإذا لم تؤد هذه الالتزامات فليس هناك بالتالى أمر ما : يسمى بـ « الحق » يصل إلى صاحبه . والحقوق إذن آثار الواجبات ، أو هى أداء الالتزامات .

وعليه يطالب أفراد المجتمع أولاً بالذات بالقيام بالواجب . وطبعاً هو يختلف بالنسبة لكل فرد حجماً وكيفية . وهنا كان نظام : « الوظائف » فى الدولة . وهو أشبه بنظام الجسم فى أداء وظائفه العديدة والتى تنتهى جميعها فى قيام كل منها بعمله لصالح الجسم ككل ، ولصالح كل فرد من وظائفه على حدة .

إن الفلاح مثلاً فى الأرض الزراعية ، والعامل فى المصنع يجب عليه أن يباشر الإنتاج فى الحقل والمصنع ، ولكن من حقه أن يتمكن من الانتاج . وحقه فى التمكن من الانتاج يتمثل فى توفير وسائل الانتاج نفسها ، وظروف الأمن لنفسه وماله وأسرته ، وظروف الخدمات الأخرى من الصحة والتعليم وغيرها مما يلتزم بها المجتمع لأفراده جميعاً .

والذين يباشرون وظائف الخدمات العامة فى الدولة من الواجب عليهم القيام بما يساعد الفلاح والعامل على الانتاج الزراعى والصناعى من توفير وسائل الانتاج المادية والعلمية ووسائل حفظ حرمات النفس والمال والعرض والمسكن ، وأنواع التعليم والتثقيف المختلفة ، وتوفير الوقاية من الأوبئة والأمراض المنتشرة قبل توفير العلاج والدواء ... الخ .

ومن حق هؤلاء الموظفين تمكينهم من أداء هذه الخدمات كلها بما يضمن لهم ولأسرهم الحصول على قسط من إنتاج الفلاح والعامل ، وقسط آخر من نفس الخدمات التى يباشرونها كواجب عليهم .

* * *

وإذن أداء الواجب فى ذاته أصل فى المجتمع على كل فرد ، ثم التمكن من أدائه حق لكل فرد فيه ألزم بأداء هذا الواجب .

وعندما تقدر الدولة فى المجتمع أسعار المحاصيل الزراعية للفلاح ، وأجر العامل فى المصنع ، ومرتب الموظف فى أجهزة الخدمات العامة ... تحدد المدى الذى يتمكن به كل واحد منهم فى أداء واجبه . وحصيلة الثمن لفائض الانتاج الزراعى للفلاح — كأجر العامل ومرتب الموظف — لايقصد به التعادل مع أداء الواجب أكثر من التمكين فى أدائه . وهنا يجب أن لايقرن ما يحصل عليه كل من الفلاح والعامل والموظف فيما يسمى حقوقاً لأى منهم بما يعرف بالواجبات التى تؤدى منهم ، بحيث يصبح الواجب « سلعة » يساوم على أدائه ويصبح الحق « ثمناً » لهذه السلعة .

ولكن سوء تقدير الدولة فى المجتمع منذ الثورة الصناعية فى الغرب لتمكين المواطن لأداء واجبه ، وهو حقه فى العيش والحياة الإنسانية الكريمة ، جعل المواطنين لايستطيعون فى أمانة وإخلاص أداء واجبهم كماينبغى ، أو بالتالى حملهم

على المطالبة بمزيد فى توفير أسباب العيش والحياة لتمكينهم من أداء مايجب على المواطن إزاء المواطن الآخر . وهذه المطالبة تبلورت فيما بعد فيما يسمى بـ « العدالة الاجتماعية » أو بالنظرة فى « إعادة توزيع الثروة القومية » . ووصل الأمر فيها إلى نظرية : الصراع الطبقى .

وفى ظل ما انتهت إليه العلاقة بين الواجب والحق من التقييم المادى على أساس: أن الواجب سلعة وأن الحق ثمن لهذه السلعة ... دخل عامل « المزايدة » فى الثمن . وهذا بدوره هيأ السبيل النفسى إلى الاقلال من شأن أداء الواجب ، كالتزام ضرورى لبقاء المجتمع أى مجتمع ، أو أدى إلى إغفاله وتناسيه . وانطبقت عليه عندئذ تلك الظاهرة الاقتصادية ، وهى أن السلعة كلما ارتفع ثمنها قلّ الاقبال على شرائها واقتنائها ، أو كاد ينعدم .

وانعكس هذا الوضع على الموقف النفسى للإنسان من أداء الواجب ، وظهر له موقف السلبية واللامبالاة نحوه ، كما انعكس كذلك على موقفه من الحق ، وظهر طلب المزيد فيه كثمن لسلعة والغلو أحياناً فيما يطلب ، غير مقرن ما آل إليه أداء الواجب فى موقفه منه بما يطلبه ويغلو فيه من طلب .

ومهما زيد فى « الحق » كسلعة ، فإن ذلك لا يكون على حساب أداء الواجب فى ذاته فحسب ، ولكنه فى الوقت نفسه لايقف بطلب الزيادة عند حد معين . لأن طلب الزيادة أصبح هدفاً مباشراً وبارزاً ، ومن ورائه من بعيد : أداء الواجب . وعندئذ يكون : « الضمور » فى أداء الواجب ، وبالتالى : العجز عن الوفاء بالحق . إذ الحق الذى يعطى هو أولاً واجب يؤدى من آخر .. ثم أثر الأغراء المادى الناشىء عن المزايدة فى الحق كثمن لسلعة، والدفع المتكرر لهذا الإغراء فى طلب المزيد فيها إلى غير نهاية .. ظاهرتان تلازمان الآن وضع العلاقة فى

المجتمع الإنسانى بين الواجب .. والحق ، وتثيران اهتمام النظم السياسية والاجتماعية المختلفة نحو إيجاد جو يسود فيه الاستقرار وتتحسن فيه العلاقات بين المواطنين جميعاً .

* * *

ولكن نقل الواجب وأدائه من دائرة الالتزام الأدبى والاجتماعى فى المجتمع إلى دائرة السلع المادية التى يساوم فى شرائها .. هو فى ذاته إضعاف لمعنى الواجب وانتهاك لحرمته ، وتخفيف من أثره فى نفوس الأفراد . وذلك وحده من شأنه أن يثير القلق ، سواء بسبب ماينتج عن التقصير فى أدائه : من العجز فى الوفاء بالحق ، أو بسبب المشاكل الخاصة بالزيادة التى تتعلق بالحق نفسه : فى الحاصلات الزراعية وفى أجور العمال فى المصانع . وفى مرتبات القائمين بالعمل فى الأجهزة والمصالح المختلفة للدولة . إذ الحق كما أسلفنا أصبح مفهوماً يتضمن تقدير الدولة للمستوى المعيشى الذى يمكن المواطن من أداء الواجب .

وإذن التمادى فى الإغراق المادى فى الحقوق ليس هو علاج الأمر . وليس علاجه كذلك التبشير بالفلسفة التى تقيم الإنسان وتزنه وتزن عمله بقيمة مادية كحصيلة لجمع وطرح حسابى ، ولا التبشير بتلك الفلسفة الأخرى التى تربطه بالمنفعة والمصلحة الماديه وتبرر العمل الإنسانى بنتائجه الغائية .

وإنما علاجه هو رد الواجب إلى وضعه الأصيل فى المجتمع . وهو وضع الأمر الذى له قدسيته واحترامه ، والذى يلتزم الفرد بأدائه فى الشدة والرخاء على السواء .

ولكن لايصل الواجب إلى وضعه الأصيل هذا إلا عن طريق الإيمان بالله . والإيمان بالله الذى يستتبع آثاره هو ما كان عن اختيار حر: «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

وعندئذ يستلزم هذا الإيمان : الأخذ بتقدير كتاب الله للوجود الدنيوى والأخروى ، فى مثل قوله تعالى :

« إنما هذه الحياةِ الدنيا مَتاع ، وَإن الآخرة هِى دار القرار ،

« مَنْ عَمل سيئة فَلا يُجزى إلا مثلها ،

« وَمن عَمل صالحاً مِن ذكرٍ أو أنثى وَهُو مُؤمن فأولئك يَدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حِساب » .

وهذا التقدير لا يضع الثقل فى جزاء على أداء الواجب : على الجزاء المادى وحده فى الوجود الدنيوى ، إنما بالإضافة إلى هذا الجزاء هناك جزاء أخروى أيضاً . وهذا معناه عدم التركيز فى جزاء الواجب على المتع الدنيوية وحدها ، بحيث تصبح موضوعاً للإغراء والتهافت والتهالك ، وبحيث يضيع أداء الواجب فى زحمة التهالك والمساومة عليها .

... كما يستلزم هذا الإيمان أيضاً : الاعتقاد بأن الله يحصى لكل مؤمن خطواته فى سبيل أداء الواجب وقت الشدة ومايتحمل من مشاق وصعاب فيها ، وما يعطى من نفسه وماله ليتمكن من أدائه ، كما يجازى على من قام به : الجزاء الأوفى ، على نحو ماتتحدث به هذه الآية :

« مَا كانَ لأهل المدينة وَمن حولهم مِنَ الأعْراب أنْ يَتخلفُوا عَن رسول الله ولا يرغَبُوا بأنفسهم عَن نفسه ،

« ذَلك بِأنهم لايصيبَهم ظمأ [عطش] ،

« وَلا نصَب [تعب] ،

« وَلا مخمَصَة [جوع] ، فى سبيل الله ،

« وَلا يطأون موْطئاً يغيظ الكفار ،

« وَلا ينالون مِنْ عَدو نَيلا [بالأسر أو بالقتل] ...

« إلا كُتِبَ لهم بِه عَمل صَالح ، إنَّ الله لا يُضيع أجرَ المحسنين .

« ولا ينفِقُون نفقة صغيرة ولا كبيرة ،

« وَلا يقطعُون وَاديًا ، إلا كتب لهم [أجرهم وجزاؤهم] ،

« ليَجْزِيهم الله أحْسَنَ مَا كانُوا يَعْمَلون[1] » .

... وفى الوقت نفسه يستلزم كذلك : أن رعاية الله دائمة فى كل وقت ، سواء فى هذه الحياة أو فى الدار الآخرة ، وأن هذه الثانية تتميز عن الأولى تميزاً واضحاً . على نحو ما جاء فى قوله تعالى:

« نحن أولياؤكم ، فى الحياة الدنيا ، وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدّعون [ما تتمنون] » .

ولا شك أن الاعتقاد بمثل هذا كله يحمل النفس على الاقبال على أداء الواجب دون انتظار الجزاء العاجل . بل يحملها أيضاً على التضحية فى سبيله ، وفى الوقت نفسه لايفقدها الأمل، لا فى هذه الحياة ، ولا فى الدار الأخرى المترقبة . . لأن الله الذى آمن به الإنسان قطع الوعد على نفسه بالنصر فى هذه الدار ، وفى تلك ، كما تخبر الآية الأخيرة . ووعده لايتخلف : « إن وعد الله حق » .

وبذلك تسير الطبيعة البشرية فى اتجاه صحيح وتتغلب على اتجاه المساومة والمبادلة المادية حتى فى صلتها بخالق الكون نفسه ، إن تركت بغير التزام بتوجيه إيمانى سليم . وتصف الآيات التالية هذه الطبيعة قبل توجيهها بالإيمان :

« لا يَسأم الإنسان مِنْ دُعاء الخير [طلب المال والمتع الدنيوية] ،

« وإن مَسّه الشر فيؤوس قنوط [من رحمة الله] .

---

(١) التوبة : ١٢٠ ، ١٢١

«ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن : هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى [الجزاء الحسن] ،

« فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ .

« وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، [عن أداء الواجب] ،

« وإذا مسه الشر [من فقر أو مرض..] فذو دعاء عريض [كثير]» .

فهذه الآيات تخبر بأن غلبة الاتجاه المادى على الطبيعة الإنسانية وسيطرته على سلوكها وفيما تأتى به من عمل بناء أمر أصيل فيها : طلب للمال والمتع المادية واستزادة فيها. فإن حصلت عليها تنكرت لكل شىء وأنكرت كذلك كل شىء ، حتى صاحب الفضل عليها وخالقها وهو الله سبحانه وتعالى .

وإن لم يصبها مال ومتع مادية ، أو أصابها وفقدته ، انتابها اليأس وأقعدها عن العمل ، وسارعت إلى الشكوى وملأت بها جو الحياة .

لا يمكنن هذه الطبيعة من التغلب على هذا الاتجاه المادى المفرط فيها المؤدى إلى هلاك الفرد وفناء المجتمع ، والخروج بها إلى اتجاه إنسانى يحمل على أداء الواجب ويشارك بذلك فى البناء القوى للأمة : سوى الإيمان بالله وحده .

« والعصر . إن الإنسان لفى خسر .

«إلا الذين آمنوا، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر» .

والحق هنا ليس هو الثمن على أداء الواجب . وإنما ماينبغى أن يكون من مبادىء وقيم . لأن الذى آمن ، وعمل صالحاً ـ والعمل الصالح هومايجب أداؤه ـ وتواصى مع غيره بالصبر فى الشدائد والأزمات . . لا يكون من طلاب الحق بمعنى الأجر المادى على ما يؤدى من واجبات .

وإذا طلب هنا الآن من الفرد : أن يكون واجبياً عن طريق الإيمان بالله وليس مساوماً على أداء الواجب . . فإنه يطلب مع ذلك أو قبل ذلك عن طريق الإيمان بالله أيضاً : استنفاد وسائل الرعاية اللازمة لجميع أفراد المجتمع ، وتحقيق العدل ، والمساواة فى الاعتبار البشرى ، والمشاركة فى الرأى كالمشاركة فى العمل .

وعندئذ : إذا كان هناك قصور فى الرعاية فعن عجز عام ، وليس عن سوء توزيع ، وسوء تقدير أو استغلال ، وما شابه ذلك مما يفرق بين فرد وآخر ، ويسىء إلى الفرد الذى لم يظلم ولا يحسن الآخر الذى تميز ، كما يسىء إلى أداء الواجب نفسه .

الفصل الثالث

- المراة كزوجة .
- المراة كام .
- المراة فى الأسرة .
- المراة فى ميدان الخدمة العامة .
- المراة فى ميدان العمل .
- المراة فى ميدان الدفاع عن الوطن .
- تقييد الطلاق .

المرأة فى الأسرة

هدف الزوجية واساسها :

الزوجية فى الإسلام اجتماع الذكر والأنثى اجتماع سكنى واستقرار ، واجتماع مودة ، واجتماع رحمة فيما بينهما . إستقرار ، ومودة ، ورحمة تذكرها الآية الكريمة: « ومن آياته : أنْ خَلَقَ لكم مِنْ أنفسكُمْ أزْوَاجاً لتسْكنوا إليهَا ، وَجَعَلَ بَيْنكم مَودّةً وَرَحمةً[1] » .. على أنها هدف الزوجية فى الإسلام .

فشأن الزواج لقاء نفسى يحيل العلاقة بين الاثنين إلى مودة ، وإلى أكثر من المودة .. إلى الرحمة بينهما . وهذا هو السر الخاص فى خلق الذكر والأنثى من النفس البشرية الواحدة .

عوامل تكوين الزوجية :

ولأن الزواج قصد به أن يحيل العقد بين الاثنين إلى هـــذه الغاية من الاستقرار والمودة والرحمة ، طلب الإسلام أن تراعى خطوات تيسر أمر العقد فى الوصول إلى هذه الغاية .

(أ) أولا : الخطبة ، وهى أن يجتمع أحد الطرفين مع الآخر ، على نحو يتيح لكل واحد منهما أن يتكوّن عنده شعور بالرغبة فى الالتقاء والاجتماع مستقبلا . ولكن بحيث لا يكون هذا الاجتماع ، أو هذه الخطبة سبباً فى عكس الغرض منها . ولذا يصحح وضع هذا الاجتماع عن طريق وجود ثالث مع الطرفين أمين مخلص لمصلحتهما وهو ما يعرف بـ « المحرم » .

(ب) وثانياً : العـــلم ، بحسب الاستطاعة البشرية بعدم وجود عائق فى الازدواج بينهما : يتصل بالصحة ، أو بالمستوى الإنسانى الأخلاقى أو العقلى .

---

(١) الروم : ٢١

فالمرض الجسمى إذا أصبح علة مزمنة ، والانحراف الخلقى إذا أصبح عادة ، والعقلى إذا كان أمارة شذوذ ، تعدُّ من العوائق التى تحول دون إتمام عقد الزوجية . لأن الزوجية لو تمت مع قيام هذه العوائق سوف لا توصل إلى هدف الزواج من الاستقرار ، والمودة والرحمة .

انقضاء الزوجية عارض على هدفها :

والخطوات السابقة على العقد ، والتى من شأنها أن تمهد لعقد الزيجة المثمر — قد لا يثمر العقد الذى ترتب عليها بالرغم من ذلك . وعندذلك تبتدىء الحياة الزوجية تأخذ اتجاهاً آخر غير اتجاه الاستقرار والمودة والرحمة :

(أ) ربما تأخذ اتجاه « الجفوة » والإعراض النفسى .

(ب) وربما يشتد فتأخذ إتجاه الشقاق والنزاع .

(ج) وربما يزيد شدة فيأخذ : « استمرار » الشقاق والنزاع .

والإسلام ينظر إلى هذه الأحوال على أنها من عوارض الزوجية ، قد تقع لأن الاثنين مهما تلاقيا ، ومهما اشتركا فى جوانب اللقاء فعلاقتهما عرضة للخلخلة والجفوة والشقاق ، وكثرة النزاع . والعوامل لهذه العوارض كثيرة . منها أنهما اثنان وليسا واحداً :

١ — ففى الحال الأولى ، وهى حال الجفوة والإعراض لا يمانع الإسلام فى أن يعرضا العلاقة بينهما — وهى علاقة يفضل لها السرية والكتمان — للصلح والتسوية ، بإشراك غيرهما معهما . ويقول القرآن فى ذلك : « وإن امرَأَةٌ خَافت مِنْ بَعلِها نُشوزاً [جفوة] أوْ إعرَاضاً فَلا جُنَاح عَلَيْهما أن يُصْلِحَا بَيْنَهما صُلحَاً ، والصُّلح خَير[1] » .

٢ — فإن تحولت خشية الجفوة والإعراض إلى النزاع . وأصبح الزواج

---

(١) النســاء : ١٢٨

مهدداً: «بالشقاق» فالإسلام ينصح نصحاً جازماً بالتحكيم بينهما، ولكن فى نطاق «السرية والكتمان. وذلك بأن يكون الحكمان من أهلهما معاً: «وإنْ خِفْتم شِقَاق بَينهما، فابْعَثُوا حَكَمًا مِن أهْلِه، وحَكَمًا مِنْ أهلِهَا إن يُريدا إصْلاحًا يوفق الله بَيْنَهما[1]».. وقرن هنا القرآن توفيق الله فى تسوية ما بين الزوجين بالنسبة للإصلاح من الحكمين.

٣ — فإذا لم يجد التحكيم واستمر النزاع، وقويت الخشية من اتساع الشقاق بينهما كان «الطلاق». والطلاق بدوره مراحل ثلاث. لأنه وإن تعين كحل أخير للخصومة الزوجية فهو من جانب: «أبْغَض الحَلال إلى الله».. ومن جانب آخر: ينطوى على فرصة أخيرة للمراجعة والتروى فى العلاقة قبل أن تصير نهائية. ولذا هو علاج لبقاء الزوجية كما هو علاج لفضها. يقول القرآن الكريم: «الطلاق مَرَّتان، فإمْسَاكٌ بمَعْرُوف أوْ تَسْرِيح بإحْسَان[2]».. ويقول: «وإذا طلقتم النِّسَاء فَبلغن أجلَهُن فأمسِكُوهن بمَعْرُوف، أوْ سَرِّحُوهن بمَعْرُوف. ولا تمسكوهن ضِرَاراً لتَعْتَدوا، ومَنْ يَفْعَل ذَلِك فَقد ظَلَم نَفْسه»[3].. فالمرتان الأوليان منه علاج وموضع أمل لبقاء الزوجية.. والمرة الأخيرة هى: «الفاصلة».

وإذا انتهت العلاقة الزوجية إلى الفصل بينهما فيجب أن يكون هناك إحسان فى هذا الفصل نفسه. والإحسان شىء فوق الواجب. إنه التهذيب والسماحة والإنسانية. والطلاق البائن ـ الفاصل ـ إذن طارىء على عقد الزوجية كحل لا مفر منه بعد أن تستنفد الوسائل المتعددة فى علاج ما يحد عليها من جفوة أو نزاع وشقاق. والإسلام فى الطلقتين الأوليين وفى فترة العدة ينصح بشيئين:

أولا — بالتروى: «فَإنْ كَرِهْتُمُوهن فَعَسَى أنْ تَكرَهُوا شَيئًا ويَجْعَل الله فِيه خَيراً كَثيراً[4]».

---

(١) النساء : ٣٥ (٢) البقرة : ٢٢٩

(٣) البقرة : ٢٣١ (٤) النساء : ١٩

ثانياً — بعدم التضييق عليهن فى حياتهن ومعاشهن فى فترة العدة : «أَسْكِنُوهنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتم مِنْ وجْدِكم [بوسائلكم] ولا تُضَارُّوهن لتضيقوا عليهن(١) » .

وبهذا .. وذاك : يهيء جواً نفسياً لإعادة العلاقة الزوجية إلى ما كانت عليه بحسب الطباع البشرية .

الطلاق من الرجل :

١ — هب أن الطلاق من الجانبين ، أو من جانب المرأة وحدها . فماذا تكون النتيجة الاجتماعية المرتقبة ؟

القرآن إذ يقول : «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساء(٢)» .. ويقول: « وَلَهُنَّ مِثْلُ الذِى عَلَيْهِن بالمَعْروف ، وللرجَال عَلَيهن دَرَجه(٣)» .. يشرح لماذا كان الطلاق من الرجل ؟. فقوامة الرجل على المرأة هى الدرجة التى له عليها ، وهى السبب فى كون الطلاق منه . وليست هذه القوامة: « سيادة ». إنما هى خبرة «الحياة » التى تحمله على أن يفكر قبل أن ينفذ . فإن نفذ فمن تروٍّ لا عن عاطفة أو عدم خبرة .

٢ — ولبعض النساء خبرة أيضاً وإرادة لا تقل عن إرادة الرجل ، ولكن ذلك ليس الوضع العام للمرأة . إنما هو شذوذ . والمرأة صاحبة الإرادة القوية قلما تكون سعيدة بزوجها إذا كان ضعيف الإرادة، وقلما تبقى معه على وفاق إن كان مثلها أو أشد .

الشغب فى الزوجية :

قد يشاغب أحد الزوجين الآخر ، فيصطنع المعاكسة ، فتلجأ المرأة إلى طلب الإنفاق ، ويلجأ الزوج إلى طلب الطاعة كوسيلة للإحراج .

(١) الطلاق : ٦ (٢) النساء : ٣٤
(٣) البقرة : ٢٢٨

والتكليف بالإنفاق اختبار لجدية الزوج فى الإبقاء على الزوج ، والتكليف بالطاعة اختبار لجدية الزوجة فى الإبقاء على الزواج . وكلاهما فى مقابل الآخر . الإلزام فى الإنفاق فى مقابل الطاعة .. والإلزام بالطاعة فى مقابل الإنفاق . فإذا أعسر الزوج أو امتنع عن الإنفاق فلا طاعة له على الزوجة .. وإذا نشزت المرأة أو خرجت على طاعة زوجها فلا نفقة لها عليه .

بيت الطاعة :

وليس هناك فى الإسلام: « بيت طاعة » . إنما هناك إنسان : هو الزوجة يكلف غيره وهو الزوج كشريك بالإنفاق عليه ، ولا يؤدى ما يجب عليه نحو هذا الشريك من حق المقام معه .

إن القاضى الذى يلزم الزوجة بالسكنى مع زوجها يجب أن تتوفر لديه الأدلة على أمرين :

١ — على قدرة الزوج على الإنفاق وعلى قيامه به فعلا .

٢ — وثانياً على عدم وجود موانع جدية تمنع من اجتماع الزوجين مرة أخرى .

المرأة كزوجة :
واجبها نحو الزوج ، وحقها عليه

وكما ذكر : غاية الزواج فى الإسلام هو أن يسكن الزوج إلى زوجته ، وتسكن الزوجة إلى زوجها : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُم أَزْوَاجًا لِتَسْكُنوا إلَيهَا (١) » . ومعنى أن يسكن كل من الزوجين للآخر : أن يطمئن كل منهما فى حياته بسبب الآخر ، بحيث تكون هذه الحياة بعيدة عن القلق ، وبعيدة عن الهموم والمخاوف . فلا تقلق الزوجة بدافع الحاجة إلى المعاونة والتغلب على مشاق الحياة المادية . ولا يقلق الزوج بسبب فقدان المشارك له فى حل أزماته النفسية ، التى تثيرها المناقشة أو يثيرها الاحتكاك والاصطدام بغيره فى مجال السعى فى الحياة .

غاية الزواج فى الإسلام : أن يكون كل من الزوجين ستاراً للآخر ، يمنعه من أن يزل فتظهر زلته ، ويقيه من الجنوح والانحراف فتبدو نقيصته كإنسان طلب إليه أن يحقق خصائص إنسانيته كى يسود وكى يعيش مكرماً : « هُنَّ لِباسٌ لَكُم وَأَنتُم لِباسٌ لَهن (٢) » .

هدفان رئيسيان إذن للزواج ، فى نظر الإسلام : الاستقرار المادى والنفسى ، وكذا التمكن من التغلب على نزوات الانحراف ودوافع الجنوح عن خط السير فى سبيل تحقيق الإنسانية ، وهما هدفان لا يمكن لغير الإنسان من بين الكائنات الحية التى لها الطاقة على الحركة أن يسعى إليهما — فضلا عن أن يحققهما — لأن ماعدا الإنسان من تلك الكائنات لا يحس بقلق أو استقرار فى حياته ، كما أن اندفاعه نحو التصرف عن طريق الغريزة لا يمكنه من الاختيار ، ولذا لا يفرق بين ميل أو استقامة فى خط سيره فى الحياة .

---

(١) الروم : ٢١ (٢) البقرة : ١٨٧

وإذا تحددت غاية الزواج على هذا النحو — لاينبغى بعدذلك أن يكون أحد الطرفين فى عقد الزواج أو كلاهما مناوئاً لهذه الغاية ، فضلا عن أن يكون مقوضاً وهادماً لها. ولأجل ذلك حدد الإسلام الواجبات التى تؤديها الزوجة للزوج ، كما حدد حقوقها التى تؤدى لها من قبله .

وهو فى تحديده للواجبات عليها حافظ على شخصيتها وعلى حرماتها ، وإن جعل منها رفيقاً معاوناً : أبقى لها استقلالها التام فى التصرف فيما تملك من مال سائل أو متقوم فى تجارة أو صناعة أو زراعة ، أو فى أية صورة من الصور التى يقوم فيها المال ، ولم يفرض عليها فيما تملك نصيباً تسهم به فى تغطية تكاليف الحياة الزوجية . كما صان لها حرية الرأى والقول والاعتقاد ، فلا تضطر بسبب عقد الزواج إلى التنازل عن شىء من هذه الحرية ، وإن كان يجب عليها أن لا تسلك بها طريقاً يؤدى إلى تعكير العلاقة بينهما أو إلى تقويضها . وذلك أمر مفهوم بحكم الاشتراك فى حياة واحدة لها غاية معينة .

فما يجب عليها ـ فى نظر الإسلام ـ هو أنها إذ تمارس خصائصها كإنسان ـ تمارسها فى نطاق معاونة الزوج على تحقيق الاستقرار فى الحياة بينها وبينه : تشعره بأنها معه ، وبأنها تقاسمه الحياة والمصير فيها ، وتلتقى معه فى منتصف الطريق فتقبل عليه كما يقبل عليها : تقبل عليه بتصرفاتها وبإبداء الرأى والمشورة وبتقـديم الخدمات التى تستطيعها ، وهى تلك الخدمات التى لها من طبيعتها .

والمرأة فى العالم الإسلامى لها هذا الاستقلال المالى فى التصرف المالى ، وهى تباشر فعلا بعض جوانب الاستقلال الاقتصادى وإن كانت ظروف حياة الزوج أحياناً ، أو سيطرة الأنانية عليه تدفعه إلى التدخل بما يعكر العلاقة الزوجية بينهما أو ينهيها إلى غير رجعة . يلاحظ أن العلاقة الزوجية لا تصل إلى الانهيار بسبب تدخل الزوج فى مال الزوجة فى أغلب الأحوال ، إلا إذا كان عنصر المال هو أساس اختيار الزوجة فيما مضى .

والمرأة فى العالم الإسلامى وإن كان لها حرية التعبير والرأى والاعتقاد إلا أنها تمارس ذلك فى نطاق ضيق . وكلما تقدمت المرأة فى التعليم كلما اتسع النطاق الذى تمارس فيه هذه الحرية . ولكن فى بعض الأحيان تؤدى رغبة المرأة فى ممارسة حريتها فى الرأى والتعبير عنه فى نطاق واسع إلى إضعاف العلاقة الزوجية أو إلى قصمها . لأنها عندئذ تنظر من زاوية أنها صاحبة شخصية مستقلة، غاضة النظر عن العلاقة والحياة المشتركة بينهما .

والإسلام فى تحديده للحقوق التى تؤدى لها من قبل الزوج — راعى الحرص على تكريمها ، وعدم امتهانها ، وعدم استغلال خصائصها الطبيعية : من رقة تكوينها وضعف بنيتها ، فى مقابل ما للرجل من بنية وتكوين عضلى قوى . فأوجب عليه سد تكاليف حياتها ، ومعاشرتها بالمعروف: «فأمسكوهن بمعروف» . ويدخل فى مفهوم المعاشرة بالمعروف ملاحظة إحساساتها بما يكون لها وضع الإنسان المرغوب فيه ، فضلا عن تجنب كل مايعود عليها بالأذى النفسى أو المادى .

والمرأة فى الشرق ليس لها دائماً هذا الوضع المطلوب . ويختلف وضعها فى العلاقة الزوجية باختلاف ظروف حياة الزوج . ولكن كثيراً ما تنزل المرأة الشرقية مجال العمل لتشارك أو تستقل أحياناً فى سد تكاليف الحياة. وكثيراً ما ينالها عنت أو إرهاق من الزوج . وكثيراً أيضاً ماتسبب هى له العنت والإرهاق . وتلك سنة الحياة المشتركة إذا قامت العلاقة على أمر عرضى لا يتصل بطبيعة كل من الطرفين . ووقاية العلاقة المشتركة من التصدع أو الانهيار ، هو الاختيار القائم على صفات ذاتية فى الرجل والمرأة على السواء .

المرأة كأم

المرأة — كأم — لها فى رأى الإسلام وضع الزوجية فيما تؤدى من واجبات وفيا تأخذ من حقوق . ولكن عليها واجبات ، ولها حقوق أخرى باعتبار أنها : « أم » .

أما واجباتها كأم فتتصل بالطفل فى تنشئته تنشئة مادية ونفسية . وهى مسئولة عن هذه التنشئة أمام الزوج الأب وأمام المجتمع على السواء . وأول ما يجب عليها إزاءه : إرضاعه لمدة معلومة . يقول القرآن الكريم فى ذلك : « وَالوالِدات يُرضعن أَوْلادَهن حَوْلَين كامِلين لمن أَرَادَ أن يُتم الرَّضَاعة[1] » .

وقصد الإسلام من وجوب الإرضاع عليها أن يدع فى الطفل أولاً شعوراً بحنوها ، وأن يرتبط معها برباط نفسى قبل الرباط المادى . وأثر الحنو والحنان فى توجيه الطفل وقبوله لوصايا الأم وإرشاداتها لا يدانيه أثر أى عامل آخر من عوامل التوجيه . وكذلك أثر الرباط النفسى بها عن طريق الارضاع هو أثر قوى لاتضعفه أزمات ولا توهنه سيطرة الأنانية على الطفل فى دور طفولته .

والطفل الذى أرضعته أمه هو ذلك الإنسان الذى يسمع ذلك النداء الإلهى : «وبالوَالِدَين إحْسَانا[2]» .. «وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كما رَبَّيَانى صَغيراً[3]» ويستجيب له طوعاً لا كرهاً . وهو ذلك الإنسان الذى يستمر فى علاقته القوية بأسرته ، وبالتالى هو ذلك الإنسان الذى يشعر بمجتمعه ، بعد شعوره بأسرته ، ويكون وفياً له ، كما هو وفى لوالديه وإخوته وأقاربه .

وإرضاع الطفل من غير والدته ، وكذا رعاية المجتمع له نيابة عن أمه لا تقوم عوضاً عن الأم فى إرضاعه وتنشئته . فهو سينمو حتماً إذا ما قامت بإرضاعه غير أمه ، أو رعته حاضنة ما ، ولكن نموه سيكون فى غير خطوط العلاقات النفسية

---

(١) البقرة : ٢٣٣ (٢) الاسراء : ٢٤
(٣) الاسراء : ٢٤

التى تتصل بالأسرة وبالمجتمع معاً . وهى خطوط التكوين الفردى ، المستقل فى شعوره وإحساساته .

وفى مقابل هذا الواجب على الأم جعل لها الإسلام الحق فى أن تأخذ من زوجها أب الولد : أجراً على الإرضاع إن شاءت : « وَعَلَى المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ[1] » .. حتى لا يستقر فى نفسها أنها تعطى من نفسها أكثر مما تأخذ ، وإن كانت تعطى لولدها وتأخذ من زوجها .

والمرأة فى الشرق تستجيب فى هذا الجانب باستجابة واضحة ، وبيسر فى تطبيق هذا القانون الفطرى الذى كشفت عنه تعاليم الإسلام ، بدافع الرغبة الذاتية . وليس من السهل عليها أن تترك أمر إرضاع طفلها — طالما هى قادرة على الارضاع وفى وضع طبيعى — إلى امرأة أخرى . ومع ذلك تتبرع بهذه الخدمة دون أن تسأل أجراً أو جزاء ، اللهم إلا أن ترى وليدها فى صحة بدنية ونفسية وعقلية . ولم تتأثر المرأة بعد بالتقليد الآخر ، بحيث يكون ذلك ظاهرة من ظواهر حياتها . ذلك التقليد الآخر : هو ترك الولد بعد ولادته لامرأة أخرى ترضعه ، أو تطعمه ، وتعنى به نيابة عن أمه ، أو تتركه لمؤسسة عامة دينيسة أو اجتماعية ترعاه فى نموه البدنى والعقلى .

واستكمالا لما أوجبه الإسلام على الأم من إرضاع الولد ، ولما فرضه من حق لها فى أن تأخذ أجراً على الارضاع — أعطاها حق الحضانة وحدها إذا ما انفصلت عن الزوج ، على أن يتكفل الزوج بالإنفاق على الولد ويقوم بدفع أجر الحضانة . والإسلام فى ذلك يريد للأم أن تتم رسالتها فى رعاية الطفل رعاية فيها حنو الوالدة حتى يستقيم عوده ، فيكون صادق المشاعر والوجدان ، سليم التفكير صحيح البدن .

ولم يزل ما يأمر به الإسلام فى شأن الحضانة أمراً مطبقاً فى حياة الأسرة المسلمة تمارسه المرأة فيها كحق لها فى نطاق واسع . وإن دخول بعض مظاهر

---

(١) البقرة : ٢٣٣

الحياة الغربية فى المجتمع المصرى الحديث مما يرجع إلى تفسير مساواة المرأة بالرجل — لم يأخذ طريقه إلى ما تطبقه المرأة المسلمة حتى الآن من تعاليم الإسلام فيما يجب عليها كأم نحو ولدها من إرضاع وحضانة .

والإرضاع والحضانة مما يؤثر بهما الإسلام المرأة . على أنهما من خصائص طبيعتها . فلم تتميز المرأة بثديها إلا لتنقل الغذاء والحنان إلى قلب ولدها ، ومن ثم تؤكد الرباط الأسرى بينه وبين أبويه وأقاربه . وبذلك يكون دور المرأة هنا ليس دوراً أسرياً فى النطاق الضيق . وإنما هو دور واسع فى بناء المجتمع الكبير نفسه وهو الأمة . والتفكك الأسرى والاجتماعى، فى الحياة الغربية الحديثة لا يرجع إلى سيطرة الاتجاه الحضارى المادى وحده . بل يعود فى أغلب أحواله إلى عزوف المرأة الغربية عن أن تباشر إرضاع الولد وانصرافها عن أن تمارس حق حضانته . ونمى فيها هذا العزوف والانصراف: تيسير المؤسسات التى أقيمت لرعاية الطفل هناك أمر هذه المهمة .

ولكن ماينصح به الإسلام هنا فى هذا الجانب أقوى فى الترابط وأكثر تعبيراً عن الحياة الإنسانية مما قامت به الحضارة المدنية لتيسر للمرأة: العمل الخارجى وتجعلها لاتفترق عن الرجل فى الحياة الخارجية . فليس لها أيام خاصة تقضيها مع طفلها وتقيم معه فيها من أجل إرضاعه أو حضانته .

المرأة فى ميدان الخدمة العامة

والإسلام يصف المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم بأنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . وما يعرف الآن فى المجتمع الحديث بالخدمة العامة هو جانب من الجوانب التى تتم عن التواد والتراحم والتعاطف بين أفراد المجتمع الواحد .

وقد كانت المرأة المسلمة فيما مضى تقوم بدور الخدمة الاجتماعية . فكعيبة بنت سعد الأسلمية كانت تقام لها خيمة فى المسجد تداوى فيها المرضى وتأسو الجرحى . ولم يكن عملها هذا قاصراً على أيام الحرب . بل كانت تداوى من ألم به المرض فى كل آن . وقد أعطاها رسول الله ﷺ فى خيبر سهم الرجل المجاهد ، جزاء ما قدمت من عمل فى سبيل الله والإنسانية .

والمرأة المسلمة فى ممارستها شؤون الخدمة العامة فى المجتمع المسلم الحديث تعلن عن رغبة صادقة وعاطفة قوية وعن استجابة لنداء الإنسانية الذى نادى به الإسلام ، يوم وصف مجتمعه بأنه مجتمع التوادد والتراحم والتعاطف وأنه كجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ، ويوم دعا المؤمنين والمؤمنات عامة — لا فرق بين ذكر وأنثى — إلى تلبية ذلك النداء فى قوله: « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١) » .

فهى تسهم فى رعاية الضعيف . وتسهم فى رعاية العاجز لشيخوخته . وتسهم فى رعاية من فقد عطف والديه . وتسهم فى رعاية المريض الذى يصارع المرض وهو يحاول أن يصرعه ، كالمصدور . تسهم فى رعاية هؤلاء جميعاً فتجمع المال من التبرعات،

---

(١) النحل : ٩٧

وتؤسس بها النزل لإيوائهم ؛ وتقوم على خدمتهم وتوجيههم فى هذه النزل ، حتى يستطيع الضعيف لصغره أن ينمو ويقوى على مواجهة الحياة ، ويكون بذلك عضواً فى بناء المجتمع ، وحتى يستطيع الضعيف لشيخوخته أن يدفع عن نفسه مشقة السعى فى الحياة أو بذل ماء الوجه فى السؤال من أجل الإيواء أو لقمة العيش ، وبذلك يعيش الفترة الأخيرة من عمره وهو هادىء محتفظ بكرامته وآدميته كإنسان كرمه الله فى طبيعته ، وحتى يستطيع المريض الذى لا يرحمه المرض أن يجد معاوناً يعينه على مكافحته أو على الأقل يجد إنساناً بجانبه يؤنسه ويواسيه فى أزمة مرضه .

وهنا فى مصر جمعيات نسوية عديدة ، تنصرف إلى هذه الرعاية الإجتماعية وحدها ، دون أن تشرك معها فى الهدف أمراً آخر ، مما تشغل به حركات المرأة الحديثة فى المجال السياسى .

وفى الوقت الذى تقوم به هاته الجمعيات بنشاط الخدمة الاجتماعية لا تنسى إطلاقا ما للإسلام من عبادات وما له من مبادىء ومثل عليا فى توجيه الإنسان الناشىء ، وفى دفع اليأس عن المريض الذى يغالبه مرضه ، وفى اطمئنان الشيخ الذى يسعى للقاء ربه .

والمرأة المسلمه بذلك تعيد سيرة المرأة يوم كانت تسهم فى الحياة العامة بدافع الإيمـــان بالله ، وبدافع الشعور الأخوى المشترك فى الإنسانية وفى المثل والأهداف .

المرأة فى ميدان العمل

ميزة الإسلام أنه لا يرضى عن التواكل ، ولا يحب المتواكلين من الرجال والنساء على السواء . وهو يفضل السعى فى سبيل العيش والحياة ، على التوفر للعبادة طول الوقت . فقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل المسجد فوجد رجلا قد انقطع للعبادة فى المسجد فسأله من ينفق عليك ؟ قال : «أخى ». فقال : «أخوك أعبد منك» . ويقول عليه الصلاة والسلام : « **لان ياخذ احدكم حبلة فيحتطب خير له من ان يسال الناس اعطوه او منعوه** » .

والإسلام لا يعرف السعى فى سبيل العمل ، ولا يحث عليه بالنسبة للرجل وحده ، وإن أوجب الانفاق عليه لزوجته وبعض أقاربه ، حماية للزوجة وأولى القربى من الامتهان ، أو توفيراً للزوجة أن تؤدى للأسرة بعض الخدمات التى تسهم بها فى مستقبل الأولاد ، أو فى مستقبل الزوج نفسه . بل الرجل والمرأة على السواء فيما يرغب فيه الإسلام من النزول إلى ميدان العمل .

والمرأة فى نظر الإسلام أن تباشر ضروباً متنوعة من العمل ، كالتجارة والعمل بالمصانع والمزارع ، كما لها أن تباشر التدريس ، أو الحضانة ، أو أى عمل آخر تجيد فيه ولا يبعدها عن أنوثتها ، أو يؤدى بها إلى الامتهان والإذلال ، كإنسان طلب إليه ألا يسترخص خصائصه وميزاته البشرية فى سبيل لقمة العيش. وتحكى أسماء بنت أبى بكر عن نفسها فتقول : « كنت أنقل النوى على رأسى من أرش الزبير — تعنى زوجها — وهى من المدينة على ثلث فرسخ .. » ، ولم يطلب إليها زوجها رضى الله عنه أن تكف عن ذلك ، كما لم ير فيه امتهاناً لها ، ولا حرجاً ولا حرمة ، وهى — على ما نعرف بنت الخليفه الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمرأة فى العالم الإسلامى ، تباشر أنواعاً عديدة من العمل لتغطى حاجة معيشتها أو لتسعف ذويها أو تساعد زوجها . فهى تباشر التجارة كصاحبة رأس مال ، أو كعاملة فيها ، وتباشر الزراعة والصناعة على هذا النحو ، كما تباشر التدريس والحضانة .

والإسلام بعد ذلك ، إن تدخل بالحل والحرمة ، فهو لا يتدخل فى مباشرة العمل ، أى عمل . وإنما يتدخل لتبقى المرأة امرأة ، والرجل رجلا ، وليبقى الاحترام بينهما قائماً ، وليحول دون حرج الأفراد أو حرج المجتمع فى العلاقة بين الذكر والأنثى . وهذا الذى يراه الإسلام يرمى به إلى دفع الفتنة والفوضى فى المجتمع .

المرأة فى ميدان الدفاع عن الوطن

إن الأمة الإسلامية ليست إلا أمة إنسانية ، آمنت بالله ، وبرسالة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ورسالة الرسول ليست أكثر من منهج لحياة الإنسان وفق طبيعته ذكراً وأنثى على السواء . والمجتمع الإسلامى ليس مجتمع رجال وحدهم ، ولا مجتمع نساء وحدهن . وإنما هو مجتمع الرجال والنساء معاً . ولكل من النوعين وظيفته ومهمته فى حياة هذا المجتمع . وتحديد الوظيفة ، وتلك المهمة : يرجع لحسب إلى تكوين الطبيعة البشرية عند الفريقين .

وفى ميدان الدفاع عن الوطن ، يشرك الإسلام المرأة مع الرجل فى أداء واجب الدفاع . وما تستطيعه المرأة بحكم تكوينها فى أداء واجب الدفاع عن الوطن ، يدفعها الإسلام إليه دفعاً قوياً . فإن رغبت فى مباشرة القتال واشتراكها مع الرجل فيه ، واستطاعت إلى ذلك سبيلا أجابها الإسلام إلى ما رغبت فيه . فهذه أم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو تخرج فى خلافة أبى بكر فى حروب الردة فتباشر القتال بنفسها ، حتى تقتل مسيلمة الكذاب ، وتعود وبها عشر جراحات بين طعنة وضربة . ويروى مسلم فى صحيحه عن الرميصاء زوج أبى طلحة ، أنها اتخذت خنجراً يوم حنين ، فلما سألها زوجها عنه قالت : « اتخذته ، إن دنا منى أحد من المشركين بقرت بطنه » .

وإن رغبت المرأة فى مساعدة المدافعين، ومعاونتهم فى إعداد الطعام والشراب أو إسعافهم بتضميد جراحهم ، أو نقلهم خلف الميدان إلى مكان العلاج والمداواة ، أو مساعدتهم بتوفير ما يتطلبه المحارب من عدد ومهمات . . . إلى غير ذلك —

فالإسلام يرحب بهذه الصورة من المساعدة التى تقوم بها المرأة فى مجال الدفاع عن الوطن .

والمرأة فى المجتمع الإسلامى — وبالأخص فى الوقت الحاضر — تسهم بنصيب وافر فى إعداد نفسها لخدمة الوطن فى ميدان الدفاع عنه . فهى فوق أنها تتعلم الرماية ، وفوق أنها تروض نفسها على وسائل الدفاع المختلفة — فإنها تتعلم بجانب ذلك التمريض وإسعاف الجرحى ، والعناية بنقل المتاع والمهمات ، مما يتطلبه ميدان الدفاع عن الوطن .

وهى بذلك تعيد صورة المرأة المسلمة التى ساهمت مرة فى القتال ، وأخرى بمعاونة المقاتلين ، دفاعاً عن الوطن ، وحفاظاً على الأمة واستقلالها .

تقييد الطلاق

إن الطلاق علاج لصورة من صور أزمات الزواج . وفى الوقت نفسه هو حل للزوجية إذا لم يؤد إلى العلاج والإصلاح .

إن الزواج هو ارتباط بين طرفين ، وقيام علاقة بين فردين . والأفراد بحكم طبائعهما تتفق وتختلف . تتفق فى بعض الجوانب . وتختلف فى بعض الجوانب . وليس هناك فردان فى هذه الحياة — حتى التوأمين — بينهما اتفاق فى جميع الجوانب. ولذا فمنتظر : إذا ارتبط فردان ، أن يتغلب ما بينهما من جوانب الاتفاق على ما بقى بعد ذلك من أوجه الاختلاف ، أو أن يكون الأمر بالعكس . وإذن منتظر أن يكون هناك خلاف فى الرأى ، وأن يكون هناك احتكاك وتصادم ، وأن يكون هناك أزمات فى هذا الارتباط .

وإذا كان هذا هو الشأن بين الأفراد ، وشأن الارتباط بين الفردين — فالطلاق ضرورة من الضرورات التى ترفع الأزمة بين الفردين ، إذا لم يُجْدِ غيره فى حلها وصرفها . وإلغاء الطلاق إذن من حياة الزوجين أمر ضد طبيعة فرديتهما . وإلغاؤه عندئذ بمثابة إلزام لهذين الفردين أن يبقيا ويعيشا معاً رغم اتساع فجوة الخلاف بينهما ورغم تأذى كل واحد منهما بالآخر فى المعاشرة .

ولم يجعل الإسلام الطلاق هو الحل الأول لما ينشأ من خلاف أو احتكاك أو تصادم أو أزمات ، بل جعل الحل الأول لما يبدو فى جوها من خلاف أن يفاتح أحدهما الآخر فى بعد عن أسرتيهما وعن بقيه أفراد المجتمع : « وَإِنْ امْرأَةٌ خَافَتْ مِن بعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بينهمَا صلحاً ، والصُّلْح خَير » (١) .

(١) النساء : ١٢٨ .

ورغب فى أن تكون أولى مراحل الحلول هى مكاشفة أحدهما الآخر ومحاولة كل منهما أن ينقى جو مايبدو من خلاف بينهما فى عزلة عن غيرهما حتى عن أقربائهما قصداً منه إلى أن يصون سرية العلاقة بينهما . حتى لا يكون من معرفة الغير هذا الخلاف الطارىء سبب فى إشاعته ، وتعقيد الأمر عليهما .

فإذا لم تفلح هذه الوسيلة فى إزالة ما بينهما من خلاف ، واستمر هذا الخلاف حتى بدا عياناً واضحاً للناس — اقترح الإسلام حلا آخر هو أن يحكم واحد من أهله وآخر من أهلها لفض هذا النزاع : «وإنْ خفْتم شقَاق بَينِهمَا فابعثُوا حَكمَاً مِنْ أهلِه وحَكمَاً مِنْ أهْلِها إنْ يُرِيدا إصْلاحاً يوفِّق اللهُ بَينَهمَا ، إنَّ اللهَ كانَ عليماً خَبِيراً[1]» . واختار الاسلام أن يكون الحكمان من أهلهما ليحفظا أيضاً سرية وضعهما ، حتى لا يستغل الخلاف للتعجيل بالفرقة بينهما لو دخل غير الأهل فى فض هذا النزاع .

فإذا لم تفلح وسيلة التحكيم ، وتحول الشقاق والنزاع بين الزوجين إلى أزمة كان الطلاق . وليس معنى ذلك الفرقة النهائية التى يستحيل معها أن ترجع المرأة إلى زوجها حتى تتزوج غيره . وإنما معناه الفرقة المؤقتة لإعطاء فرصة لمراجعة كل منهما نفسه فى شأن هذه العلاقة . فإذا لم يفلح الطلاق الأول ، ولم تنجح هذه الفرصة فى إصلاح ما بينهما كان الطلاق الثانى . على نحو ما تشير الآية الكريمة : « الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان »[2]. وبعد هذا الطلاق الثانى إذا استمر الشقاق بينهما لم يبق أدنى شك فى أن الأزمة التى بين الزوجين وهى التى نشأت عن ما بين طبيعة الفردين من اختلاف : أزمة مستحكمة ليس لها من علاج إلا الفرقة النهائية . تلك الفرقه التى تشير إليها الآية الكريمة : « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره[3]» . وهى التى تكون نتيجة للطلاق الثالث .

---

(١) النساء : ٣٥ . (٢) البقرة : ٢٢٩ .
(٣) البقرة : ٢٣٠ .

وفى كل الأحوال والأدوار التى تمر بالزوجين فى أزمة الخلاف والشقاق بينهما: يوصى الإسلام بالإحسان فى المعاملة، حتى عند الطلاق، على نحو ما تشير الآية السابقة: «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» .

* * *

ومن هذا العرض يتضح أن الطلاق هو غاية فى أوله ، وحل فى آخره ، وأنه وسيلة لا يستغنى مطلقاً عنها ارتباط فردين أحدهما بالآخر إذا تعذر اشتراكهما فى حياة واحدة . وأية أسرة تلك التى يبقى مكرهاً فيها أحد الطرفين أو كلاهما على معاشرة لآخر ؟ . إنها ليست أسرة عندئذ ، إنما هى نفرة وشقاق ، وإن نشاط طرفيها ليس نشاطاً إيجابياً فى الحياة ، وإنما هو نشاط سلبى موجه من أحد الطرفين ضد الآخر ، وإلى انتقام بعضهما من بعض . وتلك ليست حياة الإنسان التى يريد أن يعيشها ، ويحرص عليها .

والطلاق إذن ضرورة من ضرورات الحياة ، لا مفر منه . ومبادىء الحياة لا يشتكى منها إنما يشتكى من سوء استخدامها . وسوء الاستخدام لا يرجع إذن إلى طبيعة المبادىء . بل يرجع إلى سوء التربية وسوء التوجيه .

وتقييد الطلاق لذلك ، وجعله بيد القاضى ليس علاجاً لسوء استخدام الطلاق . وإنما سيكون عاملا من عوامل دفع الطرفين إلى استمرار استخدام نشاطهما فى الهدم وفى الانتقام ، كما يكون عاملا من العوامل التى تساعد على تطويل المدة التى يشقى فيها أحد الطرفين بالآخر .

وإنما علاج سوء استخدام المبادىء الطبيعية فى الحياة يكون بالتربية والتوجيه . فالتربية هى الوسيلة الأولى لتغيير أوضاع المجتمع ، وتحويل نفسيات الأفراد من حال إلى حال . وليست مهمة القانون — وبعد ذلك ليس من مهمة القاضى — أن يخلق

جواً آخر غير الجو القائم ، ولا أن يستبدل وضعاً بوضع ، بل وظيفته الأولى والأخيرة : الاحتفاظ بوضع جاءت به التربية والتوجيه . وهنا تغيير العادات ، وتغيير التقاليد في أي مجتمع يتصل بالتربية أكثر من اتصاله بالقانون والتشريع .

والطلاق الذي صورناه ، والذي هو جزء في نظام الأسرة ، ومبدأ من مبادىء الإسلام — مرتبط ببقية المبادىء الأخرى التي جاء بها الإسلام والتي من جملتها : تكون صفات المؤمن وصفات المسلم . وإذن لو أريد بالطلاق أن يؤدي وظيفته المشروعة في علاج الأسرة وحل أزمتها ، وأريد أن لا يساء استخدامه — فيجب أن تكون التربية والتوجيه لذلك على صلة وثيقة بالوعي للمبادىء الإسلامية وملء القلب بخشية الله . ولذلك نرى التعاليم التي جاء بها الإسلام يخاطب بشأنها المؤمنين بها . ومعنى المؤمن هو الذي يمتلىء قلبه بالتصديق بهذه المبادىء وتتمثل في تصرفاته وسلوكه .

لاغنى عن بعث الإيمان بالإسلام من جديد في نفوس المسلمين . مهما وضع الإنسان من قيود — باسم التشريع أو القانون — فإنه لا يصل إلى دفع النفوس دفعاً تسير به في الاتجاه المستقيم ، دون حاجة إلى رقيب ، ودون حاجة إلى سلطة خارجية .

كرامة الفرد تتطلب أن يكون تصرفه بقوة الدفع الذاتي . والقانون مهما كان شأنه لا يخلق فيه قوة الدفع الذاتي ، وإنما يخوفه ويرهبه ، وكثيراً ما يعقد عليه حياته .

الفصل الرابع

- المجتمع الاسلامى قام على الايمان بالمثل والدفع الذاتى الى تحقيقها .
- المجتمع الاسلامى قام على الاقرار بلوجود المشترك ورعاية الحرمات الفردية .
- المجتمع الاسلامى قام على أساس التعاون .
- المجتمع الاسلامى قام على رعاية الطبيعة البشرية للأفراد .
- المجتمع الاسلامى كيانه مبادىء ، وارضه ليس فيها فواصل .
- المجتمع الاسلامى لغته العربية .
- المجتمع الاسلامى فى علاقته بالمجتمعات الأخرى .
- المجتمع الاسلامى ليس مجتمع طوائف .
- المجتمع الاسلامى ليس مجتمع طبقات .

المجتمع الإسلامى قام على الإيمان بالمثل
والدفع الذاتى إلى تحقيقها

يتحدث كثير من المؤرخين عن المجتمع الإسلامى وأنه أ.ل ماقام، قام بالمدينة بعد أن هاجر الرسول ﷺ وصحابته من أهل مكة إليها، واختلطوا بالأنصار وهم المدنيون الذين آووا ونصروا إخوانهم المهاجرين إليهم .

يتحدث المؤرخون عن قيام المجتمع الإسلامى على هـذا النحو . وحجتهم فى ذلك : أن المبادىء التى نظمت المجتمع الإسلامى ، وحددت علائق أفراده بعضهم ببعض ، نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة .

والرأى ، أن المجتمع الإسلامى قام منذ اللحظة الأولى للدعوة الإسلامية فى مكة . لأن من الأسس الرئيسية فى قيامه الإيمان بالله وحده ، والإيمان بالمثل العليا فى حياة الإنسان . ودعوة التوحيد شغلت الفترة الأولى من فترات الـكفاح فى سبيل الدعوة الإسلامية ، وقد كانت تلك الفترة فترة كفاح المسلمين بمـكة ، قبل أن يهاجروا إلى المدينة .

وإذا ذكرنا أن المجتمع الإسلامى قام عن الإيمان بالله والإيمان بالمثل — فنذكر ذلك لأن هذا الإيمان نفسه هو الحافز على السلوك المستقيم للأفراد ، وعلى حسن العلاقات والمودة فيما بينهم . وليس هنـاك مجتمع إنسانى يقوم ويتحـدث المؤرخون عن قيامه ، وليس بين أفراده هدف مشترك ولا حسن علاقة وترابط فى سبيل تحقيق هذا الهدف المشترك .

ونضال المسلمين — وهم بمكة — فى سبيل دعوة التوحيد ، وكفاحهم المرير ضد الشرك طوال ثلاث عشرة سنة — يوضح إلى أى مدى : قيمة الإيمان بالله وحده كهدف مشترك بين المسلمين الذين آمنوا بدعوة الرسول عليه الصـلاة

والسلام، منذ أن دعا إلى الإسلام سراً ثم جهراً بعد ذلك، كما يوضح إلى أى مدى أنه بسبب هذا الإيمان وحده لا يحتاج المؤمنون إلى دفع خارجى عن ذواتهم نحو العمل بما يحقق نتائج هذا الإيمان فى حياة الإنسان سواء كان فرداً أو مجتمعاً .

والمجتمع الإسلامى إذن يتميز فى قيامه لا بمطلق الإيمان والاعتقاد ، وإنما بالإيمان بوحدة الألوهية ، وقصر استحقاق العبادة على الله جل شأنه لا شريك له فى ذلك . لأن كل مجتمع إنسانى — إذا قام — إنما يقوم على إيمان بأمر ما، ثم يتميز عن مجتمع آخر بموضوع الإيمان ، وبالأمر الذى يلتف حوله المؤمنون به فى المجتمع .

قام مجتمع المسلمين حينئذ من أول الأمر على هدف مشترك : هو الإيمان بالله وحده . وما جاء بعد ذلك من تفصيلات وحدود فى علاقات الأفراد بعضهم ببعض مما أتى به الوحى المدنى فى القرآن الكريم ، إن هو إلا تفريع على هـذا الهدف المشترك ، وفى الوقت نفسه تخطيط مفصل لتحقيقه . ولم يزل هذا الإيمان بالله وحده هو هدف المسلمين فى حاضرهم كما كان هدفهم فى ماضيهم ، منذ بداية الدعوة الإسلامية . ولم تزل العبادات التى فرضها الإسلام ، والحدود التى رسمها للمعاملات فى وقتنا الحاضر تفريعات على هذا الأساس الرئيسى .

لو أردنا أن ننظر الآن إلى العبادات فريضة بعد أخرى لنبين هـذا القول لوجدنا أن كل فريضة منها لا يتجه بها الإنسان إلا لمعبود واحد هو الله سبحانه وتعالى . ولا يخشى فى أدائه إياها إلا ذاك المعبود الذى لا شريك له . وفى الوقت نفسه ، كل فريضة من فرائض العبادات بعـد ذلك تسهم بنصيب فى تحقيق المثل التى رسمتها رسالة الإسلام فى حياة الإنسان وفى علاقته بغيره فى المجتمع . فالصلاة فريضة يخلو فيها الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى يناجيه ويدعوه بالتكبير والاجلال والعظمة ، حتى يمتلىء قلبه بالخشية منه ، وبجلاله وبعظمته . وهنا ، إذا امتلأ القلب بهذه المعانى ، تصرف الإنسان وسلك فى حياته المسلك المستقيم الذى يترفع به عن

الدنايا وعن الفواحش والمنكرات : « أُتلُ مَا أُوحِىَ إليْكَ مِنَ الكِتَاب، وأَقِمِ الصَّلاةَ ، إنَّ الصَّلاةَ تَنهى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمنكر، ولَذِكر الله أكبَرُ... (1) ». وكذلك الشأن فى أداء فريضة الصيام: فأداؤها كما ينشأ عن إيمان بالله ، وعن خشية منه ، فإنه فى الوقت نفسه يحمل الإنسان على سلوك الصراط السوى الذى ينمى العلاقة فيما بينه وبين غيره فى مجتمعه . وعلى هذا النحو ، أداء فريضتى الزكاة والحج . فأساس أدائهما : الإيمان بالله والخشية منه ، وأثرهما العملى بعد ذلك فى حياة الإنسان هو قوة الترابط ،وحسن العلاقة بين الأفراد فى المجتمع .

وعن هـذا الايمان بالله نفسه ، يصدر المؤمن أيضاً فى معاملاته المدنية والتجارية ، وفى علاقتـه الزوجية والأسرية ، فلا يتصرف ولا يسلك إلا سلوكاً محققاً للتعاليم وللمثل التى جاءت بها رسالة الاسلام بعد الإيمان بالله .

وهكذا يتبين لنـا أن الايمان بالله وحده هو أساس قيـام المجتمع الاسلامى فيما مضى ، وسيظل أساسه فى حاضره . وعن هذا الايمان تتحقق أهداف المجتمع الاسلامى من قوة الترابط وحسن العلاقات بين الأفراد ، وحسن الاستعداد والاعداد للدفاع عن الحق والمثل العليا . وفروض العبادات بعد ذلك وظيفتها المباشرة : تأكيد هذا الايمان من جانب ، وتحقيق المثل الانسانية فى حياة المجتمع الاسلامى من جانب آخر . وشعارنا فى الماضى — هو شعارنا فى الحاضر : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

---

(1) العنكبوت : ٤٥ .

المجتمع الإسلامى قام على أساس الاقرار
بالوجود المشترك ورعاية الحرمات الفردية

لا يتحقق مجتمع بشرى على رقعة ما فى هذه الأرض ، إذا ركز الأفراد تفكيرهم فيما يحفظ على كل واحد حياته الخاصة ، وفيما يصون وجوده الضرورى فحسب . لا يكون هناك مجتمع إنسانى بحال من الأحوال ، إذا كان كل فرد يعتبر نفسه عالماً مستقلا عن غيره ، يجول فيه حراً طليقاً ، ودون أن يرعى حياة هؤلاء المشاركين له فى الوجود .

وجود أى مجتمع بشرى معناه قيود والتزامات يتبادلها أفراده . معناه واجبات تؤدى ، وحقوق تؤخذ . معناه تبادل المعاونة فى السلم ، والتكتل عند مقاومة أى دخيل أو درء أى خطر خارجى . وهذا يستلزم قيام المجتمع الوعى بين الأفراد بالوجود المشترك الذى يظلل حياتهم جميعاً .

والاسلام فى رسالته جاء ليوقظ فى نفوس المؤمنين الشعور بهذا الوجود المشترك . ووسيلته إلى ذلك : أنه جعل لكل فرد من أفراد المؤمنين حرمة تراعى وحدد له حقاً يؤدى ، وفرض عليه واجباً يقوم به إزاء غيره .

ولو قرأنا قول الله تعالى : « قلْ تَعالوا أتل مَا حَرم رَبكم عَليكمُ : ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحنُ نرزقكم ، وإياهم ، ولا تقربُوا الفواحش مَا ظهر منها وما بطن . ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مَال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون »

.. لو قرأنا هـذه الآية لوجدناها تحدد معالم الوجود المشترك بين أفراد المجتمع الإسلامى ، وتجعل لكل فرد فيه مكانه ، ووضعه ، ومأمنه فى الحياة من أن يعتدى عليه من غيره فى نفسه ، أو فى عرضه ، أو فى ماله ، أو فى أن يسقط حقه فى الحياة بسبب ضعفه لصغره ، أو وهنه بشيخوخته .

فمنع الاعتداء على العرض بقوله : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » .. ومنع الاعتداء على النفس بقوله : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » .. ومنع الاعتداء على المال بطلبه إيفاء الكيل والميزان بقوله : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » .. وأمن الضعيف على حياته وماله بقوله : « وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » .. وفى قوله : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن » .. ثم بجانب هذا وذاك ، أمر المؤمنين عامة بأن يكون قولهم وقضاؤهم لا يرعون فيه إلا الله ، وإلا الحق وحده : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .. كما يأمرهم بالوفاء بالعهد إذا كان عهداً فى سبيل الخير ، وفى سبيل الله : « وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » .

وهذا الذى حدده القرآن الكريم للوجود المشترك بين المؤمنين سماه صراطاً مستقيما ، يجب سلوكه واتباعه ، ويجب تجنب ما عداه من سبل وطرق أخرى ، إذ كان به للمجتمع : استمرار فى البقاء ، وصفاء فى علاقات الأفراد ، ووحدة فيما بينهم وقوة لا تضعف فى مواجهة غيرهم ، فقال : « وأن هـذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .. أى تتقون الله فيما تسلكون ، وتتجنبون المخاطر وموارد التهلكة . وليست هى إلا الفرقة والخلاف والفردية والأنانية .

هذه هى المعالم التى يجب أن تدور فيهـا حياة المؤمنين بعضهم مع بعض ، ويتصرف فى نطاقها كل واحد مع الآخر . وهى معالم — كما نرى — لا تقوم على

عدم الاعتداء فحسب ، بل تتطلب أيضاً العون المتبادل لا فى الاعطاء فقط ، وإنما فى عدم الاستغلال فى أية صورة من صور الاستغلال .

وهى فى واقع الأمر معالم للمجتمع الانسانى الذى يريد أن يحيا سعيداً ، ويعيش قوياً . فالإنسانية فى صورتها الحقيقية ما هى إلا معاونة ، وأخوة ، ومحبة بين الأفراد ، وليست أكثر من سيادة على أنفسهم ، تمكيناً لهذه المعاونة ، ولهذه الأخوة بينهم جميعاً .

والناس لا يفقدون المعاونة فيما بينهم ، فضلا عن فقدانهم المحبة والأخوة إلا إذا تمكنت فيهم الفردية والأنانية ، وضعف فيهم الشعور بمعنى المجتمع ، وهو الشعور بالوجود المشترك ، والوعى لهذا الصراط المستقيم الذى أشار إليه القرآن الكريم .

رسالة الإسلام للمجتمع هى رسالة الانسانية ، ورسالة السلام وعدم الاعتداء ، ورسالة القوة والسيادة ، ورسالة الاطمئنان والاستقرار ، ورسالة الترفع عن الوحشية والحيوانية ، ورسالة التهذيب . إنها رسالة الأمان والتأمين : الأمان ضد الاعتداء .. والتأمين على حياة الانسان .

ونحن أحوج ما نكون اليوم إلى تنمية الشعور والوعى بالوجود المشترك بيننا ، فى حدود المعالم التى رسمها القرآن الكريم ، وعلى أساس من صراط الله المستقيم .

المجتمع الاسلامى قام على التعاون

إنه لا يكفى فى قيام المجتمع البشرى ، وفى بقائه أن يعترف الإنسان بوجود غيره معه ، وأن يترك له مجالا يمارس فيه السعى ، محافظة على وجوده وحياته ، لا يكفى أن يراعى حرمته ، فلا يعتدى عليه فى نفسه ، أو فى ماله ، أو فى عرضه . لأن الفرد وحده لا يستطيع بإمكانياته الخاصه أن يحقق لنفسه الاكتفاء الذاتى فى حياته وفى وجوده معاً . وقد تكون إمكانياته الخاصة محدودة بسبب ضعفه لصغر سنه أو مرضه أو شيخوخته ، أو بسبب جهله السبيل الأوفق التى يلائم بها بين الظروف التى يعيش فيها مجتمعه وبين ضرورات وجوده ، أو بسبب فقره وقلة ما يتكسبه منه . وعندئذ يكون عجزه عن أن يفى بحاجات نفسه أوضح .

لهذا كان من الضرورى — لبقاء المجتمع — أن يكون هناك ميل لمعاونة الإنسان غيره فى المجتمع الذى يعيشان فيه معاً ، وأن يقوى هذا الميل إلى المعاونة فى نفس كل منهما بحيث يصبح ذا مظهر عملى فى حياتيهما ، بحيث يكون بينهما تعاون ، وبحيث ترى آثار هذا التعاون فى سد حاجة كل منهما .

ولا تنحصر حاجة الفرد فى حياته إلى المال أو إلى تيسير العمل عليه حتى يحصل على المال ، يدبر به شأن نفسه فى الغذاء واللبس والمسكن . بل قد تكون حاجته أشد إلى المعرفة أو النصح يستنير به فى طريق الحياة ، أو إلى دفع الإيذاء والمكروه النفسى أو البدنى ، أو إلى دفع المرض ، كى لا تكون هناك عقبة فى خط سيره فى مجتمعه . وهناك تكون جوانب التعاون متشعبة ، لا يسدها تعاون فرد مع فرد على حدة . وإنما ينهض بها على الوجه الأكمل جميع الأفراد الذين يكونون مجتمعاً خاصاً بهم ، كل بما يستطيع أن يقوم به . وعندئذ يمكن لكل فرد فى هذا المجتمع أن يرى أنه قد حصل على العون الذى يمكنه من أن يعيش ، ومن

لأن يحقق لنفسه مطالب الحياة الإنسانية الكريمة . وهى تلك الحياة التى لا يستذل فيها الإنسان ولا تبخس قيمته ، أو تهدر آدميته ، من أجل المحافظة على البقاء .

ولأن التعاون له هذا الأثر الحيوى — سواء فى محافظة الإنسان على حياته المادية أو على حياته الإنسانية — لقى رعاية من الإسلام ؛ مما جعله مظهراً من مظاهر الامتنان التى امتن بها الله جل شأنه على المجتمع الإسلامى بعد قيامه . فيقص القرآن الكريم مذكراً هذا المجتمع بتلك النعمة الكبرى التى أنعم بها عليه . وهى نعمة التعاون التى بلغت مداها حتى أصبحت العلاقة بين أفراده علاقة أخوة لا فى النسب ، وإنما فى القلب والإيمان وفى المحبة والمودة ، أى فى العلاقة الإنسانية الخالصة . فيقول : « واذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيكُمْ إذْ كُنْتُم أَعْدَاء فَألفَ بينَ قُلوبكم فَأصْبَحتم بِنعْمتِهِ إخْوَاناً ، وكُنْتُم عَلىَ شَفَا حُفْرة مِنَ النَّار فَأنقَذَكم مِنْها كَذَلِكَ يُبين الله لكم آياتِهِ لعلَّكم تَهْتَدُون[1] » .

ولكى يبقى التعاون ذا أثر حيوى فى المجتمع فى المحافظة على بقائه وعلى قوته — يجب أن يكون تعاوناً فيما يؤدى إلى الأخوة الإنسانية ، وإلى صهر العلاقات بين الأفراد ، بحيث تكون علاقات مودة ومحبه . وذلك هو التعاون فى سبيل المصلحة العامة ، وفى سبيل الخير . والتعاون فى سبيل الخير والمصلحة العامة إنما يتأتى إذا ضعفت روح الفردية وضعفت سيطرة الأنانية ، وأصبح الشعور عند الفرد بحب الغير لا يقل عن الشعور بحب الذات نفسها . ولذا كان من وصايا الرسول ﷺ : « **لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخية ما يحب لنفسه** » . وهى وصية قصد منها الرسول ﷺ أن يصفى النفوس من الحقد والكراهية والبغضاء ، حتى تكون بعد ذلك على استعداد لأن تتقبل الغير فى وجوده ، على نحو ما تتقبل نفسها فى الحياة .

---

(١) آل عمران : ١٠٢ .

ولكى يكون التعاون جماعياً — حتى تلبى حاجات الأفراد ، وحتى تحفظ حياتهم من الامتهان — لابد له أن ينمى الشعور بالمجتمع ، بحيث يعيش كل فرد لنفسه ومجتمعه .

وهنا دور التربية — سواء فى الأسرة ، أو فى المدرسة ، أو فى الحياة العملية — يجب أن يكون موجهاً نحو تقوية هذا الشعور بالمجتمع . إذ من السهل بعد ذلك أن يتكون فى سلوك الأفراد عادات تقوم على رعاية المصلحة العامة ، ورعاية الجوار بين الأفراد ، وعلاقات القربى فى النسب ، أو فى الغاية والهدف ، بجانب تلك العادات الفردية التى تتكون من فطرة الإنسان للمحافظة على ذاته وبقائه الخاص .

التعاون إذن تربية ، بعد إيقاظ الوعى بالغير وبالمجتمع . ومظاهره يجب أن تكون صادرة عن عمل العادة ، أكثر من صدورها عن دفع الاقتناع المؤقت والعاطفة المؤقتة . وعندئذ يكون التعاون أمراً ميسراً على النفوس ، ومحبباً لديها . ولذا قرن القرآن الكريم طلب التعاون فى قوله تعالى : «وتعاونوا على البر والتقوى» .. بطلب التقوى نفسها . وليست التقوى إلا تهذيب النفوس ، بحيث يكون من السهل على هذه النفوس المهذبة أن تتجنب المنكر البغيض أو المستقبح من التصرفات لتترك المجال للصالح من الأعمال .

وبهذا كله قوّم الإسلام مبدأ التعاون فى المجتمع ، ورسم الطريق إلى تحقيقه : جعله مبدأ ضرورياً لبقاء المجتمع ، فأمر به ، كما أمر بالتقوى ليكون أمره على النفوس ميسراً ومحبباً . ثم جعل اتجاهه إلى الخير والمصلحة العامة دون الاثم والعدوان : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والعُدْوانِ »[1] .

---

(١) المائدة : ٢ .

التعاون فى الإسلام إنما يكون على الخير وحده :

فالتعاون الذى يراه الإسلام صاحب الأثر والإيجابية فى الترابط بين الأفراد هو التعاون على الخير وحده ، وفى سبيل المنفعة السامة التى تحفظ للأفراد كرامتهم وآدميتهم ، وتكفل للمجتمع تسانده وقوته . ويوضح ذلك قول الله تعالى : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى [1] » .. والتعاون على البر يكون دائماً بالعمل الإيجابى . والتعاون على التقوى يكون بالتجنب والترك . فالتعاون على الإيمان بالله ، وعلى تحرير الإنسان من الاذلال : إذلال الفاقة والحاجة ، وإذلال الانحراف فى التصور والاعتقاد ، وإذلال المرض ـ هو تعاون على البر وعلى الخير معاً ، وفى سبيل المنفعة العامة . والتعاون على تجنب الفحشاء والمنكر والبغى ، التعاون على ترك مايؤذى الأفراد فى أموالهم وأعراضهم ، أو يؤذيهم فى حرماتهم الشخصية ، ويؤذى المجتمع فى غاياته وأهدافه — هو تعاون على التقوى وعلى الخير معاً وفى سبيل للنفعة العامة .

وإذا وجد التعاون فى دائرتى العمل والترك سلم الأفراد من صور الضعف المختلفة : سلم الأفراد من الضعف الذى يلى ويفرض عليهم من الخارج، وهو الضعف الذى يفرضه المسترق أو المستغل أو داعية الباطل ، وسلموا أيضاً من الضعف الذى يداخل نفوسهم، وهو الضعف الذى ينشأ عن الشعور بالايذاء من الغير فى العرض أو المال ، أو الكرامة والحرية الشخصية ، ثم بعدم القدرة على دفعه ،

وهنا إذا ماتحقق التعاون تخلص النفوس وتنطوى على الصفاء والمحبة ، وهنا تفكر العقول تفكيراً سليما ، وهنا يكون السلوك العملى سلوكاً مستقيما . وليست قوة الأفراد إلا فى صفاء نفوسها ، واستقامة تفكيرها وسلوكها . وما المجتمع القوى المتماسك البنيان إلا أفراد أقوياء بنفوسهم ، وقلوبهم ، وتفكيرهم ، وسلوكهم .

---

(١) المائدة : ٢ .

إن التعاون على الخير ، التعاون على البر والتقوى ، هو العامل فى إزالة الحقد أو فى إضعاف شأنه على الأقل بحيث لا يكون له أثره فى الحياة الجماعية . إنه العامل فى إبعاد الغيبة والنميمة والوشاية والدسيسة من حياة الأفراد . لأن الإنسان لا يحقد على غيره إلا إذا نفس عليه وضعف عن أن يلحق به فى الحياة ، وفى الوقت نفسه لم ير منه يداً تمتد إليه . وإن الإنسان لا يغتاب ، ولا ينم ، ولا يشى بغيره ، ولا يدس ويتآمر عليه ، إلا بعد أن تعجز طاقته البشرية أو تضعف إرادته عن أن تدفع به فى ذات الطريق الذى سار فيه غيره ، وإلى نفس المسافة التى قطعها فيه ، وإلا بعد أن يرى الفجوة فى علاقتهما قد وضحت مع ما توجبه المشاركة فى الوطن أو الزمالة فى العمل ، أو علاقة القربى أو علاقة الجوار ، على ذلك الذى تقدم فى الحياة : من رعاية المتخلف عنه ومعاونته على أن يتغلب على الضعف فيه .

وإن هذه الصفات : من حقد ، وغيبة ونميمة ، ووشاية إن دلت على تخلف فى الحياة أو على ضعف أصحابها يحول بينهم وبين السبق فى مجال نشاط المجتمع ، إنها إن دلت على أن أصحابها يؤثرون النفاق والاستخفاء ، على الصراحة والعلن فى الحياة فإنها تدل قبل ذلك على أن المجتمع الذى تسود فيه هو مجتمع ضعيف لا يقوى على البقاء طويلا ، فضلا عن أن يستطيع مواجهة من يعتدى عليه ورد اعتدائه ، إنها تدل على شيوع الفردية والأنانية ، إنها تدل على وجود حرب خفية بطيئة — ولكنها حرب مبيدة مهلكة — بين أفراد المجتمع الذى تشيع وتكثر فيه .

ولهذا فالاسلام عندما أعلن حرمة ارتكابها ونفر منها بقوله : « أيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ [1] » — حض فى الوقت نفسه على التعاون المثمر الخير ، الذى من شأنه أن يخفف على الأقل من آثارها السلبية فى حياة المجتمع .

التعاون على البر والتقوى ، التعاون على صنوف الخير وعلى ترك أنواع

(١) الحجرات : ١٢ .

الإيذاء والفحشاء والمنكر ... هو الوسيلة لإنهاء هذه الحروب المدمرة المهلكة وهى حرب النفوس والعقول والقلوب . هو الوسيلة للمحبة والصفاء . هو الوسيلة للإنتاج الفكرى السليم ، والعمل المستقيم. هو الوسيلة لابراز نشاط الإنسان الذى يتسم بطابع الإنسانية وطابع الخلود، ويكون أثره الخير أوسع نطاقاً يعم صاحبه ومن معه فى مجتمعه .

التعاون لخير المجموع:

وعندما يقول الله سبحانه وتعالى : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَقوى [1] »..
يقصد إلى توصية جميع المؤمنين بالتعاون على البر والتقوى ، وهم من وجه إليهم الخطاب ، فى صدر هذه الآية بقوله : « يأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله » .
فالتعاون على البر والتقوى فى تعاليم الإسلام موصى به ومطلوب من الأفراد المؤمنين جميعاً . وهو لهذا لايراد به فقط أن يساعد الغنى بماله الفقير فى جماعته ، ولا أن يعين العالم الجاهل على محو أميته الدينية ، ولا أن ينقذ صحيح البدن معتل الصحة لمرض أو شيخوخة فى قومه ، إبقاء على التضامن والتكتل . إنه عندئذ يكون إحساناً .

والبر فى هذه الآية هو إسداء الخير، أى خير . والتقوى هى اتقاء مايؤذى، وتجنب ما يضر فى صورة ما ، بدليل قوله تعالى بعد هذه الجملة مؤكداً إياها : « ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

والتعاون هنا فعل من طرفين وليس من طرف واحد . وبهذا يكون المسلمون جميعاً مكلفين من قبل الله سبحانه وتعالى : بالمشاركة فى البر والتقوى :

على العامل فى المصنع أن يسدى الخير ويتجنب الإيذاء فيما يصنعه لصاحب المصنع . عليه أن يتقن عمله وأن يزيد فى إنتاجه . وعلى صاحب المصنع أن يقدر عمله

(1) المائدة : ٢ .

المتقن المنتج سواء فى أجره أو فى صحته ، والإسهام فى حل أزماته النفسية . وبهذا وذاك : يكون هنا تعاون بين الاثنين على البر والتقوى .

على المستأجر لأرض زراعية أن يسدى الخير ويتجنب الإيذاء فى استغلال الأرض التى يستأجرها من صاحبها . عليه أن يرعى نمو زراعته ودفع الآفات عنها . وعلى مالك الأرض أن يلحظ مستأجر أرضه الأمين اليقظ ، وأن لا يثقل كاهله بما يجعله يعجز عن أن يعيش عيشة إنسان معه . وبهذا وذاك: يكون هنا تعاون بين الاثنين على البر والتقوى .

على العامل المكلف بنظافة الشارع أن يسدى الخير لرواده والساكنين فيه فيما تقضى به طبيعة عمله من تنظيف الشارع، وعليه أيضاً أن يتجنب إيذاءهم باتباع الرفق فى كسح ما بالشارع من أتربة أو مهملات . وعلى مرتادى الشارع أنفسهم وعلى الساكنين المطلين عليه أن يسدوا الخير إلى عامل النظافة ويتجنبوا إيذاءه بعدم إلقاء المتخلفات فى الشارع من مواد الأكل كقصاصة القصب وقشور اللب ، أو من عملية تنظيف المنزل أو المطبخ مما يضر العامل ويثقل كاهله ومما لا يسر له مار بالشارع ومما يلوثه ويلوث منطقة الساكنين أنفسهم ويعود عليهم بالضرر الصحى قبل أن يفسد عليهم الذوق الإنسانى العام السليم وهو ذوق النظافة .

على المشترك فى حديث ما أن يسدى الخير — لمحدثه ولمن يتحدث عنه ، ويتجنب إيذاء أى واحد منهما : فلا يشير عليه إلا بما يعود عليه بالنفع ،ولا يتحدث عن ثالث بينهما إلا بما يصون عرضه ويدفع عنه إضرار التنقيص ، أو التشهير به أو الاعتداء عليه .

هذه بعض أمثلة التعاون على البر والتقوى فيما طلبه الله وكلف به المسلمين . ليس بر الإسلام براً مادياً دائماً ، وليس الإيذاء الذى يطلب من المسلم الكف عنه إيذاء بدنياً وجنسياً دائماً . إن فى مقدمة أنواع البر الذى يطلب الإسلام من

المسلمين التعاون عليه لخيرهم جميعاً : بر النفوس والقلوب . وهو البر الذى يعود عليها بالرضاء والصفاء : التوسيع فى المجالس بر للنفوس والقلوب . والاعتذار بكلمة رقيقة عند الخطأ الصغير فى المعاملة بر للنفوس والقلوب . ورَعاية حرمة الجار بر للنفوس والقلوب. واستعمال الألفاظ المهذبة بر للنفوس والقلوب . هذا من جانب، ومن جانب آخر : الغض من قيمة إنسان ما بإهمال مشاركته فى الحديث إن كان ثالثاً فى المجلس إيذاء للنفوس والقلوب . والتورية بشخص آخر إيذاء للنفوس والقلوب . والضحكة الملفتة للنظر عند مرور إنسان هو معرفة للذى قذف بضحكة فى الهواء إيذاء للنفوس والقلوب .

بل إن هذا النوع من البر، وهو البر النفسى، خير عند الله من البر المادى الذى يتصل بالبطن والمعدة . يقول الله تعالى : « قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى(١) ».. فجعل القول المهذب والصفح عند الخطأ خيراً من صدقة يتبعها من المتصدق مَنٌّ أو يتبعها جهر بها كالإعلان عنها فى الصحف . ذلك لأن النفس تستريح وتطمئن للقول المهذب وتشعر بالجميل عند مقابلة أخطائها بالصفح عنها . ثم هى فى حالة الصدقة المادية التى يلحقها مَنٌّ أو جهر بها ستحس بالألم النفسى عند ماتحاول أن تلبى بها حاجة المعدة . فالنفس والقلب فى تعاليم الإسلام لهما مكانة أوسع ، والقصد إليهما فى هذه التعاليم أقوى . لأن على صفائها تتوقف قوة الترابط والتكتل فى الجماعة الإسلامية .

يمتاز الإنسان بنفسه وقلبه عن الحيوان ، ويشارك هذا الحيوان فى معدته . فتعاونوا على صفاء النفوس والقلوب تصح المعدة وتخلو قلوبنا من الأحقاد والآلام النفسية . ولذا إذا صفت النفوس والقلوب وخلت من الأحقاد والآلام النفسية فلا يكون هناك إلا مجتمع خير سليم :

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإثْمِ والعُدْوَانِ واتقوا الله (٢) » .

---

(١) البقرة : ٢٦٣ . (٢) المائدة : ٢ .

المجتمع الاسلامي

يقوم على رعاية الطبيعة البشرية للأفراد

فالمجتمع الإسلامي — بانتسابه إلى الإسلام — لم يخرج عن كونه مجتمعاً بشرياً، يتكون من أفراد لهم ميول فردية توحى بها طبائعهم، ككائنات حية لها من فطرتها غرائز مختلفة، بجانب ما تميزت به من قدرة على التفكير .

ودور الإسلام إزاء هذه الطبائع البشرية لايتعدى توجيهاً أو تهذيباً .لايتعدى حملها — عن طريق الاقناع والإيمان — على أن تحقق فى حياتها الخير والسلام . ولأن دور الاسلام لا يتعدى التوجيه أو التهذيب لطبائع الأفراد — فهو يعترف بما لها من ميول عديدة . لا يحاول أن ينكر واحداً منها أو يتجاهله . كما لايحاول أن يعمل على إفناء بعضها وإماتته حتى لا يظهر هذا البعض من الميول فيما بعد، فى أجياله القادمة . وإلا — لو حاول هذا أو ذاك — لكانت وظيفته تبديل خلق الله، وتحويل خصائصه . وليس ذلك من رسالة أى دين سماوى، فضلا عن أن تكون رسالة الإسلام .

ولهذا يقر الإسلام : ميل الإنسان إلى التملك، وميله إلى النسل، وميله إلى الاطلاع والمعرفة، وميله إلى الاجتماع . يقر الإسلام ميل الانسان إلىحب الذات وكذا ميله إلى مشاركة الغير مشاركة وجدانية . يقر الإسلام هذه الميول للإنسان، ويقر غيرها مما له من طبيعته .

ومن هنا لا يحرم عليه الملكية الفردية . ولكنه فحسب لا يتركه يتحكم عن طريق ما يملك فى إذلال غيره وامتهانه ، أو فى حرمانه من حق الحياة ، أو فى التضييق عليه فى العيش بوسيلة أو بأخرى. ولكى لايصير المؤمن بالإسلام،

أو لكى لا يندفع إلى هذا التحكم فى غيره عن طريق الملك — أيقظ الإسلام فيه روح البذل لغيره ، وحبب إليه المنح والإعطاء لصاحب الحاجة ، سواء أكان ذلك فى صورة فردية شخصية مؤقتة ، أم فى صورة عامة مستمرة ، كإقامة المؤسسات التى تكفل العمل لأصحاب الحاجة ، وفى الوقت نفسه تسهم فى زيادة رفع مستوى الحياة الاجتماعية . وقول الله تعالى : « يمحق الله الرِّبا ويُربى الصَّدَقات[1] » .. يصور لنا مدى عناية الإسلام بتربية روح المنح للغير لدى الأفراد الأثرياء ، ومدى عنايته بالترغيب فى ذلك . فتصويره الصدقات — وهى إعطاء أو تنزيل وتنقيص حسى من رأس المال — بأنها إرباء أى زيادة فى رأس المال الذى أخرجت منه الصدقات ، يحمل صاحب رأس المال على البذل بنفس راضية وبرغبة إنسانية فى الإحسان . إنسان بحكم فطرته كما يميل إلى الملك ، يميل إلى تنمية ما يملك . وزيادة رأس مال المتصدق ليست هى الزيادة الرقمية الحسية ، وإنما هى الزيادة باستمتاعه بماله ، والوقاية من شرور الحاسدين والحاقدين من المعوزين ، أو ممن هم أدنى منه فى اليسار والقدرة على دفع الحاجة .

والإسلام له — وراء هذه الصورة — فى الترغيب فى الإعطاء والمنح — صور أخرى . مرة يجعل هذا المال الذى هو بأيدى أصحابه مال الله فيقول : « وآتوهُم من مالِ اللهِ الذى آتاكُم »[2] . ويقول : « وأنفقوا مما جَعَلَكُم مُستَخلَفين فيه »[3] ومرة يجعل النصيب الذى يعطيه صاحب المال للمحتاج إليه حقاً مشروعاً فى المال الذى بيد مالكه . فيقول : « وفى أموالِهم حقٌّ للسائلِ والمحرُوم »[4] .

وهكذا لا ينكر الإسلام على الانسان حق التملك — لأن حب التملك فيه ميل طبيعى لا ينكر — ولكنه ينكر عليه فقط أن يتحكم به فى حياة غيره فى صورة ما من صور التحكم .

---

(١) البقرة : ٢٧٦ .
(٢) النور : ٣٣ .
(٣) الحديد : ٧ .
(٤) الذاريات : ١٩ .

وكما لا يحرم عليه الملكية الفردية ، لا يحرم عليه النسل والرغبة فيه . وإنما يوجهه فحسب إلى أن يكون تحقيقه لهذه الرغبة عن طريق : « الزواج » .. لاعن طريق آخر . لأن ذلك أكرم بالانسان وأليق بالمنهج المستقيم فى الحياة ، وأوضح فى دفع الاحتكاك بغيره ، وأحفظ لمستوى الانسان ككائن له وحده شعور بالمسؤولية ، وله وحده تاريخ يسطر فيه حياته ، ويربط بين ماضيه وحاضره ومستقبله فيه ، وله وحده شخصيته واستقلاله فيها — وإن كان يدور فى إطار الحياة مع غيره فى مجتمعه ويجب أن يدور فيها معه .

ولكى يدفع الانسان إلى الارتباط بعلاقة الزوجة وحدها — عند ما يرغب فى النسل بدافع حب البقاء النوعى — يصور له هذه بأنها مصدر الاطمئنان النفسى من وجوه عدة فيقول: «ومِن آياتِه أنْ خَلَقَ لكم مِنْ أنفسِكُمْ أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة» .. وليس وراء اطمئنان النفس ، ومودة الانسان للإنسان سعادة أو متعة إنسانية حقيقية .

وكما لا يحرم الإسلام على الانسان حق الملك ، وحق النسل — لأنهما من فطرته البشرية — فإنه لا يحرم عليه الاطلاع والبحث والتفتيش عن المعرفة . ويوجهه فحسب إلى أن يستخدم معرفته التى يحملها ، فى سبيل الخير ، فى سبيل البناء والتعمير ، فى سبيل المعاونة ، فى سبيل دفع الأذى والمكروه ، فى سبيل رفع المستوى لمعيشة الإنسان ، وخلقه ، وصحته ، فى سبيل سلامه بدنه ونفسه ، وليس فى سبيل التدمير والاهلاك ، ولا فى سبيل التخريب والايذاء .

* * *

ومعرفة الإنسان لا تكون خيرة إلا إذا عرف فى النهاية بها ربه وآمن به عن طريقها .. إلا إذا أدرك بها الكون ورب الكون معاً . إذ عندئذ فقط يضمن

أن يطيع الله فى توجيه ما حصله من معرفة الـكون . وطاعة الله فى توجيه معرفة الانسان بالـكون تتحقق باستخدام هذه المعرفة فى صالح الانسانية ونفعها ، وليس فى إزعاجها وإقلاقها . يروى عن ابن عمر عن النبى ﷺ : « من تعلم علما لغير الله أو اراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار » .

لا يريد الاسلام بتوجيهه الإنسان إلا أن يهذب طبيعته ، ويحقق بنشاطه إنسانيته ، ويسعده باطمئنانه وبابعاد شبح الخوف ، حتى لا يسقط فيصبح حيوانا .

إن المجتمع الاسلامى – كما رسمه الاسلام – هو مجتمع إنسانى مهذب ، مجتمع إنسانى يسعى إلى الخير والسلام .

كيان المجتمع الاسلامى مبادىء
وأرضه ليس فيها فواصل

كان محمد ﷺ رسول الإسلام ، وخاتم الرسل ، وقد اصطفاه الله سبحانه وتعالى لهذه الرسالة . وكان اصطفاؤه إياه لتبليغ رسالة الله ، آية لتقديره وعنواناً على رضائه عنه . ومع ذلك لم تحمل رسالة الإسلام نفسها فى تعاليمها وأوامرها ونواهيها ، وفيما توصى به — إلا ما يتصل بالمبدأ دون الشخص . وفى دعوة الإسلام إلى توحيد الله فى عبادته يقصد الإسلام أول ما يقصد : إلى إحلال اعتبار المبادىء محل اعتبار الأشخاص ، مما كان سائداً فى عقيدة الشرك والوثنية قبل بعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام .

والإسلام يقدر الشخص ، بقدر ما يتصل فى اعتقاده وإيمانه بمبادىء الإسلام ، وبقدر ما ينهج فى سلوكه وفق المعالم التى حددها للطريق المستقيم فى سلوك الانسان . وقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .. يوضح أن منزلة الفرد فى تقدير الاسلام لا تتصل بنسبه ، ولا بالصفات الجسمية التى تحدد شخصيته ، ولا بما له من خصائص فى قوى إدراكه وتصوره وتميزه عن غيره .

وإنما فحسب بمدى ما تنفعل نفسه بالمبادىء وتتصرف طبقاً لها . فصاحب التقوى هو ذلك الفرد من الانسان الذى آمن بالله ، وبما اشتملت عليه رسالة الاسلام من مبادىء ، وأطاعها فى سلوكه الفردى ، وفى علاقاته مع غيره فى المجتمع . وكلما كان قريباً منها فى تصرفاته ، وفى أفعاله كلما كان متفوقاً على غيره فى تكريم الله إياه . وعندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يقدر رسوله ﷺ قدره بقرب اتصاله فى سلوكه وأفعاله بالقرآن، فقال : « وإنكَ لَعَلى خُلُق عَظيم[1] » .

---

(١) القلم : ٤ .

وشرحت ذلك عائشة رضى الله عنها عندما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فأجابت : « كان خلقه القرآن » .

وكيان المجتمع الإسلامى — لأنه يقوم على رسالة الإسلام وهى رسالة المبادىء — هو كيان مبادىء ، وليس كيان أشخاص فى وقت معين وفى جيل خاص . ولذلك أرضه ليس فيها فواصل مما تحس وتشاهد ، ومما اعتاد الإنسان أن يفرق بها بين قوم وآخر ، وأرضه لا تعرف الأنهار والجبال ، ولا تعرف الأجناس والقبائل ، ولا تعرف فرقة اللون واختلاف اللغة ، ولا تتخذ من بعضها أو منها كلها حواجز تفصل بها بين فريق وآخر ، طالما هم جميعاً يؤمنون بمبادىء الاسلام ، ويطيعونها فيما يسلكون سلوكاً خاصاً أو عاماً .

إن مبادىء الاسلام وحدها هى التى تظلل المسلمين ، وهى التى تجمع بينهم ، وهى التى تصبغ مجتمعهم وتطبعه بطابع خاص يتميز به عن مجتمع آخر . ومن عبادة الله وحده ، إلى طلب دفع سيطرة الأنانية ، إلى التعاون والاخاء فى العلاقات ، إلى الرغبة فى السلم والاستقرار ، إلى اتخاذ العدة لدفع الاعتداء ، يتكون الاطار العام الذى يدور فيه فلك المجتمع اسلامى .

ولأن كيان المجتمع الاسلامى هو كيان اعتبار المبادىء قبل اعتبار الأشخاص — كان أدعى إلى البقاء والاستمرار ، وكان أقرب ما يكون إلى الاستقرار . فآفة المجتمعات الانسانية ، وأسباب اهتزازها والانقلاب فيها : أن ينزل أفرادها بإيمانهم وتقديرهم إلى الأشخاص وحدهم دون اعتبار لما بين هؤلاء الأشخاص والمبادىء من صلات وعلاقات . وعندئذ يتحول نشاطهم إلى فرقة واختلاف وبالتالى يتحول مجتمعهم إلى شيع وطوائف ، ومن ثم يفنى المجتمع أو يذوب فى مجتمع آخر .

إن الإسلام عندما أقام مجتمعه على مبادىء ، وجعل أهدافه تحقيق هذه

المبادىء — رسم للإنسان فى الوقت نفسه طريق الاستقرار ، بجانب ما رسم له من توجيه يصل به إلى الإنسانية . أما الاستقرار فلأنه لم يربطه فى حياته بشخص معين هو عرضة للضعف فى أية صورة ، ثم أخيراً هو عرضة للفناء . ولم يربطه بكائن محس ينال منه الزمن ، أو تنال منه الأحداث فتشوه معالمه أو تزيل وجوده . وإنما ربطه بالمبادىء وهى لا تفنى بحال ، طالما للإنسانية وجود فى صورة إنسان ما . وأما التوجيه الذى يصل بالإنسان إلى الإنسانية المهذبة فلأنه لم يجعل هدفه فى الحياة تحقيق رغبات تتغير بتغير الأشخاص فى جيل ، ويميل إليها الإنسان فى آن ، ويعف عنهـا فى لحظة أخرى ، لأنه لم يجعل هدفه فى الحيـاة تحقيق شهوات النفس ، وهى لا تحد ، وفى الوقت نفسه موقوتة بالميل والهوى . وإنما جعل المبادىء هى المثل التى يسعى إليها الانسان ، وتجد فى الانفعال بها ، وفى طبع حياته بآثارها ومظاهرها .

كيان المجتمع الاسلامى مبادىء ، وأرضه ليس فيهـا فواصل والمسلم هو من طبعت حياته بالايمان بمجتمعه وبمبادئه ، وهو من تهذبت نفسه وسعى إلى أن يكون إنساناً فيما يعمل وفيما يتصرف .

المجتمع الاسلامى لغته العربية

نزل القرآن الكريم بلغة العرب . فقال تعالى : « كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُه قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُون(١) » .. وقال تعالى : « إنا أَنْزَلْنَاهُ قرآناً عربياً لعلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٢) » .. وقال تعالى : « قُرآناً عَرَبِيّاً غير ذِي عِوَجٍ لعلَّهم يَتَّقُون(٣) » .. فكان نزوله باللغة العربية تكليفاً ضمنياً للعرب بأن يؤدوا رسالة الإسلام ، ويحملوا مشعلها ، ويتحملوا فى سبيلها الصعاب والمشاق . ويكون لهم من وراء ذلك كله مجد هذه الرسالة . وهو مجد يتصل بالانسانية وبسيادة خصائصها فى التهذيب والسلوك بين الناس جميعاً . ولم تختر لغة العرب لغة الاسلام لأن لها خصائص فى تراكيبها ومدلولاتها . ولكن لأن محمداً العربى رسول الله ، ولأن مكة فى موطن العرب ، أول بيت وضع للناس ، فيه مقام إبراهيم . وقد اصطفى الله سبحانه وتعالى محمداً ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين ، ولا راد لاصطفائه ، وخص مكة لتذكر بالرسالة الإلهية فى صورتها الأولى ، وهى رسالة إبراهيم عليه السلام . ومصلحة البشر أن تكون أخرى الرسالات مذكرة بأولاها ، حتى يكون فى ذلك إعلام للبشرية بأن رسالة الله مهما تعددت الرسل ، وتعددت مواطنهم ، فهى فى جوهرها واحدة ، تعبرعن إرادة واحدة هى إرادة الله ، وعن منهج واحد هو المنهج المستقيم للبشرية ، وعن غاية واحدة هى غاية الإيمان بالله خالق الكون كله.

ومن أجل هذا كانت العربية لغة الإسلام ، وكان العرب هم أول دعاته . وفضلهم على غيرهم أنهم كانوا الطليعة فى سبيل الدعوة إليه ، وأنهم الذين مهدوا بدمائهم ، وبأموالهم ، وبالهجرة من ديارهم لنصرهذه الدعوة واستمرارها وانتشارها.

وعلى المسلمين فى جميع بقاع الأرض أن يتعلموا العربية ليفهموا القرآن ،

(١) فصلت : ٣ .
(٢) يوسف : ٢ .
(٣) الزمر : ٢٨ .

وليفقهوا على تعاليمه ، ثم ليزدادوا إيماناً على إيمانهم باتصالهم المباشر بالقرآن ، ومن وراء ذلك اقتراب بعضهم من بعض فى لغة التفهم ، كما اقتربوا من قبل فى إيمان القلوب ، وفى خطوط السلوك فى الحياة ، وفى الهدف الأخير منها .

ومن أجل ذلك إذا ما نقلت معانى القرآن الكريم إلى لغة غير اللغة العربية فإن يسر التفاهم على المسلمين غير العرب فى القيام بتكاليف الإسلام وفهم تعاليمه ، فإنه سيبقى على فرقتهم فى التفاهم ، بينما هم على وحدة فى الإيمان والاعتقاد . وقوة المسلمين تدعو إلى أن تكون لغتهم واحدة على نحو ما هم عليه من دين ، وما لهم من سلوك موحد فى العبادات ، والمعاملات ، وفى منهج الأسرة ، ومنهج العلاقات بينهم وبين غيرهم فى المحيط الدولى العام .

ومن هنا كان الحرص على أن يتعلم المسلمون غير العرب . العربية أولى من نقل القرآن إلى لغاتهم ، أو إلى لهجاتهم العديدة . ومن هنا أيضاً كان على العرب — ولم يزل عليهم حتى الآن وبعد الآن — أن يسعوا فى أن يعلموا اللغة العربية وينشروها بين المسلمين الذين لايتكلمونها . وهو واجب عليهم من دينهم أولاً وبالذات قبل أن يكون واجباً عليهم من انتسابهم إلى هذه اللغة . وإذن هناك واجبان : واجب على المسلمين غير العرب : أن يتعلموا اللغة العربية . وواجب على العرب أنفسهم : أن يعلموا هذه اللغة ، وييسروا أمرها على غيرهم من إخوانهم فى الدين والإيمان .

وبهذا تكون للعرب فى وقتنا الحاضر رسالة لاتقل أهمية عن رسالتهم فى الماضى . كانت رسالتهم فى الماضى أن يدافعوا عن الإسلام وتعاليمه ، ويدفعوا بها إلى بقاع العالم المختلفة . وعليهم الآن أن يدافعوا عن العربية فيقوموا لسانها ويعيدوها إلى أصلها الفصيح ، ثم يدفعوا بها إلى المسلمين فى أى مكان كانوا .

إن اللغة العربية بحملها رسالة الإسلام ، وتعبيرها عن قيمه أضافت إلى نفسها

قيمة وقوة أخرى . أضافت إلى نفسها أنها لم تعد لغة محلية ، بل أصبحت بذلك لغة عالمية ، هي لغة العالم الإسلامي . وأضافت لنفسها أيضاً ما للدين والعقيدة من قوة ، وما لهذه القوة من استمرار وبقاء .

وهنا للعرب جميعاً أن يفخروا بلغتهم . كما للمسلمين منهم أن يفخروا بدينهم وإيمانهم . إن اللغة العربية فى تعليمها و نشرها أصبحت رسالة . وإن على العرب وحدهم أداء هذه الرسالة . والمسلمون فى شتى بقاع الأرض بعد ذلك سيدينون لهم بالفضل ، كما دانوا لأسلافهم من قبل بفضل حملهم لرسالة الإسلام والدفاع عنه ، والعمل على بقائه خالداً إلى أن يبعث الناس .

وإذا كان بعضنا الآن يتحمس إلى نقل القرآن إلى لغة أخرى غير اللغة العربية ليسر على المسلمين أمر دينهم — فربما تكون الضرورة أشد فى تعليم اللغة العربية ونشرها بين المسلمين غير العرب . إذ بجانب تيسير أمر الدين ، تقريب التفاهم والمفاهيم بين المسلمين جميعاً ، عرباً وغير عرب : «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (١)» . والأمة الواحدة هى ما اجتمع لها وحدة اللسان ووحدة القلب .

---

(١) الأنبياء : ٩٢

المجتمع الاسلامى فى علاقته بالمجتمعات الأخرى

إذا دعا الاسلام إلى أن يكون مجتمعه مجتمعاً قوياً ذا شخصية مستقلة وذات سيادة ، ودعا إلى أن يكون أفراده أقوياء فى إيمانهم بالله وبالقيم العليا فى حياتهم الإنسانية ، وإلى أن يكون ولاؤهم أولا وبالذات إلى بعضهم بعضاً : « وَالمؤمنُونَ والمؤمناتُ بعضُهم أولياءُ بعض (١) » .. وإلى أن تكون طاعتهم لولى الأمر من بينهم — إذا دعا إلى هذا أو إلى ذاك فإنه لايدفع بطريق مباشر أوغير مباشر إلى أن يكون المجتمع الإسلامى فى خصومة أو فى احتكاك أو فى عداء مع المجتمعات الأخرى ، ولايدفع أيضاً إلى أن يكون أفراده المؤمنون بمثله والأوفياء لمبادئه : أعداء أو خصوماً لأفراد المجتمعات الأخرى .

إنه إذ يقول : « لا يَنهاكُم الله عن الذينَ لم يُقاتلوكم فى الدين ، ولَمْ يُخرِجُوكُم من دِيارِكُم أن تبرُّوهمُ وتُقسطوا إليهم ، إنَّ الله يُحبُّ المقسطين (٢) » .. فيدعو المؤمنين إلى بر الذين يخالفونهم فى الإيمان والاعتقاد ، وإلى أن يكفلوا لهم العدل ، طالما لم يقاتلوهم ولم يحملوهم على مغادرة ديارهم من أجل دينهم وتمسكهم به ، أى طالما لم يقع منهم اعتداء على الأرواح ، أو أذى يدفعهم إلى التشرد وترك مالهم من أسر وأموال وعلاقات بموطن نشأتهم .. إن الإسلام إذ يطلب من المؤمنين به : ذلك لا يرضى إطلاقاً عن أن يبدأ المسلمون مخالفيهم فى الإيمان والاعتقاد بالخصومة ، فضلا عن أن يرضى عن أن يكون منهم اعتداء عليهم ، أو يقع بينهم احتكاك بسببهم هم أنفسهم .

إن الإسلام إذ يقول كتابه الكريم : « ولا تُجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وَقولوا آمنَّا بالذى أُنزِلَ إلينا وأُنزِلَ إليكُم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحنُ لهُ مُسلمون (٣) » .. لا يطلب من المؤمنين به

(١) التوبة : ٧١ (٢) الممتحنة : ٨
(٣) العنكبوت : ٤٦

إلا أن يكونوا مسالمين لأصحاب الرسالات الإلهية ، ذوى أسلوب مهذب فى النقاش معهم ، وأصحاب منطق فى الحجة التى يدلون بها إليهم . ولكنه يطلب من المؤمنين به ذلك مع غيرهم طالما لايكون من هؤلاء ظلم . وإلا فيطلب من المؤمنين أن تكون صلاتهم عندئذ «أشدَّاء عَلَى الكفار رُحَمَاء بَيْنَهم[1]» .

إن الإسلام إذ يقول قرآنه المجيد : « وَلا يجرِمَنَّكم شَنَآن قوم عَلَى أنْ لا تَعْدلوا ، اعدلوا ، هُو أقرَب للتقْوَى ، وَاتقُوا الله ، إنَّ الله خَبِير بما تَعْمَلون[2]» .. فيأمر المسلمين بأن لايتأثروا بما يقع عليهم من مخالفيهم فى الإيمان والاعتقاد من ظلم وعدوان فى توفير العدالة وكفالتها للذين لم يباشروا معهم الاعتداء. ويشدد فى الأمر بالعدل بينهم بهذا التعبير : « اعدلوا . . هو — أى العدل — أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون » .. إن الإسلام إذ يطلب ذلك على هذا النحو يريد للمسلمين أن يكون سلوكهم فى الحياة مع غيرهم هو سلوك الإنسان الذى تهذبت غرائزه وروضت طبائعه الأولى ، ولكنه الإنسان الذى لم تمت فيه غرائز الدفاع عن النفس ، والمحافظة على البقاء ، والسعى فى الحياة.. ولكنه الإنسان الذى يعيش للقيم العليا ، ويرى من رسالته : أن يحمى قيامها وبقاءها.

ليس الإيمان القوى الذى يطلبه الإسلام من أتباعه على نحو ما يرويه هذا الحديث النبوى الشريف : « المؤمن القوى خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف » ... هو الدفع إلى الاعتداء على غير المسلم ولا هو قوة التحرش به . إنما هو دفع فى طريق الخير والسلام . . دفع إلى تحقيق خصائص الإنسانية ومثلها العليا . . دفع إلى تحصيل قوة الروح والبدن والتوجيه .

إن التعصب للإسلام لاينطوى بحال على التعصب ضد غيره من الأديان السماوية.

---

(١) الفتح : ٢٩ (٢) المائدة : ٨

إنه التمسك بمبادئه. ومن مبادئه: «وإنْ جَنَحُوا للسَّلْمِ فاجْنَح لها وَتوكل عَلَى الله[١]».
ومن مبادئه ما نصت عليه الآيات السابقة فى معاملة المسلمين لغيرهم. وهى معاملة تنطوى على التهذيب فى النقاش، وحسن العشرة فى الجوار والتمام. ومن مبادئه كفالة الحرية فى الاعتقاد: «لا إِكْرَاه فِي الدين قَدْ تَبين الرشْدُ مِنَ الْغى[٢]».
ولكن من مبادئه أيضاً: «فَمَن اعْتَدَى عَلَيكم فَاعْتَدُوا عَلَيه بمثل مَا اعْتَدَى عَلَيْكم[٣]».

ولأن التعصب للإسلام قد فهم خطأ، أو حاول بعض الشارحين له أن يحملوه على غير وجهه — قامت دعوة أخرى تدعو إلى: «عدم التعصب». وقد فهمت هذه الدعوة أيضاً خطأ: فهمت على عدم الاهتمام بالإيمان بالإسلام وبمبادئه. أو فهمت على طلب رفع الإيمان بالإسلام من حياة المسلمين، وبالأخص فى علاقاتهم مع غيرهم.

وتلك دعوة — بهذا الفهم — لاتقل ضرراً عن ضرر التعصب للإسلام بمعناه الخاطىء. هى ضرر على حياة المسلم وعلى علاقته بغيره. إذ أنها ستفرغ حياته من الإيمان بالله وتدعها عرضة لتقبل فكر ومبادىء، لاتلبث أن تتغير بتغير المؤثرات التى تدفعها وتوحى بها. وحياة تقبل اليوم توجهاً، وغداً توجيهاً آخر، وحياة مجتمع يختلف أفراده فى قبول التوجيه — لاتكون الحياة التى يسعى فيها الإنسان دائماً إلى تحقيق المثل العليا. وما المثل العليا إلا تلك الرواسى التى ترسو عليها الحياة الانسانية السليمة. وما الحياة الانسانية السليمة إلا التهذيب، والخير، والسلام.

الإسلام ينادى بالقوة فى كل جانب من جوانب الحياة، ولكنه يكره القوة إذا استخدمت فى الظلم، والاعتداء. والتعصب ضد الغير: ظلم واعتداء.

---

(١) الأنفال: ٦١ (٢) البقرة: ٢٥٦
(٣) البقرة: ١٩٤

المجتمع الإسلامى ليس مجتمع طوائف

يقول القرآن الكريم : « وأنَّ هذا صِراطى مُستقيما فاتبعُوه ، ولا تتبعُوا السُّبل فتفرق بكم عن سبيله [1] » . بهذه الآية يحرص الله جل شأنه على أن يكون المجتمع الاسلامى — كما هو ذا غاية واحدة ، — ذا سبيل واحدة ، وذا طريق واحد إلى هذا الهدف ، ويحذر المؤمنين من الفرقة التى تؤدى بالمجتمع إلى طوائف ، وهى تلك الفرقة التى تجعل من الأفهام للقرآن الكريم ، ولتعاليم الإسلام ، مذاهب يتعصب إليها التابعون لها ، ويؤثرون الطاعة لها على طاعة القرآن نفسه . وبذلك يتوزع المجتمع إلى مجموعات : كل مجموعة لا ترى الحق إلا فيما تتبعه ، وتخاصم المجموعات الأخرى فى سبيل الدفاع عنه . وعندئذ تكون طاعة كل مجموعة فى واقع الأمر هى الطاعة لإنسان ، هو ذلك الامام للمذهب . وينزل المجتمع حينئذ إلى مجال الشخص والخاصمة فى أمره ، بعد أن رفع الاسلام للمؤمنين به إلى ما فوق مستوى الأشخاص : إلى المبادىء ، إلى الله جل شأنه الذى هو مجمع كل كمال ، ومركز المثل الرفيعة كلها .

وعندما يتوزع المجتمع الإسلامى إلى مجموعات ، وتتبع كل مجموعة إمام مذهبها ، وتتعصب له لا تحيد عنه معتقدة أنه يمثل الحق وحده ، وأنه مرآة الإسلام الذى جاء به الوحى وبلغه الرسول ﷺ ؛ عندئذ يكون المجتمع قد سلك سبلا أخرى غير سبيل الله ، التى حذر من سلوكها بقوله : « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

والطائفية ، وإن كانت ظاهرة انسانية تطرأ على المجتمع ، وتسود إذا ما ارتبط الإنسان بالإنسان فيه ، وآمن به إيمانا يرفعه عن الخطأ ويجعله فى مستوى العصمة

---

(١) الأنعام : ١٥٣

إلا أنها ظاهرة تدل من جانب آخر على ضعف المجتمع نفسه ، وعلى ضعف تفكير التابعين ، وفى الوقت ذاته على ضعف إيمانهم بالقيم العليا التى يمثلها الدين أو نظام المبادىء فى الحياة .

واختلاف أفراد المجتمع فى فهم تعاليم دينهم ، أو فى فهم نظام المبادىء الذى ارتضوه لحياتهم ، هو أيضاً ظاهرة تطرأ على المجتمع ، ولكنها ظاهرة سليمة ، وأمارة على حيوية الأفراد ، طالما هم لا يدفعون أنفسهم عن طريق الاختلاف فى الفهم إلى النزول فى مجال الطائفية والتعصب فى غير احتياط لتلك الأفهام المختلفة ، بحيث يكونون فرقاً وطوائف ، وتكون أفهامهم مذاهب وطرقاً واجبة الاتباع .

ولأن الإسلام يقر اختلاف الأفهام ، بل يدفع الأفراد المؤمنين به إلى الفهم والتفقه ، ولأنه من جانب آخر لا يقر الطائفية ولا الفرقة على أساس من اختلاف الفهم ؛ رسم الطريق إلى وحدة الأمة إذا ما اقترب اختلافهم فى الفهم إلى أن يكون فرقة ، وإذا ما اقترب أمرهم فى مجتمعهم إلى أن يكون طائفية . رسم الطريق فى قوله تعالى : «وأَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرسولَ وأُولى الأَمْرِ مِنكم ، فإنْ تنازَعتم فِى شىء فردُّوه إلى الله والرسول إنْ كنتُم تؤمِنُون بالله واليوم الآخر ..» .. فأوجب طاعة الله فى قرآنه ، وأوجب طاعة الرسول فى قوله ، وفى عمله مما يعد توضيحاً لكتاب الله ، ثم علم أن سيكون منهم حتماً اختلاف فى فهم قول الله ، وقول رسوله ، وفيما عساه يدل عليه عمله عليه الصلاة والسلام ، ولكنه حذر فقط أن يدخل هذا الاختلاف منطقة التنازع بينهم . والتنازع لا يكون الا إذا كانت هناك مشادة فى الجدل ، وعنف فى الأخذ والرد . وهذه المشادة ، وهذا العنف إن دلا على شىء فإنما يدلان على التعصب الذى لا يقبل التفاهم والذى لا يعرف المرونة . ولذلك قال : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى

الله والرسول» .. أى ردّوه إلى كلام الله ، وإلى قول الرسول وتطبيقه لهذا القول فى حياته العملية ، ولا تقفوا به عند حد الآخرين بعد الله ورسوله ممن اختلفوا فى الفهم والتأويل .

ولم يكتف القرآن الكريم بأن يرسم الطريق للمؤمنين لتجنب التنازع والتعصب، ولتجنب أن يصير المجتمع إلى طوائف وفرق وشيع ، على نحو ما رسم هنا . وإنما حذر المؤمنين من فناء مجتمعهم أو على الأقل من ضعفه ووهنه ، إذا هم أصبحوا طوائف وفرق ، تبعاً لا ختلافهم فى الفهم والمذهب. فقال : «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا».. «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» .. إذ ما ناشده القرآن هنا من الاعتصام بحبل الله،هو البقاء فى دائرة كتاب الله ، وسنة رسوله ، وهو ما أوجبته الآية الأخرى : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

هذا كتاب الله يحدد إطار المجتمع الإسلامى . هو لا يريده مجتمع طوائف ولا فرق . هو لا يريده مجتمع مذاهب ولا عصبيات . هو يريد للمجتمع الإسلامى أن يحتفظ بوحدته ، وبقيادته فى التوجيه ، فى ضوء كتاب الله وسنة رسوله . إن مجتمع الطوائف فى نظر الإسلام أشبه بمجتمع الشرك والوثنية . إذ الشرك هو تقديس غير الله ، كائناً ما كان ، مع الله . والوثنية هى عبادة المحس والمشاهد مما خلقه الله إنساناً أو غير إنسان . والله جل شأنه وحده هو الذى يقدس ، وهو الذى يعبد ، لا غيره من مخلوقاته ، مهما ارتقى فى نوعه ، أو ارتفع فى تهذيبه .

المجتمع الاسلامى ليس مجتمع طبقات

إن رسالة الإسلام — التى قام على أساسها المجتمع الإسلامى — تتجه فى تعاليمها ومبادئها إلى تعريف أفراد المجتمع : ما هى الإنسانية ؟ وما هو المستوى الفاضل الذى يجب أن يكون عليه الإنسان ؟ وما هى القيم التى يجب أن يسعى إليها الإنسان فى حياته ؟ كما تتجه بعد ذلك إلى حمله — عن طريق الإقناع والإيمان — على السلوك الإنسانى الرفيع . وليس فيما اتجهت إليه تعاليم الإسلام ومبادؤه تقويم شىء وراء الإنسانية منهجاً وتطبيقاً . ليس فيها تقويم شرف النسب لأنه نسب شريف ، وليس فيها تقويم المال لذاته ، وليس منها تقويم الجاه المستمد من سلطة ، أو من قوة العصبية القبلية .

لذلك عندما قامت الدعوة الاسلامية ، دعت إلى تحرير الإنسان من أثر العوامل التى أوجدت حواجز وفواصل بين الأفراد ، وخلقت منهم مجموعات وطبقات . دعت إلى إلغاء الاعتزاز بشرف النسب ، وثراء المال ، وسلطة الجاه . ووضعت جميع الأفراد المؤمنين فى المجتمع الذى تكون منهم ، وضعاً متساوياً أمام الله ، وأمام تعاليم الرسالة ، وهيأت لهم جميعاً فرصاً متكافئة فى السعى فى الحياة . وتفاوتهم بعد ذلك ، حسبما تدفعهم استعداداتهم ويدفعهم إيمانهم : قوة وضعفاً .

والمجتمع الإسلامى — لذلك — ليس مجتمع طبقات . أى ليس مجتمعاً يقوم على تفاضل فى الوضع الاجتماعى ، حسب الطبقة التى ينتسب إليها الأفراد ، ليس مجتمعاً يقوم على تحكم عنصر الشرف فى النسب أو عنصر الثراء ، أو عنصر الجاه — إذ كل ذلك : عنصر غريب عن خصائص الإنسانية بعيد كل البعد عن ذات البشرية — فى تقويم الأفراد ، وفى وضعهم من أجل ذلك فى منازل مختلفة فى النظرة والاعتبار .

ولكنه أولا وأخيراً مجتمع بشرى ، يتميز أفراده فيما تميزت به البشرية نفسها بالسلوك المهذب ، وهو السلوك البعيد عن الاعتداء بالإدراك المستقيم ، وهو الادراك الذى يحكم الأنانية فى فهم الحياة ، وبالقلب العامر بمحبة الغير ، وهو القلب الذى يؤمن أولا بالله : « **ان الله لا ينظر الى صوركم ، ولكن ينظر الى قلوبكم واعمالكم** » .. أى لا يعتبر الجانب المادى فى حياتكم وهو ما يرى فى صوركم من مظاهر الشرف فى النسب ، أو مظاهر الجاه عن طريق ثراء المال أو السلطة . وإنما يعتبر شيئاً آخـــــر وراء ذلك فى التمييز فى المنزلة بين فرد وآخر . يعتبر « القلب » . ويكاد يكون القلب هو مركز المفارقة بين الإنسان وغير الإنسان فى الكائنات التى لها النمو والحركة . هو مكان البغض والمحبة ، ومكان الحقد والغبطة ، ومكان العطف والمودة ، أو الصد والنفرة .

ولا يعرف للحيوان بغض ومحبة ، ولا حقد وغبطة ، ولا عطف ومودة أو صد ونفرة . وإنما الذى يعرف له غرائز تدفع ، نحو الاتجاهات لا تخلف فيها . تعرف له غريزة الميل إلى البقاء ، تحركه نحو ملء الجوف بما يساعد على البقاء حياً ، ونحو رد غيره ، مما يحاول مشاركته فيما وجده لغذائه . لا يعرف قريباً أو بعيداً فى أسرة له . ولا عدواً ولا صديقاً بين معاشريه . وإنما الكل سواء ، فى دفعه إياهم وردهم عن مشاركته فيما حصل عليه لغذائه . تعرف له غريزة النسل — وهى فصيلة من غريزة الميل إلى البقاء — تدفعه إلى الاستمرار فى الإنتاج من ذكر وأنثى . ولكن الحيوان وأنثاه لا يفرق كلاهما فى هذا الإنتاج بين قرابة وأولى رحم ، ولا بين علاقة وعلاقة فى المعاشرة . وإنما يدفع كلاهما دفعاً إلى الإنتاج . كما يدفع إلى ملء الجوف سواء بسواء . والعادة — وليس القلب — هى التى تغير بعض التعبير فى نوع الدفع قوة وضعفاً ، وليس فى ذات الاتجاه الذى يدفع فيه .

وإذا امتاز الإنسان بالقلب ، تميز بناء على ذلك بالإيمان بالله ، والإيمان بنفسه كإنسان ، والإيمان بالإنسانية كنوع من المخلوقات متميز فى طبيعته وفى خصائص هذه الطبيعة . وما يفضل به الإسلام فرداً عن فرد فى المجتمع إذن ، هو ما يفضل به إنسان عن إنسان فى معنى الإنسانية وحدها ، دون شىء طارىء عليها وعارض لا يتصل بها .

وإذا قالت الآية الكريمة : «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» .. تريد أن تنقل معيار التمييز بين الأفراد إلى ما يتصل بإنسانيتهم وحدها ، التى يتجلى فى سلوكهم ، وهو ذلك السلوك الذى يصدر عمّا فى القلب من إيمان ومحبة ، أو عمّا فيه من بغض وحقد ونفرة .

وتفضيل الإسلام بين الأفراد على أساس من خصائص الإنسانية ، لا يعنى أنه يوجد فواصل فى المجتمع وإن كان على أساس آخر . وذلك يخلق نوعاً جديداً من الطبقة ، ومجتمعه إذن مجتمع طبقى . لا يؤدى صنيع الإسلام فى التفضيل بين الأفراد إلى الطبقية . لأن الطبقية هى التميز فى الوضع الاجتماعى على أساس أرستقراطى أو رأسمالى . وسواء أكانت الأرستقراطية ، أرستقراطية الشرف فى النسب أو أرستقراطية الجاه والسلطة . أما التميز بين الأفراد على أساس من معانى الإنسانية وحدها — بعد أن ترفع العقبات الطبقية من طريقهم جميعاً ، وبعد أن تهيأ لهم فرص متكافئة نحو التنافس فى تطبيق معانى الإنسانية فى سلوكهم وفى نظراتهم إلى الحياة — فتلك سنة الطبيعة ، وقانون الحياة .

وكما لا يوجد إطلاقاً مجتمع إنسانى ، يتساوى أفراده فى الحركة فى السير ، وفى الفهم ، وفى الذكاء — كذلك لا يوجد مجتمع لا يتميز أفراده فى العواطف

الانسانية : البغض والمحبة ، والحقد والمودّة ، ولا يتميز فى الإيمان بالإنسانية والأخوة فيها .

الطبقية انحراف فى تكوين المجتمع وفى علاقات أفراده بعضهم ببعض ، والتميز بين الأفراد على أساس من خصائص الإنسانية : سنة الطبيعة فى قيام المجتمع وفى استقراره . وكلما سلك الأفراد سلوك المهذبين المحبين المتعاطفين ، كلما كانوا أكثر استقراراً أو اطمئناناً . والدين وحده هو مصدر الدفع الى التهذيب والتحاب والتعاطف .

الفصل الخامس

- الايمان
- حب الغير
- حب الخير
- تحريم الخمر والميسر

خامساً ـ من مقومات المجتمع الصالح

الايمان :

الإسلام — وهو رسالة الله لبنى الإنسان فى الأرض — جاء فقط ليجنب الإنسان أسباب القلق والاضطراب فى حياته النفسية، ولم يجىء ليقسم الثروات والمنافع الأرضية. جاء ليسعد الإنسان، كإنسان له نفس تميل وتهوى، وتقوى وتضعف، وتصح وتمرض، وتستقر وتنزعج، وتسمو وتنخفض.

جاء ليسعد الإنسان فى علاقته مع الإنسان. والإنسان مع الإنسان قد يقترب وقد يبتعد أحدهما من الآخر، وقد يخاصمه ويحقد عليه، وقد يألفه ويرضى عنه. وهو فى مخاصمته إياه وحقده عليه تثور نفسه وتضطرب، وهو بإلفه إياه ورضاه عنه تهدأ أعصابه وتسكن نفسه.

جاء الإسلام ليسعد المجتمع البشرى فى وطن ما أو فى رقعة العالم الإنسانى كله. وشعوب الأوطان المختلفة قد تتوتر العلاقات بينها ويشتد النفور فى صلة بعضها ببعض. وقد يسود الانسجام هذه العلاقات فيما بينها. وهى إذ تتوتر علاقات بعضها مع بعض قد يفضى الأمر فيها إلى الحرب وإلى إراقة الدماء، وإلى الوحشية والهمجية فى أساليب هذه الحرب، وهى إذ تنسجم العلاقات بينها يستقر السلم وتبدو الإنسانية فى أخص معانيها فى هذه العلاقات.

* * *

جاء الإسلام إذن ليسعد الفرد كفرد، ويسعد الإنسان مع الإنسان فى أضيق الحدود فى الأسرة، ويسعد الإنسان مع الإنسان فى نطاق أوسع من نطاق الأسرة، فى جميع الوطن الواحد، ويسعد الإنسان مع الإنسان فيما وراء الأوطان جميعها، فى المجتمع البشرى كله.

وخطَّ منهج السعادة للفرد ، وللجماعة سواء فى أضيق نطاقها أو فى أوسع ما لها من حدود ومعالم .

أما سعادة الفرد فرآها فى اطمئنان النفس . وأما سعادة الأسرة فيجدها فى توطيد الصلات فيها . وأما سعادة المجتمع فيراها فى انسجام العلاقات بين أفراده . وأما سعادة البشرية فيتحقق فى نظره فى يقظة الشعور بمعانى الإنسانية .

* * *

وحديثنا الآن هو الحديث عن اطمئنان النفس ، وكيف أن اطمئنان النفس وحده وليست الثروة ، وليس الجاه ، وليس السلطان ، وليست قوة البنية فى الجسم : هو مصدر سعادة الإنسان .

يقول الله تعالى فى وصف السعداء: « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب [1] » .

وربما يبدو لبعض الناس ان اطمئنان النفس هو استكانتها ، أو استسلامها ، أو هو هربها من الحياة وانصرافها عنها . ليس هذا اطمئنان النفس . وإنما اطمئنان النفس هو فى الرضاء بما يقع ، مع استئناف السعى فى الحياة ، وعدم اليأس من بلوغ الغاية . اطمئنان النفس فى الإحساس النفسى الداخلى بقدرة الله على جزاء الظالم والمعتدى ، وتمكين الصالح والخير من السيادة ولو بعد حين .

واطمئنان النفس يرجع إلى اعتقاد ، وسعى .. يرجع إلى إيمان واستمرار فى العمل . أما الإيمان فهو الإيمان بالله القادر الذى له ملك السموات والأرض ، والذى يجزى كل نفس بما عملت ، ويجزى المسىء بمثل ما أساء ، ويجزى المحسن بعشرة أمثال إحسانه . وهذا الإيمان إن سكن فى النفس حملها على الرضا بما يقع . لأن ما فى الأرض جميعاً لله وحده وقبضته بيمينه فلا مدعاة إذن لقلق . إذ مجهود الفرد مهما

---

(١) الرعد : ٢٨

عظم ، لا يقوى حينئذ على رفع ما وقع توا لساعته . وإذن لم يبق إلا أن يستعين الله القادر الخالق . وهنا إذا ركنت النفوس بإيمانها إلى الله هدأت واستقرت .

ومع ذلك فالإيمان بالله إن تو ادعنه شعور النفس باستقرارها ، ورضاؤها بما يقع فى حاضرها فإنه مع ذلك يدفعها إلى السعى وإلى العمل ، وإلى عدم الجمود والتوقف عن الحركة . لأن الله الذى أمنت النفس به واطمأنت بالركون إليه عند الأزمات والأحداث ، هو نفسه الذى يبشر المؤمن بأن يجزيه أحسن الجزاء على عمله الخير المثمر : « مَنْ جَاء بالحسَنَة فَلَهُ عشرُ أمْثَالها ، وَمَنْ جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها[1] » .

ومضاعفة الجزاء على عمل الخير يدفع من غير شك إلى العمل الصالح دفعاً قوياً . وهنا لا يتسرب اليأس والقنوط إلى النفس . وليس ذلك فقط ، وإنما تتمكن منها الرغبة الملحة فى العمل والمثابرة عليه مع ذلك .

ومن أجل أن الايمان بالله هو مصدر اطمئنان النفس ورضاها يقول الله تعالى فى الآية السابقة «ألا بذكر الله تطمئن القُلوب » . فناشد المؤمنين وناداهم بأن يذكروا الله سراً وجهرا ، ويستشيروا قرآنه فيما عملوا أو تحدثوا ، إذا ما فكروا أو تصرفوا . ناشدهم بذلك حتى يكون عملهم للخير وسعيهم للخير وحديثهم فى سبيل الخير . وعندئذ تطمئن نفوسهم دوماً ، وهنا تشعر بالسعادة الحقة ، التى لا تراها بحال فى جاه أو ولد أو مال . إذ قد يصيبها الأذى من جاهها ، ويأتيها القلق من ولدها ، وتعتريها الهموم من مالها : « إنَّ هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم[2] » .

---

(١) الأنعام : ١٦٠ . (٢) الاسراء : ٩

حب الغير

يقول الله تعالى : « وَالذين تبوأُو الدّار وَالإيمان مِنْ قَبلهم يحبون مَنْ هَاجَرَ إليهم ، وَلا يَجدُون فِى صدُورهم حَاجة مما أُوتوا ، ويُؤثرون عَلى أنفسهم وَلوْ كانَ بِهم خَصَاصَة ، ومَنْ يوقَ شح نفسه ، فَأُولئِكَ هُم المفْلحُون »(١) .

إن من أسس السعادة فيما يراه الإسلام أن يحب الإنسان غيره ، حباً لا لشهوة ولا لغرض خاص ، وإنما للمشاركة فى الإنسانية ، والالتقاء معه فى فكرة عامة هى فكرة الخير المطلق . إذ الإنسان لا يحب غيره على هذا النحو إلا إذا فرغ من الحد من أنانيته ، واستطاع نفسياً بعد ذلك أن ينفح من نفسه ومما فى يده لهذا الغير . وهو عندئذ إذا منح غيره عن حب فيما ليس لغرض ولا لشهوة يشعر فى قرارة نفسه باطمئنان ، وهو اطمئنان السيادة ، واطمئنان التمكن من أنه هو نفسه شىء له وجود ظاهر ، وآية وجوده أنه يعطف ويميل إلى الغير ، لأنه يشاركه فحسب فى الإنسانية ، ولأنه يحقق بهذا العطف والميل فكرة الخير المطلق .

ولذلك فالله سبحانه وتعالى إذ يصف أولئكم الذين تبوأوا الدار والايمان — والمراد بهم الأنصار — بأنهم المفلحون ، يصفهم بالفلاح لأنهم أحبوا من قدم إليهم من المهاجرين وأنهم يؤثرونهم على أنفسهم بالخير، ولو كانت بهم أنفسهم حاجة إلى مايؤثرون به إخوانهم فى الله والدين . والفلاح الذى وصف به هؤلاء الذين أحبوا غيرهم فى الله وعطفوا عليهم ، ومنحوهم مما فى أيديهم ، ليس هو الفلاح المتمثل فى رضاء الله عنهم فحسب ، وإنما أيضا هو الفلاح الناشى عن استقرارهم واطمئنانهم لهذا الرضاء من المولى جل شأنه .

إن حب الغير فى واقع الأمر ينطق بتهذيب الإنسان الذى أحب غيره ، كما ينطق

---

(١) االحشر : ٩

بأنه سيد على نفسه ، وأنه قد انفك فعلا عن أسر الأنانية والانفرادية . وذلك شأن لا يصل إليه الإنسان إلا إذا تمرس عن طريق الرياضة النفسية بتحرير نفسه وتخليصها من حب الذات ، وإخلاء مكان في قلبه لهذا الغير ، ذلك الإنسان المشارك له في في الحياة والوجود .

ومن غير شك إذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجه ، يكون قد وصل إليها بعد أن اجتاز مشاقاً وعقبات ، ليس من السهل اجتيازها . وهي عقبات التغلب على ما للإنسان من هوى الأنانية وسلطان الشهوة الفردية . وعندئذ يشعر بنشوة النجاح . وعندئذ بالتالي تقر نفسه ، وتطمئن لهذا النجاح وتسعد به .

والسبيل إلى اجتياز هذه المشاق والعقبات هو سبيل واحد : سبيل الإيمان بالله ، وسبيل اتباع ما أمر به ، وتجنب ما نهى عنه . وهنا نرى في هذه الآية الكريمة السابقة في قوله تعالى : « والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أُوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يُوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .. أن الإيمان هو مقدمة لحب الإنسان للغير ، وأن نتيجة الحب للغير هي الفلاح والسعادة .

* * *

وربما يستبعد بعض الناس أن يكون حب الغير سبباً لسعادة الإنسان ، وربما يستبعد بالتالي أن المنح مما في القلب من عطف ، وما في اليد من مال ، وما للبدن من قوة ، وما للعقل من تفكير ومعرفة — يهي اطمئنان النفس واستقرارها لذلك الذي أحب ثم منح . يستبعد ذلك لأنه في ظاهر الأمر لا يعود عليه بشيء مادي محسوس . ولكن إذا عرف أن النفس التي تعودت حب الغير ، وبالتالي تفيض عليه مما تملك ، تكون قد بلغت مرتبة في مستوى الإنسانية لا تعادل في هذه المرتبة المكافأة المادية بالشعور النفسي ، وتكون في وضع يشتد اغتباطها بما

يرتبط بهذا الشعور النفسى أكثر مما يرتبط بالمقابل المادى المحسوس .

إن الأمر هو أمر الإنسانية فى أجلى صورها ، وأرفع مستوى لها ، وليس أمر الحياة فى أى وضع ، وفى أى مستوى . وكفاح الإنسان فى حياته منذ ولادته حتى نهاية أمره ، هو كفاح من أجل تحصيل المستوى الإنسانى الفاضل . وما كانت تنشئة المنزل ، وتربية المدرسة ، وتجارب حياة المجتمع العامة ، والالتقاء بالأزمات — إلا من وسائل هذا الكفاح ، وإلا مقدمة لتوصيل الانسان نحو هذه الغاية المنشودة وهى ذلك المستوى الإنسانى الفاضل . وإذا كان ذلك يمثل كفاح الانسان فى وسائله وغاياته — فإن الوصول إلى تلك الغاية سيكون حقاً وصولا إلى السعادة الانسانية .

ومن أمارات المستوى الانسانى الرفيع : ألا يكون الانسان فى الحياة لنفسه ؛ بل يكون لغيره ولنفسه معاً . فإذا ما أحب بعد هذا غيره كان ذلك أمارة أخرى على أنه يحيا لغيره على الأقل كما يحيا لنفسه . وهنا تتحقق المثالية الإنسانية فى حياته ، وهنا بالتالى تكون السعادة .

لا تكون سعادة الانسان بحال إذا ماقصر حبه على نفسه . بل سيكون الشقاء بعينه . لأنه سيرى نفسه فى احتكاك مستمر مع هذا الغير . ويقل أن يكون هناك بينه وبين أى واحد آخر وئام أو شبه وئام . وهنا يسيطر القلق والاضطراب ، وهو قلق الخصومة واضطراب الاحتكاك . فإذا ابتدأ يفسح فى قلبه مكاناً لغيره ، ابتدأ الاحتكاك يرتفع ، وتحل محله المودة . فإذا ما أحب الغير كان ذلك الحب آية أخيرة على ذهاب النفرة والاحتكاك ، وعلى استقرار النفس والرضا والاطمئنان .

حب الخير

يقول الله تعالى فى وصف المؤمنين الذين آمنوا واتقوا : « إن المتقين فى جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين(1) » .. فيصفهم جل شأنه ويصف ما هم عليه من حال وبأن صدورهم وقلوبهم قد انتزع منها الحقد والغل وأنهم أصبحوا إخوانا فى وضع متساو ، وأنهم من أجل ذلك لا ينالهم تعب ولا ضيق فى حياتهم هناك .

وهنا نرى أن سبب متعتهم بسعادتهم ، وأن سبب بعدهم عن التعب والضيق فى حياتهم يرجع إلى أنه قد انتزع من نفوسهم الحقد والغل ، وأنه نتيجة لهذا أصبح كل واحد منهم يحب الآخر كما يحب نفسه ، وأنهم أخيراً بهذا وذاك كانوا إخوة متساوين فى المحبة والأخوة .

فحب الإنسان لإنسان آخر معه فى حياته هو أولا نتيجة لعدم حقده عليه ، وثانياً هو سبب سعادته وطمأنينته فى الحياة ، وسبب من أسباب إبعاد القلق والتعب النفسى عنه .

وهذا الذى يذكره القرآن الكريم فى وصف المؤمنين فى حياتهم الأخروية من انتزاع الحقد ، وإحلال المحبة محل الغل ، والصيرورة بعد ذلك إلى الأخوة والتساوى فى نطاقها ، هو فى واقع الأمر مطلوب من الإنسان فى هذه الحياة الدنيا أن يسعى إليه ، ويسعى إلى تحقيقه بقدر ما تمكنه طاقته البشرية . ورسالة الإسلام فى حقيقتها وجوهرها لا تخرج عن الدعوة إلى إيجاد جو نفسى بين البشر جميعاً .

(1) الحجر : ٤٨ .

يعيش فيه أفراد الانسانية فى سلام وأمان ، وفى طمأنينة وعدم قلق . والسلام النفسى لا يتحقق جوهره إلا إذا تخلصت النفس من الحقد ، واستبدلت به حب الخير .

وحب الخير عندئذ كاف فى تحقيق هذا السلام النفسى ان يحبه ، وإن لم يفعل الخير نفسه . فإذا فعل الخير نفسه ، كان ذلك آية لا على انتزاع الحقد من النفس فحسب ، وإنما أيضاً على تمكن حب الخير منها حتى ترجمته إلى مظهر محسوس يرى فى التصرف أو القول .

إن الحقد ليس مزعجاً للنفس فقط ، ولا داعياً إلى عدم ركونها وإطمئنانها فحسب ، وإنما هو مع ذلك هادم للنفس والبدن معاً . هو ليس سبباً للإيقاع بالغير وغيبته والوشاية به فقط ، بل قبل ذلك سبب لإيذاء نفس الحاقد وإفساد جو حياته هو قبل حياة غيره . إن الحاقد يتمنى زوال نعمة الغير ، ولكنه — من الأسف — لا يملك الطاقة على أن يبعد النعمة عنه . إن الحاقد يتمنى ألا يحصل غيره على فضل أو على كسب مادى أو أدبى فى حياته ليس هو حاصلا عليه ، ولكنه لا يستطيع بحسب إمكانياته البشرية أن يحول دون أن يصل غيره لما هو مقدر له من فضل أو كسب .

والحاقد إذن فى وضع يتمنى شيئاً يعجز عن تحقيقه . وهذا الوضع مستمر له طالما هو حاقد ، وطالما تمكن الغل من نفسه . وهو من أجل ذلك لا يرضى بحاله من وضع ، وبالتالى لا ينعم بفترة تطمئن فيها نفسه ويزول عنها شبح الخوف من أن يتحقق شىء لغيره يتمنى هو عدمه .

ولكن إذا تمرس الإنسان فى حياته على حب الخير لغيره ، وإن لم يفعل هذا الخير — فإن نفسه تصفو بالتدريج شيئاً فشيئاً من عامل الحقد ، حتى تصبح خالية منه أو على وشك الخلو . وبمقدار ما ينتزع منها الحقد ، بمقدار ما يتمكن منها حب الخير والمودة للناس .

وكلما تمكن هذا الحب للخير كلما أقدمت عليه ، وكلما بدأ ذلك فيما تفعل ، أو فيما تتحدث ، أو فيما تنصح به للغير . .

ولأن انتزاع الحقد عامل أساسى فى تمكن الحب من نفس الانسان ، ولأن تمكن الحب من نفس الانسان سبب مباشر لسعادة الانسان امتن الله على رسوله ﷺ بتلك السعادة التى تكون للمؤمنين المتقين فى حياتهم الأخروية فحققها له فى حياته الدنيوية فقال جل شأنه : « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) » .. فالله سبحانه وتعالى شرح صدر رسوله ﷺ بأن نزع منه الحقد والغل ، ومكن من نفسه حب الخير ، وبالتالى جعلها نفساً مطمئنة راضية .

من هنا ندرك لماذا دعا الإسلام إلى نزع الحقد واحلال حب الخير محله فى قول رسوله الكريم: « **لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه** » . ثم ندرك لماذا يحث الله سبحانه وتعالى المؤمن على أن يتجه إليه جل شأنه بالدعاء فى أن يقيه شر الحاسد فى قوله : « وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ » .

الاسلام إذن لا يبغى إلا أن ينعم الإنسان بحياته فى الدنيا على نحو ما يتفضل الله عليه بهذه الحياة المطمئنة فى آخرته . وهو لا ينعم بحياته إنسانية صافية إلا إذا راض نفسه على حب الخير .

الإسلام يدعو الانسان إلى ألا يكون شقياً فى حياتيه فى الدنيا والآخرة معاً . ومن سبل عدم الشقاء فى الدنيا والآخرة معاً : حب الخير . ومن مظاهر حب الخير عدم الحقد على الآخرين

---

(١) الانشراح : ١

تحريم الخمر والميسر

إن سعادة الإنسان فى أن تنمو ذاته كإنسان ، وتتجه فى تطورها إلى تحقيق ذاتية الإنسانية . سعادته فى أن يظل متمتعاً بأنه إنسان ، ويسود فى الحياة بالخصائص التى يتميز بها الإنسان .

والإنسان يستحيل عليه أن يكون فوق مستوى الطبيعة الإنسانية ، مهما ترقى وتهذب . والشيء الوحيد الذى يترقب له ويخشى منه على حياته أن ينحدر عن المستوى الإنسانى ، إذا ما اتجه فى نموه وتطوره ، وفى تصرفه وسلوكه اتجاهاً ينحرف به عن القيم والمعانى التى تميز الطبيعة الانسانيـة عن غيرها من الطبائع الأخرى ، وبالأخص الحيوان .

وهنا : الإسلام بتدخله فى توجيه الإنسان يريد أن يوضح له خط السير ، الذى إذا ما سلكه تطور كإنسان ، وساد فى حياته كإنسان ، وابتعد فى الوقت نفسه عن الانحدار إلى مستوى ما هو أقل من الإنسان بين الكائنات الحية المتحركة .

فاذا تدخل الاسلام فى حياة الانسان فحرم عليه شرب الخمر وما فى معناها من المخدرات مما من شأنه أن يخامر العقل ويشتبك به ويختلط بتفكيره ويحول عندئذ بين العقل وبين أن يؤدى وظيفته كما ينبغى ، حتى يصل إلى حكم صحيح وحل سليم لأزمات الحياة — إذا تدخل الإسـلام فحرم على الإنسان شرب الخمر وما فى معناها لهذا الهدف ، فإنه يتدخل ليحول دون أن يسقط الإنسان وينحدر عن مستوى إنسانيته ، ويسلك وقتئـذ مسلك الكائنات التى تدب على الأرض دون وعى ودون هدف فى الحياة .

وإذا تدخل الإسلام فى حياة الإنسان فحرم عليه لعبه الميسر والقمار ، عندما يريد أن يشغل فراغه باللعب والتسلية — فإنه يتـــــدخل فى حياته بتحريم الميسر عليه ليحول دون أن تضطرب نفسه ويزداد همها وقلقها إذا كان نصيبها

فى اللعب : الخسران ، وليحول فى حال كسبها دون أن تدفعها نشوة الكسب المؤقت إلى تكرار اللعب به . وفى تكرار اللعب به مايدع مجالا للخسران مرة أومرات . وعندئذ سيصيبها قلق الخاسر وهمه الذى لايقف عند حد ولا وقت معين .

إذا تدخل بتحريم هذا أو ذاك فيما يتناوله الإنسان أو يمارسه فى حياته فيقول فى إحدى آيات القرآن الكريم : « يَا أَيها الذين آمنُو إنما الخمر والميسر والأنْصَاب والأزْلام رجسٌ مِن عَمَل الشَّيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحُون » — إنما يتدخل ليبنى سعادة الإنسان على أساس من التوجيه السليم ، الذى من شأنه أن يحفظ له مستوى إنسانيته ، دون أن ينزل بها إلى مستوى ماهو دونه .

إن الخمر والمخدرات لاتفقد من يتعاطاها حسن العلاقة بينه وبين أسرته ومجتمعه ولا تفسد عليه عاطفة الأبوة والبنوة والأمومة ولا تزعجه عند قبض اليد وعسر الإنفاق ، ولا ترهقه فى أعصابه ولا تسىء مزاجه — لاتصنع معه ذلك كله فحسب وإنما تفقده قبل كل شىء : مايتميز به .. تفقده عقله وحسه ، كما تذهب برجولته ، ونخوته ، ومروءته ، وشجاعته .. تذهب بإنسانيته .

لايحطم من يتناول الخمر والمخدرات مايقع عليه بصره وتصل إليه يده فقط ، إذا ما أرهقت أعصابه ووقع تحت تأثير العادة المستحكمة فى الشراب والتعاطى ولم يجد مايأتى به حكم العادة المستحكمة — وإنما يحطم نفسه البشرية وينزع منها أخص ماتعرف به ، وهو العقل والشعور .

وإن الميسر والقمار لايحرك فى نفس الكاسب والخاسر على السواء عامل الاسترسال والاندفاع فى اللعب فقط ، وإنما يصيبهما معاً بالقلق والهم أولا ، وبآفة السرقة والاختلاس أو النصب والاحتيال ، أو الكذب والخداع ثانياً ، إن تعذر عليهما من مالهما الخاص مايلبيان به عامل الاسترسال والاندفاع فى اللعب .

لايصيب الميسر والقمار دخيلة نفس الإنسان فيجعلها غير مستقرة ، ويجعلها متشائمة تلعب بها الصدفة وحدها ، وإنما ينسيها حياة الأسرة ..

رب أسرة ، وينسيها واجب الوظيفة والعمل إن كان ذا وظيفة أو ذا عمل يؤجر عليه .. ينسيها أنه إنسان له طموح فى الحياة ، وعليه الكفاح فيها من أجل إنسانيته ومجتمعه .

هذا جانب مما حرَّمه الاسلام على الإنسان ، كى يحتفظ الإنسان بإنسانيته ولا يسقط من مستواها إلى ما هو أدنى منه .

إن الاسلام يقر الجد ويقر التسلية فى حياة الإنسان . ويعرف أن استمرار الجد فى حياة الإنسان أمر يخرج عن طبيعة هذه الحياة ، كما أن استمرار اللعب واللهو فيها أمر يفسدها . ولذا إذا طلب الجد طلبه بما لا يحرج الإنسان . وهنا يروى هذا الحديث الشريف : « **الدين يسر لا عسر** » . وإذا طلب اللهو واللعب طلبه فيما يصون على الإنسان إنسانيته ، أو فيما ينمى فيه إعداده للحياة كالفروسية وما فى معناها من التدريب على الطيران واستخدام المظلات فى النزول من الطائرات ، والرماية بأنواعها المختلفة ، أو بما ينمّى فيه دربة العقل على التخلص من الأزمات والحرج عند لقاء الخصم كلعب الشطرنج .

والإسلام لا يمنع إلا اللهو العابث الذى يستهلك وقت الإنسان دون أن يفيد منه الإنسان شيئاً فى جسمه وعقله وروحه ، أو ذلك الذى يفسد إنسانيته وعلاقته بغيره .

إن ما حرمه الإسلام تحريماً قاطعاً على الإنسان فيما يأكله أو يشربه أو يلبسه أو يمارسه فى فراغه من لهو وتسلية — يجب على الإنسان أن يتأكد أن هذا التحريم من الإسلام لا لإذلاله أو الحد من حريته الشخصية ، وإنما لأن أضراراً مجتمعة تترتب على تناوله ما حرم أو مباشرته . وهى أضرار تبعد الإنسان عن السعادة فى الحياة الخاصة والعامة على السواء .

هى : « رِجْس مِن عمل الشَّيطان ، فَاجتَنِبُوه لَعلَّكم تفلحُون [1] » ..

---

(١) المائدة : ٩

الفصل السادس

- أدب الاجتماع
- المساكنة والجوار
- اللغو والفضول
- آداب البيع والشراء

أدب الاجتماع

نحن فى حديثنا عن : « الإسلام وعادات الأمة » . نقصد بالاسلام ما وردفيه من آداب عامة يذكرها القرآن أو ترويها السنة النبوية فيما ينبغى للمسلم أن يأتى به قبل آخر ، اجتمع به فى مكان أو شاركه السفر والتنقل ، أو جاوره فى السكن ، أو رافقه فى العمل ، وكذا ماينبغى أن يصنعه من أجل إنسان ما ،لا يعرفه وربما لا يقدر له أن يراه ، كإبعاد مصدر الإيذاء من طريق عام .

ونقصد بعادات الشعب سلوك الأفراد تجاه بعضهم بعضاً فى مجتمعاتهم أو رحلاتهم وفى جوارهم ومساكنهم ، مما يخالف تلك الآداب التى سنها الإسلام حرصاً منه على أن تبقى علاقات الناس فى صفاء ، وعلى أن تسودها روح العودة ، لا روح الدفع والاصطدام .

الادب الاسلامى:

إن آداب الاسلام فى كل جانب من الجوانب التى سنتعرض لها . فى واقع الأمر تعبير عما نسميه بـ « الذوق » العام ، أى ذلك الذى يجد قبولا من الناس ، ويثير ارتياح النفس عندهم ، بسبب متعة فى لقاء الإنسان للآخر فى صورة ما . إذا أخذنا على سبيل المثال من الآداب الإسلامية قول النبى عليه الصلاة والسلام ، فيما يرويه عنه أبو داود : « **من اغتسل يوم الجمعة ، ولبس من احسن ثيابه ، ومس من طيب ان كان عنده ، ثم اتى الجمعة فلم يتخط اعناق الناس ، ثم صلى ما كتب الله له ، ثم انصت اذا خرج امامه حتى يفرغ من صلاتة ، كانت (أى صلاته) كفارة لما بينهما وبين جمعته التى قبلها** » . رأينا أن الحديث يرعى إحساسات المجتمعين فى مكان ما ، حتى يجعل الاجتماع أمراً مرغوباً فيه ، وحتى يبعد كل أسباب النفرة أو الانقباض النفسى من المجتمعين . فإذا ذهب كل واحد إلى مكان الاجتماع وهو نظيف فى بدنه وفى ملبسه ، ليس له رائحة

كريهة ، ولا منظر قذر ، وإذا راعى فى الاجتماع آدابه من رعاية حرمة المجتمعين فلا يتخطى رقابهم ليصل إلى المكان الأمامى ، ومن الاصغاء إلى المتحدث حتى ينتهى من حديثه كيلا يقطعه عليه ، ولا يزعج غيره فى سماعه إياه — كان هذا الاجتماع اجتماعاً مهذباً مرغوباً ، وأفاد المجتمعون باجتماعهم هذا : أخوة فى العلاقة ومودة فى اللقاء ، بجانب ماألقى فيه من حديث أو أثيرت فيه من مناقشة .

فالحديث الشريف هنا يصور لوناً من أدب الاجتماع أو من «الذوق» العام فى الاجتماع . أى يصور المسلك المهذب الذى ينبغى أن يسلكه المجتمع مع مجتمع آخر وهو المسلك الذى يدفع إلى راحة النفس عند كل المجتمعين . وهنا يروى أنه : **« جاء رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ، والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب ، فقال له : اجلس فقد آذيت »** .. فقد عد الرسول عدم رعاية حرمة المجتمعين بتجاوز مناكبهم إلى الصفوف الأولى فى الاجتماع — إيذاء . إذ من شأن هذا العمل ، ومثله من عدم الحرص على النظافة أو التشويش على المتحدث ، أو السامع — أن يزعج المجتمعين ويبغض إليهم الاجتماع .

ولكن فى الوقت الذى يصور الإسلام فيه أدب الاجتماع على هذا النحو ، يضيف إليه صورة أخرى ، يضيف إليه أنه ينبغى لمن سبقوا غيرهم إلى مكان الاجتماع أن يفسحوا فى المجالس والأمكنة إن طلب إليهم من القادمين عليهم أن يفسحوا ، حتى لا يكون هناك داع إلى تخطى رقابهم وعدم رعاية حرماتهم فى شغل الأماكن الخالية بينهم . يقول الله تعالى : « يَأيها الذين آمنوا إذَا قِيلَ لَكم تَفسحُوا فِى المجالس فافسحوا يَفْسَح الله لكم » (١)

* * *

وآداب الإسلام التى يذكرها القرآن أو ترويها السنة النبوية كما تتناول الاجتماع

---

(١) المجادلة : ١١

والمجتمعات تتناول الشاركة أو الجوار فى المسكن ، وتتناول الطريق والسير فيه ، وتتناول الزمالة فى الانتقال ، وتتناول البيع والشراء .. فى محلات البيع والشراء .. وتروى مرة على أنها آداب كآداب المجالس ، ومرة أخرى على أنها حقوق الجوار ، وثالثة توصف بأنها فضل ومزية كفضل التعفف .

وهى كلها ترمى إلى مراعاة الشعور النفسى ، أو إلى تجنب إيذائه فى أية صورة من صور الإيذاء، أو إلى مخاطبة وده أو مانسميه المجاملة. فإذا قال القرآن الكريم « وإذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنهَا أَوْ رُدُّوهَا »[1] .. فإنه يقصد هنا إلى إرضاء النفس إرضاء كريماً طيباً .

وهكذا كما سنرى : أن الإسلام يعنى فى آدابه العامة بالجانب الروحى والنفسى فى علاقات الناس بعضهم ببعض . والانسان كصاحب إحساسات هو موضوع هذه الآداب . وسميت آداباً لأنه يتأدب عليها النشء ويؤخذ بها فى سلوكه ، وتصير بعد ذلك عادات يمارسها الانسان فى حياته بدون عناء . وهى لذلك جزء فى منهاج التربية ، ويبدأ بها فى المنزل قبل المدرسة ، وتلقن للصغار عن طريق الوالدين فى سلوكهم الشخصى قبل أن تلقى عليهم فى صورة وعظ أو معرفة أخلاقية .

إنا نلتقى بوجوهنا لا بأرواحنا فنبقينا أفراداً مفرقين . ويوم نلتقى بأرواحنا سنلتقى بوجوهنا ويكون مظهراً واحداً لنا جميعاً . ولكن لا نلتقى بأرواحنا ونفوسنا إلا إذا راعينا إحساسات بعضنا بعضاً، وحرصنا على أن نتجنب الإيذاء النفسى فى صورته التافهة قبل صورته الجارحة . إن الإنسان فى العادة تسيطر عليه إحساساته قبل أن ينقاد إلى عقل أو حكمة . ورعاية الإحساسات تنميها الآداب العامة ويقويها السلوك حسب مقاييس الذوق العام .

---

(١) النساء : ٨٦

المساكنة والجوار

أدب الإسلام فيما يتعلق بالجوار والمشاركة فى السكن يقوم على « الإحسان » أى على دفع ما يسىء إلى الجار أو المشارك فى السكن . لكل ما يوفر للجار راحته مطلوب فى الإسلام . وأخذ الإنسان به نفسه تأديب بأدب الإسلام . وكل ما يؤذى الجار أمر يبعد فى نظر الاسلام عن الاحسان الذى يجب أن تقوم عليه العلاقة بين الجار والشريك فى السكن مع شريكه الآخر . فليس الاحسان هنا مساعدة الجار ماديا ، إنما قبل كل شىء : معاونته على الاستقرار وإشعاره بأنه ملحوظ فى وجوده ومراعى فى إنسانيته .

الاحسان فى الجوار:

وإحسان الجار لجاره ، والمشارك فى السكن لشريكه ، كما يكون حسياً يكون نفسياً : فتجنب إيذاء سمعه بالصوت المنكر أو المرتفع ، وتجنب مضايقة بصره بعرض المناظر الكريهة عليه ، أو تجنب مضايقة أنفاسه بالهواء المحمل بالغبار : أمثلة للإحسان الحسى . ومشاركته فى عواطفه : فى أفراحه وأحزانه ، وتوقيره ببدئه بالسلام من أمثلة الإحسان النفسى من الجار لجاره .

والاحسان الحسى والنفسى للجار أدب إنسانى عام يقدره الاسلام بما يقل شأناً عن الإحسان للوالدين ولذى القربى فى الأسرة الخاصة . فالاسلام يضع الجوار بين الأسرتين فى منزلة الدم بين أفراد الأسرة الواحدة . فكما أن قرابة الدم توجب الإحسان ودفع الايذاء من فرد فى الأسرة لفرد آخر فيها ، فكذلك الجوار ، وهو كالقرابة أيضاً ، يوجب الإحسان ودفع الايذاء من جار لجار آخر ملاصق له أو قريب من أن يكون ملاصقاً له . ورعاية الجوار

على هذا النحو تجعل الانسجام يسرى من أسرة إلى أسرة الجوار حتى ينتهى إلى الجماعة كلها .

وفى هذا تقول الآية الكريمة : « وَبالوالِدَين إحْسَاناً ، وَبِذى القُربَى ، واليَتَامَى ، والمسَاكين ، والجار ذِى القُربى [أى الملاصق] والجار الُجنب [أى البعيد قليلا] والصَّاحب بالجنب ، وابن السَّبيل وَمَا مَلَكت أيمانكم(١) » .. فقرنت الآية ، فى طلب المعاملة الجميلة ودفع الإيذاء : بين الوالدين وصاحب القربى من جهة ، والجار من جهة أخرى. وهى تعلن أن علاقة الجوار لا تقل فى وجوب رعايتها والعناية بها عن علاقة أفراد الأسرة الواحدة ، ومن بينهم الوالدان . والإحسان الذى يطلبه الاسلام من الأولاد للوالدين ليس إحساناً مادياً ، بل هو إحسان نفسى فى أغلبه : « وَقَضَى رَبُّكَ ألا تَعبُدُوا إلا إيَّاه ، وَبالوالدين إحْسَاناً ، إما يَبلغنَّ عندَكَ الكِبر أحَدُهما أو كلاهما فلا تَقل لهما أفٍّ ، ولا تَنهرهما ، وَقُل لهما قَولا كريماً(٢) » .

ويؤكد هذا الأمر قوله صلى الله عليه وسلم ، فى رواية عائشة رضى الله عنها : « **ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت انه سيورثه** » .. (أى يجعل له نصيباً فى الميراث ، كأصحاب الدم فى الأسرة الواحدة) .

ذلك أدب الاسلام الذى يطلب إلى المسلم أن يتأدب به حتى يصير عادة له فى صلته بجاره ومشاركه فى السكن ، أياً كان هـذا الجار مسلماً أو غير مسلم . إذ يروى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما — فى رواية أبى ذر — أنه ذبحت شاة فى بيته ، فقال — متسائلا — : أهديتم لجارنا اليهودى ؟ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **ما زال جبريل يوصينى بالجار ، حتى ظننت انه سيورثه** »

* * *

(١) النساء : ٣٦ . (٢) الاسراء : ٢٣ .

ولـكن العادات التي تسود الأمة الآن في علاقة الجار بجاره قلما توصف بأنها تقوم على الاحسان الذى يطلبه القرآن ، وقلما يتوخى فيها دفع الايذاء الحسى أو النفسى عن الجار من جاره :

١ — يستخدم جهاز الاستقبال ، وهو « الراديو » فى المساكن التى من شأنها أن تسكن إليها النفس وتهدأ فيها : على نحو لا يزعج الجار الملاصق فقط بل يتجاوز الازعاج الجار القريب إلى الجار الآخر ، فى فترات هى فترات الراحة أو فترات العمل العقلى لصاحب العمل العقلى . كما هو الحال عند استذكار الطلاب لدروسهم .

٢ — وتستخدم النوافذ والشبابيك ، لرمى مخلفات العمل المنزلى ، أو دفع الغبار من أثاث المنزل على مسكن الجار الأدنى ، وأحياناً على ملابسه مباشرة .

٣ — وتستخدم شُرف المساكن لعرض ما لا يصح عرضه خارج المسكن من ملبس أو منقول . ويستخدم « الهاون » بما يجعل سقف الجار يصب على رأسه الضربات فى غير رحمة .

وهذه بعض أمثلة حسية من عادات تعودها الشعب فى معاملة الجار لجاره . وهى أمثلة تدل على عدم وجود : « وعى خاص » يوفر الراحة والطمأنينة للجار ويوطد بالتالى علاقة الجار بالجار .

وهناك وراء ذلك عادات تنبىء عن القطيعة أكثر مما تنبىء عن الصلة بين الجار وجاره . فمجال المشاركة فى العواطف فى دائرة الجوار مجال ضيق ، وأضيق منه مجال تبادل الاحترام بين المتجاورين .

* * *

أدب الانسانية المهذبة ، وهو أدب الإسلام ، يدعو إلى رعاية الجـار والـكف عن إيذائه فى صورة ما من صور الايذاء الحسى أو النفسى ، ويدعو إلى

ما يؤثر عليه هدوءه فى سكنه ، وما يجعله يشعر نفسياً بأنه ليس غريباً ولا أجنبياً عن جاره .

وجهوا أولادكم والتابعين لكم إلى أن يرعوا حرمة الجوار . فإنها وحرمة القرابة سواء . فعل ما يؤذى الجار لا يحتاج إلى عناء من الذى يفعل الإيذاء ، ولكن الكف عن الإيذاء ، فضلا عن الاحسان ، هو الذى يحتاج إلى وعى ويقظة ثم تدريب وممارسة . ولذلك كان صاحب الإحسان إلى الجار هو الانسان الذى شذب نفسه وأخذها بأدب الإنسانية . وهذا هو ما ينشده الإسلام فى وصاياه .

اللغو والفضول

كما يحرص الإسلام فى آدابه — التى يريد لها أن تكون عادات المسلمين — على أن لا يؤذى مسلم غيره من الناس ، مسلماً كان أو غير مسلم ، كما بينا فى آداب الجوار والمساكنة . يحرص أيضاً على أن لا يؤذى المسلم نفسه فيبدد نشاطه البشرى فيما لا ينفع . يقول النبى ﷺ ، فى رواية الحاكم عن على بن حسين رضى الله عنهما: **« ان من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه »** . إذ الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه كائن ذو طاقة فكرية وعملية ، يجب عليه أن يوجهها وجهة نافعة لنفسه أو لأسرته أو لأمته . وينظر إلى الحياة الإنسانية على أنها حياة جد وعمل قد يصحبه فيها مزاح ، وقد يكون بجانب العمل فيها لعب ، ولكنها ليست حياة خالية من السعى للثمر والهدف السليم ، وما فيها من مزاح أو لعب إنما هو بقدر ما يعين على الجد فيها ويدفع إلى السعى المثمر وعلى تحقيق الهدف السليم منها . يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه كان يمزح ولا يقول إلا حقاً ، يضحك من غير قهقهة ، يرى اللعب المباح فلا ينكره ، يسابق أهله ، ومع ذلك لا يمضى له وقت فى غير عمل لله أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه .

فإذا تعود الإنسان عادات تستهلك طاقته البشرية فيما لا يفيده ولا يهمه وفيما يجعل حياته خالية من الهدف الإنسانى الصحيح — بعدت هذه العادات عن أن تكون من آداب الإسلام التى ينشدها للمسلم فى حياته :

فاللغو فى الحديث بما لا يهم الإنسان ، والفضول والكثرة الزائدة فيه ، من العادات التى ينصح الإسلام بالاقلاع عنها ، وبالتأدب بما يقابلها . فيحكى مجاهد : سمعت ابن عباس يقول : لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل [أى زيادة] ولا آمن

عليك الوزر [أى لا آمن عليك أن تنزلق إلى الإثم فتخوض فى أعراض الناس مثلا] . ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه يقول « **طوبى لمن امسك الفضل من لسانه ، وانفق الفضل من ماله** » .

عادة اللغو فى الحديث أو الفضول فيه تدل على فراغ فى حياة الانسان وعلى أنه يريد أن يملأه بتافه الأمر . ومن يشغل نفسه بتافه الأمور لايقدر قيمة نفسه ولا قيمة يومه ، ولا قيمة جلسائه . هو إنسان يهتم بما لا يهتم به إنسان متزن . هو إنسان مبدد لنشاطه فيما ينبغى أن لايصرف فيه أى نشاط إنسانى .

يلغو فى الحديث فيحكى عما لا مصلحة له ولا لغيره فيه ، أو يسأل عما لا فائدة له ولا لغيره ، ويقطع بلغوه فى الحديث أو فى السؤال : الوقت حتى ينهى جلسته أو يومه ، وحتى ينفق تفكيره فيما يحكى أو يحكى له أو يسأل عنه على نحو لا يجد فيه آخر الأمر مقابلا له ولا لغيره . وكذلك الفضول والثرثرة لا تقل عن اللغو فى الحديث والسؤال .

إن من له عادة اللغو والفضول كمن له ثروة من المال ينفقها فيما لايدفع حاجة الإنسان ، أو فيما لايحقق مصلحة له ، كمن هو يعبث بثرائه وماله . وقوة الفكر لدى الإنسان أفضل من ثروة المال عنده ، لأنها شىء أصيل يملكها كل إنسان . فإذا بددها واستهلكها فيما لاطائل تحته فقد استهلك إنسانيته وحياته الانسانية فيما لاجدوى له ولذويه وأمته . وعبثه بإنسانيته عندئذ أغلظ من عبثه بماله وثروته .

اداب الاسلام فى حياة المسلم:

حياة المسلم المتأدب بأدب الإسلام حياة المتزن : جد وسعى فى العمل ومع ذلك مرح ولعب برىء . والمرح أو اللعب البرىء هو كل ما لا يفسد الجد فى العمل والسعى المثمر فى الحياة ، هو كل ما لا يقلب وضع الحياة الانسانية المتزنة المهذبة إلى عبث ، أو إسراف فى التفاهة والصغار .

حياة المسلم المتأدب بأدب الاسلام حياةالمقدر لانسانيته ، والمحافظ على تصريف إمكانياته البشرية فيما ينفع ، لا فيما يضر أو فيما لا ينفع ولا يضر .

حياة المسلم المتأدب بأدب الاسلام حياة لها هدف . والهدف فيهـا أن يعيش كإنسان يملأ فراغا فى حياة المجتمع ، ويحقق رجاء للبشرية .

وإنسان هذا شأنه لا يعنى إلا بما يهمه ويهم مجتمعه ، ويطرح جانباً فى حياته ما لا يعنيه من قريب أو بعيد . ولذا كان من أمارة حسن إسلامه وتأدبه بأدب الاسلام تركه مالا يعنيه .

حياتنا فى شرقنا الاسلامى يغلب عليها اللغو والفضول . فهل نأخذ أنفسنا بأدب الاسلام فنترك مالا يعنينا إلى مايعنينا ونقصد بذلك الانتفاع بالوقت ونصون أنفسنا من أن نبخس ذواتنا فى بشريتها ، ونصرف خصائصها فى خـيرنا أفراداً وجماعة ؟ هذا مانرجوه .

آداب البيع والشراء

أحل البيع والشراء لأنه تبادل قائم على المنفعة ، أو على الأقل تبادل أبعد فيه قصد الضرر من أحد الطرفين للآخر ، أو أبعد فيه على حسب العرف بين الناس : حصول الضرر لأحد الطرفين أو كليهما معاً . وعلى هذا جاءت الآية الكريمة :

« يأيها الذين آمنُوا لا تأ كلوا أمْـوَالـكم بيْنكم بالبَاطل إلا أنْ تـكُون تجارة عنْ تراضٍ منكم[1] » .. فالتراضي هنا الذي يعبر عنه في البيع والشراء بالإيجاب والقبول أمارة على نفي الضرر ، كمَّاً أو نوعاً على حسب العرف السائر ، وبالتالي كان دليلا عندئذ على حل البيع والشراء .

* * *

فإذا تحقق الضرر كمَّاً أو نوعاً لأحد الطرفين أو كليهما كان التبادل القائم عليه تبادلا محظوراً وصار عندئذ أكلا لأموال الناس بالباطل مما يشمله الحظر في هذه الآية : « يأيها الذين آمنوا لا تأ كلوا أموالـكم بينكم بالباطل » .. كما يشمله صريح قوله تعالى في مثل : « ويلٌ للمطففين. الذين إذا اكتالُوا على النَّـاس يستوفُون . وإذَا كالوُهمُ أوْ وزَنُوهم يخسرُون[2] » . وكما ينبه إليه مثل ما ينقل ، في رواية مسلم والترمذي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه مر برجل يبيع طعاماً فسأله كيف تبيع ؟ فأخبره ، فأوحَى إليه أن ادخل يدك فيه ، فأدخل يده فإذا هو مبلول ، فقال : « ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : اصابته السماء يا رسول الله . قال : افلا جعلته فوق الطعـام كي يراه الناس ؟ ثم قال : من غش امتي فليس مني » .

---

(١) النساء : ٢٩ . (٢) المطففين : ١ — ٣ .

فالذى يأخذ أكثر من حقه عند التسلم ، أو ينقص حق غيره عند التسليم ، أضر بالفعل غيره المتعامل معه . والذى يرتكب الغش يقصد إلى إضرار غيره .

هذا هو مبدأ الاسلام فى البيع والشراء . وهو مبدأ يقوم أساساً على تجنب الإضرار ولو قصداً ثم توقع جلب المنفعة حسب التقدير الإنسانى العام .

لكن آداب الاسلام فى البيع والشراء شىء آخر بعد ذلك . فإذا قرأنا للرسول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه جابر رضى الله عنه من أنه قال : «رحم الله رجلا سمحا اذا باع ؛ واذا اشترى ؛ واذا قضى ، واذا اقتضى [أى إذا طلب حقه]» — إذا قرأنا له أنه يدعو للسمح فى البيع والشراء ويطلب له رحمة الله أو يبشره برحمة الله ورضاه عنه ، أدركنا أن السماحة من جانب البائع ومن جانب المشترى أدب إسلامى ينصح الرسول المؤمنين بأن يأخذوا أنفسهم به ويروضوها عليه حتى تصير السماحة عادة وخلقاً لدى البائعين والمشترين على السواء .

يدعو الاسلام إلى أدب السماحة فى البيع والشراء ، لأنه وسيلة لتوثيق العلاقة بين الطرفين ، لأنه وسيلة لإثارة الراحة والاطمئنان فى نفوس المتعاملين . ولا شىء أقوى من توطيد العلاقات بين الناس من إشاعة الراحة والاطمئنان النفسى ولا شىء يوتر هذه العلاقات من القلق والتذمر .

السماحة التى يطلب الإسلام أن يتأدب بها المسلمون هى بمثابة وقاية من اندفاع المتعاملين وراء المنفعة المادية المترقبة فى البيع والشراء ، فيتركونها تطغى على العلاقات الأخوية الإنسانية . وبذلك ينزلون فى التعامل إلى الغش والخداع أو الكذب والتحايل ، ويتوصلون بذلك حتما إلى الإضرار وهو ما سماه القرآن الكريم بأكل أموال الناس بالباطل .

السماحة فى البيع والشراء إذن هى أدب الإسلام فيهما . وهى وقاية وعلاج ، وهى مصدر راحة واطمئنان فى العلاقات بين الفرد .. والفرد .

عادات تخالف ادب الاسلام .

ولكن للشعب فى البيع والشراء عادات تبعد كثيراً أو قليلا عن هذا الأدب الإسلامى :

للشعب عادة : «المساومة» فى البيع والشراء . وهى عادة شائعة حتى أصبحت جزءاً رئيسياً فى طابعه العام . المساومة هى أخذ ورد بين الطرفين فى تحديد ثمن السلعة ، هى مناقشة ترتفع بالثمن فوق متوسطه ، أو تنخفض به دون مستواه العادى هى لجاج وضياع وقت واستهلاك تفكير . وربما تصل نهايتها إلى احتكاك فشجار فخصومة . وكثيراً مايكون ربح المساوم فى بيعه أو المساوم فى شرائه أقل مما يقتصده لو كان غير شره أو غير نهم فى طعامه وشرابه ، أو كان معتدلا غير مسرف فى ملبسه .

المساومة والتشدد فى البيع والشراء ليست أثراً للفقر ، أكثر منها أثراً للجشع والأنانية . هى كقذارة البدن والثياب يدعى أن الفقر وقلة الداخل من ورائها . ولكن ماأيسر وسائل النظافة ، وما أكرم صفة القناعة فى الإنسان .

هناك من عادات الشعب فى البيع والشراء مايرجع أيضاً إلى هذا التشدد فيه . هناك اختيار السلع التى تتعرض للتلوث بما يجعلها ملوثة أو يجعل نفس الغير تعافها وتعرض عنها . هناك فى محل القصاب أو البقال أو الفاكهى تجد اليد والفم واللسان تلعب دوراً رئيسياً فى اختيار السلع المعروضة للبيع ومدى صلاحيتها للرغبة الخاصة أو المزاج . وكل من اليد والفم واللسان يترك فى السلع أثراً لاترضى عنه الوقاية الصحية أو ينفر منه الذوق العام .

تسامحوا فى بيعكم وشرائكم ، لاتكثروا من المساومة ، جنبوا أنفسكم ماينفر الذوق السليم أو يتعارض مع الصحة العامة .

تأدبوا فى بيعكم وشرائكم بأدب الإسلام . إنه أدب الذوق الإنسانى العام. وأدب العلاقات بين بعضكم بعضاً ..

الفصل السابع

- أثر الاحتفال بالذكريات
- الهجرة كفاح لتحرير الانسان
- الهجرة أول صرح فى بناء الوحدة
- شهر شعبان
- غزوة بدر « يوم المبادىء »
- يوم بدر
- الأعياد فرصة لتجديد الحياة
- العيد فى حياتنا الاجتماعية
- الروابط الانسانية فى العيد
- عيد الفطر
- العيد الأكبر وايام التشريق

أثر الاحتفال بالذكريات

تحتفل الشعوب والأمم عادة بالذكريات التى تتصل بتاريخها وبتكوينها كشعب وأمة . وهى ذكريات لأحداث قام بها أفراد . وهذه الأحداث خلفت مبادىء وقامت على تحقيقها . والذكريات التى تحتفل بها الشعوب والأمم هى فى واقع الأمر ذكريات لتلك المبادىء التى حمل رسالتها أفراد خاصة من بينهم .

والاحتفال بذكريات المبادىء التى تتصل بحياة الأمة أو حياة الشعب سنة طبيعية للشعب الذى يعرف تاريخه ، ثم يحرص على بقائه كشعب له شخصية خاصة وغاية معينة ، فى حياته وفى كفاحه من أجل البقاء .

فى ذكريات ميلاد الرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام : نحتفل بذكرى ميلاده . وفى واقع الأمر نحتفل بالمبادىء التى قامت عليها الجماعة الإسلامية ونحتفل بتاريخ قيامها ، وفى الوقت نفسه نوحى بهذا الاحتفال إلى ايقاظ الحرص فى نفوس المسلمين على استمرار بقائهم كشعب وأمة .

واحتفالنا بالمبادىء ليس بتمرير عناوينها على أسماعنا ، وإنما بتمثلها فى نفوسنا ، ثم بتحويل ما نتمثله منها إلى أعمال فى حياتنا العامة والخاصة .

ومحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام إذا قرأنا تاريخ حياته مع رسالة الإسلام ، فى هذه الذكرى النبوية الكريمة ، أو إذا استمعنا لقصة هذا التاريخ فى هذه المناسبة ، فإنه ينبغى ، عندما نقرأ أو نسمع ، أن نعيش معه فى حياة الكفاح والمجاهدة من أجل رسالة الإنسانية الفاضلة . ينبغى أن نصحبه فى نشأته ، ونصحبه عندما قام يدعو لرسالته ، ونصحبه فى كفاحه من أجل تثبيت هذه الرسالة ، ونصحبه فى جو مبادئها وجو نموها .

ونحن إذ نفعل ذلك نفعله من أجل حرصنا على أن نبقى مسلمين . أى من أجل أن تبقى تلك الأمة الخاصة التى تكونت وعرفت فى تاريخ البشرية بأنها الأمة المسلمة .

نحن نحتفل بذكرى ميلاد الرسول عليه الصلاة والسلام من أجل أنفسنا ، ومن أجل مستقبلنا . نحن أمة تميزت بأنها الأمة المسلمة . فلكى تبقى هذه الأمة — ولا بد أن تبقى — نستعيد على أسماعنا تاريخ الإسلام فى قيامه وفى مبادئه بذكرى ميلاد صاحبه ، ونفقه ذلك جيداً ، وندفع أنفسنا بعد ذلك دفعاً قوياً جديداً . لنستمر مسلمين أصحاب شخصية إسلامية ، وأصحاب رسالة إنسانية فى الحياة .

نتذكر فى نشأة صاحب هذا الميلاد الكريم : ما كان عليه من خلق قويم يتمثل فى الأمانة والوفاء بالوعد وإحقاق الحق . ونتذكر قيامه بالدعوة إلى رسالته وما اعترض طريقه من عقبات ومؤامرات ، صعب أمرها وطال زمنها . ونتذكر فى كفاحه من أجل هذه الرسالة ما أخذ به نفسه من الصبر والاحتمال وقوة الإيمان . ونتذكر فى رسالته ما جاءت به من توازن وتعادل بين الناس جميعاً ، ما جاءت به من توازن بين نفس الإنسان وجسمه ، وبين المرء وأخيه وابنه وأبيه وأمه ، وبين الجار وجاره وبين الراعى ورعيته ، وبين المسلم ومن يشاركه فى إسلامه واعتقاده به .

فإذا تذكرنا فى شخصيته عليه الصلاة والسلام ذلك كله كان أمامنا نموذج لإنسان فى خلقه وإيمانه وكفاحه ، وكان نموذج كذلك لرسالة جاءت للمساواة أى للتوازن والتعادل بين الناس فى حياتهم الخاصة وفى مجتمعهم عامة

وعلى هذا النحو من الاحتفال بمثل هذه الذكرى نكون قد أفدنا منها لأنفسنا . أما أبناؤنا فسبيلهم إلى النفع بها أن يحسوا بمباهجها ومظاهرها الخارجية لينفذوا

من هذه المباهج والمظاهر إلى حقيقة الذكرى وغايات ماوقع فيها مما يذكر ويتذكر. وبتكرار الاحتفال بها تنطبع فى نفوسهم صورة واضحة لها ، يصدرون عنها فيما بعد فى سعيهم فى الحياه ، ويدركون بها معالم وجودهم كجماعة وأمة لها مستقبلها .

الاحتفال بالذكريات ضرب من ضروب التفكير فى أحداث التاريخ ، لايثمر إلا إذا ترتبت عليه نتائجه وآثاره من وعيها والعمل بمقتضى ما وعى منها . وتلك سنة الجادين فى الحياة وأمارة أيضاً على حيويتهم فيها . وقد امتدح الله سبحانه فى قرآنه الكريم أولئكم الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض فأثمر تفكيرهم نتيجته المستقيمة وهى الاعتراف بخلقه وربوبيته . فيقول : « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً[1] » .. امتدحهم لأنه لم تمر عليهم طبائع الوجود دون أن يدركوا قيمتهاوآثارها . امتدحهم لأنهم انتفعوا بالنظر فيما يحيط بهم ، واستخلصوا منه : أن اهتدوا للإيمان .

وشأن الذكريات فى تاريخ الأمة شأن الطبائع فى الوجود ، تمر على الإنسان أو يمر الإنسان عليها ، تكون ذا أثر إيجابى فى حياة فريق من الناس ، وتبقى بلا أثر فى حياة فريق آخر . وينتفع بها فحسب أولئكم الذين يعيشون فى يقظة ويحرصون على أن يبقى وجودهم مصوناً .

حياة الإنسان تاريخ وسجل لأحداث قومه وأمته . الإنسان الحى هو الذى الذى يجعل من هذه الأحداث ذكريات يربط بها ماضيه بمستقبله . وميلاد المصطفى عليه الصلاة والسلام يجب أن نجعل منه ذكرى ، وأن ننتفع به كل عام فى تجديد بناء أنفسنا وفى التمسك بمستقبل الجماعة الإسلامية .

---

(١) آل عمران : ١٩١ .

الهجرة كفاح لتحرير الإنسان

يقول الله جل شأنه : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى إثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم »[1] :

يعلن الله سبحانه بهذه الآية الكريمة ، الحد الفاصل بين عهدين متميزين فى تاريخ الدعوة إلى الإسلام : بين عهد ملىء بالخوف والرعب والإيذاء النفسى والبدنى بالنسبة لصاحب الرسالة محمد ﷺ وصحابته الأول الأقلاء رضوان الله عليهم ، وهو عهد الدعوة الإسلامية بمكة موطنه وموطن قبيلته قريش قبل الهجرة إلى المدينة .. وبين عهد تال بعد ذلك طبع بطابع العزة والسيادة للمسلمين ولكلمة الحق ، وهو عهد ما بعد هجرته عليه السلام إلى يثرب مدينة أخوال جده عبد المطلب من بنى النجار ، ومقر قبر أبيه عبد الله بن عبد المطلب .

هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة كانت خاتمة لمرحلة كفاح من أجل الحق ، وهو كلمة الله وحده . كفاح لم يعتمد إلا على الإيمان بهذا الحق وحده وعلى أن النصر له حتما فى النهايه : فلم يكن المسلمون طيلة السنوات الثلاث عشرة وهم بمكة قبل الهجرة على حال من القوة العددية أو المادية ، ولم يكونوا فى مأمن من الخصومة العنيفة غير الشريفة من أعدائهم ، بل كان عددهم قلة ، وحالهم ضعفاً ، ووضعهم فى الحياة العامة وضع المخاصر عن قصد وبسوء نية ، وضع المتآمر عليه ، وضع المعذب المستخف به .

ولكن إيمانهم وحده هو الذى جعلهم يحتملون هذا اللون القاتم المهان من الحياة هذه السنوات العديدة فى كفاحهم من أجل الحق .

---

(١) التوبة : ٤٠ .

وهجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة كما كانت خاتمة لهذه المرحلة المريرة فى الكفاح من أجل الحق — كانت بداية لمرحلة ثانية غلبت عليها قوة العدد والعدة عن ذى قبل بجانب قوة الإيمان المستمرة ، التى لم تفارق الكفاح من أجل هذا الحق حتى انتصر ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً . وبفضل هذا الكفاح والإيمان القوى عد المؤمنون المهاجرون أصحاب درجة عظمى عند الله : « الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ(١) » .. وبهذا الكفاح المرير فى سبيل الدعوة الإسلامية كان المهاجرون من مكة والذين آووهم ونصروهم بالمدينة فى مقدمة المؤمنين وعناوين واضحة للإيمان الحق : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٢) » .

والهجرة إذن صورة مميزة من صور الكفاح فى سبيل الحق ، ومظهر للإيمان القوى به . لم تكن إلا صدى لبلاغ الأذى مبلغه من المهاجرين وصدى آخر لقوة احتمالهم لهذا الأذى وقوة صبرهم على الضيم والمكاره . وهذا الصبر فى قوته وذاك الاحتمال فى قوته الأخرى لا يكون إلا من مؤمن تأصل الإيمان فى نفسه وسيطر على اتجاهه فى الحياة .

ولكن ما هو هذا الحق الذى آزرد هذا الإيمان القوى ، وكانت الهجرة به من مكان صورة من صور قوة الإيمان به ؟ . إنه رسالة تحرير الإنسان فى اعتقاده ، وفى تفكيره ، وفى سعيه فى الحياة . ولعل كلمة جعفر بن أبى طالب للنجاشى عندما سأله بعد أن التجأ إليه — قبل هجرة الرسول عليه السلام إلى

---

(١) التوبة : ٢٠ (٢) الأنفال : ٧٤

يثرب — وطالب مبعوثا قريش [عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة] بتسليمه إياها ومن معه من المهاجرين المسلمين إلى الحبشة — لعل كلمته هـذه على إجمالها : توضح هـذا الحق في مقابل ما كان عليه العرب في الجاهلية من باطل الاعتقاد والتصور ، والسلوك في الحياة .

يقول جعفر : « أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى الضعيف فـكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وأمانته ، وعفافه ، فدعا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والـكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً . . . فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا » .

هذا في إجماله يوضح : أن الحق في الاعتقاد أن يعبد الإنسان الله وحده ، لا يشرك به شيئاً ، وأن الحق في التفـكير أن يفـكر الإنسان في غيره كما يفـكر في نفسه ، ويبتعد في ذلك عن أن يكون أنانياً فيما يفـكر ، وغير منحرف في منهج تفـكيره ، وأن الحق في السعي في الحياة أن يكون سعي الإنسان فيها لنفسه وأهله وعشيرته ومجاوريه ، ومواطنيه ، ثم مشاركيه في الانسانية .

هذا الحق هو بعينه تحرير الإنسان من الوثن في الاعتقاد ، وتحريره من الأنانية في التفـكير ، والأنانية في السعي .

إن الإنسان الوثني في اعتقاده إنسان جعل للمخلوقات والـكائنات سلطاناً على نفسه في توجيهه وتصرفه . إنه غل عنقه بيمينه بحيث صار تابعاً لما دونه في

الوجود ، يستوحى منه التوصية ويستلهم منه السلوك والمواقف ، حين لا يستطيع هذا الذى يُستلهم ويستوحى منه نفعاً ولا ضراً لنفسه .

إن الإنسان المشرك الذى يعبد مع الله غيره إنسان ردد نفسه فى التوجيه يمنة ويسرة ، وأسلم زمام أمره لغير ذى شأن فى الوجود . فحتماً يلتوى عليه القصد كما ينحرف به الطريق إلى ما يقصد .

والإنسان الأنانى فى تفكيره ، والأنانى فى سعيه ، إنسان أخضع نفسه إلى هواه . ينظر للحياة على أنها له وحده ، ويسعى فيها على أنه أولى بها فيصطدم فى تفكيره كما يصطدم فى سلوكه بغيره الذى يقاسمه هذه الحياة فيشقى بتفكيره عندئذ كما يشقى بسلوكه . وسبب شقوته فى الأمرين : أنه لم يستطع أن يحرر تفكيره من أنانيته ويحرر سلوكه من ذاته .

الهجرة عنوان على كفاح وعلى إيمان برسالة . وحياة الإنسان ، ذلك الكائن المتميز عن الحيوان ، هى إيمان وكفاح . حياة الأفراد كحياة الأمم يجب أن تكون مليئة بالإيمان برسالة ويجب أن يكون السعى فيها كفاحاً لتحصيلها وتحقيقها . إن خلت حياة الأفراد والأمم من الإيمان والكفاح خلت من الحياة الإنسانية نفسها وأصبحت شبيهة بحياة السائمة .

والإيمان بالحق أمجد أنواع الإيمان ، والكفاح فى سبيله عاقبته النصر حتماً ولو بعد حين .

والحق الواضح هو الذى يستهدف خير الناس جميعاً . وفى مقدمة هذا الخير : صيانتهم من العبث والفساد فى العقيدة والتصور والسلوك .

الهجرة أول صرح فى بناء الوحدة

يقول الله تعالى : « وإنْ يريدُوا أنْ يخدَعوكَ فإنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُو الذى أيدكَ بنصْرِه وَبالمؤمنين . وألَّفَ بينَ قُلُوبهم ، لوْ أنفقتَ ما فى الأرض جميعاً ما ألفتَ بينَ قلُوبهم ، ولكنَّ الله ألَّفَ بينهم ، إنهُ عزيزٌ حكيم . يأيها النبى حَسْبُكَ اللهُ وَمَن اتبعَكَ مِنَ المؤمنين . »[1] .

بهذه الآيات الكريمة يحدث الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن بعض نتائج الهجرة التى أذن له فيها ، بعد ثلاثة عشر عاماً قضاها فى مكة ، داعياً لدين الله ، مثابراً على دعوته وصابراً فى سبيلها ، ومتحملا صوراً عديدة من آلام مواجهته برفض الدعوة والعناد فى رفضها ، ومتحملا ألواناً من مرارة شعور النفس بالإيذاء مرة ، والحرج مرة أخرى .

إن هذه الهجرة أثمرت ـ فيما أثمرت ـ وحدة القلوب بين المهاجرين ، الذين انتقلوا بإيمانهم وبرسالتهم من مكة إلى المدينة ، وبين الأنصار ، وهم المؤمنون من سكان المدينة الذين آووا ونصروا أولئك المكيين المهاجرين عندما وصلوا إليهم . أثمرت تماسكهم فى ترابطهم ، أثمرت التقاءهم فى طريق واحد وعزمهم على الوصول إلى الهدف الواحد . أثمرت رفع ما كان بينهم من روح العصبية القبلية وإزالة ما كان بينهم من خصومة ، أوجدها الصراع الذى كان يسود حياة القبائل إلى قيام الدعوة الإسلامية

تناسى الفريقان ما كان يتفاخر به الآباء ، وما كان يثير الفرقة بين ذويهم . واندفعوا فى الاتجاه الذى رسمته الدعوة الجديدة ، وهى الدعوة إلى الإسلام . وأصبحوا بعد إيمانهم مؤمنين بالله فقط ، لا مكيين ولا مدنيين . وضحوا فى سبيل

---

(١) الانفال : ٦٢ ـ ٦٤

لله وحده ، لا فى سبيل القبيلة . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الحق والإيمان به ، لا فى سبيل العصبية والتشيع لغير الحق والإيمان به . ولذلك كانوا هم المؤمنين حقاً : « وَالذين آمَنوا وَهاجروا وَجَاهدُوا في سبيل الله ، وَالذين آووا وَنَصروا أولئِكَ هُم المؤمنُون حقّاً ، لهم مَغفرةٌ وَرزق كريم [(١)] » .

* * *

وكان للهجرة هذا الأثر من ترابط القلوب ، ووحدة الصفوف ، وتماسك الأيدى ، لأنها لم تكن انتقالا ولا تغييراً لمكان ، بل كانت عنواناً على عزم وتصميم هو عزم المؤمن بالحق والتفانى فى سبيله . كانت عنواناً على الجلد والكفاح والمثابرة فيه من أجل المثل والقيم . وإخوانهم الآخرون بالمدينة الذين آووهم ونصروهم كانوا أيضاً أصحاب عزم وتصميم ، وأصحاب جلد ومثابرة على الكفاح ، من أجل الإيمان والحق والمثل والقيم . ولذا عاهدوهم على نصرتهم قبل أن يأتوا إليهم ، بل دعوهم إلى القدوم إليهم حتى تكون لهم جميعاً عزة بعد ذل ، وقوة بعد ضعف ، وحتى تندفع هذه القوة فى طريقها ويكون الدين كله لله ، وحتى تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

ولمكان الهجرة فى توحيد الكلمة ، — وحدة القلوب والاتجاه ، وفى تحويل وضع المؤمنين من الضعف إلى القوة ومن الذلة إلى العزة والسيادة — رغب القرآن الكريم فى الهجرة إذ ذاك ، ونادى المؤمنين فى أى مكان أن يلحقوا بإخوانهم المهاجرين الأولين ، ويكون لهم ما لأولئكم من الدرجة والفضل : « والذين آمَنُوا من بَعدُ ، وَهَاجَرُوا وجَاهدُوا معكم فَأولئِك مِنكم ، وأُولو الأرحَام بَعضهم أوْلىَ ببعض فِى كتاب الله ، إنّ الله بِكلّ شىءٍ عَليم [(٢)] » .

إن الهجرة هى نقطة التحول فى تاريخ الدعوة إلى الإسلام وفى تاريخ المؤمنين

---

(١) الأنفال : ٧٤ (٢) الأنفال : ٧٥

به ، وسيادتهم على أنفسهم ومواجهتهم بغيرهم وهم أعزاء كرماء . هى نقطة البداية نحو القوة والعزة . هى أول صرح قوى فى بناء الوحدة الإسلامية ، التى قامت على صفاء النفوس والتقاء القلوب ، وتضافر العزم والتصميم على الوصول إلى النصر . وقد كان لهم النصر بعد ذلك . وكان لهم التأييد من الله لأنهم أخلصوا فيما آمنوا به ، وضحوا بشهواتهم وبأموالهم ، وبمالهم من متع الحياة فى سبيل ما آمنوا به : « أُذن للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور (1) » .

مغزى الهجرة فى الاسلام :

إن هذا هو مكان الهجرة فى الإسلام . هى ليست هرباً ولا فراراً من الكفاح . ليست أمارة على ضعف بالإيمان بالحق ولا تخلصاً من مواجهة الأزمات والشدائد . إنها كانت تعبئة للنفوس بالإيمان وللقوى البشرية بالتكتل . وكانت إعداداً للقوة . إنها كانت تصميماً على النصر من أجل الحق ، فأثمرت القوة ، وكانت القوة فى الوحدة . . ثم أثمرت الوحدة والنصر . وكان النصر هو قطع دابر الكافرين ، والعزة للمؤمنين . ومن أجل هذا إذا كانت الهجرة بمعناها الذى عرف على عهد الرسول ﷺ قد انتهت بفتح مكة ، فالهجرة بمعنى التعبئة فى سبيل الحق ، والهجرة بمعنى الاعداد للقوة والنصر ، والهجرة بمعنى التكتل والاتحاد فى مواجهة العدو الذى يبغى التقويض ونشر الفرقة . . الهجرة بهذا المعنى باقية

---

(1) الحج : ٣٩ — ٤١

ومستمرة فى البقاء . ولذا يقول الله سبحانه وتعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه[1] » .. إذ الذين يتبعون المهاجرين والأنصار بإحسان هم أولئكم الذين يقتفون أثرهم فيما أعدوا أنفسهم به من سلاح الوحدة وجمع الكلمة ، وفيما أعزوا به دين الله ، وفيما أحرزوه من نصر أيدهم فيه الله .

الهجرة ذكرى الوحدة ، وذكرى القوة ، وذكرى الإيمان ، وذكرى النصر .

---

(١) التوبة : ١٠٠

شهر شعبان

إذا تحدثنا عن الأشهر والأيام والامكنة ، وعن قيمها فى نظر الإسلام ، فحديثنا عنها فى واقع الأمر هو حديث عما ارتبط بها من ذكريات وأحداث ، كانت لها فى تصوير بعض مبادىء الإسلام نفسه . ومن ذلك حديثنا اليوم عن شعبان :

فتروى عائشة رضى الله عنها فى حديث لها تقول فيه : لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يصوم من شهر أكثر من شعبان فإنه كان يصوم شعبان كله . وفى رواية : كان يصوم شعبان إلا قليلا .

فحرص النبى عليه الصلاة والسلام على صوم شعبان أو صوم أكثره — يعطى ما للصوم عامة من أهمية فى حياة الانسان وحياة المجتمع ، ثم ما له من أهمية على على وجه الخصوص فى شهر شعبان . وأهميته على وجه العموم لأنه وسيلة يصفى بها الإنسان نفسه ، وقلبه ، ويهذب بها لسانه وسلوكه ، ثم هو وسيلة من جانب آخر يلقى بها الإنسان أزمات الحياة الخاصة والعامة ، وما أكثرها وما أشدها فى بعض الأحايين .

أما أهمية الصوم فى هذا الشهر بخصوصه فهى أنه تمهيد لأداء واجب الصوم المفروض وهو صوم رمضان . فإذا صام الإنسان بعض أيام هذا الشهر — قلت أو كثرت — فيستشعر بأنه قد أعد نفسه لقبول صوم رمضان ، كما أعدها لأدائه إعداداً فيه رضاء نفسى وعدم مشقة فى الأداء .

* * *

ومما يرتبط بشهر شعبان أيضاً ، وله أثر فى توكيد بعض مبادىء الإسلام ، ما يحدثنا به تاريخ الإسلام عندما اتصل المسلمون بغير المسلمين والتقوا بهم فى بعض المواقع والحروب . فهو يحدثنا أنه فى الأيام الأولى لولاية عمر رضى الله عنه

التقى جيش المسلمين بجيش الفرس فى شعبان ، فى موقع يعرف : «بالنمارق» فى أرض الفرس . وكان على رأس جيش المسلمين أبو عبيد بن مسعود الثقفى . فلما انتصر المسلمون اتضح لأبى عبيد أن قائداً كبيراً من قواد الفرس وقع فى الأسر ، وأمنه أحد المسلمين ، أى وعده بسلامة حياته من القتل . وهنا أشار بعض المسلمين على أبى عبيد بقتل هذا القائد . فكان جواب أبى عبيد : «إنى أخاف الله أن أقتله وقد أمنه رجل مسلم ، والمسلمون كالجسد الواحد مالزم بعضهم فقد لزم كلهم» .

وما صنعه أبو عبيد هنا هو تطبيق عملى لما فعله رسول الله ﷺ من قبل . فيروى فى رواية البخارى عن أم هانىء بنت أبى طالب أنها قالت : «قلت يارسول الله : زعم ابن أمى على [رضى الله عنه] أنه قاتل رجلا قد أجرته [أمنته] فلان بن هبيرة [وتعنى جعدة بن زوجها هبيرة بن وهب المخزومى] فقال رسول الله ﷺ : « **قد اجرنا (امنا) من اجرت يا ام هانىء** » .

فيما وقع من أبى عبيد فى خلافة عمر رضى الله عنه من أنه احترم عهداً لأحد المسلمين أعطاه اليوم لمن وقف منهم بالأمس موقف العدو المحارب اللدود ، وهو تأمين سلامته والإبقاء عليه حياً ، لايؤذى ولا يضار — هذا الذى وقع من أبى عبيد يدلنا دلالة واضحة على أن الروح الإسلامية ، وهى روح العفو والصفح عند المقدرة وعند النصر : كانت سنة المسلمين الذين فهموا إسلامهم واتبعوه فى شئون حياتهم . ثم يدل دلالة أخرى على أن الفرد المسلم فى المجتمع الإسلامى له كيانه وله احترامه ، لايلغيه المجتمع ولا يضحى بإرادته . لأنها إرادة المسلم الذى يشعر فى نفسه بمقومات مجتمعه ، ويحرص على كيانه كما يحرص على وجود نفسه . ولذلك مايلتزمه بعضهم يلتزمه البعض الآخر ، كما قال أبو عبيده نفسه : «والمسلمون كالجسد الواحد مالزم بعضهم فقد لزم كلهم» .

هذه الذكريات التى يرويها تاريخ الإسلام والتى ترتبط بشهر شعبان من شأنها

أن تعيد إلى عقولنا صورة صحيحة سليمة لمبادىء الإسلام ، ومن شأنها أيضاً أن تقوى فى قلوبنا الإيمان به ، كنظام للحياة الإنسانية التى لاعوج ولا انحراف فيها .

واليوم نحاول أن تغزو المسلمين ، تغزو أسماعهم وعقولهم وقلوبهم : اتجاهات يحاول بعضها أن يلغى اعتبار الفرد كلية فى مجتمعه ، ويحاول البعض الآخر منها أن يجعل الفرد كل شىء ، يهون فى سبيل فرديته وأنانيته : المجتمع الذى يعيش فيه .

ولكنه الإسلام كما يبدو من هذا المبدأ وهذا التطبيق له — الذى رويناه الآن ، كإحدى ذكريات شعبان — يوضح لنا مدى احترام الفرد فى مجتمعه ثم مدى حرص الفرد على هذ المجتمع فى نظر الإسلام .

الإسلام يريد فرداً بناء ، متعاوناً ، ويريد مجتمعاً مكوناً من أفراد لهم حريتهم ومشيئتهم ، ولكن يعمر قلوبهم الإيمان بوجود هذا المجتمع وبالمثل التى يسعى إليها . وما يقوله القرآن الكريم : « وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ[1] » .. يريد أمة واحدة فى مقوماتها وأهدافها ، أمة واحدة فى عبادتها رباً واحداً ، أمة واحدة فى تعاونها وتماسكها ، ولكن لأفرادها حريتهم ومشيئتهم ، حرية بعيدة عن الفوضى ، ومشيئة بعيدة عن الهوى والأنانية .

---

(١) الأنبياء : ٩٢

غزوة بدر : « يوم المبادىء »

يقول الله تعـالى ، وقوله الصدق : « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وأنتم أذلة [أى وأنتم ضعاف لقـلة عددكم] فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١) » .. أى اتقوه بطاعتكم لله ولرسوله لتكون طاعتكم هذه عنوانا على شكر الله إزاء نصركم وإعزازكم.

هذه الآية الكريمة تشير إلى واقعة « بدر » وإلى نصر الله للمؤمنين فيهـا ، مع ما كانوا عليه من قلة يومئذ ، وما كان علية عدوهم من كثرة فى العدد وقوة فى الإعداد والعدة . وبدر مكان فى الطريق بين المدينة ومكة التقى المسلمون بالمشركين فى وادى هذا المكان فى صبيحة الثلاثاء اليوم السابع عشر من رمضـان فى السنة الثانية من الهجرة [تقريباً فى منتصف شهر مارس من سنة ستمائة وأربع وعشرين ميلادية] ولم يكد يمضى هذا اليوم حتى كان النصر حليف المؤمنين ، وهم ثلاثمائة عشر رجلا تقريباً ، ضد المشركين المكيين وكان عددهم يتجاوز الألف .

وموقعة بدر هذه هى أول حادث التقى فيــه المسلمون بالمشركين التقاء حرب وجهاً لوجه . وقبلها كان عمل المسلمين وهم بالمدينة ـ رداً عما صنعه المشركون معهم فى مكة ـ وهو تسويق أمر ارتحال المشركين من مكة إلى الشام وبالعكس فى تبادل التجارة ، ذلك التبادل الذى كان قائماً من قديم بين المكيين والشاميين قبل الدعوة الإسلامية .

وقبل هذا اللقاء فى موقعة بدر نما إلى الرسول ﷺ أن أبا سفيـان بن حرب عائد من رحلته إلى الشام فى طريقه إلى مـكة فى أربعين رجلا معهم بعيرهم تحمل ما استقدموه من الشام من سلع ، عوضاً عما صرفوه هناك من محاصيل مكية . فدعا عليه السلام قومه إلى لقاء أبى سفيان ومن معـــه . وهنا يروى ابن أبى حاتم من

---

(١) آل عمران : ١٢٣.

حديث أبى أيوب أنه قال : «قال لنا رسول الله ﷺ ونحن فى المدينة : إنى أخبرت عن عير أبى سفيان [وهى عائدة من الشام] فهل لكم أن تخرجو إليها لعل الله يغنمنا إياها [أى يجعلها لنا غنيمة] ؟ قلنا نعم ؟ فخرجنا [وكان ذلك فى اليوم الثامن من رمضان] . فلما سرنا يوماً أو يومين قال : إنهم علموا خبرنا فاستعدوا القتال ، فقلنا لا ، والله ما لنا طاقة بقتال القوم ، فأعاد قوله : فقال له المقداد بن الأسود [المقداد بن عمرو الكندى من المهاجرين] يا رسول الله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : [اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون] ، ولكن نقول : إنا معكما مقاتلون .. وقال سعد بن معاذ وهو من الأنصار : آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك . فو الذى بعثك بالحق لو اعترضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، وما تخلف منا رجل واحد . وما نكره أن تلقى بنا العدو غداً . وإنا رجال صبر فى الحرب وصدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك . فسر بنا على بركة الله» . فسر ﷺ بقول سعد بن معاذ ، ونشط لذلك ثم قال : أبشروا ، إن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، العير ، أو النفير . والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم . فسار قريباً من بدر . ثم بلغه أن أبا سفيان قد نجا بالعير [إذ حول طريقه تجاه البحر الأحمر] وإن قريشاً [التى استدعاها أبو سفيان إلى نصرته بعد أن علم سراً بما عزم عليه المسلمون من لقائه فى نقرة] أقامت وراء الوادى . وبعد أن نجا أبو سفيان بسبب تغييره اتجاه خط السير العادى أرسل إلى قريش يطلب منهم العودة إلى مكة . فأبى أبو جهل بن هشام ، فأصر معه عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف من زعماء قريش . فكان اللقاء ، وكانت الهزيمة لقريش ، قتل أبو جهل وأعوانه ، وأسر سبعون ، وهرب الباقى . ولما انتهت الحرب أمر ﷺ بدفن القتلى من المسلمين والمشركين على السواء ، كعادته فى الغزوات كلها ،

ثم قتل من الأسرى: النضر بن الحارث، وعقبة بن أبى معيط، لشدة إيذائهما المسلمين فى مكة. ولم يقتل من الأسرى بعدهما أحداً طول حياته.

ويشير القرآن الكريم إلى ما تردد فى صدر بعض المسلمين، من عدم لقاء المشركين فى هذه الوقعة لقاء حرب بقوله: « وإذْ يعدكم الله إحْدَى الطائفتين [إبل أبى سفيان وما حملت من غير قتال، أو النفير وهو كناية عن القتال وما يترتب عليه من نصر مبين لكلمة الحق] : أنَّها لكُمْ وتودُّون أنّ غير ذات الشوكة [وهى الأولى] تكُون لكم، ويريد الله أنْ يحقَّ الحقَّ بكلماته [بقرآنه] ويَقْطع دَابر الكافرين [بهذا اللقاء المواجه]. ليحق الحق ويُبْطِل البَاطل ولَوْ كَرِه المجرِمُون[1] ».

هنا كان القتال لإحقاق الحق وإبطال الباطل، مهما كره صاحب الباطل ومهما أجرم فى سبيله ه وصاحب الحق إذا قوى إيمانه بحقه ــ مهما ضعف عدده، وكان يرى ذليلا من أجل قلته ــ لابد أن ينتصر على الباطل، مهما فجر صاحب الباطل وارتكب فى سبيله أشنع الجرائم.

وهنا — بجانب قوة الإيمان بالحق — ترى أن روح التوثب والاقدام من أجل الحق فى لقاء صاحب الباطل، وهى روح التضحية والفداء تفضل روح المستسلم. فقد رأينا هنا ما عليه الأنصارى والمهاجرى من روح عالية فى الحرص على الحق وتثبيت أقدامه، تلك الروح التى بدت فيما قاله المقداد، وسعد لرسول الله ﷺ عندما طلب الرأى فى قتل أبى سفيان ومن معه فى عودته من الشام.

هنا أيضاً — بجانب قوة الإيمان وروح التضحية والفداء — روح معاملة العدو بالمثل. عوق المشركون بمكة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو بها عن نشر دعوته بكل وسائل الإيذاء والسخرية وحاصروا المسلمين وحالوا بينهم وبين

(١) الأنفال: ٧، ٨

الاتصال بالمكيين فى المعاملة والبيع والشراء ، وعندما هاجروا إلى المدينة صادروا أموالهم فى مكة ومنعوا من لم يستطع الهجرة منهم من أن يأخذ سبيله للقاء إخوانه المؤمنين . فلابد أن يعوق هذا العدو عند القدرة على تعويقه ، حتى يمتنع أذاه إلى النهاية . وهذا كان سبب اللقاء ، وسبب الواقعة فى بدر .

بجانب هذه المبادىء قضى الرسول على بعض الأسرى ، لا انتقـــاماً من أشخاصهم ، ولكن لإيذائهم الذى أصاب المسلمين فى غير شفقة ، وإعلاناً عن عدم الرضا على ارتكاب الجرائم فى سبيل الباطل .

وراء هذا كله ، تلك الإنسانية التى تمثلت فى دفن قتل الأعداء وصيانة جثثهم من التهتك والتبذل .

يوم بدر هو يوم المبادىء ، يوم الحق ، والإيمان به ، والتضحية فى سبيله ، والطاعة لمن يقود معركته ، والنصر لمن يحرص عليه . « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون » .

يوم بـــدر

تذكر موقعة بدر بما كان لها من نتائج فى حياة المسلمين ومستقبل الإنسانية ، وبما كان فيها من مبادىء أدت إلى هذه النتائج ، ثم بتلازم هذه النتــائج لتلك المبادىء فى الحصول والوقوع .

موقعة بدر نقطة فاصلة بين ماض كان للمسلمين ، وهو ماضى الذلة والضعف فى العدد والعدة والثراء والجــاه ، وبين مستقبل هو مستقبل العزة للاسلام والقوة والسيادة للمسلمين . هى نقطة فاصلة بين ظلام وجهل وهمجية وحيوانية فى حقبــة من حقب الإنسانية ، وبين نور وحضارة ومثل رفيعة فى تاريخ البشرية .

واقع موقعة بدر التى تمت فى السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة أنها كانت التقاء بين طرفين : بين طرف ضعيف فى عدده رقيق فى عدته ، يشعر بالظلم وبالاضطهاد ، وفى الوقت نفسه يحمل مشعل نور الإيمان بالله ، ونور الرسالة التى هى هداية للناس جميعاً ، كما يحمل مشعل الحرية ، ومشعل القيم الفاضلة للانسانية ، وبين طرف آخر هو طرف المشركين كان أكثر عدداً أو أقوى عدة وأشد جاهاً ، وفى الوقت نفسه كان يدفع فى طريقه إلى الحياة عن طريق عبــادة الأصنام والشرك فى الألوهية ، والهمجية فى السلوك . وكان نتيجة هذا اللقاء هو أن انتصر الطرف الذليل الضعيف فى عدده وعدته ، القوى فى إيمانه ، والمبشر بهداية الله فى رسالته .

ولم يتقرر لقاء المسلمين الذين تجمعوا يومئذ بالمدينة للمشركين الذين قدموا من مكة يقودهم أبو جهل فى تلك البقعة التاريخية التى تعرف ببدر بالقرب من المدينة إلا بعد أن أفلتت قافلة أبى سفيان التى قدمت من الشام فى طريقها إلى مكة هرباً من اعتراض المسلمين إياها . ولم يقم المسلمون بالمدينة يومئذ باعتراض هذه القافلة

إلا محاولة لتحطيم شوكة هؤلاء القرشيين الذين آذووا المسلمين فى ديارهم بمكة وحلوهم باضطهادهم العنيف المتكرر على الهجرة منها إلى يثرب ، واستذلوا باقى المسلمين الذين لم يتمكنوا من مغادرة مكة . فكان اعتراضاً قصد به دفع اعتداء هؤلاء المشركين إلى الأبد ، كما قصد به تقرير وضع الدعوة الإسلامية . المسلمون هاجروا من مكة بدينهم وفى سبيل الحق ، وأقاموا بالمدينة ـ المهاجرون والأنصار على السواء ـ فى إخوة وتعاون لنصرة هذا الحق . ولم يبد لحظة ما فى سماء الدعوة الإسلامية إذ ذلك أن المشركين من قريش — ألد أعداء الدعوة الإسلامية فى ميلادها — أنهم تخلوا عن عداء المسلمين ، ولا عن ملاحقتهم ، ولا عن اضطهادهم فى وطنهم الأول وفى مأمنهم بيثرب ، وكان واضحاً أنهم لا يزالون يستمرون فى الاستخبار عن أحوال المسلمين بعد هجرتهم انتظاراً لفرصة تواتيهم لا للقض من مضجعهم فحسب ، وإنما لإفنائهم وإفناء دعوتهم معاً .

وتلك سنة الطبيعة ، ومبدأ الحياة : أن الانسان إذا استشعر بعدو يتتبعه وينتظر مقتله ـ لابد أن يعمل على كسر شوكته وإضعاف شأنه وبالأخص إذا كان ذلك الإنسان المعتدى عليه صاحب رسالة فى الحياة هى رسالة الحضارة والمدنية للإنسان ، وهى رسالة الحق وهداية الناس ودفع الباطل وتنحية الظلم والرق والعبودية من المجتمع الإنسانى .

ولقاء المسلمين للمشركين فى بدر كانت تمليه الضرورة ، وهى الضرورة التى تدفع الإنسان إلى حماية وجوده ، وحماية رسالته فى سبيل الحضارة والمدنية والحق . لم يدر بخلد المسلمين يومئذ أن يعترضوا قافلة أبى سفيان ، ويعوقوا وصولها إلى مكة محملة بالتجارة من الشام ـ للنهب وسلب ما على هذه العير من أحمال ، لأنهم أصحاب رسالة الإنسانية والفضيلة . ولم يكن إذن من أهدافهم أن يسعوا فى سبيل تحقيق الشهوة والرغبة وإلا لماذا حملوا أنفسهم مؤونة الخروج من المدينة ، وحمل

بعضهم نفسه عبء إقناع البعض الآخر للقاء المشركين فى هذه الموقعة وهم جميعاً ليسوا على أهبة ولا استعداد لهذا اللقاء؟. لو كان من رسالة المسلمين السلب والنهب لاستطاعوا أن يفعلوا ذلك بمن يجاورونهم فى المدينة. ولو كان من رسالتهم الحرب والاعتداء لذات الاعتداء لما أمنوا جيرانهم فى المدينة، ولما أوفوا بعهودهم التى أعطوها إياهم. ولكنها كانت موقعة أريد بها — كما أشرنا — تحطيم قوى هذا العدو اللدود كى تسير الدعوة فى طريقها، وكى يصل شعاع النور إلى قلوب الناس، دون أن يعترضها معترض ممن يعيش فى الظلام والجهل والهمجية.

وما انتصر المسلمون فى موقعة بدر — وهى الموقعة الأولى بين المسلمين والمشركين مع ضعفهم ومع ذلتهم إلا بإيمانهم القوى برسالتهم وبتوكلهم على الله، وبطاعتهم لرسول الله، وبإيثارهم الحياة الآخرة على الدنيا، وبإصلاح ذات بينهم، وتعاونهم فيما بينهم. وهكذا كان إيمان القلوب برسالة المثل والأهداف العليا، بجانب التعاون والأخوة مضافاً إلى التوكل على الله وطلب المعونة منه فى الشدائد والأزمات ومضافاً أيضاً إلى طاعة القائد، وعدم مجادلته فضلا عن عصيانه: من الأسباب التى حولت الضعف إلى قوة، والظلام إلى نور، والفقر إلى عمران، والبداوة إلى حضارة ومدنية، والعبودية إلى حرية، والظلم إلى عدل، والخوف إلى أمان. وبذلك كان النصر للمؤمنين، وبذلك تحقق وعد الله: «وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [1]».

المبادىء هى كما ذكرنا، والنتائج هى النصر للحق ورسالة الإنسانية والسلام والعدل والإخاء مهما طال أمد الجهاد فى سبيلها، والهزيمة كل الهزيمة للشرك والكفر بالمثل وبالإنسانية مهما طغى أصحابها ومهما تعدد عدوانهم كماً وكيفاً.

غزوة بدر هى الفرقان بين الحق والباطل، وبين ماض ذليل، وحاضر ومستقبل قوى عزيز.

(١) الروم: ٤٧

الأعياد فرصة لتجديد الحياة

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ، لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون . . يفتتح بالتكبير ليلة الفطر إلى الشروع فى صلاة العيد . وفى عيد الأضحى يفتتح التكبير عقب الصبح يوم عرفة وهو اليوم التاسع من ذى الحجة إلى آخر النهار يوم الثالث عشر من ذى الحجة نفسه ، نحو خمسة أيام :

١ — يؤكد بالتكرار : أنه لا أكبر ولا أقوى ولا أكمل فى الوجود سوى : الله .

٢ — يعتمد على الله ، ويحمد له نعماءه ، ويرضى بقضائه .

٣ — ينادى بعلو الله وارتفاعه .

٤ — يؤكد وحدانيته ،ويعلن الإخلاص والانقياد له ،ويصر على ذلك مهما كان من غضب المخالف .

يجهر بذلك فى القول والدعاء ، ويجهر بذلك فى الصلاة فى الخلاء ، ويجهر بذلك فيما يزين به نفسه .

العيد الإسلامى فيه مظهران : المظهر الأول الإعتداد بقيم الجماعة الإسلامية . المظهر الثانى الجهر بالاعتداد بهذه القيم .

سنة المسلمين التى أثرت عن رسول الله ﷺ فى الاحتفال بعيدى الفطر والأضحى — هى أولا : التكبير على هذا النحو :

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله

بكرة وأصيلا ، لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون .

وفترة هذا التكبير تطول وتقصر حسب العيد :

أولا : ففي عيد الفطر يفتتح بالتكبير ليلة الفطر إلى الشروع في صلاة العيد، وفي عيد الأضحى يفتتح التكبير عقب الصبح يوم عرفة ، وهو اليوم التاسع من ذي الحجة إلى آخر النهار يوم الثالث عشر منه ، أي نحو خمسة أيام ..

وثانياً : الجهر والعلانية عند ترديد هذا التكبير ، والجهر والعلانية في صلاة العيد بأن تكون في خلاء ، والجهر والعلانيـة فيما يتزيا به المحتفلون بأن تكون ثيابهم نظيفة ، ويستحب أن تكون جديدة، وفيما يزينون به أنفسهم من طيب .

ترديد : أن الله أكبر وأنه أحد لا شريك له ، وإعلان ذلك في غير خفاء ولا لبس : هو مظهر العيد الإسلامي ، وهو سنة المسلمين في الاحتفاء به .

يأتي العيد ويأتي معه مظهره وسنة المسلمين في استقباله . ويتكرر العيد في العام مرتين ويتكرر الاحتفال به على هذا النحو : نداء بأن الله أكبر ، وأنه وحده لا شريك له ولو كره الكافرون ، وجهر بهذا النداء المتكرر في جوف الليل وفي وضح النهار .

إنه إذن فرصة ليجدد فيها المسلمون شعار الحق بينهم ، وما انفقت عليه قلوبهم من إيمان ، وما قامت من أجله جماعتهم وتميزت به عن أية جماعة أخرى غيرها . والمسلمون كمسلمين لم تتميز حياتهم عن حياة أية جماعة أخرى بالأكل والشرب ولا بألوانهما ، أو بأسلوب تناولهما . ولم تتميز أيضاً بالتقدم أو بالتأخر في الحضارة وفي فنون الصنعة ، وما أشبه ذلك مما يعرض لكل جماعة ويشترك فيه غير واحدة . تميزت حياة المسلمين بالإيمان بالله الواحد ، والاحتفاظ بالوحدة في الشعار والعلاقة بينهم ، تلك الوحدة التي تترجم عنها — كما توحي بها —

عبادات الصلاة والزكاة والصوم والحج . وما تميزت به حياة المسلمين كمسلمين يعبر عنه نداء التكبير فى العيد : الله أكبر ... لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون . وإذن الاحتفال بالعيد هو تأكيد جديد لما تميزت به حياة المسلمين كمسلمين .

وأن أية أمة لا بد أن يكون لها فى سنى حياتها سنة بعد سنة من الأعياد ما تستعيد فيه ذكرى قيامها كأمة ، وما تعيد فيه العهد على الاحتفاظ والمحافظة على الأهداف التى ربطت بين أفرادها ، وكونت منهم أمة تميزت عن غيرها .

***

نحن كمسلمين يجمع بيننا إذن الإيمان بوحدة الله ، ووحدة الشعار ووحدة الهدف والتآخى فى العلاقات ، والانسجام فى الصف عند الصلاة وعند الكفاح ، والاقتداء بإمام واحد فى الصلاة والطاعة لقائد واحد عند كفاح الخصم الأجنبى . ولذلك كانت السنة المأثورة فى الاحتفال بالعيد هى الإعلان والجهر فى وضوح بما اجتمعنا عليه كمسلمين . وكان ذلك هو السنة المأثورة ، لأنه هو الذى يحددنا كجماعة قامت ، وهو الذى يحفظ لنا استمرار حياتنا كجماعة وأمة مسلمة .

إن عيد الفطر يعقب صوم رمضان ، وصوم رمضان فترة صفت فيها نفس الصائم لله الواحد لأنها راقبته وحده فيما قامت به من صيام . فكان عيد الفطر نهاية لهذه الفترة يعلن فيه الصائم فى غير التواء ولاءه لله الأكبر الواحد كما يعلن فى غير التواء كذلك تحديه للخصم المعاند إذ يقول فى ندائه : « مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » .

وإن عيد الأضحى يتبع الوقوف بعرفات ، وعرفات هو المكان الذى يلتقى فيه المسلمون من كل من حدب وجهة فى وقت واحد ، متشابهين فى الملبس والمظهر كما هم متحدون فيما ينطوى عليه القلب من إيمان بالله الواحد . فكان عيد الأضحى

هو نهاية هذا الاجتماع العام الذى يعلن فيه الحاج فى غير التواء ولاءه لله الأكبر الواحد ، كما يعلن فيه فى غير التواء أيضاً تحديه للخصم المعاند .

أيها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها :

احتفالكم بالعيد هو احتفال بمقومات جماعتكم ، هو عهد يعطى لله فى علانية تامة على الاحتفاظ بشخصيتكم . هو تصريح فى اجماع بعدم المبالاة بخصمكم ، هو إعلامه عن ولاء بعضكم لبعض وعدم اتخاذ المخاصمين لكم أولياء من دونكم ، هو إعلان لهذه الآية الكريمة : «لاَ يتخذ المؤْمنونَ الكافرين أولياءَ منْ دون المؤمنينَ ومَنْ يفعلْ ذَلك فليسَ منَ الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم اللهُ نفسهُ وإلى اللهِ المصير[1]» .

إن الإسلام دين وحدة ، ولكنه ليس ديناً لفرد فى غير ما صلة بفرد آخر ؛ إنه دين الإيمان بالله الواحد ، ودين الجماعة التى آمنت بالله الواحد . يعنى بوحدة الله فى الإيمان ، كما يعنى بوحدة الجماعة فى العلاقات ، والصفوف ، والإمامة ، والقيادة .

وأعياد الإسلام لذلك هى أعياد جماعة واحدة ، سنت لتلتقى فيها قلوب الأفراد على وحدة الشعار ، ومن أجل وحدة البقاء .

إن عيدى الفطر والأضحى شرعهما الإسلام لتجديد الحياة كما رسمها الإسلام لمن آمنوا به ، وهى حياة الإخاء والوحدة والقوة فى مواجهة الخصم الله أكبر ، لاشريك له ، مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون : هذا هو مظهر احتفالكم بالعيد .

---

(١) آل عمران : ٢٨

العيد في حياتنا الاجتماعية

حياة الجماعة ليست على نمط حياة الفرد :

حياة الفرد الشخصية لايكثر فيها الشد والجذب ، ولايبدو فيها الاحتكاك بينه وبين نفسه . ومهما توزعت نفس الإنسان ، وترددت بين اتجاهات مختلفة فى الحياة وفى السعى فيها ، فان توزعها أو ترددها لايؤدى إلى حقد الإنسان على نفسه أو إلى العمل على هدم ذاته .

أما حياة الجماعة — لأنها حياة مجموعة من أفراد الناس ربطت بينهم بقعة محدودة بما فيها من إمكانيات العيش ، ووسائل الحياة المختلفة — فشأنها أن تكون مجالا للتنافس . وحياة تقوم على التنافس تثير بين المتنافسين أسباب الخصومة والنزاع ، والاحتكاك والاصطدام . والضعفاء من بين أفراد الناس الذين تتكون منهم الجماعة ، لفقر أو لمرض ، أو لجهل يسلكون فى خصومتهم واحتكاكهم طريق الضعفاء ، وهو طريق الحقد والحسد والدس والإيقاع ، والنفاق والاستخذاء . والأقوياء من بين هؤلاء الأفراد تغريهم قوتهم بمالهم أو صحتهم ؛ أو جاههم ، فلايعطفون على ضعفاء جماعتهم ، بل يسترسلون فى طريق قوتهم ، فى طريق المال وجمعه ، والاعتزاز بالصحة والإغراق فى حب الجاه ومظهره . وبهذا وذلك تتفرق الأرواح والنفوس ، ولا تلتقى نفس بنفس إلا فى سبيل حزبية ، أو لزيادة الفرقة والانفصال .

والدين حقاً قد تكفل برفع هذه الفجوة بين الضعيف والقوى ، فحارب خطوات الضعيف ، وهى خطوات الحاقد الساعى بالإيقاع ، الذى يضمر الشر ولايستطيع أن يعبر عنه ، كما حارب القوى فى غروره وخداعه بقوته ، ونصح

كليهما بأن يمد كل منهما يده للآخر . والضعيف يمد يده للقوى ليبارك له فيما حباه الله من قوة ، والقوى يمد يده للضعيف ليعاونه على حال ضعفه وينقذه من هوانه ومذلته .

الدين تكفل بهذا كله ، ورسالته فى الجماعة هى التعاون بين الناس أو العمل على التقاء الضعيف بالقوى ، والقوى بالضعيف ، فى جو إنسانى تبدو فيه المشاركة الإنسانية فى أوضح مظاهرها ، وفى صورتها الكريمة .

ولكن الدين إذ يتكفل بذلك ، فطبيعه الجماعة من المنافسة ، والفرقة من أجلها فى ميدان الحياة المشترك — إن استقامت فترة من الزمن وخضعت لوصايا الدين فى نصحه للجماعة — قد تعود إلى حالها الفج فى فترة أخرى بحكم ما لهذه الطبيعة من قوة فى ذاتها لاتفنى ، بل تضعف فقط إذا ماتأثرت بوصايا الدين . ولذلك أوصى القرآن الكريم — كعامل لمقاومة عودة هذه الطبيعة إلى حالها الأول — بعد أن استقر الإسلام واكتملت آياته وتعاليمه : باستمرار الدعوة إلى هذه التعاليم فقال : « ولتكنْ منكم أمةٌ يدْعُون إلى الخير ويأمرُون بالمعرُوف وينهوْنَ عن المنكر وأولئك هم المفْلحُون » .

ومعنى أنه يطلب استمرار هذه الدعوة : رغبته فى عدم ترك الجماعة بعد تنبيهها لأول مرة وإيقاظ وعى الدين بها ، خشية أن تعود إلى إلفها وسابق عهدها .

والعهد فى حياة الجماعة يشبه القيام بهذه الدعوة بين فترة وأخرى ، يعود من وقت لآخر فيتكرر كما تتكرر الدعوة ، ويتجلى فى وقته — كأثر له — موقف خاص ، يتخذه الأفراد بعضهم تجاه بعض . هذا الموقف هو وقف الخصومة بين المتخاصمين ، وما خصومتهم إلا خصومة الضعيف للقوى والقوى للضعيف ، ثم إقبال كل من الطرفين على الآخر بوجهه ، بعد أن كان موليا له ظهره . هذا الموقف

من شأنه أن يضعف الخصومة ، أو يؤجل أمرها إلى حين . وذلك كسب للجماعة التي تريد أن تتحد لتقوى .

والرسول عليه الصلاة والسلام حرص فى خطبته يوم عيد الأضحى أن يؤكد حرمات المسلمين فيما بينهم ، أن يؤكد حرمة الدماء والأموال والأعراض حتى لاتنتهك من ضعيف أو قوى ، وحتى لا يستمرىء طرفا الخصومة شهوة اللجاج فيها . فيروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم النحر فقال : « **يايها الناس اى يوم هذا ؟ قالوا : يوم حرام (اى ذو حرمة وتعظيم) قال : فاى بلد هذا ؟ قالوا : بلد حرام ، قال : فاى شهر هذا ؟ قالوا شهر حرام . قال : فان دماءكم واموالكم ، واعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا . فاعادها مراراً ، ثم رفع راسه فقال : اللهم هل (قد) بلغت ، اللهم هل بلغت** » .

ويوم النحر هو اليوم التالى ليوم عرفة وهو المعروف باليوم الأول من أيام عيد الأضحى المبارك: عيد إسلامى . يروى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **يوم عرفة ، ويوم النحر ، وايام التشريق ، عيدنا — اهل الاسلام — وهى ايام اكل وشرب** » .. أى لاينبغى فيها الصوم والامساك عن الأكل والشرب .

وهنا موقف آخر كأثر للعيد فى حياتنا الاجتماعية وهو أن من بين أفراد الجماعة حتماً من لا يكون صاحب شهوة فى الخصومة ، ومن هو ينأى بنفسه عن الاحتكاك والاصطدام، سواء فى صورة احتكاك الضعفاء أو الأقوياء . هؤلاء غلب الخير على طبيعتهم ، ولم يدعوا للشر منفذاً ينفذ منه فى علاقتهم بغيرهم . فإذا أقبل العيد فإقباله عليهم من دواعى زيادتهم فى الخير بالتسامح والتصافى أو البذل والاعطاء . وهذا من غير شك من أسباب حسن التفاهم فى الجماعة ، وحسن التفاهم فيها من عوامل اتحادها وقوتها .

وهذا الموقف وذاك : يشبه أثر الدعوة لتعاليم الدين عندما تتجدد وتثمر . ثم إن العيد الدينى إذا عاد صحب معه ذكريات التعاليم الدينية فهو نفسه تجديد للدعوة وإحياء لوصاياها . ولأن للعيد هذا الأثر فى حياتنا الاجتماعية ، كلما زدنا احتفالا به ، وتقديراً لعودته كلما كان أثره أقوى وأوسع ، وكلما نجح دعاة الدين فى تقوية هيبة الأعياد الدينية فى نفوس الأفراد ، كلما عاد هذا الأثر على المجتمع بالصفاء والإخاء والقوة .

وان مجتمعاً كمجتمعنا تسيطر فيه روح الأنانية ، وتكثر فيه عوامل الفرقة والخصومة ، وينقسم إلى شيع وأحزاب يبغض بعضها بعضاً — فى حاجة ماسة إلى إيقاظ الوعى النفسى بالعيد ، ثم توكيد هذا الوعى وتقويته .

نحن فى أيام الأعياد نرجو أن يقبل بعضنا على بعض ويصافح بعضنا بعضاً ، ونفسح صدورنا لمنات بعضنا ، وننطق بشكر أهل الخير فينا . إن نفعل ذلك نكون قد احتفلنا بالعيد ، ويكون للعيد أثره المبارك فى حياتنا الاجتماعية .

إننا فى حاجة لأن نقوى ، لأنفسنا خاصة . وللجاهنا الذى نستمده من عزة أوطاننا . فأحرى بنا أن نشعر بالعيد ، وشعورنا به أن نمحو خصومتنا فى جماعتنا بالأمس ، وأن نفعل الخير لأهلنا وجيراننا ومواطنينا إن استطعنا .

الروابط الإنسانية فى العيد

إن الاحتفال بعيد أى عيد للجماعة من شأنه أن يوقظ الوعى بالروابط التى بين أفراد هذه الجماعة . إذ لا تحتفل جماعة ما بعيد من أعيادها إلا لذكريات تعيد لها مجدًا أو صورة نصر وقع فى الأيام التى تحتفل بها . وهذا النصر أو هـذا المجد الذى وقع لها فى التاريخ ، إنما وقع بسبب ما بين الأفراد من دوافع مشتركة نحو تحقيق هدف معين . وإذن الأحداث فى تاريخ الجماعة التى من شـأنها أن تذكر بصور أمجادها وانتصاراتها — تمثل أسباب قيام الجماعة ، كما تصور مثلهـا الرفيعة التى تسعى إلى تحقيقها .

وعلى سبيل المثال فى جماعتنا الإسلامية — نرى العيدين : عيد الفطر ، وعيد الأضحى يصوران مجداً ونصراً ، تم لأول مرة فى اليوم الذى يحتفل به كل عام . وهو اليوم الأول من شوال فى عيد الفطر ، واليوم العاشر من ذى الحجة فى عيد الأضحى . فاليوم الأول يمثل النصر بإتمام صوم رمضان . بينما اليوم الثانى يصور سر الأداء لفريضة الحج . وكل من رمضان ، والوقوف بعرفات له شأن يذكر فى تاريخ الجماعة الإسلامية ، ومنزلة بين الفرائض التى فرضت فى تعاليم الإسلام . ففضلا عن أن رمضان هو الشهر الذى أنزل فيه القرآن ، أساس الهداية للمسلمين، ومصدر الروابط المشتركة بين أفراد الجماعة الإسلامية ، وموضع تحقيق مثلهـا وأهدافها — فإنه نفسه يعبر بصومه عن انتصار الإرادة الإنسـانية على الشهوة ، والرغبات التى من شأنها أن تبعد الإنسان عن أن يكون صاحب سيادة على نفسه وعن أن يكون مسهماً فى سيادة مجتمعه .

والوقوف بعرفات — فضلا عن أنه يصور انتصار المسلمين فى اجتماعهم من جميع مشارق الأرض ومغـاربها فى مكان واحد وفى لحظـة واحدة من اليوم

الواحد — فإنه يعبر عن روح المساواة بين المسلمين جميعاً ، سواء فى وقوفهم أمام الله مجيبين دعوته ومطيعين أمره بقولهم : لبيك اللهم لبيك ، أو فى تجردهم من مظاهر الدنيا بحيث لا يعرف فقيرهم من غنيهم ، ولا يعرف وضيعهم من سيدهم ، ولا يعرف مشرقيهم من مغربيهم إلا باللسان واللهجة .

وما تم إذن فى اليوم الأول من شوال من إتمام شهر الصيام ، وفى اليوم العاشر من ذى الحجة من إتمام الوقوف بعرفة — من شأنه أن يعيد للمسلمين صورة ذلك النصر المؤزر ، وهو نصر الإرادة الإنسانية والتلاقى بين أفراد الجماعة الواحدة على الإيمان وحب الله والمساواة .

وكما أن عيدى الفطر والأضحى يصوران هذا النصر للمسلمين — فإن هذا النصر نفسه لم يكن نصراً للجماعة إلا بعد أن قامت روابط هذه الجماعة على أساس من الإيمان بالإسلام وتحقيق أهدافه ومثله العليا . وإذن هنا عيدان يذكران المسلمين بتلك الروابط التى قام عليها مجتمعهم ، كما يذكرانهم بتلك الأهداف التى يسعون إلى تحقيقها . وهى روابط لا تتصل بالدم ولا بعلاقة النسب ، وإنما تتصل بالمثل الفاضلة ، وهى تلك المثل التى تصور مستوى الإنسانية الرفيع . ومن هنا كان الاحتفال بأى عيد منهما هو تذكير بتلك الروابط الإنسانية التى جمعت بين المسلمين فى الأساس والغاية .

* * *

ولأن وضع العيد فى الجماعة هو هذا الوضع ، وهو وضع الموقظ لذكريات تتصل بالعلاقات الإنسانية بين أفرادها — يطلب فى الاحتفال به الإعلان عنه ، تعريفاً به وتذكيراً قوياً لآثاره . وهنا كان من السنة فى احتفال العيدين : الفطر ، والأضحى فى الإسلام ، جملة مظاهر تعبر عن هذا الإعلان . أولا : أن تكون القراءة فى صلاته قراءة جهرية ، وأن يكون اجتماع المسلمين لصلاة العيد فى مكان خلوى ، وأن يكون تكبيرهم فى ذهابهم إلى مكان الصلاة بصوت مسموع . هذا

بجانب مايطلب من المسلمين من لبس جديد ودفع كل ما يؤذى حاسة الشم أو حاسة البصر . على أنه يستحب أيضاً — كطريق لهذا الإعلان — أن يكون الذهاب إلى مكان الاجتماع من طريق ، والرجوع من طريق آخر، فيروى البخارى : « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج يوم العيد فى طريق رجع فى غيره » .

وهذه الصور لإعلان الاحتفال بالعيد ، بدورها ما هى إلا تعبير عن ذلك الشعور النفسى الداخلى بالفرح والسرور . وهو الفرح برباط الأخوة المشتركة . والسرور بالتقاء الأفراد على المثل التى جمعت ووحدت بينهم . ولأن النفس عادة إذا تمكن منها داعى الفرح والسرور تخرج عن جديتها فى الحيـاة ، لذلك نرى الإسلام يتيح ممارسة اللهو غير الضار وغير المفسد فى هـذا اليوم . فيروى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « قدم النبى المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: ماهذان اليومان؟ قالوا : كنا نلعب فيهما فى الجاهلية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ان الله قد ابدلكم بهما خيرا منهما : يوم الاضحى ويوم الفطر** » .

إن الاحتفال بيوم العيـد إذا أيقظ الروابط المشتركة بين أفراد الجماعة التى تحتفل به — فإن فى مقدمة هذه الروابط : الوحدة فى القيم والمبادىء .ووحدة القيم والمبـادىء كما تشجع على قوة الترابط بين الأفراد ، تحمل هؤلاء الأفراد على أن يستمروا فى سبيل هذه الوحدة الخالدة . لأنهم سيذكرون فى الاحتفال بالعيـد أنهم انتصروا من أجل تلك القيم والمبادىء ، وبسبب تمكنهم بها . وهنـا أبرز شىء نستلهمه من ذكرى العيد والاحتفال به هو هذه الوحدة فى القيم ، والأخوة فى الترابط . وعن هذه الوحدة فى القيم ، والأخوة فى الترابط ، تنشأ الصـلات الأخوى ، من عطف القوى على الضعيف، وتودد الجار لجاره ومواساته له فى الضراء ومشاركته له فى فرحه ، ورعاية ذوى القربى واليتامى والمساكين ، والمحافظة على الحرمات من نفس ومال وعرض .

عيد الفطر

الاحتفال بعيد الفطر هو احتفال بجهاد النفس فى القيام بالصوم فى شهر رمضان وبالنجاح فيه . هو احتفال بقوة العزم والتصميم التى تمكن بها الإنسان الصائم من التغلب على نوازع الشهوة والهوى فى نفسه طوال شهر الصوم ، والتى سيتخذ منها عدته فى التغلب كذلك على ما يعترض طريق حياته فى غده : من صعاب وأزمات .

وما أكثر الصعاب والأزمات التى تعترض الطريق فى حياة المؤمن وصاحب القيم والمبادىء . وهى عادة قيم ومبادىء تميز وجود مجتمعه وأمته وعائله . صعاب وأزمات يختبر بها كل مجتمع : إن فى رهبة عدو له ، أو فى قوت يومه بسبب نقص مؤقت فيه ، أو فى ضائقة اقتصادية ، أو فى وباء أو عواصف أو زلازل تودى بحياة الكثيرين من أبنائه .

ويكاد يكون الاختبار بمثل هذه الصعاب والأزمات قانوناً من قوانين الوجود ومن طبيعة المجتمعات الإنسانية لا يتخلف عنه أى مجتمع كما تقول الآية الكريمة :

« ولنبلونكم :

« بشىء من الخوف ،

« والجوع ،

« ونقص من الأموال ، والأنفس والثمرات ،

« وبشر الصابرين » .

ثم تقول الآية الأخرى :

« لتبلون :

« فى أموالكم ،

« وأنفسكم ،

« ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا: أذى كثيراً ،

« وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » ..

فالقرآن ــ وهو كتاب الله لهداية الإنسان ــ يؤكد أن الأزمات المتنوعة وهى أزمات مادية ونفسية تعترض طريق كل أمة ومجتمع فى حياته وفى سبيل تمسكه بالمبادىء والقيم الإنسانية التى من شأنها أن تحقق خيره وتعلى كلمته . وعندما يؤكد القرآن ذلك : لا يرى من علاج للتغلب عليها سوى الصبر .

وطريق الصبر يكمن فى قوة العزم والتصميم . وهى قوة عزم الأفراد وتصميمهم. إذ ليس للأمة أو للمجتمع قوة عزم وتصميم مستقلة عن قوة أفراده ووراءها أو فوقها . وهنا كان صوم رمضان وأثره على الفرد فى تكوين هذه القوة وفى توجيهها نحو تحدى الشدائد الاقتصادية والنفسية معاً .

فليس المطلوب فى صوم رمضان هو إمساك فحسب عن شهوة البطن وشهوة الفرج ، وإمساك كذلك عن لغو الحديث ، وإنما فى الدرجة الأولى : إمساك عن الغضب وتحمل الأذى . والإمساك المطلوب إذن هو إمساك مادى ونفسى معاً مما يهيىء الفرد لمواجهة سليمة لما يعترض طريق حياته كإنسان ، فيما يتصل ببدنه أو بنفسه على السواء ، ويهيئه أيضاً للتماسك والصفاء مع غيره .

وطلب الصوم لكل رمضان يأتى على الإنسان فى حياته : قصد به الاحتفاظ بقوة العزيمة وبالتالى بقوة الصبر والتحمل عنده ، ليكون على درجة من الاستعداد

يقاوم بها في غير تردد: ما يواجه حياته من صعاب طبيعية أو مفتعلة من عدو أو متآمر:

* * *

ومن أجل ذلك كان دعاء العيد هو نشيد « النصر ».. يدعو به المحتفل ربه في نشوة الفرح وفي علانيـة ، شأن المنتصر في ميدان المعركة في طريق عودته إلى مقره .

إنه في دعائه يذكر شعار ما يؤمن به ، وهو :

« الله أكبر . . . لا إله إلا الله وحـده ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا » .

ثم يذكر فضل الله عليه في النصر فيقول :

« لا إله إلا الله وحده ،

« صدق وعده ،

« ونصر عبده ،

« وأعز جنده ،

« وهزم الأحزاب وحده » .

ثم أخيراً يعود في هذا الدعاء فيعلن تأكيد شعار الإيمان مرة أخرى مع الإخلاص في الولاء لله مهما كان اعتراض الأعداء على إيمانه وصدهم له:

« لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ،

« مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » .

وهذا الدعاء وإن أرجع فيه النصر على العدو إلى الله ، فليس معنـاه أن الفرد لا دخل له فيه . وإنما القصد إلى دفع غرور الإنسان بقوته ، وعدم إضعاف صلته بالله والاعتماد عليه في مباشرة أي عمل بعـد الإعداد له ، وقاية له من الزلل أو

الهزيمة بسبب الغرور والافتنان بالقوة المادية وحدها . كما حصل للمسلمين فى موقعة « حنين » . ويقصها القرآن الكريم فى هذه الآيات :

« لقدْ نَصَرَكُم الله فِى مَوَاطِن كثيرة ،

« ويوم حَنين إذْ أعْجَبتكم كثرتُكُم ، فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رَحبت ، ثم وليتم مدْبرين .

« ثم أنزل الله سَكينتَه عَلَى رَسُوله وَعَلى المؤْمنين ، وأنزل جُنوداً لم ترَوها وعذب الذين كفروا وَذَلك جزاء الكافرين » .

وما عالج به القرآن هنا هزيمة المؤمنين فى هذه الموقعة — بعد أن أرام أثر الإعجاب بالقوة المادية وحدها من الفرار وخيبة الأمل التى ضاقت بها صدورهم ورحابهم — حتى عادوا فانتصروا ونال أعداؤهم على أيديهم مالم يكن لهم قبل فى احتماله من عذاب . . هو الرجوع إلى الله والتوكل عليه . فإذا رجع الإنسان إلى الله وتوكل عليه بعد إعداد : هدأت نفسه واشتدت عزيمته وتيقن من نصر الله إياه . وعندئذ سيكون النصر حليفه . لأن الثبات وقوة العزيمة لا يقلان عن قوة الاعداد ، إن لم يتفوقا عليها فى إحراز النصر فى ميدان المعركة ، أو مجال إغراء الدنيا ومتعها .

وما عبرت به الآية هنا فى قول الله : « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها . . » . هو تصوير لرجوع المؤمنين إلى الله وتوكلهم وطلبهم العون منه .

* * *

على أن اجتماع المؤمنين فى مكان واحد لصلاة العيد ، فى مسجد يجمعهم أو فى صحراء تتسع لهم ، هو نفسه عامل قوة وتماسك فى بناء الأمة ، وعامل آخر لتصفية النفوس من شوائب الخلافات الدنيوية . لأن اجتماعهم عندئذ هو فى مواجهة الله

لتعظيمه وتكبيره . فإذا نطقوا مجتمعين بـ : الله أكبر ، فى مسيرتهم إلى العيد أو فى أدائهم لصلاته . وكرروا ذلك عدة مرات فيكون من التناقض فى نفوسهم أن يرفعوا متع هذه الحياة الدنيا الدنيوية التى اختلفوا بسببها قبل الآن إلى مستوى الله وجلاله ومستوى تعظيمه وإكباره ومستوى إعزازهم وإيمانهم به وحده فى دنياهم .

والمؤمنون لم يجتمعوا فى هذه اللحظة كذلك إلا ليحتفلوا بالنصر كأفراد وكجماعة . وذلك مدعاة إلى مزيد من التماسك والقوة ، ثم فى الوقت نفسه إلى مزيد من الصفاء والمحبة والأمل بينهم جميعاً .

فإذا جاء الحج بعد ذلك — وهو المؤتمر السنوى العام للمؤمنين — كان التقاؤهم فيه التقاء الأخ لأخيه الذى لا يحمل حقداً بسبب دنيا ، ولا يتعالى بسبب مال أو جاه وكان التقاؤهم فيه على الإيمان بالله وفى سبيل الله .. على خير أنفسهم وخير أمتهم .

العيد وأيام التشريق

الحج عبادة تتحقق فى الانتقال من مكان إلى مكان، ومن ذكرى فى مكان إلى ذكرى أخرى فى مكان آخر . فإذا ابتدأت هذه العبادات بطواف القدوم حول الكعبة ، وانتقلت منه إلى السعى بين الصفا والمروة ، ثم إلى الوقوف بعرفة يوم التاسع من ذى الحجة ، ثم الإفاضة من عرفة إلى المشعر الحرام وهو المزدلفة يوم العيد أو النحر ، ثم رمى الجمار بمنى أيام التشريق الثلاث بعده : فإنها تنتهى بالكعبة فى مكة مرة ثانية والطواف حولها طواف الوداع .

والحج — كعبادة — يهدف إلى صفاء النفوس وتزكيتها . يهدف إلى تهيئة جو قدسى تتصل فيه النفوس بجلال الله سبحانه وتعالى وتعلن فيه راضية مرضية : « لبيك اللهم لبيك » مستجيبة لأمره ومطيعة فى سلوكها إلى هدايته . تخلى فى هذا الجو بينها وبين فتنة الدنيا ومالها من زينة ومظاهر ، وتخلص فيه لله وحده .

وبجانب أنه عبادة ارتبطت بأمكنة معينة — هو يعيد للنفوس ذكريات : هذه الذكريات تتصل برسالة دين الله وتتصل كذلك بوضع المجتمع الإسلامى الذى قام على هذه الرسالة فى صورتها النقية الخالصة .

فما يتصل منه بدين الله أنه يسهم بقسط واضح فى إخلاص العبادة لله وحده وإبعادها عن الشرك ، كما يسهم فى تنقية الصورة التى كانت له نفسه فى دين الله ، من الشوائب التى خالطته منذ عهد إبراهيم عليه السلام إلى دعوة الرسول محمد ﷺ : « وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَلَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ، وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ. وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ، وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ »(١) .

وما يتصل منه بوضع المجتمع الإسلامى — فإن مايقع فيه من نقلة من مكان

(١) الحج : ٢٦ ، ٢٧ .

إلى مكان : يعيد للمسلمين ما حدث فى تاريخ تكوين مجتمعهم من أحداث تمت فى العيد وأيام التشريق بالذات ، فى السنتين التاسعة والعاشرة من الهجرة .

وهى أحداث تصور ماتم فى تصفية المؤمنين لموقفهم من المشركين مما وقع فى السنة التاسعة من الهجرة على نحو مانشير إليه سورة التوبة فى آياتها فى مثل قوله تعالى : «وأذانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إلى الناسِ يَوْمَ الحجِ الأكبرِ أن اللهَ بَرِيءٌ مِنَ المشركين وَرَسُولُه، فإن تبتم فهوَ خيرٌ لَكُم وَإن تَوليتُم فاعلَمُوا أنكم غير مُعْجِزِي الله وبشر الذينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أليم . إلا الذينَ عَاهَدتُم مِنَ المشركين ثم لمْ ينقصُوكم شَيئًا ولم يظَاهِرُوا عَلَيكم أحَداً فأتموا إليهم عَهدهم إلى مدَّتهم ، إن الله يحبُّ المتقين . فإذا انسَلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حَيْث وجدتُموهم وخُذُوهم واحصرُوهم واقعدُوا لهمْ كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم . وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لايعلمون(١) » .

ففى هذه السنة التاسعة من الهجرة ، فى يوم النحر وعند جمرة العقبة بمنى جاء على رضى الله عنه موفداً برسالة من رسول الله ﷺ إلى أبى بكر رضى الله عنه ، وكان أبو بكر أميراً على المسلمين فى حج هذا العام . وتلا علىّ هذه الرسالة على الناس جميعاً، وكان فيهم المؤمن والمشرك، قائلا : إنى رسول رسول الله إليكم جميعاً . فقالوا : بماذا ؟ فقرأ عليهم أوائل سورة التوبة. ثم قال : أمرت بتبليغ أربع : لايدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان — أى من المشركين — له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته .

وبهذا التبليغ حدد علىّ الوضع بين المسلمين والمشركين ، وأعان فى صراحة واضحة تخلص المجتمع الإسلامى فى عبادته وفى مبادئه من بقية القيود والالتزامات

---

(١) التوبة : ٣ — ٦ .

التى قبلها المسلمون يوم أن كانوا لم يستكملوا كل الإمكانيات الأدبية والمادية التى ترجح كفتهم فى النضال .

ومن هذه الالتزامات مشاركة هؤلاء الأعداء لهم فى أداء الحج فى وقته، بالصورة التى ألفوها والتى تخالف فى بعض جوانبها ما كان عليه الحج على عهد إبراهيم عليه السلام .

ولم يكن بد للمجتمع الإسلامى أن يتخلص من هذه القيود والالتزامات طالما قد تمكن من التفوق ، وطالما يرى إصرار عدوه على التربص والغدر به ، وطالما يراه لا يرقب عهداً ولا ذمة فى عضو من أعضائه ، وطالما يراه مسترسلا فى غيه ومسترسلا فى همجيته : « كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاًّ ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون (١) » .

وفى العيد وفى أيام التشريق أيضاً ولكن فى سنة تالية بعد هذه السنة ، فى السنة العاشرة من الهجرة ، وهى السنة التى ترأس فيها الرسول ﷺ الحجاج ولم يكونوا جميعاً إلا مسلمين ـ وقع من الأحداث ما يعيد لحجاج بيت الله الحرام بعد ذلك إلى يومنا هذا، وبعد يومنا هذا: ذكرى يجب أن يقفوا عندها طويلا ويجب أن تظل الدافع الذى يحدد موقف بعضهم من بعض ، كما يجب أن يظل الحادث السابق عليه دفعاً لمواقفهم من أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر ولا يرعون فيهم عهداً ولا ذمة .

هذا الحادث هو ذلك النداء من الرسول الذى وجهه للمؤمنين فى حجة الوداع يقول فيه : « **يايها الناس : انما المؤمنون اخوة ، ولا يحل لامرىء مال اخيه الا عن طيب نفس ، فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض وانى تركت فيكم ما ان اخذتم به لم تضلوا بعدى ... كتاب الله** » .

هاتان حادثتان فى تاريخ إسلامكم وقعتا فى العيد وأيام التشريق . إحداهما تذكر بما يجب أن تكون عليه سيادتكم نحو عدوكم . والأخرى تذكركم بما يجب أن تكونوا عليه فى داخل أمركم وتوجيهكم فى الحياة . وكلتاهما ترسم طريق القوة فى الخارج والداخل على السواء لمجتمع يريد أن يبقى قوياً . . .

(١) التوبة : ٨ .

الفصل الثامن

- طريق المستقبل
- الايمان والمعرفة
- النصر
- الصبر والتحمل
- القوة غاية مطلوبة فى الاسلام
- مواقف ومثل

الايمان والمعرفة

أيها الشباب :

إن أول حجر تبنى عليه مستقبلك هو الإيمان . والإيمان متعدد الجوانب : الإيمان بنفسك : على أن فيك استعدادات لو نميتها كنت ذا قوة وذا سيادة . فيك استعداد التفكير ، وفيك استعداد الإرادة ، وفيك استعداد الوجدان . ولو نميت تفكيرك بالمعرفة الصحيحة لكنت ذا تدبير سليم فى أمر نفسك وكشف طريقك. ولو نميت إرادتك لكنت ذا عزم وتصميم فى مواجهة أزماتك أو فى تحمل المشاق فى سبيل وجودك . ولو نميت وجدانك لكنت صاحب ذوق فى أمر نفسك وصاحب أدب فى عشرتك لغيرك ، وصاحب عون للضعيف معك فى أسرتك ومجتمعك .

والإيمان بمجتمعك : على أنك عضو فيه ، وهو متكفل برعايتك . والإيمان بمجتمعك على هذا النحو يطلب منك أن تتعلم كيف تحد من أنانيتك ، يطلب منك أن تتعلم كيف تنظر إلى غيرك على أنه شريك لك ، يطلب منك أن تتعلم كيف توجه طاقة الحماس وقوة الشباب فى سبيل الخير والعون لمجتمعك .

والإيمان بالوطن : على أنه الدار التى تسكنها ، وأنه الأهل الذين تعيش بينهم ، وأنه الحمى الذى تحتمى به من أحداث الزمن ، وأنه الذى تتقى به اعتداء الغير . فإذا نميت إيمانك بوطنك على هذا النحو وجدت من الوطن عوناً لك أى عون فى تأمين مستقبلك وضمان أمنك وسلامتك .

والإيمان بالله : على أن تعاليمه هى التى ترشدك : كيف تؤمن بنفسك ، وبمجتمعك ، وبوطنك ، وكيف تنمى هذا الإيمان فيك ، فتصبح إنساناً فى سيادتك فى هذه الحياة

لا تشذ به أنانيته عن طريق القوة التى يملك بها أمر نفسه فى شأن التعاون فى سبيل الخير مع نفسه .

وبجانب الإيمان – وهو حجر الأساس كما ذكرنا – تأتى المعرفة . والمعرفة التى تؤهلك لفهم نفسك ، وفهم الصلة بغيرك ، والتى تعينك على كشف الكون الذى تعيش فيه .

وعن طريق هذين الأمرين تدفع الحياة على هدى وبصيرة . لك من الإيمان قوة الدفع ، ولك فى المعرفة سبيل الكشف والهداية .

أيها الشاب :

إنك فى بداية الطريق فى الحياة ، وإنك فى بداية أمرك فى تحمل المسؤولية . فإن لم تستعن بالإيمان والمعرفة منذ بداية طريقك فى الحياة فسيضعف أمرك وستتخبط فى سيرك . أعددت للقيادة والرعاية فاعمل على أن تكون قائداً أو راعياً :

« وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .. ولا تكون قيادة بدون إيمان ومعرفة .

النصـــــر

أيها الشباب :

كان لكم بالأمس القريب موقف من عدو جاء يغزو بلادكم بما له من قوة مادية متعددة الجوانب . وهو موقف تجلى فيه حماس شبابكم ، وتجلت فيه بطولتكم وتجلى فيه إيمانكم بوطنكم ، وتجلت فيه التضحية ، بما لكم من شباب وقوة فى سبيل هذا الوطن . وكان لموقفكم هذا أثر فى رد العدو على أعقابه ، يحمل خيبة الأمل وحكم التاريخ المشين . وهو حكم يصور وحشية المعتدى ، وتآمره فى خبث طوية على اغتصاب حرية الشعوب والاستخفاف بالقيم الإنسانية .

وإذا رجعتم لأنفسكم اليوم وحللتم عناصر هذا الموقف وجدتم أنكم آمنتم بوطنكم وبمجتمعكم ، وبما له من غايات وأهداف ، ثم كانت نهاية موقفكم هذا : أنكم انتصرتم وفزتم بوطنكم وبصيانة أهداف مجتمعكم . وإذن لابد أن تتخذوا من هذه الأحداث عبرة ، تجدونها دوماً ظاهرة مكررة فى التاريخ وهى : أن الإيمان بالمبادىء يضمن أخيراً النصر للمؤمنين بها ، مهما كثرت الأزمات واشتد ظلام الحوادث .

الايمان بالمبادىء سبيل النصر :

والحياة الإنسانية تتكرر مظاهرها ولكنها تتشابه . لأنها تعود إلى سنن ومبادىء لا تتخلف فى حياة جيل عنها فى حياة جيل آخر من أجيال البشرية . ومن هنا — لكى تنجحوا — أيها الشباب فى حياتكم المقبلة ، وأنتم لبنات هذا المجتمع الحديث الذى يقوم اليوم فى وطننا العزيز — يجب عليكم أن تدركوا واضحاً : أن النصر لايكون إلا للمؤمن ، وإن نصر المؤمن بالمبادىء والمثل أبدى خالد . وعليكم أن تضيفوا إلى قوة شبابكم وحرارة نفوسكم : الإيمان بالله والمثل لغايات مجتمعكم ،

وأن تدربوا أنفسكم على التضحية فى سبيل هذه المبادىء والغايات ، حتى تضمنوا النجاح والظفر بالنصر يوم تلتقى بكم الحوادث أو تلتقون أنتم بالأزمات .

وكما أن النصر الخالد الذى يكفله الإيمان بالمبادىء هو من سنن الحيـــــاة الإنسانية — كذلك الأزمات ، وكذلك لقاء الأحداث ، وكذلك التربص من قبل العدو : من سنن الحياة البشرية أيضاً .

وهنا لكى تعيشوا آمنين مطمئنين — يجب أن تؤمنوا بالمبـادىء والمثل وحدها التى يبتغيها مجتمعكم ويهدف إلى تحقيقها .

الصبر والتحمل

أيها الشباب :

أمامكم حيـاة طويلة . وما مضى من حياتكم فمسؤوليته كانت على أبويكم وإهليكم ، وما تستقبلون من حياة اليوم عليكم عبء المشاركة فيها . وما يكون لكم من حياة غداً وبعد غد أنتم وحدكم ستتحملون مسئوليتها وتستقلون بأمرها .

وحياتكم اليوم وغداً ليست حياة سهلة ميسرة فى كل نواحيها . فيها الصعاب وفيها العقبات . وهذه الصعاب والعقبات لا تمحاها المعرفة التى تحصلونها فى المدرسة ، ولا تزيلها تجارب الطفولة الماضية . وإنما بجانب المعرفة تحتاجون إلى صبر وتحمل فى تخطيها .

وهوى النفس ونزوعها إلى الانطلاق ورغبتها فى عدم التقيد بما فى المجتمع من عرف وعادة وقانون — من أشق الصعاب وأشد العقبات التى يجب على الشباب أن يجتازها ، حتى يستطيع أن يشارك فى مسئولية حياته اليوم ، ويقوم بها وحده فى حياته فى الغد .

ولكى تجتاز — أيها الشباب — هوى النفس ونزوعها إلى الانطلاق يجب أن تتحمل ترويض النفس على الطاعة لما فى مجتمعك من عرف وقانون ، كما يجب أن تتعود الصبر إذا ما فاتتك رغبة أو أخفقت فى تحصيل ما ترجو وتطلب الآن .

أيها الشباب :

الحياة الإنسانية ، وحياة الإنسان فى المجتمع ليس طريقها دائماً معبداً وسهلاً ، وليس ذا استواء واحد . وإنما هو كالطبيعه : يرتفع وينخفض . وإذا ارتفع شق صعوده . وإذا انخفض احتاج الأمر إلى يقظة فى النزول . وفى كل إذا لم يكن

الإنسان ذا صبر وتحمل لايستطيع أن يبلغ قمة الطريق الصاعد . كما لايستطيع أن يتجنب الزلل فى الطريق النازل .

حياة الإنسان فيها الصحة والمرض ، وفيها اليسر والعسر فى العيش ، وفيها سرور النفس وانقباضها ، وفيها الاستقرار والقلق . وحياة الإنسان فى المجتمع فيها الفوز والإخفاق ، وفيها الشعور بالنصر اليوم والشعور بخيبة الأمل غداً . فإن لم يصبر الشباب على عسره اليوم ليستقبل اليسر غداً ، وإذا لم يتحمل خيبة الأمل اليوم ليترقب النصر غداً . فالتشاؤم سيكون نتيجة عدم الصبر والتحمل فى الحياة . والتشاؤم فى الحياة أمارة الفشل أو أمارة عدم صلاحية الإنسان للحياة الإنسانية .

صبر الشباب ضرورة فى تخطى عقبات الحياة ، وضرورة أخرى للصلاحية للبقاء والسيادة فيها .

من توجيهات الاسلام للشباب

القوة غاية مطلوبة فى الاسلام :

يروى عن أبى أمامة الباهلى أن رسول الله ﷺ قال : **« توشك ان تداعى الأمم عليكم ، كما تداعى الأكلة على قصعتها ، قال قائل : امن قلة نحن ؟ قال : لا ، بل انتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله المهابة لكم من قلوب اعدائكم »** .

الشباب بين مرحلتين :

تجتازون اليوم بشبابكم مرحلة وسطى بين طفولتكم السابقة وبين اكتمالكم ورشدكم المنتظر . يومكم اليوم يقع بين يوم يجب أن يمضى إلى سبيله وآخر يجب أن تصلوا إليه إذا كنتم حريصين على أن تبلغوا مبلغ الإنسان الكامل . أما اليوم الذى يجب أن يمضى فهو ذلك اليوم الذى كان ينظر إليكم فيه على أنكم صغار ، لا تحملون مسئولية ، ولا ترون فى الحياة إلا أنفسكم وما تشتهون . وأما اليوم الذى يجب أن تبلغوه فهو اليوم الذى ينظر إليكم فيه على أنكم قد اكتملتم فى أنفسكم ، وفى أخلاقكم وفى تفكيركم ، وفى يقظتكم للحياة . هو اليوم الذى تحملون فيه مسئولية عملكم ، وتشقون فيه وحدكم طريقكم فى الحياة على أمل النجاح فيه .

شبابكم هو الحلقة الوسطى فى حياتكم الإنسانية . وفيه يتقرر مصيركم ويتحدد اتجاهكم من قوة وضعف ، ونجاح فى الحياة أو هزيمة فيها .

فيكم اندفاع الشباب ولكن يجب أن يتحول إلى قوة فى الكفاح . والكفاح أيها الشباب — لا يكون إلا إذا كانت هنك غاية ، يتطلب تحقيقها الجد فى السعى ، والصبر فى العمل من أجلها . لا يكون مكافحاً من استمرأ الكسل ،

وساعد الجهل على أن يسيطر عليه ، أو المرض على أن يقضى عليه ، أو الهوى على أن يتحكم فيه . إنما المكافح من استغل فراغه فيما يجدى على صحة بدنه وسلامة عقله وتوجيهه . المكافح من تعب ليحصل المعرفة ، وغالب شهوة نفسه فى أن تصيبه بمرض مهلك أو تنحرف به فى طريقه إلى النجاح .

مرحلتكم أيها الشباب التى تعيشون فيها هى مرحلة المكافح ليصعد فى الحياة بدلا من أن يسقط فيها . وطريق الصعود واضح ، وطريق السقوط واضح أيضاً . من عمل منكم على أن يقود نفسه ليتغلب على الصعاب — وهى كثيرة فى طريقه ، وأخصها صعاب جموح الشباب فيه — فقد ملك طريق الصعود . ومن هو ممتع فى ميول نفسه ، وارتبط بحيوانيته ، وترك مجال فكره كإنسان فقد سقط فى حياته ورضى لنفسه أن يكون تابعاً ، ولغيره أن يكون ذا نفوذ عليه .

قوة الخلق اولا :

وأخص ما يدعوكم إليه الإسلام — أيها الشباب — أن تكونوا أقوياء فى فى أخلاقكم فتترفعوا عما عليه الأطفال من الأثرة والأنانية ، وتتغلبوا على ما يخامركم فى هذه الفترة ويحاول أن يسيطر عليكم من هوى النفس وسلطانه . ويدعوكم إلى أن تكونوا أقوياء فى معارفكم ، وأصحاء فى عقولكم بالجد فى تحصيل ماتدرسون وبالمنافسة الشريفة فى التميز بصفات العقلاء ، والعلماء ، والمقلدين وأصحاب الملكات الفنية المختلفة .

الإسلام فى هذا الحديث الشريف لايقيم وزناً بالكثرة العددية المسلمين وهم ضعفاء تلحقهم المهانة من هنا وهناك ، ولذا يدعوهم إلى أن يكونوا أقوياء فى إرادتهم وإيمانهم ، ومعارفهم وعقولهم ، وفهمهم للحياة وسيطرتهم عليها .

أشفق عليهم الرسول ﷺ أن يكونو بين الأمم ضعفاء عديمى القيمة والجدوى كالغثاء الذى تحمله السيل فى ضعفه وتفاهته .

وليست القوة كلمة تقال، أو نداء يرسل فيلبى بالألسنة والشفاه . إنما القوة عمل وتدريب على العمل ، إنما القوة سعى مضن وجهاد يشق على النفس أول الأمر . ولهذا شرع الإسلام من ألوان العبادات مايساعد الإنسان على أن يكون فى كفاحه قويا ، وفى سعيه إلى هدفه قويا حتى ينجح .

وفى مقدمة هذه العبادات : الصوم . إنه امتحان لإرادة الإنسان ، وعلى وجه أخص امتحان لإرادة الشباب . لأن الشباب سيدخله مكلفاً وملزماً به من قبل الله تعالى لأول مرة فى مرحلته هذه ، عند البلوغ الجنسى .

والشباب الذى ينتصر فى أداء هذه العبادة قد اطمئن على أن له إرادة . ومن له إرادة كان قويا ، ومن كان قويا كان بناءاً لا هداماً ، لنفسه ولأمته ووطنه .

أيها الشباب: يقول الله تعالى: « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها »[1] ويقول : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين[2] » .

(١) فصلت : ٤٦ . (٢) العنكبوت : ٦ .

مواقف ومثل

أيها الشباب :

أنتم أيها الشباب بين فترة مضت ، هى فترة الطفولة ، وأخرى آتية لاشك فيها وهى فترة الرجولة . والرجولة قوة ومروءة واكتمال .

ومن هنا تسمون نحو القوة، ونحو النخوة ، وتؤمنون بما هوقوى ،وتضحون فى يسر بأعز ما تملكون فى سبيل ما تؤمنون به .

ورغبتكم فى الرشد ، وفى اكتمال الإنسانية قد تدفعكم إلى تمثيل دور البطولة أو إلى الميل إلى قراءة تاريخ الأبطال والعظماء . وليس أهون على الشباب من تقديم المثل الأعلى للتضحية فدية لإيمانه ، ولما يعتقد. وتاريخ الإسلام ملىء بالنماذج البشرية للشباب . هذه النماذج التى ضحت فى سبيل الإيمان به بأعظم ماتملك وبأعز ما تحرص عليه . فهاكم ذا : سعدبن أبى وقاص ضحى بعاطفة الأمومة وعلاقة أقرب الناس إليه وأبرهم به عندما تعارضت هذه العاطفة مع عقيدته التى خالطت روحه ، واحتلت أسمى مكان فى قلبه ، وهو بعد لم يبلغ العشرين من عمره . استمع إلية يحدثك عما حدث بينه وبين أمه أول إسلامه :

قال سعد : « لما أسلمت ـ وكنت رجلاً باراً بأمى ـ قالت : ياسعد ! ماهذا الدين الذى أحدثت ؟ لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بى ! فقلت : لا تفعلى يا أمى ! فإنى لا أدع دينى . ومكثتْ يوماً وليلة لاتأكل ولا تشرب ، فأصبحت وقد جهدت . فقلتُ : والله لو كان لك ألف نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت هذا الدين بشىء . فلما رأت ذلك أكلت وشربت .

---

(١) لقمان :

فأنزل الله سبحانه وتعالى : « وإنْ جاهداكَ [أي الوالدان] على أنْ تشركَ بي ما ليسَ لكَ بهِ علم ، فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفاً[1] » .

وهكذا لم يهز سعد بن أبي وقاص في إيمانه تسلط والدته وضغطها عليه وتهديدها إياه بالانقطاع عن الأكل والشرب . ومع ذلك حافظ على حرمتها كوالدة وصاحبها في الدنيا معروفا . وامتثل بذلك لما أمر به الله في هذه الحال بقوله « فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً » .. أي لا تمتثل للوالدين إذا حاولا حملك على الشرك والاعتقاد بالوثنية أي إذا حاولا إضلالك وإفساد أمر عقيدتك ، ولكن مع ذلك صاحبهما في الدنيا معروفاً ولا تقل لهما أف .

ومن قبل سعد بن أبي وقاص كان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . فقد عرض نفسه لفتك المشركين به ليلة الهجرة من مكة إلى المدينة ، واستهدف لخطرهم ليفدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، إذ بات في فراش الرسول هذه الليلة مع علمه بأنهم قد بيتوا قتله في هذه الليلة على أثر اجتماعهم في يوم سابق وتدبيرهم أمر هذا القتل وتوقيته بهذا الوقت . وقد قال رضي الله عنه عن نفسه : والله ما أبالي ، أسقطت على الموت أم سقط الموت عليّ . شاب يعلم هذا الخطر ، ويعلم تصميم الأعداء على اقترافه ومع ذلك يتقدم إلى الموت ويقدم نفسه قرباناً في سبيل إيمانه بالحق وبصاحب الدعوة إليه — هو نموذج ومثل للمؤمن القوي . ولذلك يقول رسول الله ﷺ إشادة بقوة الإيمان : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .

أيها الشباب :

اجعلوا سعيكم نحو القوة إلى قوة الحق والإيمان به . واجعلوا ميلكم إلى

التضحية والفداء فى سبيل هذا الحق وفى سبيل الداعى إليه . ولا تردكم عن اتباع هذا الحق ومؤازرة صاحبه عاطفة أب وأم أو عاطفة صديق وزميل ، إنها الحياة مرة واحدة . فأولى أن تكون فى نصرة الحق ونصرة قائده . وأنتم الذين تضربون المثل فى التضحية عن يسر ورضا ...

الباب الرابع

الاسلام رسالة عالمية

أولا ـ مع المجتمع العربى

ثانيا ـ عالمية الاسلام

الفصل الأول

- الكفاح فى تاريخ الشعب العربى
- أواصر القربى فى الشعب العربى
- الأمانى القومية
- واجب الشعب العربى فى حاضره
- نحو مجتمع عربى افضل
- الوحدة ثمرة الفكر المشترك
- تمسكنا بالمبادىء يكفل انتصارنا

الكفاح فى تاريخ الشعب العربى

فرق الاستعمار بين أبناء الشعب العربى ، وجعلهم شعوباً وقبائل ، وجعل رقعتهم التى يعيشون فوقها أوطاناً مختلفة ، وجعل بين هذه الأوطان حدوداً وفواصل وأمعن فى الفصل بينها حتى كاد يصبح لكل مجموعة من أبناء العروبة هدف وأمانى وخطة لتنفيذ هذا الهدف وتلك الأمانى ، يغاير ما لدى المجموعة الأخرى من هدف وأمانى ، وكذلك ما لديها من خطة ووسيلة .

وحاول الاستعمار أن ينسى الشعب تاريخه الماضى حتى إذا ما نسيه استطاع أن يذله ، وسهل عليه أن يقوده إلى ما يريد . والاستعمار لا يريد من هذا الشعب العربى صاحب التاريخ المجيد إلا أن يقدم له ما عنده من ثروة بشرية واقتصادية ، وما له من موقع ممتاز على وجه الأرض قاطبة .

إن لهذه الرقعة التى يعيش عليها الشعب العربى أو ما يسميه الاستعمار — مجموعة الشعوب العربية — لها مكانتها فى تاريخ هذا الشعب وفى تاريخ الحضارة الإنسانية كلها .

فلمكة والمدينة منزلتهما فى الدعوة إلى الاسلام . فإن كانت الدعوة قد انبثقت من الأولى ، فقد شدت الثانية أزره وناصرته . والإسلام هو تلك الدعوة التى حولت نظر الناس إلى أن يكونوا أسياداً على أنفسهم وبينهم وبين بعضهم بعضاً . هو تلك الدعوة التى وجهتهم فى الخضوع والإذعان إلى قوة غير بشرية ، إلى قوة الخالق وحده سبحانه وتعالى . وبهذا كانت دعوة تحريرية من شهوة الإنسان على نفسه ، ومن سيطرة إنسان على إنسان .

ولدمشق منزلتها فى استقرار نظام الإسلام لدولة تظل برعايتها ألواناً من الناس مختلفى الأصل والثقافة والعقيدة لها منزلتها فى إشهاد التاريخ البشرى على أن الإسلام

والعرب قد كان لهما إمكانيات التوجيه السياسى وتطبيق المبادىء العليا فى نظام الحكم ما أتاح لكل فرد أن ينمى خصائصه ويتمتع بمجهوده الفردى فى صلات أخوية إنسانية مع غيره سواء فى العقيدة أو فى المنزع والمشرب .

ولبغداد منزلتها فى حفظ تراث الحضارة الإنسانية العلمية والفكرية كذلك وفى تنميتها مما كان له أثره الواضح فى تلك الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة فأوربا حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى كانت لا تعرف عن ذلك التراث شيئاً . وبفضل بغداد على هذا التراث عرف الغرب حضارة العرب وحضارة الإنسانية القديمة ولم يخط هذا الغرب خطوة فى سبيل التقدم الحضارى والفكرى إلا بعد أن لقح ذهنه بذلك الفكر العربى، ولم يتم الإصلاح الدينى فى أوربا إلا بعد الوقوف على تعاليم الإسلام .

وللقاهرة منزلتها فى دفع أول غزو غربى استعمارى ، هو الغزو الصليبى لرقعة ما يسمى بالشرق الأدنى الآن ، وهى رقعة الشعب العربى . ولصلاح الدين الأيوبى مكانته التاريخية فى دفع هذا الغزو الذى تكرر غير مرة، وبذلك أنقذ الإنسانية من جهالة القرون الوسطى التى سادت أوربا ، وأنقذ الإنسانية مرة أخرى من سيطرة الوحشية البربرية الغازية على مقدسات الإنسانية فى هذه المنطقة .

ولفلسطين منزلتها الروحية فى نفوس المؤمنين جميعاً من البشر ، لها مكانتها فى تاريخ الإنسانية الفاضلة بما فيها من ذكريات الرسالة الإلهية .

وهكذا لكل بقعة فى أرض الشعب العربى أثره الفاصل ، أثره القوى على الإنسانية فى هدايتها إلى الحق ، وفى إرشادها إلى قيمة الفكر ، وفى تعريفها بتاريخ هذه الإنسانية نفسه .

هذا هو تاريخ الشعب العربى ، هو تاريخ شعب واحد ، يحمل مشعلا واحداً ، يحمل مشعل الهداية والفكر الإنسانى السليم ، وله رسالة واحدة ، هى رسالة الأخوة بين بعضهم بعضاً ، ورسالة المودة بينهم وبين غيرهم . إذ طالما كان الشعب فى تاريخه

الماضى حاملا لمشعل الهداية الإلهية وللفكر الانسانى السليم — فلم تكن له رسالة إلا رسالة الاعتصام بالحق والدفاع عنه . والاعتصام والدفاع عنه لايتم إلا حيث كانت الأخوة الصافية والودة الإنسانية قد تمكنت من نفوس المعتصمين المدافعين.

إن تاريخ الشعب العربى قد حدد شخصية هذا الشعب فأسند إليه رسالة هى رسالة النور والهداية ، وقد مجد دوره فى الكفاح من أجل هذه الرسالة . والغزوات فى جزيرة العرب ، والمعارك بعد هذه الغزوات فى أشهر مدن الشعب العربى من بغداد .. إلى طنجة : ترشد إلى قيمة هذا الكفاح وبطولة المكافحين .

إن رسالة النور والهداية هى رسالة الحرية الإنسانية ، هى رسالة تحرير الإنسان من الرق والسيطرة الفردية أو الجماعية . كان للعرب رسالة ، وكان كفاح . ولم تكن لهم رسالة ولم يستطيعوا أن يكونوا مكافحين إلا يوم أن اجتمعت كلمتهم بعد أن فرقتهم الشهوات : وتلك آية من آيات الله يتحدث بها إليهم : « واعتصمُوا بحبل الله جَميعاً ولا تفرقُوا واذكرُوا نعمَةَ الله عَليكم إذ كنتم أعداء فألفَ بين قُلوبكم فأصبَحتم بنعْمته إخواناً » (١) .

هذا هو تاريخ القومية العربية ، وماضى العروبة هو دليلها فى حاضرها . ولذا لاتتخلى عن رسالتها، ولا عن كفاحها . ونعتقد كما اعتقد الأسلاف من قبل أن هذه الرسالة لن تؤدى إلا بالتماسك ، وأنها لا تصمد فى الكفاح إلا بالوقوف فى صف واحد ليس فيه ثغرة . ولم تكون الثغرة ؟

١ — بلغتكم نزل القرآن الكريم .
٢ — وفى سبيل الدعوة إلى الإسلام تحملتم أعباءها وانتصرتم بصبركم فى الجهاد.
٣ — فعلاقاتكم هى علاقات : اللغة والدين ، والكفاح المشترك فى التاريخ من أجل الوجود ، والاشتراك فى الأمانى القومية ، والرحم والجوار ..

(١) آل عمران : ١٠٣ .

أواصر القربى فى الشعب العربى

نتناول فى هذا الحديث أواصر القربى فى الشعب العربى ؛ وهى أواصر متعددة ، قوية . هى أواصر اللغة ، والدين ، والتاريخ المشترك فى الكفاح ، وصلة الرحم والجوار . وقد أراد الله لهذا الشعب العربى أن تكون علاقاته بين بعضه بعضاً متنوعة حتى لا تنفصم عراها تحت ضغط الأحداث وتيار الفتن والدسائس .

رابطة اللغة :

١ — بينكم رابطة اللغة ، وهى لغة القرآن الكريم الذى نزل به الروح الأمين على خاتم الأنبياء ﷺ : « تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . كِتابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُه قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[1] » .. « فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً[2] » .. فهى لغتكم فى الخطاب والتفاهم ، ولغتكم فى دينكم وعقيدتكم ، ولغتكم كتب بها تاريخكم . وهو تاريخ أمة واحدة وشعب واحد ، له خصائص متفقة فى الحياة والأمانى .

ورابطة اللغة رابطة طبيعية غير مصطنعة . وهى مرآتكم ترون فيها ماضيكم وحاضركم ، وتسجلون بها مستقبلكم لأجيالكم القادمة . هى أكثر من ألفاظ وعبارات . هى التعبير عن حياتكم وما قمتم أو تقومون به فيها إزاء أحداثكم الخاصة أو تلك الأحداث التى تواجهونها .

حاول المستعمر إضعاف هذه الرابطة وإخراجها عن أن تكون وسيلة لجمعكم وأداة لتكتلكم واتحادكم . فدعا إلى لهجاتكم الخاصة ، ومنها العامية ، لتكون لغات مستقلة تحل محل اللغة الفصحى التى هى لغة القرآن ، والتى هى الرابط العام بينكم . دعا إلى أن يدون بلهجاتكم وعاميتكم تاريخ كل فريق منكم ، وبذلك تصبحون

---

(١) فصلت : ٢ ، ٣ . (٢) مريم : ٩٧ .

شعوباً متعددة لاشعباً واحداً ، وتبعدون قليلا أو كثيراً عن الله قرآنكم وعن فهم كتاب الله المنزل الذى هو مصدر هدايتكم ونعمة الله عليكم .

رابطة الدين :

٢ — بينكم رابطة الدين ، وهو الإسلام ، دين الفطرة الإنسانية : « فَأَقِمْ وجْهكَ للدين حَنِيفاً ، فطرة الله التى فطَرَ النّاس عَليها ، لاتبديل لخلق الله . ذَلكَ الدّين القيم ، وَلكن أَكثرَ الناس لا يعْلمون[1] » .

بهذا الدين جمع الله شملكم وآخى بينكم ، بعد أن وجهكم إلى عبادة الله وحده : « إنّ هَذهِ أمتكُم أمة واحدَة ، وَأنا ربُّكم فاعبُدون[2] » .. ولكن مع ذلك لايدع الله عباده دون أن يختبرهم فى إيمانهم ليعلم الصادقين منهم والكاذبين فى إيمانهم والعابثين فيه : « أَحَسِبَ النّاس أنْ يُتركُوا أنْ يَقولوا آمنا وهُم لا يُفتَنون . وَلقد فتنا الذين مِنْ قَبلِهم ، فَليعلمن الله الذين صَدَقوا وليعلمن الكاذبين[3] » .

واختبار الله لعباده ليس فى وقت دون وقت ، وليس فى صورة واحدة غير متنوعة . ومما ابتلى الله به المسلمين فى هذه المنطقة حديث المستعمر عن مذاهبهم وأنها مذاهب لاتلتقى ، واتخذ من تعداد مذاهب الشيعة والسنة ، ومذاهب الفقهاء والمتصوفة والوهابية . . ، سبباً للفرقة والإيقاع بينهم ، ليوهن من وحدتهم ، وليحول دون اتحادهم فى الاتجاه والغاية ، ولكن الله يقول : « وَلا تَكُونوا كالذين تَفرقوا وَاختلفوا مِنْ بَعد ماجَاءهم البينَات[4] » . . ويقول : « ياأَيُّها الذين آمنُوا أَطيعُوا الله وَأطيعُوا الرّسُول وَأولى الأمْر مِنكم ، فإنْ تَنَازعتم فِى شَىء فردُّوه إلى الله وَالرسُول ، إنْ كنتم تؤمنون بالله وَاليوم الآخر ، ذَلكَ خَير وأحسَن تأويلا[5] » .

---

(١) الروم : ٣٠ . (٢) الأنبياء : ٩٢ .
(٣) العنكبوت : ٢ ، ٣ . (٤) آل عمران : ١٠٥ .
(٥) الأحزاب : ٦ .

فالإسلام قد نهى عن الفرقة ، والاختلاف الذى يهدد الوحدة ، ويجعل المسلمين طوائف تقاتل بعضها بعضاً . وأوضح من جانب آخر طريق صون وحدتكم إذا اختلفتم فى فهم ما أنزل الله ، وهو الرجوع إلى كتاب الله ، وإلى مايؤثر عن رسول الله ﷺ من قول صحيح وعمل ثابت .

فرابطة الدين بينكم ، وهى مرآة حياتكم ، زادت فى تعاونكم وفى لقائكم وفى دفع محاولات أعدائكم للنيل منكم .

رابطة الرحم والجوار:

٣ — بينكم صلة الرحم والجوار وهى صلة تدعو إلى رعاية المصلحة المشتركة وإلى التعاون فى دفع الضرر والأذى . يقول الله سبحانه وتعالى : « النبى أوْلى بالمؤمنين مِنْ أنفسهم ، وأزْواجه أمهاتهم وأُولو الأرحام بعضهم أوْلى ببعض فِى كتاب الله مِنَ المؤمنين والمهاجرين إلا أنْ تفعلوا إلى أوْليائكم معْروفاً ، كان ذَلك فِى الكتاب مَسطُوراً[1] » . . ويقول « واعبدُوا الله ولا تشركوا به شَيئاً وبالوَالدين إحْسَاناً ، وَبذِى القُربى وَاليتَامى ، وَالمسَاكين والجار ذى القربَى والجار الجنب ، والصّاحب بالجنب ، وابن السّبيل ، وما ملكت أيمانكم ، إنّ الله لايحب مَنْ كانَ مختالا فَخُوراً »[2] .

هذه الصلة بدورها يحاول المستعمر أن يمزقها . يحاول أن يجعل من الحكام فى منطقة الشعب العربى نفوذاً ، كما يحاول أن يجعل بين المسيحية والإسلام هنا حواجز العداوة والبغضاء .

علينا أن نعود بهذه الروابط إلى طبيعتها . علينا أن ندرك أن تاريخ العروبة هو تاريخ الشعب العربى بأسره لاتاريخ ذلك النفر من الساسة الذين تعاونوا مع الاستعمار على إذلال هذا الشعب فى كرامته وفى حياته .

---

(١) الاحزاب : ٦ .   (٢) النساء : ٣٦ .

أما أعوان الاستعمار اليوم فقد ابتلى الله المسلمين بأمثالهم عند قيام الإسلام . ولكن المسلمين لما صبروا فى كفاحهم كان النصر حليفهم . يقول الله جل شأنه : «لقد ابتغَوا الفتنة مِنْ قَبل ، وَقلَّبُوا لكَ الأُمور حتى جاء الحق ، وظَهر أمر الله وهُم كارِهُون (١) » .

وقد وضع الإسلام مبدأ لتفويت التآمر على المسلمين وإثارة فتنة الفرقة بينهم عن طريق نفر من بينهم ، وعبر عن ذلك المبدأ بقول القرآن الكريم : « يَأيها الذين آمنوا لا تَتخذُوا بطانة مِن دُونكم، لايألونَكم خبَالًا وَدّوا ما عنتم قد بدت البغْضَاء مِنْ أفواهِهم وما تخفى صدورهم ، أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تَعْقلون (٢) » .

إن ما صلح به أول الأمر يصلح به آخره : إيمان وكفاح فى تماسك ، وصبر فنصر : « وَلينصرَنّ الله من يَنصره (٣) » .

---

(١) التوبة : ٤٨ .
(٢) آل عمران : ١١٨ .
(٣) الحج : ٤٠ .

الأماني القومية

حديثنا اليوم يتناول الأماني القومية ، بين مجموعة الشعوب العربية التى لها تاريخ واضح فى الحضارة والمعرفة ، وفى القيادة والسيادة ، هذه الشعوب التى تآمر عليها الاستعمار الغربى وقسمها إلى وحدات ومناطق وأضعفها من بعد قوة ، وأذلها من بعد سيادة ، واستغل إمكانياتها البشرية ، وثروتها الأرضية . ولم يزل يضعفها ، ولم يزل يفرق بينها ، ولم يزل يستغلها .

إن لهذه الشعوب العربية أمانى مشتركة وأهدافاً فى حياتها موحدة : إنها تريد أن تعيش سيدة نفسها ، لا مستذلة ولا مستضعفة . إنها تريد أن تحتفظ بشخصيتها ، لا تنماع فى شخصية غيرها أياً كان هذا الغير . إنها تريد أن تستقل عن نفوذ الأجنبى عنها والدخيل عليها ، لا أن يستقل بعضها عن بعض فى الاتجاه ، ولا أن يصير استقلالها حواجز لبعض المناطق عن بعض . إنها تريد أن تعود إلى مكانتها فى التاريخ يوم كانت تحمل لواء الحضارة الإنسانية ، وتدافع عن المثل الرفيعة فى تثبت وإصرار لا تضعف فى الدفاع عنها ، ولا تدعو إلى المساومة عليها ، ولا تحزن بشىء من خيبة الأمل فى بعض مراحل الكفاح فى سبيلها : « فَلاَ تَهِنُوا وَتَدعُوا إلى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ، واللهُ مَعَكُم وَلَن يَتِرَكُم أَعْمَالَكُم[1] » .. « وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنوا وأَنتُم الأَعلَوْنَ إِنْ كُنتُم مُؤْمِنِين[2] » .

تريدون أيها المسلمون هنا فى هذه الديار أن تكونوا أحراراً فى حياتكم كما أمرتم من دينكم أن تبقوا أحراراً من تسلط غيركم عليكم ، يقول الله جل شأنه : « كُنتُم خَيرَ أُمةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ تأمرُونَ بالمعرُوفِ وَتَنهونَ عَنِ المنكر[3] » .

---

(١) القتال : ٢٥ . (٢) آل عمران : ١٣٩ .
(٣) آل عمران : ١١٠ .

وبمقتضى كونكم خير أمة لها رسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أنكم لا تصيرون أتباعاً لمن دونكم ولا مغلوبين على أمركم فى حياتكم ، لأنكم لا تكونوا عندئذ خير أمة أو لا تملكون مقومات الأمة صاحبة السيادة على نفسها ، فضلا عن أن تكونوا أصحاب رسالة فى التوجيه . لأن من لا يسود نفسه لا يوجه غيره .

عرف عدوكم هذا فى دينكم ، وعرف قوة صلتكم بهذا الدين لا تزحزحكم عنه ثقافته التى يدعو لها ، ولا يضعفه فى نفوسكم حربه التى يقوم بها ضد اقتصادكم . عرف هذا وذلك فآثر أن يلجأ إلى الدسائس بينكم . كما اعتمد عليها من قبل فى استعمار دياركم طول هذه السنين ، وكما اعتمد عليها فى استغلال موارد بلادكم لصالح نفسه وإضعاف مقاومتكم له : يثير الفرقة القبلية والشعوبية فيكم بعد أن كان فضل الإسلام عليكم هو أن جمعكم على هدف واحد وعلى أساس واحد : « وألَّفَ بينَ قُلوبِهم لو أنفقتَ ما فِى الأرضِ جَميعاً ما ألَّفتَ بَينَ قلوبِهم ، ولَكنَّ اللهَ ألَّفَ بَينهم إنَّه عَزيزٌ حَكيم[1] » .. ولم يؤلف سبحانه بينكم على أساس من القوة المادية تضعف بعد حين ، ولا على أساس من تبادل المنافع ينتهى عرضها بانتهاء وقتها أو قيمها ، ولا على أساس من علاقات القرابة فى الأسرة أو القبيلة أو الجنس البشرى تنتهى بتفرع الأسرة إلى أسر ، وتكثر القبيلة إلى فصائل ، واتساع نطاق الجنس إلى جماعات تتباعد فيما بينها حتى تنكر كل جماعة صلتها بالأخرى . ولكن ألف بينكم فى سبيل الله ، فى سبيل الحق ، فى سبيل المثل الرفيعة وخير الإنسانية حتى إذا أشربت قلوبكم حب الإيمان بالله وبالحق صرتم قوة فى كثرة بعد ضعف فى قلة ، وأصحاب سيادة وعزة بعد خوف واستضعاف لغيركم : « واذكُروا إذ أنتُم قليلٌ مُستَضعَفُون فِى الأرْضِ تخافُون أن يَتَخطفَكُمُ النَّاس فآواكُم وأيدكُم بِنصرِهِ ورَزَقَكم مِنَ الطَّيِّبَات لعلكُم تَشكُرون[2] » .

وكما يحاول عدوكم ، وهو الاستعمار ، أن يفرق بينكم بإثارة روح القبلية

(١) الأنفال : ٦٣ .
(٢) الأنفال : ٢٦ .

والشعوبية فيكم ، يعتمد على نفر من ضعفاء النفوس منكم ليعوقوكم بوسيلة أو بأخرى عن أن تجيبوا داعى المصلحة وتلبوا نداء الحق جل شأنه الذى وعدكم بالنصر إن نصرتم رسالته ، وهى رسالة الخير لكم وللإنسانية فيقول : « يَأَيها الذين آمَنُوا إنْ تَنْصروا الله يَنْصركم وَيثبت أقدَامكم(١) » .. أو يتراخى عن العمل معكم والاستجابة لروحكم العامة . وقد مرت أمتكم بهذين الصنفين من الناس ، المعوقين والمتراخين وابتليت بهما كما تبتلون بهم اليوم وغداً . والقرآن الكريم يقص علينا أمر هذين الصنفين ، يقول سبحانه وتعالى : « قَدْ يَعْلَم الله المعوِّقين منكم وَالقائلين لإخوانهم هلمَّ إلينَا وَلا يَأتون البَأس إلا قَليلا . أشحة عَليكم فإذا جاء الخوف رَأيتهم يَنْظرُون إليكَ تَدُور أعينهم كالذِى يَغشى عَليه مِن الموْت. فإذا ذَهبَ الخوف سَلقوكم بألسنة حِدادٍ أشحةً عَلى الخير ، أولئك لم يؤمنوا فَأحبَطَ الله أعمالهم ، وَكانَ ذَلك عَلى الله يَسيراً(٢) » .

ويقول الله أيضاً : « وإنَّ منكم لمن لَيبطئنَّ ، فإن أصَابتكم مُصيبة قال: قَدْ أنعمَ الله عَلىَّ ، إذ لم أكنْ مَعهم شَهيداً . ولئن أصَابكم فَضْلٌ منَ الله ليقولنَّ كأن لم تَكُن بَينكم وَ بينَه مودة : يَاليتنى كنتُ مَعَهم فأفُوز فَوزاً عَظيما(٣) » .

ولكن أمتكم فيما مضى قضت على التخاذل والتخذيل بشىء واحد : الإيمان بالحق . ويقول الله فى خاتمة أمرها :

« وَالذينَ إذ أَصابهم البغىُ هُم يَنْتَصرون(٤) » .. كما يقول فى عاقبة أولئكم المتخلفين فيها عن أن يكونوا فى صف المكافحين . إن دعاهم الحق إلى الكفاح : « وَيَقُول الذينَ آمَنُوا لَولا نُزلت سُورة ، فَإذَا أُنزلت سُورة مُحكمة وَذُكِر فيها القتال رَأيتَ الذينَ فى قلوبهم مَرض يَنْظُرُونَ إليكَ نظرَ المغشى عَليه

(١) القتال : ٧ . (٢) الأحزاب : ١٨ ، ١٩ .
(٣) النساء : ٧٢ ، ٧٣ . (٤) الشورى : ٢٩ .

مِنَ الموْت فأولى لهم . طاعة وَقول مَعرُوف فإذا عَزَم الأمر فلوصَدَقُوا الله لكانَ خَيراً لهم . فَهَل عَسَيتم إنْ توليتُم أنْ تُفسِدوا فى الأرض وَتُقَطِّعُوا أرْحَامَكم . أولئك الذين لعنَهُم الله فأصمهم وأعمى أبْصَارهم[١] » .

أيها المسلمون فى مناطق هـذا الشعب العربى ، كونوا كما كان أسلافكم ، آمنوا بما آمنوا به من حق ، وكافحوا كما كافحوا فى سبيله . واعلموا أنكم ستبلون فى لقائكم بالمثبطين المتقاعسين ، وبشىء من الخوف ونقص الأموال ، ولكن العاقبة لكم إن صبرتم كما كانت العاقبة لهم عند صبرهم .

إن وعيكم القوى الآن هو قوتكم ، وهو سلاحكم ضد عدوكم . إيمانكم بأنفسكم وبحقكم فى الحياة وترابطكم هو الأمر الذى يقف دون استغلالكم واستذلالكم.

« يَأيها الذين آمنُوا لا تَتخِذُوا عَدُوى وَعَدُوكم أوْلياء تلقون إليهم بالمودَّة وَقد كفرُوا بما جَاءَكم مِنْ الحق[٢] ».

---

(١) القتال : ٢٠ ــ ٢٣ . (٢) أول الممتحنة .

واجب الشعب العربى فى حاضره

أيها المسلمون فى هذه الديار العربية :

لأول مرة فى تاريخ صراعكم مع الاستعمار فى وطنكم تثبتون فى وجه عدوانه بل ويرجح جانبكم فى مقاومته . وقد كنتم معه من قبل مغلوبين على أمركم إن حاولتم أن تكافحوا سلطانه السياسى ، أو تقفوا فى وجه نشاطه الاقتصادى أو تبتعدوا عن توجيهه الثقافى .

تعلنون اليوم باسم القومية العربية تحديكم لأساليبه البغيضة ، تعلنون إيمانكم بأنفسكم وبحياتكم وبحقكم فى السيادة على دياركم فى مواجهته ومواجهة أعوانه ، وقد كنتم لا تستطيعون إلا أن تتحدثوا عن رغبات وأمانى ، وفى لحظة دون لحظات وفى صوت خافت لا تسمعه إلا قلوبكم الحزينة التى لا تملك يومئذ إلا أن ترغب وتتمنى فقط . ولكنها الآن قد عمرت بالإيمان ، وتحرك إيمانها إلى يقظة وعمل ، إلى استمرار فى اليقظة وصبر فى العمل .

نعم يقظتكم مستمرة وعملكم فى صبر وجلد . ولكن عدوكم لم يخفت صوته بعد ، ولم ييأس للآن من مقابلتكم ، ومقاومة يقظتكم ، وإضعاف صبركم فى العمل ضده . إن يومكم هذا هو نقطة التحول فى تاريخكم الحديث : من ذل واستعباد إلى تحرر وسيادة .

١ — إن ثباتكم فى لقائه هو طريق نجاحكم ، هو الوسيلة إلى ظفركم بما تكافحون من أجله سنوات طويلة . يقول الله جل شأنه : « يَأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون[1] » . أى إذا اشتبكتم

---

(١) الانفال : ٤٥ .

مع أعدائكم فى لقاء فاثبتوا فى لقائكم فى مواطن الكفاح . واذكروا الله كثيراً أثناء كفاحكم معه مستمدين منه سبحانه وتعالى العون ، مستظهرين بذكره ، مترقبين لنصره لعلكم تفوزون وتظفرون بمرادكم من النصر فى الدنيا والمثوبة من الله فى الآخرة .

فالثبات ، مقروناً بذكر الله لاتتخاذل عنه نتائجه من النصر والسيادة : الثبات فى المعركة ، الثبات فى احتمال الألم ، الثبات فى ضبط النفس ، الثبات فى ردّ النوازع الثبات فى ردّ الإغراء ، الثبات فى هذا كله لا يكون إلا ممن حرص على مصلحة جماعته وأمته ، لا يكون إلا ممن يكافح من أجل مبدأ ، وفى سبيل مصلحة عليا ، وعلى ذكر من هذه المصلحة العليا التى تنتهى إلى الله جل شأنه .

٢ — الله سبحانه إذ يأمر المؤمنين بالثبات فى كفاح عدوهم على هذا النحو ينهاهم كذلك عن إتيان بعضهم لعمل لا تكون أضراره وقفاً على من يباشر هذا العمل بل تعم الأمة كلها ، مثل التراخى فى الكفاح ، وافتراق الكلمة ، والتآمر على مستقبل الأمة ، وموالاة الأعداء ، ونحو ذلك مما أطلق عليه سبحانه : « فتنة » ، وسمى القائمين به ظالمين ، مع أنهم من بين المؤمنين : يقول جلّ شأنه : « واتقُوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصّة ، واعلموا أنّ الله شديد العقاب[1] » . فهنا تبارك اسمه كيف ضاعف النهى عما يصيب الأمة فى مجموعها من ضرر ، وكيف حذر فى صورة تؤكد غضب الله على من يقوم بذلك من أبناء الأمة . فسبحانه لم يقف عند حد التعبير عن هذا العمل بالفتنة ، ولاعند حد وصف القائمين به بالظلم بل أعقب هذا وذاك بقوله : — ولا رادّ لما يقول — : « واعلموا أن الله شديد العقاب » .

٣ — ثم جمع ما أمر به من الثبات هناك ، وما نهى عنه هنا من القيام بما

(١) الأنفال : ٢٥ .

يعود على الأمة من ضرر — مرة أخرى فى قوله : « وأطيعوا الله ورسوله وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُم ، واصبروا إن الله مَعَ الصَّابِرِين(1) » .

فإن من لوازم طاعة الله وما أوحى به لرسوله ﷺ أن لا يكون هناك استسلام فى مقاومة عدو ، كما أن من نتائج الوحدة وعدم الفرقة الصلابة فى المقاومة ومن نتائج الصبر الظفر بالمطلوب . وإن الله مع الصابرين فى توصيلهم إلى أهدافهم ومعاونتهم على ما صبروا فى سبيله .

أيها المسلمون فى هذه الديار العربية ..

يومكم اليوم هو اليوم الفاصل فى مستقبلكم ، وسلاحكم هو ثباتكم وعدم فرقتكم ، وذكر الله جل شأنه فى كل خطوة من خطوات كفاحكم بتذكركم رسالته وهى رسالة العزم والتوكل ..

---

(1) الانفال : ٤٦ .

نحو مجتمع عربى أفضل

يقول الله جل شأنه :

« إنّ الله لايغير مَا بِقوم حَتى يُغـيروا مـَا بأنفـسهم(١) » . فلا تتغـير حالة الإنسان من ضعف إلى قوة ، ولا من قوة إلى ضعف إلا إذا تغيرت نفسه تغيراً يعدله الحال التى هو عليها . فمن أحب العزة ، ومال إلى الرفعة ، وسلك الطريق إلى أن يكون عزيزاً رفيعاً فإنه سيكون له حال العزيز الرفيع . ومن رضى رضاء نفسياً بالمهانة وخضع إلى الاستسلام والتبعية ، فإنه سيكون له حال المهان المستسلم فى غير حرج .

تكوين النفوس تكوينا صالحا :

والجماعة التى تريد أن تكون ذات سيادة على نفسها ، وكريمة على غـيرها ، وسعت إلى السيادة والكرامة ، فإنها تكون يوماً ما سيدة نفسها وكريمة على غيرها . وبالعكس : الجماعة التى تطمئن نفسياً إلى الدنية ، وإلى التبعية لغـيرها ، فستبقى ذات دنية وتابعة .

ونصرة الله فى الإيمان به والعمل برسالته . والإيمان بالله لا يكون فى حال دون حال ، بل لا يكون الحديث عن إيمان إنسان أو جماعة بالله ، إلا إذا بدا هذا الإيمان وقوة الإنسان أو الجماعة على حال لا يقل عنه فى وقت الضعف لها . والإيمان بالله إنما يبـدو فى العمل برسالته . ومظهر العمل بهذه الرسـالة توجه إلى الله فى خشوع ، واستقامة فى السلوك ، كما هو المرجو من الصلاة . ورعاية المحتاج ومعاونة له ، كما هو أثر الزكاة . ونصح للآخرين بالمعروف ، ونهى لهم عن الفحشـاء

(١) الرعد : ١١ .

المنكر ، لا بالقول فحسب ، وإنما قبل ذلك بالعمل على اتباع المعروف وتجنب المنكر .

إن طريق الإيمان بالله والعمل برسالته هو طريق تعريف الإنسان نفسه بين أفراد جماعته ، ورسم لموقفه من جماعته . إنه طريق الحدّ من الأنانية ، والقيام بعمل الخير العام . ومن الخير العام أن يحرص على مايدعو إليه تماسك الجماعة ويزيد في قوته ووضعها .

فلا يغير الله حال إنسان أو جماعة إلى حال آخر إلا بعد أن تتغير نفس الإنسان وتتغير نفوس هذه الجماعة أولا وتستعد استعداداً نفسياً يلائم الحال الآخر ، ويدعو إليه .

والطريق الذى رسمه الإسلام لجماعة تريد أن تكون ذات سيادة وعزة ومنعة ، وأن يكون أفرادها أقوياء أعزاء ، أقوياء النفوس ، أقوياء الشعور بالكرامة ، ليس هو الطريق الذى يرسمه الغرب المستعمر فى السلوك فى الحياة ، ولا الطريق الذى يحدده الشرق فى فهمه للوجود والإنسانية . إنه الطريق الذى يضمن نصر الله لمن سلكه واتبعه ، إنه الطريق الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله : « ولينصرنّ الله من ينصره ، إنّ الله لقوىّ عزيز . الذين إنْ مكنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور[1] » .

ونصر الله هو العمل برسالته . والعمل برسالة الله أن يكون الإنسان فى صلته بالله حال سيادته وقوته على نحو صلته به حال ضعفه : توجه إلى الله فى خشوع ، واستقامة فى السلوك ، ورعاية للمحتاج ، ونصح للآخرين بالمعروف ، بعد أن يكون

---

(١) الحج : ٤٠ ، ٤١ .

هو قد ابتعد عن الفحشاء والمنكر . إنه طريق الحد من الأنانية والقيام بعمل الخير في جماعته . ومن الخير في جماعته أن يقوم بما يدعو إليه تماسك الجماعة وصيانتها من الضعف أى ضعف .

الخشية من الله اول مراحل التكوين :

إن الإسلام يريد إذن للجماعة أن تسود ، وتبقى محتفظة بسيادتها ، وأن يكون أفرادها أصحاب بناء ، وأصحاب عمل إيجابى لخير أنفسهم كأفراد ولخير جماعتهم التى ينتسبون إليها . وأساس هذا العمل الإيجابى أن يخشى الإنسان الله فيما يعمل، وأن يعاون غيره فيما يحتاج فيه إلى معاونة .

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« **ان الله يحب اذا عمل احدكم عملا ان يتقنه** » : فهو لا ينصح بالعمل — إذ طلب العمل أمر مفروغ منه — وإنما ينصح بإتقانه : وإتقان العمل فى أن يخشى الله ويرقبه فيما يعمل ، ولو كان العمل صدقة ومنحة .

فإذا اعترضتكم صعاب فى طريق سيادتكم ، بعد أن سلكتم إلى هذه السيادة طريقها المرسوم فلا تهن عزائمكم ، ولا يتطرق اليأس إلى نفوسكم . لأن الصعاب فى طريق الإنسان والجماعة قانون فى الحياة لا يتخلف ، وأن ما يصيبكم قد أصاب أسلافكم . وثقوا أن نصر الله قريب : بالصبر فى مقاومة هذه الصعاب إن استعنتم بقول الله جل شأنه :

« وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُم الأَعْلَوْنَ إن كُنتُم مُؤْمِنِين . إن يَمْسَسْكُم قرح فَقَدْ مَسَّ القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس[1] » .

ثم لا تكون النتائج بدون مقدمات ، ولا تكون الحسنة منها إلا بعد الابتلاء بها والتغلب عليها ، فيقول الله تعالى :

---

(١) آل عمران : ١٣٩ ، ١٤٠ .

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب[1] » .

فإن أردتم مجتمعاً إنسانياً أفضل فى دياركم ووطنكم ذا : طريقه لا هو شرقى ، ولا غربى .. هو إسلامى رسمه الله فى رسالة السماء إلى البشر جميعاً . وإذا صادفتم العقبات فلا تيئسكم من رحمة الله أو نصره ، لأن وجود العقبات فى طريقكم ليس خاصاً بكم ، بل هو من طبيعة الحياة وسنة الكفاح فيها .

---

(١) البقرة : ٢١٤ .

الوحدة ثمرة الفكر المشترك

الفكر القوى رابطة بين الانسان والانسان :

الإنسان مع الإنسان ، كأى شيء مع شيء آخر ، أمران مستقلان ، قد يكونان متنافرين ، إذا اقترب فى المكان أحدهما من الآخر ، أو كان أحدهما فى جوار الآخر . وقد يكونان متآخيين إذا التقيا ، وقد تبقى الأخوة بينهما أيضاً بعد أن يفترقا .

تكون بين الإنسان والإنسان نفرة ، لا لأن أحدهما يفترق عن الآخر فى اللون ، أو فى السن ، أو فى الطول والعرض ، وما شابه ذلك من صفات الجسم . ولكن تكون هناك النفرة بين إنسان وإنسان إذا لم يلتقيا فى التفكير ويشتركا فى الفكرة ، ويجتمعا على الهدف . إذ الإنسان إنسان بفكره ، لا بجسمه .

ويجتمع إنسان مع إنسان ، لا بالاتفاق فى تاريخ الميلاد وعوارض البدن ، بل بالاتفاق فى خطوط التفكير العامة ، وفى النظرة الإجمالية للحياة .

وشأن الجماعة مع الجماعة ، لا يختلف فى أسباب النفرة أو الالتقاء عن شأن الإنسان مع الانسان الآخر ، فى حال تجانسهما أو تنافرهما : تلتقى جماعة بجماعة وتتآخى معها ، وقد تزول الفوارق بينهما فيكون الأمر أمر اتحاد أو وحدة بينهما — إذا اشتركت إحداهما مع الأخرى فى فهم الحياة ، وفى تحديد الهدف منها ، وفى الطريق الذى يرسم لبلوغ هذا الهدف وتحصيله .

القرآن القوى دعائم الفكر :

والقرآن الكريم يذكر « المؤمنين » على أنهم أمة واحدة لا لأنهم ينتسبون إلى قبيلة واحدة ، ولا لأن ألوانهم وأجسامهم متشابهة ومتقاربة ، ولكن لأنهم يشتركون فى تفكير واحد ، يشتركون فى نظرة واحدة إلى الحياة ، وفى مقياس واحد يقيمون به أمورها ، وفى هدف واحد يبغون جميعاً الوصول إليه ، وكأنهم فى

سعيهم إلى هذا الهدف يسعون إليه وهم فى صف واحد ، وفى خطوات متساوية ليس فيهم متقدم ولا متأخر ، ولا جانح إلى اليمين وآخر إلى اليسار . يقول الله تعالى فى أول سورة البقرة : « الٓم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون[1] » .. فجعلهم جماعة ، وخاطبهم بخطاب الجمع ، لأنهم اجتمعوا على الإيمان بقدر مشترك ، وربطوا تفكيرهم بتنفيذ هذا الإيمان .

وإذن عندما تقترب الفكرة من الفكرة يكون الالتقاء بين الناس أفراداً أو جماعات . وعندما يصير الاشتراك فى الرأى ، والتقدير ، والهدف والأمل إلى وحدة فيهما ، تكون الأخوة بين الإنسان والإنسان على أتمها ، وتكون المجموعة من الناس جماعة واحدة ، وأمة واحدة ، وشعباً واحداً . وإذن أشد الروابط وأقواها الاشتراك فى التفكير ، والاشتراك فى الاتجاه فى الحياة .

وإذن طالما كان الاشتراك فى التفكير والأمانى عاملا فى قيام الجماعة والتماسك بين أفرادها — يميل عدو الجماعة المتحدة المتآخية إلى تشتيت التفكير فيها وتوزيع اتجاهها إلى مناحى متعددة ، فيثير العصبية الشعوبية مرة إن كان فى الجماعة تعدد فى القبيلة أو الجنس ، ويثير الافتراق فى اللهجة مرة أخرى إن وجد هناك اختلافا ملحوظاً فيها ، أو يعمد إلى الضغط على اقتصادياتها أو إلى إيذاء أسماع أفرادها بنابى اللفظ والقول المختلق ، إلى غير ذلك من الأسباب التى من شأنها أن تجعل الأفراد يميلون بالتفكير إلى شأنهم الخاص بدل الحرص على بقاء تفكيرهم فى الدائرة المشتركة وبذلك تضعف الجماعة أو تتلاشى .

وقد تحدث القرآن هنا فى قوله تعالى : « لتبلوُن فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعُن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً ، وإن

(١) أول البقرة .

تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور[1] » .. فذكر أن الجماعة التي قامت على الاشتراك في التفكير، وتآخي أفرادها على وحدة الفهم للحياة الإنسانية لابد أن تبتلى من عدوها بعوامل الفرقة العديدة ، ولكن نجاتها من محن هذا الابتلاء إنما تتحقق في صبرها ، وفي اتقائها الخضوع لما يفرق بينها ويشتت وحدتها . ومايفرق بينها ويشتت الوحدة فيها هو العودة إلى الفرقة في الرأى والابتعاد عن الالتقاء في التفكير .

القرآن حدد الاتجاه ووحد الامة :

مايذكره القرآن هنا في أساس وحدة الجماعة من الاشتراك في الاتجاه والاشتراك في النظرة إلى الحياة ، وما يذكره أيضاً من أمر ابتلاء الجماعة من عدوها بإثارة شتى عوامل التفرقة بينها ، ثم مايذكره من علاج حاسم للخروج من أزمة هذا الابتلاء وتفويت الأمر على هذا العدو بالصبر وعدم الإذعان لما يأتي به من مظاهر الضغط — مايذكره القرآن هنا هو السنة الطبيعية في قيام الجماعة أى جماعة وفي محافظتها على وحدتها وتماسكها .

إن القرآن إذ يوصى هنا أصحاب الجماعة الواحدة ، التي قامت على الاشتراك في مثل الحياة وأهدافها ، من الصبر والتحمل ، عندما تمتحن بالأزمات من عدوها ـ يجيء في آية أخرى ويبين أن هـذا الصبر وتحمل الأزمات في سبيل الإبقاء على الوحدة في الجماعة هو هدف رفيع يجب أن يكافح الإنسان في سبيله دائماً ، ولايوازن بينه وبين مايبتغيه العدو من تفرقة وتشتيت . فسبيل الوحدة هو سبيل الله، وسبيل التفرقة والإيذاء دائماً هو سبيل الشيطان . وما لله أبقى وأقوى ، وما للشيطان نهايته الضعف والزوال :

« الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً[2] » .

---

(١) آل عمران : ١٨٦ . (٢) النساء : ٧٦ .

تمسكنا بالمبادىء يكفل انتصارنا

يقول الله تعالى : « الذين آمنُوا وهاجرُوا وجاهدُوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظمُ درجة عند الله وأولئك هم الفائزون [1] » :

هنا يتحدث جل شأنه عن الذين تمسكوا بالمبادىء ، وعن مظاهر احتمالهم فى سبيل تمسكهم بها ، ثم أخيراً عن عاقبة أمرهم وهم لايرضون عنها بديلا . فيذكر المؤمنين — وهم أولئكم الذين صدقوا بالله وبرسالة رسوله ﷺ . وتصديقهم بالله وبرسالة الرسول تصديق بالمبادىء العليا . وهى مبادىء تجعل الإنسان متحرراً من الرق والعبودية لبشر أو لما هو أقل من بشر ، وتجعله مطمئناً للسلام فى نفسه والسلام بينه وبين أخيه فى مجتمعه ، وتجعله — وهو مطمئن للسلام — ذا قوة وذا استعداد لدفع الظلم والعدوان أينما كان مصدره . كما يذكر الله جل شأنه أن آية إيمانهم بهذه المبادىء هى احتمالهم فى سبيلها ، ذلك الاحتمال الذى تجلى إذ ذاك فى تركهم أوطانهم وهم ضعفاء ليعودوا إليها ثانية وهم أقوياء ، وفى جهادهم بأموالهم وأنفسهم ، لايدخرون شيئاً مما يملكون من مال أو طاقة بشرية فى سبيل حرصهم على البقاء فى ظل هذه المبادىء ونصرتها والدفاع عنها .

وبجانب مايذكره القرآن الكريم هنا من الإيمان بالمبادىء ومن احتمال المشاق فى سبيلها يذكر أخيراً أن نهاية الأمر بالنسبة لهؤلاء المؤمنين — مهما أوذوا ومهما وقع عليهم من ظلم وعدوان — أنهم فائزون ، لا برضاء الله عليهم فحسب ولا بجزائهم الجزاء الأوفى فى الآخرة فقط ، وإنما أيضاً فائزون فى دنياهم ، فائزون بإنسانيتهم ، فائزون بسيادتهم على أنفسهم وعلى أراضيهم ، فائزون بتحقيق ما اعتقدوا وآمنوا به فى حياتهم العملية .

---

(١) التوبة : ٢٠ .

قد كان ذلك شأن المؤمنين بالمبادى ، شأنهم فى إيمانهم وشأنهم فى احتمال المشاق فى سبيل هذا الإيمان ، وشأنهم فى عاقبة أمرهم من النصر والفوز . وتلك سنة الحياة لا تتغير ولا تتبدل ، ولا تقع فى عصر دون عصر . إذ من شأن الإيمان أن ينتج القوة لمن يؤمن ، فلا يصادف عقبة فى طريقه إلا ويجتازها أو يزيلها . وإذا كان مؤمناً بالمبادىء تضاعفت قوته بالإيمان مرة ، وبالمبادىء مرة أخرى . ولذا لا يرى نفسه ولا ماله شيئاً بجانب ما يؤمن به من مبادىء ومثل ، ولا يعز عليه إلا أن يرى مبادئه حقيقة واقعة . وتضحيته بنفسه وماله فى سبيل مبادئه آية عندئذ على أن قوة إيمانه قد زادت وتضاعفت فاسترخص نفسه وماله فى سبيل مبادئه . وإذا استرخص الإنسان نفسه وماله فى سبيل إيمانه بالمبادىء فإنه سيفوز حتماً بوجوده وبحياته ، ولكن بوجود أكرم وبحياة أعز وأقوى .

تلك سنة الطبيعة كما ذكرنا لا تتخلف . وآية ذلك مرة أخرى ما كان بالأمس القريب فى حياتنا الحاضرة ، يوم أن اعتدى علينا المعتدون الآثمون بما لهم من قوة على الأرض وفى السماء وفوق الماء تفوق ما لنا من قوة مادية . وما انتصرنا يومئذ فى مواجهة العدو إلا لأننا آمنا بحقنا فى الحياة وآمنا بسيادتنا على أرضنا ، وآمنا بحريتنا واستقلالنا وتحررنا ، من كل نفوذ أجنبى — وهو إيمان بمبادىء ومثل — وتمثل هذا الإيمان فى نفوسنا ، وأخذ علينا قلوبنا وجوارحنا على السواء ، فأصبحنا قلباً واحداً ويداً واحدة ، واتجهنا جميعاً اتجاهاً واحداً . وهنا تضاعفت قوتنا وزادت ونمت ، لأن مصدرها هو الإيمان ، والإيمان بمبادىء . وبذلك رجحت كفتنا وكان لنا النصر أخيراً . وهو نصر الإيمان بالمبادىء على العدو والقوة المادية التى للعدو ، نصر التضحية فى سبيل تلك المبادى على التسليم والإذعان على نحو ما خيل العدو لنفسه ، استناداً إلى تفوقه فيما يملك من عدد وعتاد .

وإذا كان الإيمان بالمبادىء كفيلا بالنصر للمؤمنين بها أخيراً ، فإننا — لكى

نبقى أقوياء ، وبالتالى أعزاء وأحراراً فى أنفسنا وعلى أرضنا — علينا أن ندرك تماماً أن لمجتمعنا مبادىء ومثلا عليا ، وإنه يجب علينا أن نؤمن بها إيماناً وثيقاً ، آية هذا الإيمان أن نهيىء أنفسنا للتضحية فى سبيلها والبذل مما نملك من طاقات مادية وأدبية — علينا أن نتأكد أنه مهما هيىء لنا من وسائل القوة المادية فلا نستطيع بها وحدها أن نواجه أحداث الحياة ، وخاصة أحداث عدو يتربص بنا ويأتمر علينا . والعدو موجود دائماً ، والتآمر ظاهرة من ظواهر البشرية تختفى حيناً وتظهر أحياناً.

ولكن ليس معنى ذلك أننا نهمل إعدادنا ونتغاضى عن الأخذ بأسباب القوة المادية . وإنما اجتماع الأمرين معاً : القوة المادية والقوة المعنوية بالإيمان بالمبادىء والمثل هو السبيل القويم لحياة إنسانية كريمة ، ولسيادة الإنسان على الأرض التى يعيش فوقها : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » .

الفصل الثاني

- المادية والروحية فى الاسلام
- الاسلام والحضارة الحديثة
- التكافؤ الانسانى فى الاسلام
- السلام العالمى فى الاسلام
- المسلمون والشعوب الأخرى
- قوة المسلمين فى ولاء بعضهم لبعض
- الاسلام اكبر عدو للاستعمار
- مسلمون واسلام
- مبادى الاسلام تكفل حقوق الانسان
- حقوق الانسان فى الاسلام

المادية والروحية فى الاسلام

المادية هى أن يتجه الإنسان إلى ماهو مادى فقط ، يتجه إلى مايوصل إلى جاه، أو مال ، أو ولد ، أو متاع آخر من متع الحياة الدنيا ، ويركز نشاطه فى تحصيله ، ويقصر تقديره عليه وحده . وإن تعارض عنده شىء مما هو مادى يريد الحصول عليه مع شىء آخر ليس بمادى: كعلاقة الأخوة والقرابة ، أو علاقة الجار والمواطن ، أو نحو ذلك — رجح المادى فى سعيه وتفكيره على ماعداه .

أصحاب هذا الاتجاه يصفهم الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم بقوله : «الذين ضلّ سعيهم فى الحياةِ الدُّنيا ، وهُم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً [1] » . هؤلاء ضلوا السعى فى الحياة الدنيا لأنهم سيشقون بما يسعون إليه . سيزداد حرصهم على ماحصلوه من ماديات الحياة ، لايرغبون الفكاك عنه لأى دافع من الدوافع ، ولو كان هذا الدافع لصالح الإنسان نفسه ، أو صالح قرابته وأهله ، أو صالح وطنه وجماعته . فإن أكرهوا على التنازل عن شىء منه تألمت نفوسهم ، وتراكمت خواطر السوء عندهم ، وتبدو فيما يرون أو فيما يتحدثون به .

وإن لم يكونوا قد حصلوا بعد ، وأرادوا أن يحصلوا على هذه الماديات اتبعوا كل وسيلة ولو كريهة ، وأذلوا أنفسهم فى سبيل هذه الغاية بما لايجعلهم فاقدى الإحساس بالكرامة فقط ، بل بما يجعلهم يضحون بكل علاقة وبكل حرمة ، فى جرأة وعدم استحياء .

ضلوا السعى فى الحياة لأنهم إما أن يجلبوا على أنفسهم الشقاوة والهموم ، وإما أن يضحوا بكرامتهم الإنسانية وآدميتهم . وهم فى هذه الحال وتلك يظنون أنهم يأتون بصنيع حسن . وبهذا يضاعفون على أنفسهم اللوم وسوء التقدير ، لأنهم جهلوا بجانب أنهم ضلوا .

* * *

(١) الكهف : ١٠٤ .

ومعنى الروحية أن الإنسان يدرك هذه الحياة الدنيا وزخرفها، ويدرك معها أيضاً المعانى الإنسانية الفاضلة، التى فى مقدمتها الإيثار والتضحية بمطالب النفس ورغباتها لتحقيق مصلحة الآخرين، أو لتحقيق الإنسانية فى صورتها الكريمة. وهى البذل والإعطاء، والمعاونة والمساعدة، والإرشاد السليم فى التوجيه.

ومع كون الإنسان صاحب الروحية يدرك الجانبين من الحياة، فإنه يؤثر الجانب المعنوى على الجانب المادى، يؤثر تحقيق الفضائل والقيم الرفيعة على شقوة النفس ومهانتها بانتزامها طريق المادة الجارفة .. يؤثر البداية على الضلال فى السعى.

ويقول القرآن الكريم فى وصف أصحاب هذا الاتجاه الروحى: «وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهتَدَوا هُدًى، وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيرٌ مَرَدّاً[1]».. «الذين إنْ مَكَّنَّاهُم فى الأرض أقامُوا الصلاة، وآتَوا الزكاة، وأمَرُوا بالمعرُوف، ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأُمور[2]».

فالله جل شأنه وصفهم بأنهم ازدادوا هدى على هداية، لأنهم أدركوا الجانبين على حقيقتهما، ثم آثروا الجانب الباقى والدائم منهما. ولإيثارهم الجانب الدائم، وهو الصالح من أعمال البر وأعمال الإنسانية الفاضلة، كان ثوابهم عند الله أكثر خيرية وكان لقاؤهم فى الآخرة أحسن لقاء.

وأمارة أنهم يؤثرون هذا الجانب المعنوى الروحى: أنهم — إن مكن لهم فى الأرض — أقاموا الصلاة واتجهوا إلى الله دوماً خاشعين، وآتوا الزكاة لبر الفقراء والضعفاء، وأرشدوا الناس للحق، وبينوا لهم اعوجاج الباطل.

* * *

والإسلام هنا وإن كان يثنى على أصحاب هذا الاتجاه، ويبين لهم مكانهم فى الحياة الدنيا وثوابهم عند الله فى الآخرة — إلا أنه لا يطلب أن يكون الناس جميعاً من الروحيين الإيثاريين، ولا يلزمهم بالعكوف والعزوف عن الدنيا ومتع الحياة،

---

(١) مريم: ٧٦. (٢) الحج: ٤١.

بل يبيح لهم أن يأخذوا حظهم من الدنيا وزينتها ، على أن لا يكون سبيلهم إلى ذلك سبيل الذى أغفل ما عداها ، وآثرها بالسعى على حساب الفضائل الإنسانية التى هى الباقيات الصالحات. يقول الله جل شأنه : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا[1] » .. فأقر سبحانه وتعالى الطرفين : الدنيا وزينتها من جانب ، والباقيات الصالحات من جانب آخر ، وفاضل بينهما بعد ذلك . ومعنى تلك المفاضلة أن الطرف المفضول ـ الدنيا ومتعها ـ شريك مع الطرف الأفضل فى الإباحة والجواز . ويؤكد ذلك قول الله تعالى: «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق[2] »..فينكر المولى سبحانه على المحرمين لهذه المتع تحريمهم ، وهذا يؤذن بجواز الاستمتاع بها . وللمسلمين إذن أن يباشروا هذه الزينة ، وأن يستمتعوا بهذه المتع ، ولكن يجب أن يكون استمتاعهم بها بحيث لا يخرجهم عن انسانيتهم وآدميتهم ، وصلاحيتهم للقيادة والهداية فى هذه الحياة ، على نحو ماتفسد المادية الجامحة أصحاب الاتجاه المادى المغالين .

* * *

الإسلام إذن — يحرم المادية الطاغية ، ويحارب الماديين المغالين ، لأنه يراهم قد انحرفوا فى نشاطهم الإنسانى ، وأنهم لذلك مصدر عبث بالقيم الرفيعة الفاضلة .

(١) الكهف : ٤٦ .
(٢) الأعراف : ٣٢ .

الإسلام والحضارة الحديثة

تقوم الحضارة الحديثة على أساس من العلم ، وتهدف لغاية استخدام العلم فى تمكين الإنسان من منافع الحياة ، وتيسير أمر معيشته فيها . الحضارة الحديثة إذن بما فيها من علوم وصناعات تقدم رخاء للإنسان ، وتعاونه على حفظ صحته ، وتعطيه من الإمكانيات ما يقف بها على قوانين هذا الوجود الطبيعى ، كما تهيء له الفرصة لاستغلاله على وجه منظم دقيق .

تلك هى الحضارة الحديثة : فيها العلم ، وفيها زينة الحياة الدنيا ومنافعها . والإسلام — وهو دين الحياة فى مرحلتيها الأولى والأخيرة — يقف من المعرفة موقف المشجع على تحصيلها والإفادة بها فى التوجيه . يحث على العلم ، لأن الجهل لا ينشىء إلا رذيلة . العالم فى نظر الإسلام ثمرة علمه . . أن يكون حسناً فى سلوكه ، وأن يكون على بينة فى اعتقاده . أما الجاهل فلا يتبين رشدة من غيه . ولذلك لا يحسن فى تحديد علاقته بغيره ، وفى تحديد صلته بالله الخالق . يضل فى هذه ، ويغشى فى تلك . يقول الله تعالى : « قلْ هَل يَستوى الذين يَعلَمون والذين لا يَعلَمُون »[1] .

الإسلام كدين ينصح فى الدرجة الأولى بالعبادة وأداء فروضها . ولكن مع ذلك يروى عن أبى إمامة الباهلى أنه يقول : ذكر لرسول الله رجلان ، أحدهما عالم ، والآخر عابد ، فقال رسول الله ﷺ : « **فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم** » .. فالرسول الكريم آثر العالم على العابد . ذلك لأن العالم قلما يعبد الله على حرف ، وقلما يجنح عن الصواب فى عبادته . أما العابد فقد يدخل عليه فى الصورة التى يؤدى بها عبادته ما يجعل العبادة بعيدة عن أن تكون قربى إلى الله تعالى ، وطاعة صحيحة فى واقع أمرها للمولى جل وعلا .

---

(١) الزمر : ٩ .

والرسول ﷺ قدر العلم وأكد قيمته فجعله كفارة لصاحبه عن ذنوبه الماضية ، كما جعله وسيلة لتحصيل ثواب الله فى الآخرة . يروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « **من طلب العلم كان كفارة لما مضى** » . ويروى عنه كذلك عن النبى ﷺ أنه يقول : « **ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة** » .

الإسلام بذلك يقر الدعامة التى تقوم عليها الحضارة الحديثة ، وهى دعامة العلم والمعرفة ، ويؤكد فى النصح بشأنها .

أما الغاية التى تشير نحوها هذه الحضارة ، وهى تمكين الإنسان من الانتفاع بهذه الحياة الدنيا فى أرضها وسمائها ، وهوائها ومائها ، وجبلها وسهلها ، فى صورة سهلة كريمة — فالإسلام لا يعرقل سير الخطوات نحو هذه الغاية الإنسانية، بل يشدد النكير على من ينفر الإنسان منها ، ويدفعه على الوقوف دونها . يقول الله سبحانه وتعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينة الله التى أَخْرَج لعبَاده والطيبات مِنَ الرِّزْق ؟ قلْ هِى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوْم القيامة ، كذلك نفصل الآياتِ لقوم يَعلمون »(١).. فالله جل شأنه هنا فوق أنه أنكر على من يحرم زينة هذه الحياة وما فيها من مباهج ومنافع مادية ، فوق أنه أنكر عليه صنيعه هذا — يؤكد أنها للمؤمنين خالصة ، بمعنى أن ليس على المؤمنين من شائبة نقص إذا استخدموها ، وسعوا إليها . ثم يزيد على ذلك فيذكر أن من يحرمها ليس من جنس عقلاء البشر : « كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون » .

* * *

الإسلام بعد هذا الإجمال فى موقفه من زينة الحياة الدنيا ومنافعها تناول بعض مقومات هذه الحضارة وبعض العناصر الرئيسية التى تتكون منها : ذكر الحديد وقيمته ومدى منفعته للناس ، فقال الله جل شأنه : « وأنزلنا الحديدَ فيه

(١) الأعراف : ٣٢ .

بأسٌ شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله مَن ينصره ورُسله بالغيب إن الله قوى عزيز »(١). ويقول : « ولقدْ آتينا داود منا فضلا ، يا جبال أوِّبى معه والطير وألنّا له الحديد ..»(٢).. إلى غير ذلك من الآيات التى تشير إلى العناصر الرئيسية الأخرى — كالفحم الذى عبر عنه القرآن الكريم بغرابيب سود ..

والإسلام بهذا وذاك يقف من الحضارة الحديثة موقفاً إيجابياً . إلا أنه فقط يحذر من خداع الإنسان بمتع هذه الحياة ، يحذره من أن تصبح له فتنة ، ويصبح مفتوناً بها ، يركز نظرته فى الحياة إليها وحدها ، ويقصر نشاطه وسعيه على تحصيلها ، تاركا الهدف الأساسى فى الحياة كلها ، والوجود كله ، وهو الله سبحانه وتعالى ، والإيمان به . وهذه المتع — لذلك — إن كانت زينة هذه الحياة ، فإنها من جانب آخر موضوع لاختبار المتّعين بها فى تصرفهم إزاءها ، وفى الإيمان بالله بعد ذلك . يقول سبحانه : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسنُ عملا »(٣).

يحذر الإسلام من الافتتان بهذه المتع حتى لا تسيطر عليه مادية الحياة الدنيا ، فينسى النوع الآخر من الحياة ، وهو الحياة الأخروية . وإذا نسى هذا الضرب الآخر من الحياة ، لم يعد يخشى الله وجزاءه . وإذا انتزعت من قلبه خشية الله ، عامل نفسه معاملة المستغنى ، وعندئذ يطغى فتهلك نفسه ، ويهلك غيره معه إن أصيب بطغيانه . يقول الله جل شأنه : « كلا إنَّ الإنسان ليطغَى أنْ رآه استغنى »(٤) .

الإسلام يريد أن تبقى زينة الحياة زينة لمن يباشرها ، ويتمتع بها ، ولكنه يمنع من أن تتحول إلى مصدر للإهلاك والشقاء فتخرج عن طبيعتها .

---

(١) الحديد : ٢٥ . (٢) سبأ : ١٠ . (٣) الكهف : ٧ .
(٤) العلق : ٦ ، ٧ .

التكافؤ الإنسانى فى الاسلام

نظرة لإسلام إلى الناس جميعاً نظرة متساوية ، عندما وجه إليهم رسالته . نظر إليهم على أن طبيعتهم الإنسانية فى خصائصها طبيعة واحدة ، وأن استعدادهم البشرى فى أصله استعداد لا تفاضل فيه . وعبر عن ذلك بقول الله تعالى فى قرآنه الكريم : « يا أيهـا الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » [(١)] .. فهم فى نظره من أصـل واحد ، وتفرقهم بعد ذلك إلى شعوب وقبائل لا يحول دون تجانسهم ، ولا يمنع من توادهم وتعارفهم . بل هذا التفرق إلى الأمم والجماعات سيصير بهم من جديد إلى التوادد والتعارف ، لأنهم خلقوا من طبيعة واحدة ، فمآل أمرهم إلى أصل نشأتهم .

ومن أجل أن الإسلام نظر إلى الناس نظرة متكافئة لا تفرقة فيهـا ، وجه إليهم رسالته ، وجعلهم أمامها فى التبعة والمسئولية سواء . يقول لهم جل شأنه : « يا أيها النـاس اتقوا ربكم الذى خلـقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء »[(٢)] .

ويقول : « ... واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، وبذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملـكت أيمانـكم »[(٣)] .

فنى الوقت الذى يطلب منهم جميعـاً أن يتقوا الله الخالق ، ويتبعوا وصاياه التى تحدد على وجه الإجمـال بعبادة الله وحده ، دون إشراك كائن آخر معه

---

(١) الحجرات :   (٢) أول النسـاء .

(٣) النسـاء : ٣٥ .

فى العبادة ، وبالإحسان وعمل الخير والمعاونة والمشاركة الاجتماعية ـ فى هذا الوقت الذى يطلب فيه ذلك يؤسس هذا الطلب على أنهم خلقوا من نفس واحدة ، ومصدر طبيعتهم مصدر واحد .

وتبعاً لنظرة الإسلام إلى البشرية عامة هذه النظرة الموحدة — عمل على إزالة الحوائل والعوائق التى قد توهم المفارقة فى الطبيعة الإنسانية ، وتوهم تنوعها إلى أنواع مميزة ، فى أصلها ، وإن من هذه الأنواع مايفضل بعضه فى نشأته وكونه .

عمل على إزالة الرق فى صورته المعروفة فى تاريخ الإنسانيــة ، وهى أن يملك الإنسان الإنسان ، ويتخذ منه تابعاً مفضول القيمة يلحق بمتاع هذه الحياة وسلعها ، ويجوز عليه مايجوز عليها من بيع وشراء ، وهبة وكراء ،وبقية التصرفات الأخرى التى تفصلها عقود المعاملات بين الناس بعضهم مع بعض .

عمل على إزالة الرق فى هذه الصورة بوسائل شتى ، ترجع جميعها إلى أن عتق الرقيق وفكه من قيود التبعيــة والملكية لإنسان آخر ، عمل عظيم يتقرب به الإنسان المالك إلى الله تعالى ، ويتقدم به على كل عمل آخر من أعمال الإحسان للغير فى الجماعة البشرية . يقول الله تعالى : «وَمَا أَدْرَاكَ ما العَقَبَة . فكُّ رَقَبة . أوْ إطعام فى يومٍ ذى مسْغبة. يتيماً ذا مَقربة . أوْ مسكيناً ذا مَتْربة[1]» . فجعل عتق الرقيق أمارة على المنزلة الرفيعة التى يبلغها الإنسان عند الله بسبب هذا العتق، وجعله مقدماً على صور الأعمال الخيرية الأخرى .

وتبعاً لنظرة الإسلام إلى البشرية عامة هذه النظرة الموحــدة — عمل أيضاً على تخليص الإنسانية إذا استعبدت فى صورة جماعية : عمل على مناوأة الاستعمار فى مظاهره المختلفة ، لأنه ضرب من الرق كذلك ، ونوع من العقبات والحوائل التى توهم أن البشر يتميزون فى طبيعتهم الأصلية ، مع أنهم خلقوا من نفس واحدة : يقول تعالى. إنما وَليكم الله ورسُوله ، والذين آمنُوا[2]» .. ويقول «والمؤمنُون

(١) البلد : ١٢ — ١٦ . (٢) المائدة : ٥٥ .

والمؤمنات بعضهم أولياء بعض [1] » .. وبذلك رفع وصاية الأجنبي الدخيل ، وقدم النصح بعدم قبول ولاية المستعمر . فالمستعمر أجنبي دخيل يرى لنفسه وضعاً معيناً فى الحياة ، ولغيره ممن يستعمرهم وضعاً آخر ، أقل شأناً فى الكرامة الإنسانية وأقل مجالا فى الحياة العامة ، وأدنى منزلة فى الاستمتاع بخصائص الإنسان كإنسان حر كريم ، بحكم أصله وطبيعته .

الإسلام أيضاً رتب على هذه النظرة المتكافئة إلى البشرية كلها وجوب التعاون بين أفرادها على البر والتقوى ، وعدم تضامنهم على الإثم والعدوان . فالله جل جلاله إذ يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان [2] » .. ينشد المعونة الخيرة ، وترك المعاونة الآثمة ، على أساس أن كل إنسان عنده الاستطاعة إلى هذه ، أو تلك . وذلك لا يكون إلا إذا كانت نظرته إلى البشر نظرة متساوية متكافئة .

ولم يفاضل الإسلام بين إنسان وإنسان ، وجماعة وجماعة إلا فى نوع العمل الذى يأتى به الإنسان ، أو تأتى به الجماعة ، فيقول تعالى : « إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم [3] » .. ويقول جل شأنه كذلك : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين [4] .. » .. ويقول « والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .. وهذه المفاضلة لا تتصل بطبيعة البشر ، وإنما تتصل بالمجهود البشرى ، ونوعه واتجاهه ، وذلك شىء بعد الطبيعة البشرية نفسها .

---

(١) التوبة : ٧١ .

(٢) المائدة : ٢ .

(٣) الحجرات : ١٣ .

(٤) العنكبوت : ٦ .

السلام العالمى فى الاسلام

السلام العالمى معناه نبذ الخصومات بين الشعوب والجماعات وقيام العلاقات بينها على أساس من الاستقرار والطأنينة .

السلام العالمى هو توجيه نشاط الشعوب والجماعات نحو حياة إنسانية أفضل وأهدأ ،وتوجيهها إلى البناء ، بدلا من الهدم، لصالح الجماعة العامة ، وهى الإنسانية .

الإسلام ينشد السلام الداخلى والخارجى، ويسعى إلى الاستقرار داخل الأمة الإسلامية ، وإلى الاستقرار فى علاقتها بالأمم الأخرى ، وبالأخص تلك الأمم التى لاتنكر الخالق ، ولا تعبث برسالات الرسل .

الإسلام يتجه إلى جماعة المؤمنين بهذه النصيحة فى قول القرآن الكريم:

« وَمَن أَحسَن قَولاً ممن دَعا إلى الله ، وَعمل صَالحاً..[1] » ..فحث على أن يكون قول المسلمين دعاء وتقربا إلى الله ، أى يبتعدون فيه عن إيذاء الناس ويطلبون خيرهم . لأن ما كان لله فهو لخير الناس ، وما كان لخير الناس بعيد عن أن يكون فيه إيذاء لهم واعتداء عليهم . حث المسلمين على ذلك ، كما حث على أن يكون عملهم صالحاً خيراً . وبهذا وذاك وجه الإسلام المسلمين إلى أن يكونوا فى أقوالهم وأفعالهم خيرين . ومعنى ذلك أنه لايطلب منهم الوقوف عند حد عدم الإيذاء فحسب ، بل مع ذلك يطلب منهم أن يكونوا أصحاب عمل إيجابى لرفاهية الجماعة الإسلامية وسعادتها .

وكما يتجه الإسلام إلى المؤمنين فى علاقتهم بعضهم ببعض على هذا النحو ، يتجه إليهم أيضاً فى علاقاتهم مع الأمم الأخرى اتجاه المطالب بالسلام والاستقرار

---

(١) فصلت : ٣٣ .

وعدم الاعتداء فى علاقاتهم بهذه الأمم . يقول الله تعالى مخاطباً المؤمنين : « يَا أيها الذين آمَنُوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولا تتبعُوا خُطُـوات الشيطان ، إنه لَكُمْ عدو مُبين[1] » .. فيطلب منهم أن لا يعتدوا على غيرهم ، وأن يشاركوهم فى السلام العام ويسهموا معهم بنصيب إيجابى فيه .. وذلك هو معى دخولهم فى السلم كافة ، وعدم تتبعهم خطوات الشيطان .

ومع أن الإسلام يطلب من المسلمين أن يكونوا إيجابيين فى عملهم للسلام العالمى ، يطلب منهم أيضاً أن يكون قولهم قول الحريص على السلام ، وهو صاحب القول الحسن ، الذى لا يندفع فيه تحت ضغط هواء أو وسوسة الشيطان له . يقول سبحانه مخاطباً رسوله الكريم: « وقلْ لِعبَادى يَقُولوا التى هِى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم ، إن الشيطانَ كانَ للإنسان عدُواً مُبيناً[2] » .

وهنا نرى الإسلام يقر مبدأ عدم الاعتداء ، ثم مع إقرار هـذا المبدأ يسعى لتحقيق خطوة أخرى بعده ، هى العمل لصيانة السلام وإدامته ، سواء أكان ذلك بين أفراد الأمة الإسلامية ، أو بينهم من جانب والشعوب الأخرى غير الملحدة من جانب آخر .

والإسلام لا يحمل على الإيمان بعقيدته ، ولا يكره الناس عليهـا . يقول الله تعالى : « لا إِكرَاه فِى الدين[3] » .. وإذا كان يبعد القسر والإكراه فى نشر عقيدته ، فمعنى ذلك : أنه ليس للمسلمين — وهم الجماعة التى تعتقد بالاسلام — من سبب يدعوهم إلى الاعتداء على غيرهم . وهذا منبثق من خصائص تجمعهم وتكتلهم . والمسلمون إذن من أجل ذلك مطالبون من إسلامهم بعدم الاعتداء ، ثم بالمساهمة فى بقاء السلام ، وعدم تعرض العلاقات الدولية للقلق والاضطراب .

ولكن الإسلام إذ يطلب منهم ذلك ، يطلب منهم فى الوقت نفسه أن

(١) البقرة : ٢٠٨ .
(٢) الاسراء : ٥٣ .
(٣) البقرة : ٢٥٦ .

يقاوموا الاعتداء إن وقع عليهم من غيرهم . والاسلام بذلك يسير مع منطقه ومبدئه ، وهو صيانة السلام . إذ مقاومة الاعتداء وسيلة أخرى لحفظ السلام ، واستقرار العلاقات البشرية . يقول الله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم[١] » .. ويقول : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به[٢] » .

ويؤكد حرص الإسلام على السلام العام لذاته ، أنه إذ يطلب من المسلمين هنا دفع الاعتداء عليهم ، يطلب عدم تجاوز الحدود والصورة التى وقع بها ، فلا يتجاوز رد الاعتداء من المسلمين مثل ما وقع عليهم ، ولا يتجاوز المعتدين إلى غيرهم من بنى جنسهم .

يقول تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين[٣] » .. ويقول تعالى : «يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى[٤]... » .

ويزيد فى تأكيد هذا الهدف السلمى للإسلام أنه يطلب من المسلمين فى حال القيام برد الاعتداء والاشتباك مع غيرهم أن يقبلوا السلام منهم عندما يعرضونه عليهم . يقول المولى سبحانه : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله إنه هو السميع العليم[٥] » .

وإذن صيانة السلام هى التى تحمل المسلمين — فى نظر الإسلام — على دفع الاعتداء ورده ، وليس سبب ذلك فقط رد الاعتداء لأنه اعتداء .

الإسلام هنا فى جانب السلام العالمى محدد واضح . يطلب أولا من المعتقدين

---

(١) البقرة : ١٩٤ .
(٢) النحل : ١٢٦ .
(٣) الممتحنة : ٨ .
(٤) المائدة : ٨ .
(٥) الانفال : ٧١ .

به أن يصونوا السلام العام . فإن أوذوا فى سبيل صيانته دفعوا الإيذاء عنهم بمثل الصورة التى وقع فيها ، وعندما يدفعون الإيذاء يجب أن لايخرجهم دفعه عن حد الاعتدال والعدل ، ثم إذا عرض عليهم الكف وعدم الاستمرار فى الاشتباك مع من يناصبونهم العداء قبلوا هذا العرض حباً فى السلام نفسه .

وفقط يحذر الإسلام المسلمين — صيانة للجماعة الإسلامية نفسها — ألايقبلوا موالاة من اعتدى عليهم بعد الكف عن الاشتباك . لأن المتعدى لايؤمن جانبه مرة أخرى وبالأخص إذا أفلح فى الاعتداء . يقول الله جل شأنه : « إنما يَنهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولـئك هم الظالمون[١] » .

ومع شدة حرص الإسلام على السلام العالمى إلى هذا الحد الذى نراه لايريد للمسلمين أن يستذلوا فى سبيله . بل يجب عليهم أن يحافظوا على السلام ، وعلى كرامتهم معاً . يقول الله جل شأنه : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم[٢] » .

---

(١) الممتحنة : ٩ .
(٢) محمد : ٣٥ .

المسلمون والشعوب الأخرى

إذا كان الإسلام يحرص على السلام العالمي مع الشعوب كلها ، فإن حرصه يشتد ويتضح إذا تأملنا في نظرته لغير المسلمين ، ممن يؤمنون برسالة السماء ، ولا ينكرون وحي الله ، وإن اختلفت صور إيمانهم عن إيمان المسلمين .

يحدد القرآن الكريم هذه النظرة فيما يختص باليهود في قول الله تعالى : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون[1] » .

وفيما يختص بالمسيحيين يقول جل شأنه : « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم ، مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون[2] » .

ويتحدث القرآن نفسه عن المسلمين وموقفهم هنا إذ يقول مخاطباً الرسول الكريم : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق[3] » .

ونظرة المسلمين إذن إلى غيرهم من هذه الشعوب نظرة الشريك إلى شركائه في الإيمان بالله ، والعمل بالرسالة الإلهية التي لا تختلف أصولها العامة عن رسالة إبراهيم عليه السلام .

---

(١) المائدة : ٤٤ .
(٢) المائدة : ٤٦ ، ٤٧ .
(٣) المائدة ٤٨ .

ويجيب القرآن أيضاً عن سر الاختلاف بين أصحاب هذه الرسالة السماوية ، بعد إيمانهم بوحى الله — يقول المولى جل وعز : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون [1] » .

فتعدد هذه الشعوب ليس للخصومة والهدم ، وإنما للتسابق إلى الخير ، والعمل لخدمة الصالح العام ، واختبارها فيما بينها فى هذا التسابق .

هذا الأساس المشترك فى الاعتقاد من شأنه أن يبيح تبادل العلاقات والمنافع ، ويجيز التعامل بين المسلمين وهذه الشعوب فى دائرة واسعة ، حتى فى دائرة الاشتراك فى رد عدوان عام يهدد الرسالة الإلهية عامة .

يقول الله فى هذا الشأن : « اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان [2] » .

فإلى هذا الحد من التدخل فى المعاملات يبيح الإسلام للمسلمين أن يتعاملوا مع غيرهم من أهل الكتاب . وليس التعامل حينئذ مقصوراً على الجانب الاقتصادى ، ولا التبادل وقفاً على الجانب الثقافى أو الفنى ، بل يتجاوز كل ذلك إلى خاصة الطعام والارتباط بالمصاهرة على النحو الذى رسمه القرآن . أما العقود والعهود ، فالإسلام يوجب على المسلمين أن يوفوا بها فيما بينهم ، وكذا بينهم وبين غيرهم . يقول الله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود .. [3] » .. ويطلب إذن الوفاء بها على الإطلاق أياً كان الجانب الذى ارتبطوا به .

(١) المائدة : ٤٨ . (٢) المائدة : ٥ .
(٣) أول المائدة .

ولو أن غير المسلمين من اليهود والمسيحيين كان لا يسارع إلى الإثم والعدوان أو لا يغلو فى تخريج معتقده فيرتكب بناء عليه أخطاء فى علاقته بالمسلمين ـ لكان موقف المسلمين موقفاً لا حذر، ولا ريبة فيه ، ولكان هنالك ترابط مستمر، وتعامل مستمر ، وتعاون مكفول .

ولكن الأمر فى بعض الأحوال قد يتطلب الحيطة من المسلمين فى علاقتهم بغيرهم . وهى تلك الأحوال التى يساء فيها إلى عقيدة المسلمين ، أو إلى جماعتهم أو فريق منهم . يقول الله تبارك اسمه : «قلْ يا أهلَ الكتاب لا تَغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعُوا أهْواء قوم قدْ ضَلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضَلوا عنْ سواء السَّبيل[1] » .. ويقول : « وترى كثيراً منْهم يُسارعُون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحْت ، لبئس ما كانُوا يعملُون[2] » .

عندما يغلب ذلك ظناً راجحاً يطلب الإسلام من المسلمين الحذر ،وعدم التوسع فى الصداقة والتوادد . وهذا شىء طبيعى يقره المنطق وقانون العدالة الإنسانية . يقول الله فى هذا الشأن فى كتابه الكريم مخاطباً المؤمنين : « إنما وليكم الله ورسوله ، والذين آمنوا ، الذين يقيمُون الصَّلاة ويؤتون الزَّكاة ، وهم راكعُون . ومن يتولَّ الله ورسوله ، والذين آمنُوا ، فإن حزب الله هُم الغالبُون. يأيُّها الذين آمنُوا لا تتخذُوا الذين اتخذُوا دينكم هزواً ولعباً ، من الذين أُوتوا الكتاب منْ قبلكم ، والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين[3] » .. وبذلك ينصحهم أن يعتكفوا فى دائرتهم الخاصة ، دون موالاتهم لغيرهم .

ولا يطلب منهم عندئذ تصحيح الأوضاع عند غيرهم . بل كافيهم الاحتفاظ بوجودهم ، وكرامتهم : « يأيُّها الذين آمنُوا عليكم أنفسكم ، لا يضرُّكم من ضل

(١) المائدة : ٧٧ .
(٢) المائدة : ٦٢ .
(٣) المائدة : ٥٥ ـ ٥٧ .

إذا اهتديتم ، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون[1] » .

الإسلام فى علاقة المسلمين بغيرهم ممن يشاركونهم الاعتقاد بالله ، والوحى والرسالة ، يقدر هذه الصلة الوطيدة ، ويؤسس عليها جواز المعاملة والترابط إلى درجة بعيدة المدى ، ولكن حرصاً منه على جماعة المسلمين — فى كيانهم وكرامتهم — ينصحهم بأخذ الحيطة منهم إن تحسسوا منهم نوايا عدوانية ، أو استخفافاً بعقيدتهم الإسلامية . وتبدو هذه الحيطة فى طلب احتفاظ المسلمين بعضهم ببعض ، وموالاة بعضهم لبعض . ولا يطالب منهم أن يقتحموا الديار على غيرهم ليقيموا فيها أوضاعاً تصحح الأوضاع القائمة بينهم ، إذا ما رأوا فيها الانحراف وعدم الاستقامة .

الإسلام كما ينشد السلام الدائم ، ينشد الحرية بين الشعوب المحبة للسلام ، وهى شعوب الإيمان بالله ، ويحرص عليها ، وينفر من الاعتداء ويقاومه ، ويطلب التعاون ويكفل بقاءه بين الجماعات المحبة لله والمؤمنة به .

---

(١) المائدة : ١٠٥ .

المسلمون أمة واحدة

يقول الله تعالى : إنّ «هذه أمتكم أمّة واحدة وأنا ربكم فاعبدُون[1]» .. المسلمون جماعة واحدة ، ومهما تعددت أفرادهم وشعوبهم ، يجتمعون على عبادة رب واحد : «الله الذى جعلَ لكم الأرضَ قراراً ، والسماء بناء وصوّركم فأحسنَ صوركُم ورزقكم من الطيبات ، ذلكُم الله ربكُم فتبارك الله رب العالمين[2]» .. «إلهكُم إلهٌ واحد ، فالذين لا يُؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهُم مستكبرُون[3]» .

وكما يجتمعون على عبادة رب واحد يجتمعون على وحدة فى الصلاة بين بعضهم بعضاً ، ووحدة فى الفعل والترك فيما يتصل بخير أنفسهم وخير جماعتهم ، ووحدة فى طاعة الله ورسوله وفيما جاء عن الله ورسوله : «والمؤمنُون والمؤمنَات بعضُهم أولياءُ بعض يَأمُرون بالمعرُوف وينهونَ عن المنكر ، ويقيمُون الصلاة ويؤتُون الزكاة ، ويطيعُون الله ورسوله أولئك سيرحمهُم الله ، إن الله عَزيز حَكيم[4]» .

لا يوجد بينهم شعور الجنس ولا القبيلة ، كما لا تفصل بينهم حدود المكان وأحداث الحياة . ويجمع بينهم الإيمان . وبالإيمان وحده تلغى الحواجز التى وراءه . والمؤمنون والمؤمنات فى أى مكان وزمان ، وفى أى حال ، وفى أى شعب وقبيلة بعضهم أولياء بعض ، يتبعون منهجاً واحداً ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأداء فروض العبادة التى فرضت ، والامتثال لله ولرسوله فيما ينصحهم به لأنفسهم وفى علاقات بعضهم ببعض . ربكم رب واحد ، ومنهجكم منهج واحد ، وغايتكم فى الحياة واحدة ، وسبيلكم إليها واحد أيضاً . أنتم جماعة من الناس ، لا مجموعة من الشعوب والدول ، وأنتم بشر لا ملائكة . لكم أهواؤكم وميولكم .

---

(١) الأنبياء : ٩٢ .
(٢) غافر : ٦٤ .
(٣) النحل : ٢٢ .
(٤) التوبة : ٧١ .

ولكن الإسلام، صوناً لجماعتكم من الانحلال، وحرصاً على بقائها ذات شخصية واستقلال — يطلب إليكم أن لا تكون ميولكم مهما اشتدت وطأتها على نفوسكم هي القاعدة في الفصل في شؤونكم ومستقبلكم. يقول الله تعالى: «يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء، إن استحبوا الكفر على الإيمان، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون[1]» .. فبين الأبناء من جانب والآباء والإخوان من جانب آخر من أوصر القربى، ما يؤكد الميل إلى امتثال أحد الطرفين للآخر فيما يرى أو يعمل أحد الطرفين. ولكن الإسلام نصح المؤمنين به تجنب رأي أقربائهم من الآباء والإخوان وتجنب عملهم، وتجنب الاتصال الوثيق بهم إن استحب هؤلاء الكفر بمثل الجماعة المؤمنة وأهدافها على الطواعية والتسليم بها.

ليس إلا الإيمان، وليس إلا الاشتراك فيه. هو وسيلة القربى، ووسيلة التوادد، ووسيلة طاعة فرد لآخر، ووسيلة استماع النصح من فرد لآخر، وما عدا ذلك من العلاقات في مرتبة لا تزاحم مرتبة الاشتراك في الإيمان، فضلا عن أن تسودها.

تكوين الجماعة الاسلامية والمحافظة عليها:

هذا هو إسلامكم في تكوين جماعتكم، وفي المحافظة على شخصيتكم كأمة تواجه جماعات وأمم أخرى، فبينكم وبين بعضكم: عبادة رب واحد، وانتهاج منهج واحد في الحياة، والسعي لغاية واحدة. وليس في هذا المنهج الواحد، شعوبية، ولا قرابة ذوي قربى، ولا تحقيق مصلحة فريق منكم دون مصلحة الفريق الآخر، ولا قبلية، ولا حزبية، ولا تقدمية ورجعية.

وفي موقفكم، كجماعة لها شخصيتها واستقلالها في المنهج والغاية، من جماعة أخرى لا تدين بمنهجكم ولا تبغي غايتكم، ينصحكم إسلامكم باتباع خطة السلم وإقرار مبدئه في نفوسكم، يقول القرآن الكريم:

---

(١) التوبة: ٢٣.

يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين[1] » .. فأكد القرآن السلم كمبدأ عام أمر المسلمين باتباعه فقال : «ادخلوا فى السلم كافة» .. وأكده بأن يحلوه فى قلوبهم ونفوسهم ولا يقفون به عند النطق بأفواههم . فقال : « ولا تتبعوا خطوات الشيطان » .. إذن عمل الشيطان هنا هو الإغراء على الخروج على مبدأ السلم . فإذا نهى القرآن عن اتباع خطواته كان معناه النهى عن اتباع الإغراء النفسى بالخروج على السلام . وفى ذلك تأييد لإقرار روح السلام فى نفوس المؤمنين .

ولكن فى الوقت نفسه حذر المسلمين من أن يتخذوا من غيرهم خواص يثقون بهم ويؤثرونهم فى اتباع الرأى على مشاركيهم فى الإيمان ، حذرهم من ذلك حتى لايضاروا فى توجيههم ، وفى الاحتفاظ بشخصيتهم . فقال : « يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم ، لايألونكم خبالا ، ودوا ماعنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم . وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون[2] » .

أيها المسلمون ... بناء قوى فى جماعتكم يقوم على الإيمان لغاية لاتتخلف وهى اتباع رسالة الخالق ، وصلابة فى موقفكم ضد تآمر عدوكم عليكم ، وحرص على السلم إن جنح غيركم لها . تلك هى الحدود التى رسم بها الإسلام استكمال شخصيتكم . والإيمان بها لايتجزأ ، والعمل على تنفيذها لا يقوم فى وقت دون وقت .

لكم شخصيتكم الإسلامية ، فلا هى شرقية ولا غربية ، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض .

---

(١) البقرة : ٢٠٨ .

(٢) آل عمران : ١١٨ .

قوة المسلمين فى ولاء بعضهم لبعض

يقول الله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض[1] » .. ويقول رسوله الكريم : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا** » هذا هو نداء الإسلام للمسلمين للإبقاء على علاقات الأخوة والمودة والولاء بين بعضهم البعض . إذ فى الإبقاء على علاقات المودة والأخوة والولاء إبقاء على شخصية المجتمع وعلى أهدافه وغاياته . وهى أهداف وغايات تتصل بسيادتكم . وسيادتكم فى عدم طواعيتكم لمن لا يؤمن باتجاهكم ودينكم : « وَلا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم[2] » .. يقول ذلك القرآن الكريم تحذيراً من تفتت الجماعة ومن وهنها إذا ما اتبعت ودانت بالولاء لمن لا يؤمن بإيمانها فى الحياة .

إن المسلمين جماعة قامت على مبدأ الإيمان بالله ، وناضلت فى سبيل الاحتفاظ به ، وعرفت بين الجماعات الأخرى بأنها الجماعة التى أسلمت لله ولرسوله . جماعة هذا وضعها من الطبيعى أن يكون مستقبلها مرتبطاً بما ارتبط به قيامها من الإيمان بالله والنضال والكفاح فى سبيله : « **لا يصلح امر هذه الامة الا بما صلح به اولها** » .

والإيمان بالله ليس شعاراً منفصلا عن المجتمع الإسلامى ، بل هو حقيقة فى نفس كل مؤمن بالإسلام ، تدفعه إلى العمل وفق ماجاءت به رسالته وهى رسالة الأخوة والمحبة والتعاون ، ورسالة المشاركة فى دفع الاعتداء ، وفى صيانة المجتمع من أن يهن ويضعف .

ولا شىء أقوى فى هدم كيان المجتمع من أن تتوزع أفراده بين نحل مختلفة ومذاهب متفرقة واتجاهات متباينة . والذى يعمل على هدم كيان مجتمعنا هو الذى يدعو إلى الولاء لغير أفراده ، وهو الذى يدعو إلى الايمان بما لا يؤمن به أفراده .

---

(١) التوبة : ٧١ . (٢) آل عمران : ٧٣ .

وبالأخص إذا كان مايدعو إليه يتنافى مع مايدين به المجتمع ومع مايتجه إليه فى اعتقاده وإيمانه .

وإذن أمارة المخلص لهذا المجتمع ، المؤمن بأهدافه ، الداعى حقيقة إلى استقلاله وعزته ، هو ذلك الذى يعلن الولاء بقلبه وفى دعوته إلى الله ورسوله . هو الذى لا يشاق الله ورسوله . ومن يشاقق الله ورسوله . . هو الذى لا يتحدى الله ورسوله ، مهما كانت البواعث والدوافع . « لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه[1] » .

إننا نعرض هنا فى هذا المجال عاقبة الذين يحادون الله ورسوله . ونحن لانعرض ذلك متنبئين ولا مستنتجين ، إنما نعرض كلام الله ، وقوله الحق والصدق : «إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم[2]» . . ومانرمى إليه هذه الآية هو : أن نهاية أمر الذين يحادون دعوة الحق ، وهى دعوة الله ورسوله هى الكبت والفناء ، وأن مصيرهم إلى التلاشى والزوال . وهذا وعد الله ولن يخلف الله وعده .

ولعل من يحاد الله ورسوله فى دعوته فى مجتمعنا الإسلامى يكون قد خدع بعزة غيره وبما له من سلطان وسطوة . ولكن سيكون المآل هو المآل . ستبقى العزة لله وسيكون الفناء لغيره : « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً[3] » .

مجتمعنا لاهو شرقى ولا هو غربى . هو مجتمع إسلامى له نظامه وله خواصه وله توجيهه :

---

(١) المجادلة : ٢٢ . (٢) المجادلة : ٥ .
(٣) النساء : ١٣٩ .

نظامه : يقوم على عدم الاعتداء ولكنه يطلب دفع الاعتداء : « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .. « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم .. » .. ينصح بولاء أفراده بعضهم لبعض ، ويكره أن يعطى أحد من أفراده ولاءه لغير المؤمنين معه : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » . . والشرقى والغربى فى نظره سواء . كل يكفر بما نؤمن به من مثل وقيم ، كل لا يفى بما يعد به ، كل لا يرحم إذا سيطر : « لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر[١] .

والإسلام هو أساس نظام هذا المجتمع ، لم يقف من هؤلاء موقف المهادنة ، فضلا من موقف طلب الوفاء والتبعية لهم . بل كان موقفه هنا هو أن طلب من المؤمنين أن يكونوا حذرين يقظين منهم . فإذا واتت الفرصة لإضعافهم فالواجب انتهازها حتى لا يطل شر واحد منهم من جديد على مجتمعنا المستقل فى نظام توجيهه وفى ترابط أفراده على أسس من رسالة السماء : « فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون[٢] » .

ليس أضر علينا من فرقة ، وليس أجدى لنا فى صراعنا مع الشرق والغرب من وحدة . إن الشرق والغرب ، كلاهما يبغى بما يبشر به هنا وهناك فى كل مكان فى مجتمعنا أن يثير فرقة وعصبية لمذهب ، ويدعو لولائه ثم لتبعيته وطاعته :

« **تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتى** » . .
هو كتاب واحد لأصحاب إيمان واحد ، ولأصحاب غاية واحدة فى البقاء والمصير .
والفرقة بعد ذلك هى من الشيطان ، هى من شهوات النفس : « إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ، الشيطان سول لهم وأملى لهم »[٣] .

---

(١) آل عمران : ١١٨ . (٢) الأنفال : ٥٧ .
(٣) محمد : ٢٥ .

الاسلام أكبر عدو للاستعمار

١ — إذا وصف الإسلام بأنه دين الحرية فذلك حق وواقع . فقد طلب من الإنسان أن يتجرد من الحزبية والهوى وتقاليده الماضية إذا نظر وحكم . وطلب من القائمين بأمر الدعوة الإسلامية ألا يكرهوا الناس على قبول دعوتهم ، وأن يعرضوا عليهم أمرها فى رفق ولين : فلا إكراه فى الدين بعدما تبين الرشد من الغى.

وهو إذ يطلب من الإنسان ألا يتقيد فى تفكيره وأحكامه ، واتجاهه فى الحياة إلا بأوضاع المنطق السليم ، وبحدود النظرة الإنسانية العامة — يترك له مجالاً واسعاً لنشاطه الإنسانى حتى يكون عمله مثمراً لنفسه ولجماعته .

وإذ يطلب الإسلام أيضاً من القائمين على أمر الدعوة الإسلامية ألا يحملوا الناس قسراً على الأخذ بتعاليم الإسلام وعلى الإيمان بما أتى به الرسول ﷺ ، يثق تمام الثقة بأن الإيمان عن رضى واقتناع دافع قوى لصاحبه فى أن يكون من العوامل الإيجابية فى توجيه نفسه وتوجيه أمته إلى خيرها .

حرية الإنسان مظهر لكرامته ، وهى الفارق بينه وبين غيره من الكائنات التى تنمو أو تتحرك فى هذا الوجود . وهى أداته كذلك للإنتاج والعمل الإيجابى. والفرد الحر فى الشعب الحر مساهم بنصيب وافر فى حضارة شعبه ورقيه وتطوره . وما افترق شعب عن شعب آخر فى مستوى التفكير والمعرفة ، والإنتاج للحضارة البشرية إلا بمقدار حرية الفرد فى الشعبين .

والإسلام إذ يؤكد حرية الإنسان حتى فى قبوله الدعوة الإسلامية : ينفر نفوراً شديداً من العوامل التى تضيق مجالها على الإنسان ، أو التى تحول دون تمتع الفرد بها على الإطلاق . ولا يقف الإسلام من هذه العوامل موقف النفور فحسب ، بل

يرى فى التخلص منها والعمل على إضعافها نوعاً من القربى إلى الله ، وأى قربى . ويتجلى ذلك واضحاً فى الخطة التى رسمها لتحرير الرقيق . فمع حرصه على حرمه الملكية الفردية ، إلا أنه فى الدائرة الإنسانية لم يرض عن استمرار الرق وتملك الإنسان للإنسان ، بل شجع العتق وفك الرقاب فى صور مختلفة ، وجعل ذلك من أعظم الأعمال التى يتقرب بها الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى .

٢ — فأى مظهر من مظاهر التضييق على حرية النـاس هو إذن نوع من الاعتداء على كرامة الإنسان والاستخفاف بقيمته الإنسانية . والاستعمار فى أبسط صوره وأخف مظاهره سلب لحرية الأفراد والجماعة . وإذا سلبت حرية النـاس فإنهم يكونون موجهين حينئذ للسبيل التى يرسمها ذلك المستعمر مضطرين مكرهين . وهى سبيل تؤدى قطعاً إلى غاية واحدة . استغلال هؤلاء الناس ، واستغـــــلال نشاطهم الإنسانى لمصلحة المسيطر عليهم . يسوقهم المستعمر سوقاً إلى تحقيق أهدافه الاقتصادية سواء حملهم على الإنتاج لمصلحته ، أو على استهلاك ما يزودهم به من مصنوعاته ، أو فى دفعهم إلى الصفوف الأمامية فى الحروب لتحقيق أغراضه . وهم إذن آلات بشرية فى تحريك عجلة اقتصادياته ورفع مستوى معيشته على حساب مستوى معيشتهم أنفسهم وعلى حساب كرامتهم وتفكيرهم الإنسانى .

والاستعمار لذلك ضرب من ضروب الظلم . وما تقييده حرية المستعمَرين فى نشاطهم وإنتاجهم وتفكيرهم إلا آية واضحة للاعتداء عليهم فى سبيـل تسخيرهم واستغلالهم .

والإسلام كما عرف بأنه دين الحرية عرف أيضاً بأنه دين العدالة ورد الاعتداء : « إنّ اللهَ يأمرُ بالعدل والإحسان وإيتاءِ ذِي القُربى وينهى عن الفَحْشاء والمنكر والبغى[1] » .. فلا يقبل من المسلمين الظلم والاعتداء : «ولا تعتدوا إن الله لا يحبُّ

(١) النحل : ٩٠ .

المعتدين[1] » . ولا يقبل كذلك أن يُظلموا و يُعتدى عليهم . وإذا نهاهم عن الظلم والعدوان فإنه يأمرهم بدفعه ورده : « والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم[2] ».

ولا يأمر المسلمين بدفع الظلم والعدوان عن أنفسهم فقط ، وإنما يأمرهم بنجدة المظلومين إذا استنجدوهم . وعلى المسلمين حينئذ أن يعاونوه على دفع الاعتداء عنهم وإن كان المعتدى والمعتدى عليه يشتركان فى دين واحد أجنبى عن الاسلام . ولأن الإسلام إذ يأمر المسلمين بذلك يقصد إلى تمكين صاحب الحق من حقه فى الحياة لا يرضى أن تسلب حقوق الناس كما لا يرضى أن يحجر عليهم فى عقائدهم ويكرهوا على أمر يتنافى مع كرامة الإنسان .

الاستعمار ظلم واعتداء ، وسلب لحقوق الناس ، وحجر وتضييق على حرية الإنسان ، وإكراه للأفراد على ما لا يتفق والفطرة الإنسانية التى كرمها الله : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا[3] » .

والإسلام يناوىء الاستعمار لأن الإسلام كما ذكرنا يناوىء الظلم والاعتداء ،

٣ — والمسلمون جميعاً مطالبون من قِبل الإسلام بالوقوف صفاً واحداً فى وجه الاستعمار. وإذا طلب إليهم أن يعاونوا غيرهم فى دفع الاعتداء فإنهم مطالبون بالأولى بدفعه إن وقع على فريق منهم . لبس لأنهم مؤمنون بدين واحد ولكن أيضاً لأن وطنهم وطن واحد . إذ هذه الحدود الوهمية بين المجموعات الإسلامية من صنع المستعمر وليست مما يتفق مع تعاليم الإسلام . إذ الشأن فى هذه الحدود والفواصل أن تضعف وحدة الجماعة الإسلامية وتكتل المسلمين . والإسلام ينشد

---

(١) البقرة : ١٩٠ .
(٢) البقرة : ١٩٤ .
(٣) الاسراء : ٧٠ .

هذه الوحدة ويدعو إلى التآخي والتآزر : «إنما المؤمنون إخوة(١)» .. «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض(٢)» .

حاول المستعمرون بهذه الحدود والفوارق أن يقطعوا رقعة العالم الإسلامي قطعاً وأن يوحوا إلى كل مجموعة تقيم على قطعة منها أنها تختلف مع مجموعة أخرى فيما عبروا عنه بالقومية . وأن يجعلوا القومية بدل الإسلام هدف المجموعة الواحدة تسعى إلى الحرص عليها وحدها كما تنشد تحقيق الاستقلال بها .

وهكذا خلق المستعمرون من الأمة الإسلامية شعوباً وقبائل . مع أن ما امتن به الله على المسلمين هو أن جعل من شتيتهم كتلة واحدة ، ومن شعوبهم وأجناسهم أمة واحدة : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً(٣)» .. « وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم(٤)» .

وهكذا لو فتشنا في الاستعمار لوجدناه عدو المبادىء الإسلامية ، ويتنافى صراحه مع أهداف الرسالة التي جاء بها رسولنا ﷺ . وهو إذ يتنافى مع المبادىء الإسلامية يتنافى كذلك مع المبادىء الإنسانية . فليس في مقياس التفكير الإنساني السليم مايقدر الظلم ويقومه أو يعتبر سلب الحقوق الإنسانية من الأهداف التي يسعى إليها الناس . كما أنه ليس من منطق الإنسان الصحيح أن يقر اعتداء الإنسان على الإنسان في حريته ، أو ملكه أو أي أمر آخر من حرماته .

وإذا أوضحنا الآن تنافي الاستعمار مع أهداف الرسالة الإسلامية ومبادىء الدين الإسلامي فإننا لا نرى أن مقاومة المستعمر مع ذلك من فروض الكفاية في

---

(١) الحجرات : ١٠ .
(٢) التوبة : ٧١ .
(٣) آل عمران : ١٠٣ .
(٤) الأنفال : ٦٣ .

الجماعة الإسلامية . بل مناهضة الاستعمار واجب عيني على كل مسلم آمن حقاً برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، أينما كان ، وإلى أي جنس ينتسب . والصورة التي يناوىء بها المسلم الاستعمار تحددها سنه ، واستطاعته المادية والفكرية : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً[١] » .

« انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون[٢] » .

« أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون[٣] » .

المسلمون باشتراكهم في العقيدة مطالبون بالانسجام بعضهم مع بعض في الشعور والسعي في تحقيق غايتهم في هذه الحياة ، وهي أن يكونوا أعزاء على أنفسهم وعلى غيرهم : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » .

---

(١) النساء : ٧١ .
(٢) التوبة : ٤١ .
(٣) التوبة : ١٦ .

مسلمون وإسلام

يخطىء من يعرض الإسلام ومبادئه من حياة المسلمين وسلوكهم الآن : فحياة المسلمين الحاضرة تبتعد فى كثير من مظاهرها عن أهم المبادىء والغايات الإسلامية . ويفصل بين الطرفين مجاز ليس من السهل غض النظر عنه أواجتيازه فى وقت قصير .

يسيطر على المسلمين اليوم اتجاه التواكل. وهو اتجاه سلبى فى الحياة .يسيطر عليهم القعود والتراخى عن العمل ، والاكتفاء من الحياة بلقمة العيش الضرورية ، وإن حصلوا عليها بأسلوب غير كريم . فهموا التوكل على الله تواكلاً ، وظنوا أنه كافيهم فى الحياة أن ينطقوا بالتوكل على الله ، دون عمل مصاحب له فتدين لهم الحياة ، وتتفتح أبوابها ، وإذا بهم فى الصف الأول فى قافلة الحياة . ليس التوكل على الله إلا عاملا إضافياً مساعداً لعمل الإنسان الأصيل . إنه عدة روحية ، يستعين بها الإنسان عند سعيه الخاص لبلوغ أهدافه فى الحياة . فالله سبحانه إذ يقول : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » . « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » .. تذكر أيضاً : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين » .. « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » .

التوكل على الله إذن قوة أخرى بجانب إرادة الإنسان وإيجابيته فى العمل . ولا تكون قوة إلا لذلك الإنسان الذى سلك طريق الهداية الإلهية فيما يعمل ، ويسير نحو غايته . والذى يطلبه الإسلام من الإنسان هو مباشرة العمل أولاً ، والتوكل على الله فيه . وهو بالتوكل يطلب الرعاية الإلهية ليثمر عمله ويوصله إلى مطلوبه .

إن الله كرم الإنسان ، ولا يكون تكريمه إياه فى جعله طبيعة سلبية فى

حياته ، وإنما بجعله قوة فعالة مسيطرة عليها . والإيمان بالله والتوكل عليه ليس مصدر إضعاف لهذه القوة الفعالة ، بل مصدر تنميه لها فى دفعها وفى توجيهها .

وبهذه الظاهرة ، وهى ظاهرة التواكل فى حياة المسلمين الآن تبعد هذه الحياة عن أن تكون مصدر تعريف للإسلام وتصوير لمبادئه .

يسيطر على المسلمين اليوم أيضاً اتجاه الفرقة والانقسام : يميلون إلى الانقسام فى فهم الإسلام ، وإلى الانقسام فى الرأى فى الحياة ، وإلى الانقسام فى المجال الضرورى لكيانهم ، وهو مجال الألفة والأخوة ، يميلون إلى الانقسام فى هذا كله ويحاولون إذا انقسموا أن يبقوا فى دائرة انقسامهم بصورة لاتدع مجالاً للالتقاء ، ولا سبيلا إلى التفاهم والإخاء من جديد .

وقد نسوا أنهم إن اختصموا فى شىء واختلفوا فيه ، أوجب عليهم الإسلام ، أن يردوا ما اختصموا فيه إلى الله ورسوله ، إلى كتاب الله وسنة رسول الله ، حتى لا يضعفهم النزاع ، ولا يذهب بهم إلى ماذهب بالأولين قبلهم . يقول الله تعالى : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا[1] » .

ويقول جل شأنه فى نهى المسلمين عن المبالغة فى الفرقة والخصومة : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا . . واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم[2] » .. ويقول : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء[3] » . . « منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ، ولا تكونوا من المشركين : من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون[4] » .

---

(١) النساء : ٥٩ .
(٢) آل عمران : ١٠٥ .
(٣) الأعراف : ١٥٩ .
(٤) الروم : ٣١ ، ٣٢ .

ومع أن كتاب الله وسنة رسوله بينهم تسيطر على المسلمين فى آونتهم الحاضرة ظاهرة الفرقة والتحزب . وبذلك احتكموا إلى الهوى والعوامل الدخيلة عليهم ، ولم يحتكموا إلى هداية الله . وبذلك تبتعد حياة المسلمين اليوم عن أن تعبر عن ما فى الإسلام من مبادىء ، وما رسمه كفاية للجماعة الإسلامية .

يمتن الإسلام على المسلمين بأنه جمع بين قلوبهم وألف بين شتاتهم بعد فرقة جامحة ، وطلب منهم بعد أن أوصل حالهم إلى هذه الحال أن يحرصوا عليها حتى تبقى لهم قوتهم وعزتهم : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » .. فكيف يكون حال مسلمى اليوم معبراً عن صنيع الإسلام وعن رأيه ؟

* * *

يسيطر على المسلمين اليوم النزوع إلى المادية فى الحياة ، وتأرجحت بذلك القيم المثالية فى نفوسهم . لايسأل فريق من المسلمين عما ينزل بالفريق الآخر من عنت المستعمر ، ومشقة الحياة . بل يسعى كل فريق منهم لأن يضحى بالفريق الآخر فى سبيل ما يسميه سبيل : « السلامة » الخاصة : تبلد الشعور الإسلامى ، بل الشعور الإنسانى : بين طوائف المسلمين بعضهم بعضاً .

تحكمت المادية فى النظرة إلى التراث الثقافى الإسلامى ، وتاريخ الجماعات الاسلامية ، فأضحى هذا التراث من مخلفات الماضى المهلهل ، وأصبح هذا التاريخ قصصاً تنقصه روح الأحداث الكبيرة التى غيرت فى التاريخ وفى اتجاهاته .

كيف تتفق هذه النظرة المسيطرة على حياة المسلمين فى وقتهم الحاضر والقرآن الكريم يقول : « إنّ هـٰذه أمتكُم أمة واحدَة وَأنا ربكُم فاعبدُون[1] » ..

(١) الأنبياء : ٩٢ .

«والعصر . إنّ الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر» .. فربط بين شعور المسلمين ووحد فى اتجاههم ، وهو أن يتواصوا بالحق ويتواصوا بالصبر ، وطالبهم بعمل الخير لصالحهم جميعاً ، وليس ذلك هو النزوع إلى المادية فى الحياة .

ألا : إن الإسلام دين مصدره الكتاب المنزل وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام ما تأكد منها وصح . ألا ! : إن حياة المسلمين المعاصرة تتأرجح بين مظاهر إسلامية واتجاهات أخرى بعيدة فى مصدرها وغاياتها عن مبادىء الإسلام .

مبادىء الإسلام تكفل حقوق الإنسان

حقوق الإنسان التى تعلنها المؤسسات الدولية الحديثة فى قرننا العشرين هى تنازل من قوى لضعيف ، تنازل من مستعمر بقوة السلاح لمستعمر بسبب الجهل والفقر والمرض . وهى تنازل عن بعض امتيازات أوجدها لنفسه القوى بحكم قوته إلى ضعيف ظل فترة طويلة موضع استغلاله واستذلاله .

ومع ذلك فاعلان مايسمى اليوم بحقوق الإنسان من جانب تلك المؤسسات الدولية إن هو إلا تدوين نظرى لهذه الحقوق لايتخطاه إلى التطبيق العملى فى علاقة الطرفين القوى والضعيف . إن هو إلا تغطية للصورة الرهيبة للاستعمار حتى تنخدع الشعوب الضعيفة فترة أخرى فتلقى إليه بالزمام فى شبه أمان واطمئنان .

حقوق الإنسان التى تعلنها المؤسسات الدولية الحديثة فى عصرنا الحاضر محاولة لحل أزمة عدم الثقة بين القوى والضعيف ، والمستعمر وصاحب التقدم فى الصناعة والمتخلف فيها . فإعلان عدم التفرقة فى التعليم بين لون ولون من البشر ، وعدم التفرقه فى الحقوق المدنية بين سكان الوطن الواحد ، وعدم التفرقة فى الحقوق السياسية على أساس الجنس أو الرأى أو العنصر — هو فى واقع الأمر تجربة لعلاج بعض المشاكل الاجتماعية التى أوجدها الجشع والغرور بالقوة الماديه والتقدم فى الحضارة الصناعية عند فريق من الشعوب التى تهزأ بالقيم الروحية الإنسانية .

أما الإسلام فلا يواجه نظامه أزمة مثل هذه الأزمة وهى أزمة عدم الثقة بين قوى وضعيف ، ولا يواجه حلَّ المشاكل الاجتماعية التى يسببها الجشع والغرور بالقوة المادية . ولذا ليست تعاليمه الخاصة بالإنسان إعلاناً بحقوق الإنسان على نحو إعلان تلك المؤسسات الدولية الحديثة .

تعاليم الإسلام الخاصة بالانسان هى تعاليم تضع الإنسان مع الإنسان فى وضع متساو . تتيح الفرص العديدة لجميع أفراد المجتمع على السواء . تتيح لهم فرص العمل، فرص المعرفة والعلم ، فرص استثمار رأس المال وفرص اقتناء المال ، فرص القيادة فى المجتمع ، فرص العدل فى القول والحكم ، فرص المثول أمام المولى جل شأنه فى الصلاة ، فرص الاجتماع بعرفات فى الحج : الذكر والأنثى سواء ، والغنى والفقير سواء ، والصحيح والمريض سواء ، والشريف والحقير سواء . ويتمايز الأفراد فى المجتمع الإسلامى فقط بتقوى الله . « إنّ أكرمكم عندَ الله أتقاكُم[1] » .

وتقوى الله تتمثل فى العمل الصالح المرتبط بإيمان القلب بالمولى جلّ شأنه .

الاسلام أقر للفرد حرية العمل « مَنْ عملَ صالحاً فلنفسه ومنْ أساء فعليها[2] » .. حرية الاعتقاد « فمنْ شاء فليؤمن ومنْ شاء فليكفر »[3] . « لا إكراه فى الدين قدْ تبين الرشدُ من الغى »[4] .. حرية القول والتعبير ، ولكنه لا يرضى للإنسان أن يمارس هذه الحرية فيما يضره أو يضر مجتمعه .

ولذا أنكر العمل السيء وارتضى العمل الصالح : « منْ عملَ صالحا منْ ذكرٍ أو أُنثى وُهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة »[5] .. وعاب الاعتقاد الردىء : « وإذا قيل لهم اتبعُوا ما أنزل الله قالوا بلْ نتبعُ ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدُون »[6] .. كما عاب الرأى السيء : « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » .

الإسلام آثر للفرد حرية التعلم وتحصيل المعرفة ، ولكنه يدفعه إلى التعلم وتحصيل المعرفة « قلْ هلْ يستوى الذين يعلمُون والذين لا يعلمُون[7] » .

---

(١) الحجرات : ١٣ .
(٢) فصلت : ٤٦ .
(٣) الكهف : ٢٩ .
(٤) البقرة : ٢٥٦ .
(٥) النحل : ٩٧ .
(٦) البقرة ١٧٠ .
(٧) الزمر : ٩ .

أقر للفرد الحرية فى ممارسة شئون القيادة والرعاية : « كلكم راع ».. فالفرد راع على نفسه ، ورب الأسرة راع على أسرته ، والحاكم راع فى حكومته . ولكنه أرادها قيادة يقظة واعية فربطها بالمسئولية الشخصية : « وكل راع مسئول عن رعيته » .. فمن حرية العمل ، والإيمان ، والاعتقاد ، إلى حرية التعلم وتحصيل المعرفة . وإتاحة الفرصة لمباشرة الرعاية الخاصة والعامة فى نظرة الإسلام ينبثق من مبدأ تكافؤ الفرص للجميع . وتعاليمه بعد ذلك هى خطوط عامة لضمان حسن التوجيه فى ممارسة هذا المبدأ .

وبجانب مبدأ تكافؤ الفرص للجميع ووضع الأفراد جميعاً على قدم المساواة فى الحرية والاختيار يأتى مبدأ العدل فى الفصل فى الخصومات : «وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى»[1] .. والعدل فى المعاملة : «وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ[2] » ، ويأتى مبدأ الوفاء بالعهد « وبعهد الله أوفوا » . ومبدأ عدم الاعتداء : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ »[3] . .

وهى مبادىء يستوى فى التمتع بها جميع أفراد المجتمع ، ويلتزم القيام بها جميعهم كذلك . هى تمثل حقوق الإنسان الطبيعية وتحدد إطار نشاطه الخاص والعام فى المجتمع ، وتكفل له سلامة نفسه وماله ، وتقدم له الفرصة لممارسة نشاطه كإنسان حر كريم .

هى مبادىء تحول دون تسخيره فرداً أو جماعة ، ودون استرقاق فرد أو جماعة ، ودون التفرقة بينه وبين غيره على أساس من اللون أو الجنس أو الأقلية ، أو على أساس من الثروة أو الأصل فى النشأة . ولكن هى نفسها مبادىء يفضل الأفراد بعضهم على بعض فى مدى تمسكهم بها والتزامها . وبجانب هذه المبادىء التى

---

(١) الانعام : ١٥٢ . (٢) الشعراء : ١٨٢ ، ١٨٣ .
(٣) المائدة : ٢ .

تتيح تكافؤ الفرص وتسوى بين الأفراد فى الوضع الأدبى فى الحياة تاركاً لهم بعد ذلك تميز بعضهم على بعض على أساس من تعاونهم فى تطبيقها — جاء الإسلام بمبدأ آخر يتيح للإنسان أن يكون ذا فضل على الناس، يتيح له أن يكون متفوقاً فى معنى الإنسانية، يتيح له أن يسمو بنفسه عن وضع المتساوى مع غيره فى أداء مايجب عليه والتمتع بما يحق له أن يكون صاحب عطاء دائماً دون ترقب منه لأن يأخذ لقاء مايعطى .

هذا المبدأ هو مبدأ الإحسان . والإحسان فى التعبير: «قولٌ معرُوف ومغفرةَ خيرٌ من صدقةٍ يتبعُها أذى»(١) .. والإحسان فى الإنفاق والرعاية : «وبالوَالدين إحساناً(٢)» .. والإحسان فى المعاشرة: «فإمساك بمعرُوف أو تسريح بإحْسان»(٣).

مبادىء الإسلام : مساواة فى الوضع فى الحياة ، ثم طلب للتفوق فى خصائص الإنسانية ومستواها الفاضل الرفيع. مبادىء الإسلام هى مبادىء تكفل للإنسان أن يكون إنساناً فى صفاته ، ويبقى إنساناً فى صلاته بغيره لايتحول إلى وحش طاغ أو مفسد باغ .

---

(١) البقرة : ٢٦٣ . (٢) النساء : ٣٦ .
(٣) البقرة : ٢٢٩ .

حقوق الإنسان فى الإسلام

الإسلام رسالة الله للإنسان .. رسالة الله العليم الحكيم ، العلى القدير ، خالق السموات والأرض للإنسان أفضل الكائنات على هذه الأرض ، وأولى بالسيادة عليها من كل كائن سواه . وأوحى الله بهذه الرسالة للإنسان ليعرف قدر نفسه ، ويعرف قدر ما عداه من المخلوقات الأخرى ، ثم ليعرف طريقه فى الحركة والسعى : « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى »(١) .

أعلنت هذه الرسالة الإلهية قيمة الإنسان بين المخلوقات الأخرى فيما تذكره هذه الآية الكريمة : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »(٢) .. وبذلك أوقفت الإنسان على قدر نفسه ، وقدر ما عداه .

ثم وجهت بعد ذلك نداءها للبشر جميعاً ، تعلن لهم مبدأ المساواة فى بشريتهم ، وبأنهم يقفون فى صف واحد أمام فرص الحياة ، وأمام كشف نعم الله فيها والانتفاع بها ، وأمام عبادة الخالق جل شأنه ، وأنهم إن تميز بعضهم على بعض بعد ذلك فليس لنسب أو شرف ، وإن تقدم بعضهم على بعض فى المنزلة فى الحياة فليس لاختلاف ذاتى فى طبائعهم . وإنما يتميزون ، ويتقدم أحدهم على الآخر بمقدار وضوحه فى السعى ، واستقامة طريقه فى الحياة وتجنبه الضلال والانحراف فيما يأتى به من فعل وتصرف .

جاءت هذه الآية الكريمة تخاطب الناس كافة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند

---

(١) طه : ١٢٣ . (٢) الاسراء : ٧٠ .

الله أتقاكم »[1] .. ولا أدل على إعلان المساواة بين الناس من بيان أنهم متساوون في الأصل الذى خرجوا جميعاً عنه إلى هذا الوجود وتحددت به طبائعهم «إنا خلقناكم من ذكر وأنثى» .. ولا أدل على أن التمييز بينهم بعد ذلك منوط فقط بالحركة المستقيمة فى خط السير فى الحياة من قول المولى جل شأنه هنا فى هذه الآية : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . والإنسان إذا كان مكرماً فى طبيعته ككائن يسود ما عداه من الكائنات الأخرى ، فهو أشد تكريماً وأكثر قيمة ممن يشاركونه وجوده الخاص باتقائه الضلال فى سلوكه وتجنبه الانحراف فى مسعاه .

والإنسان بذلك مساوٍ للإنسان فى الأصل والنشأة ، ومساو له فى القيمة والاعتبار ، ومساو له فى الحركة والسعى ، ومساو له فى خصائص الإنسانية من التفكير ، والتعبير ، وتكوين الرأى والإعلان عنه . ويفترق إنسان عن إنسان بعد ذلك فى أن هذا أساء استخدام خصائص الإنسانية ، وأن ذاك أحسن استخدامها ، وهذا ضل الطريق السوى ، وذاك اتقى الضلال وتجنب الانحراف فى طريقه .

* * *

تلك هى نظرة الإسلام إلى الإنسان . لكن الإسلام عندما جاء لم يجد فى المجتمع البشرى قضية المساواة بين إنسان وإنسان حقيقة واقعة . وإنما وجد استغلالا ، للإنسان من الإنسان ، وحيفاً فى المعاملة من الإنسان للإنسان ، وانحرافاً فى النظرة من الإنسان إلى الإنسان .. وجد الإنسان يبـــاع ويشترى ويُتملك كما يتملك المتاع ، ويُشارك فى تملكه كما يشارك فى تملك العقار .. وجد الإنسان يستخدم عوضاً عن المال فى تبادل البيع والشراء للسلع وتبادل المنافع ..

(١) الحجرات : ١٣ .

وجد الرق .. ووجد لهذا الرق أصولا مقررة فى المجتمع الإنسانى يومئذ للتعامل بالرقيق .

جاء فوجد انحرافا طرأ على طبيعة الإنسان، فأوصى فى تعاليمه بتصفية انحراف الماضى فى استغلال الإنسان للإنسان : أوصى بعتق الرقيق ولم يدع منفذاً يرى من خلاله حمل الناس على عتقه إلا سلكه . فجعل عتقه مرة تقرباً إلى الله : « فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة فك رقبة »(١) .. ومرة أخرى كفارة عن ذنب يرتكبه الإنسان : « ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة »(٢) .

وينظر الإسلام إلى الإنسان — تلك النظرة التى تقوم عليها تقرير مبدأ المساواة — وبما أوصى به من وصايا لتصفية رواسب الماضى فى الإنسانية من استغلال الإنسان للإنسان . . وبهذا وذاك لم تكن هناك مشكلة فى رأى الإسلام تسمى مشكلة « حقوق الإنسان » . لأن حقوق الإنسان لا تصل إلى مشكلة يتنازع فيها ، أو يرجى حلها إلا إذا كان هناك اعتداء بالفعل من إنسان على إنسان ، يمتهن إنسانيته ويحمله موضع استغلال .

* * *

وإذا كان فى يوم أن تحتفل الأمم المتحدة بذكرى إعلان حقوق الإنسان — فإن احتفالها بذلك يدل على أن المدنية الإنسانية الحديثة لم تنجح من قبل — حتى وقت قيام هذه الهيئة الدولية — فى رد اعتداء الإنسان على الإنسان ، وفى دفع استغلال الإنسان للإنسان. وربما يدل ذلك على أن : «حقوق الإنسان» مشكلة أوجدتها هذه المدنية نفسها بسبب تفوق بعض الشعوب على بعض لا فى خصائص الإنسان ، ولكن فى تطور الصناعة واستغلال الخامات فى تجميع

---

(١) البلد : ١١ — ١٣ . (٢) النساء : ٩٢ .

الطاقات والإعداد للقوة المادية ، فاستعمر القوى من هذه الشعوب الضعيف فيها ، كما استرق الإنسان الفرد فيما مضى فرداً آخر معه ضعيفاً .

ويرجى لهيئة الأمم المتحدة أن لا يكون احتفالها بذكرى إعلان حقوق الإنسان ، كسباً فقط لإيمان المستضعف من هذه الشعوب والمغلوب على أمره منها . وإنما نرجو مخلصين لها أن تترسم خطى الإسلام في تصفية رواسب الماضي البغيض يوم جاء ، وتعمل جادة على تخليص الشعوب الضعيفة من استذلال بقايا المستعمرين ، كما عمل الإسلام من قبل على تحرير الرقيق وتخليصه من استغلال المالكين له .

الإسلام دين الإنسانية : قدر كرامة الإنسان ، وصانها بتعاليمه من الإذلال . يقول جل شأنه : « يا أيها الذين آمنُوا لا يسخَر قومٌ من قومٍ عسَى أن يكونوا خَيراً منهم ولا نِساء من نساء عسَى أنْ يَكنَّ خيراً منهنَّ »(1) .

---

(1) الحجرات : ١١ .

فهرست

الباب الأول

شعائر العبادة وأدب الأخلاق

شعائر العبادة ـ الأخلاق فى أدب القرآن
تصحيح مفاهيم ـ أخطاء مشهورة وتصحيحها

الفصـــل الأول

شــعائر العبـادة

الفصـــل الثانى

الأخلاق فى آداب القرآن

صفحة

الفصل الأول

مجتمع الاسلام ـ بناؤه وتطوره

الفصل الثانى

تكافل الجماعة الاسلامية

الفصل الثالث

المراة فى الاسلام

صفحة

الفصل الرابع

مجتمع الاسلام بين الماضى والحاضر

الفصل الخامس

من مقومات المجتمع الاسلامى

الفصل السادس

العـادات الشعبية

الفصل السابع

أعيـادنا

الفصل الثانى

عالميـة الاسـلام

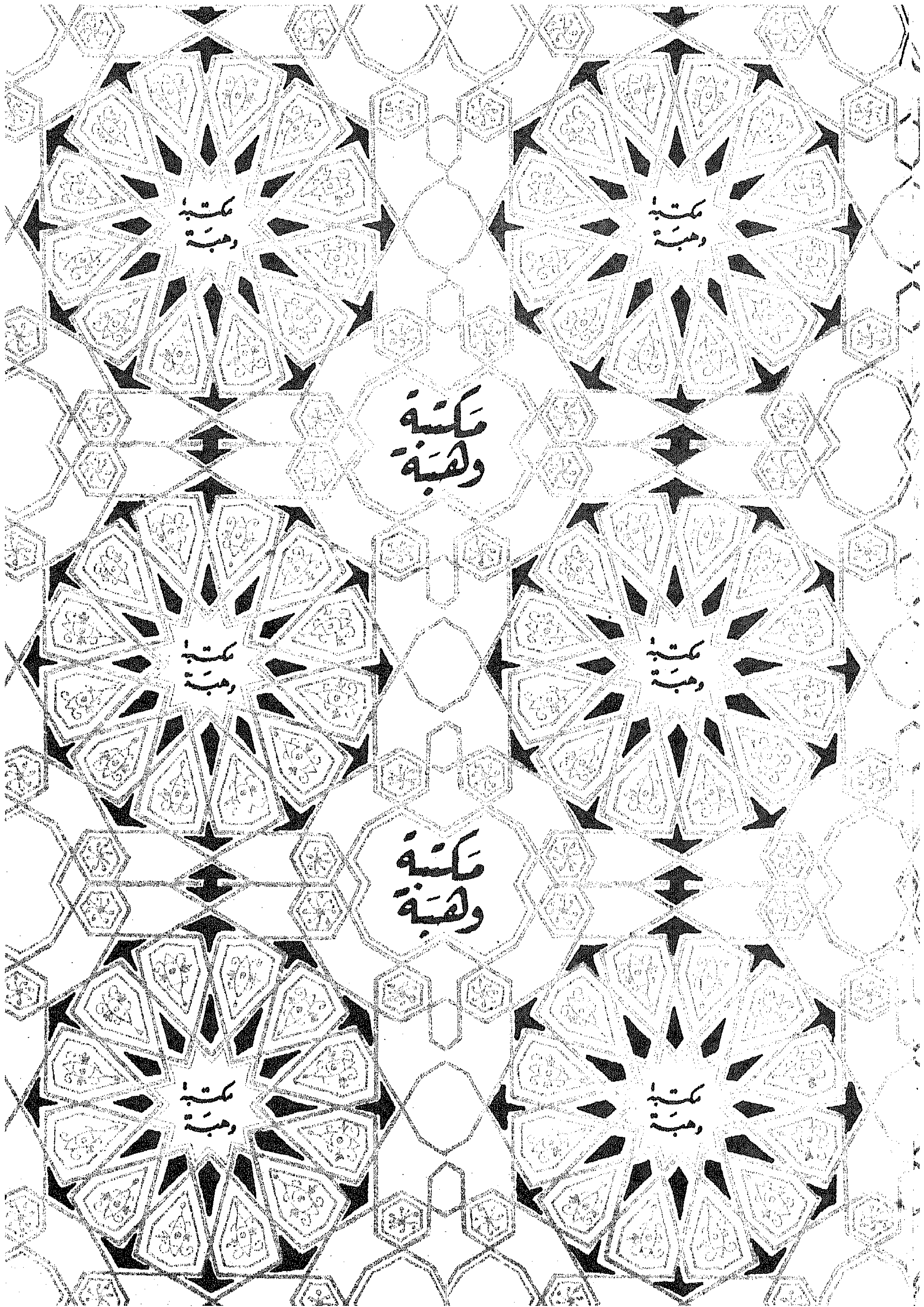
صدر للمؤلف

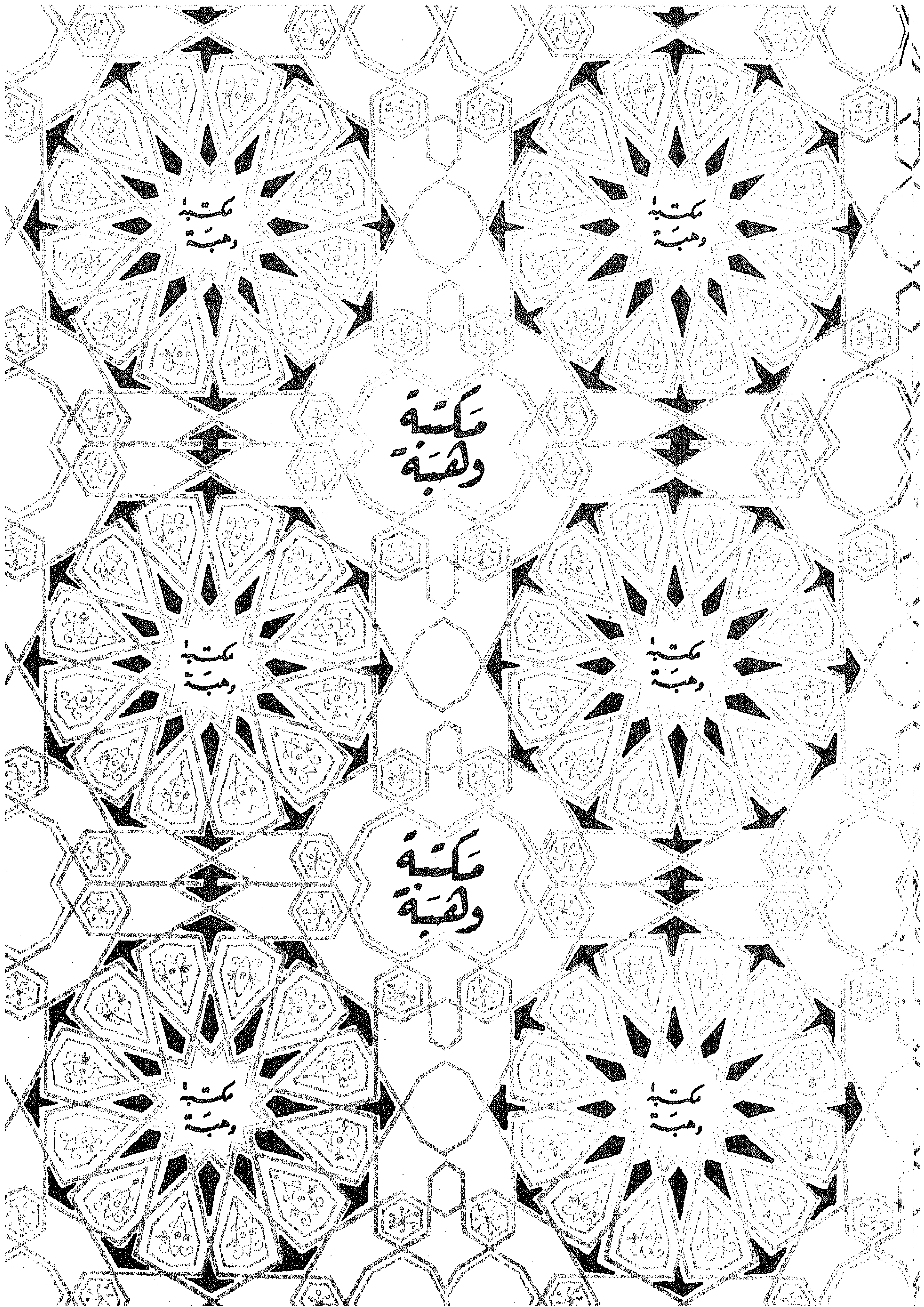
١ ـ الجانب الالهى من التفكير الاسلامى
٢ ـ الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى
٣ ـ الدين ، والدولة ـ من توجيه القرآن الكريم
٤ ـ الدين والحضارة الانسانية
٥ ـ الفكر الاسلامى المعاصر ـ ومشكلات الحكم والتوجيه
٦ ـ الفكر الاسلامى المعاصر ـ ومشكلات الأسرة والتكافل
٧ ـ الفكر الاسلامى فى تطوره
٨ ـ الاسلام فى الواقع الايديولوجى المعاصر
٩ ـ طبقية المجتمع الأدبى وانعكاس آثارها على المجتمع الاسلامى المعاصر
١٠ ـ تهافت الفكر المادى التاريخى
١١ ـ خمس رسائل الى الشباب المسلم المعاصر
١٢ ـ الاسلام فى حل مشاكل المجتمعات الاسلامية المعاصرة
١٣ ـ رأى الدين بين السائل ـ والمجيب
١٤ ـ من مفاهيم القرآن ـ فى العقيدة والسلوك .
١٥ ـ تفسير سورة الأعراف
١٦ ـ تفسير سورة الجن
١٧ ـ تفسير سورة الصافات

تحت الطبع :

١ ـ غيوم تحجب الاسلام
٢ ـ منهج القرآن فى تطوير المجتمع ـ من التفسير الموضوعى
٣ ـ نحو .. القرآن
٤ ـ تفسير سورة الأنعام
٥ ـ تفسير سورة النحل
٦ ـ تفسير سورة الشعراء
٧ ـ تفسير سورة يونس
٨ ـ تفسير سورة المؤمنون
٩ ـ عالمية الثقافة فى القرن السادس الهجرى .

رقم الايداع ١٩٧٣/٤٢٧٦


مكتبة
وهبة
مكتبة
وهبة


مكتبة
وهبة
مكتبة
وهبة

